عبقرية الشّريف الرّضي

زكي مبارك

دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع

عبقرية الشَّريف الرَّضي

تأليف
زكي مبارك

المحتويات

شهادة ٧
مقدمة الطبعة الأولى ٩
مقدمة الطبعة الثانية ١٥
عبقرية الجندي المجهول ١٧
الشاعر المثقف ٥١
مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع ٧٥
أعوام البؤس في حياة الشريف ٩٧
صلات الشريف الرضي بخلفاء بني العباس ١٢٩
صلات الشريف الرضي بالوزراء والأمراء والملوك ١٥١
العلا والمعالي في قصائد الشريف ١٧١
الشريف كاتبًا ومؤلفًا ١٩٥
نهج البلاغة والشريف ٢٠٧
الأصدقاء والأعداء في حياة الشريف الرضي ٢١٣
أسرار العلائق بين الرضي والصابي ٢٤٣
غرائب الوفاء عند الشريف الرضي ٢٦١
غراميات الشريف الرضي ٢٧٧
وصف السود الملاح ٢٩٥
عفاف الشريف ٢٩٩
حجازيات الشريف ٣٠٩
بكاء الشباب ٣٣٩

الشاعر الوصاف	٣٦١
مراثي الشريف	٣٧٣
قصيدة الوداع	٣٨٥
المراجع	٣٨٩

شهادة

أنا النُّضارُ الذي يُضَنُّ به   لو قلَّبَتْني يَمينُ مُنتقِدِ

الشريف الرضي

اشهدْ أنك وجدت المنتقِد، أيها النضار.

زكي مبارك

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم زكي مبارك

٣١ آذار سنة ١٩٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.

أما بعد فهذا كتاب «عبقرية الشريف الرضي» وما أقول: إني شغلت به نفسي سنة كما قلت يوم أخرجت شرح «الرسالة العذراء»، ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب «النثر الفني»، ولا تسع سنين كما سأقول بإذن الله يوم أخرج كتاب «التصوف الإسلامي».

فما شغلت نفسي بكتابي هذا غير خمسة أشهر، ولكنها من أشهر بغداد، لا أشهر القاهرة ولا باريس، وما كان لي في بغداد لهوٌ ولا فتون، فكانت الليلة في بغداد كليلة القدْر خيرًا من ألف شهر. والتوفيق من أشرف الأرزاق.

وكتابي هذا هو مجموعة المحاضرات التي ألقيتها في قاعة كلية الحقوق، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم في حياتي، فقد كان أصدقائي يخشون أن يملَّ الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع، ولم ينقذني منه غير التصريح بأني أنفقت كل ما كنت أملك، ولم يبق إلا أن أستريح!

ومحاضراتي بكلية الحقوق في بغداد هي الموسم الثاني بعد محاضراتي عن «المدائح النبوية» وهي المحاضرات التي ألقيتها باسم الجامعة المصرية في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة، فهل يتسع العمر لموسم ثالث في القاهرة أو في بغداد؟

لا تسألوني كيف ظلمتُ نفسي فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت معها مقالات كثيرة جدًّا نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق، ورججت الحياة الأدبية في بغداد رجًّا عنيفًا، فذلك كان أقل ما يجب أن أصنع في مقابل الثقة التي شرفتني بها حكومة العراق، وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسي مكانًا بين المصريين الذين تشرفوا بخدمة العلم في العراق أمثال الأساتذة محمد عبد العزيز سعيد وأحمد حسن الزيات وعبد الرزاق السنهوري وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمي، وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع في خدمة تلاميذي وتلميذاتي في بغداد، وقد رأيت في وجوههم وجوه أبنائي وبناتي، فكلفت نفسي في خدمتهم فوق ما أطيق.

لا تسألوني كيف ظلمت نفسي فأنفقت من العافية ما أنفقت، فقد ساءني أن أعرف أن «دار المعلمين العالية» لها في بغداد تاريخ: فكانت تفتح ثم تغلق، وتفتح ثم تغلق، فاستعنت الله وانتفعت بعطف معالي وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبي وأريحية الأستاذ طه الراوي ومودة الدكتور فاضل الجمالي، وعولت على همة زميلي وصديقي الدكتور فؤاد عقراوي، وأقمنا لدار المعلمين العالية أساسًا من متين التقاليد الجامعية، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة، وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء.

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالي أن يخرج في كل سنة كتابًا عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل، فألفت كتابي هذا عن الشريف الرضي، فإن ترفقت شواغلي بمصر وأذنت لي بالرجوع إلى بغداد فسأخرج في كل سنة كتابًا جديدًا، وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل في بغداد فسيذكر من يخلفني أني طوقت عنقه بطوق من حديد، وأن لا مفر له من أن يشقى في سبيل «دار المعلمين العالية» كما شقيت.

وإنما نصصت على هذه المعاني في مقدمة هذا الكتاب لأجتدي العطف على «دار المعلمين العالية» وممن أجتديه؟ من حكومة العراق؛ فما يجوز أن يغلق هذا المعهد، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافسًا قويًّا لكلية الآداب بالجامعة المصرية.

قد يقول قوم من خلق الله: ولماذا ابتدأت بالشريف الرضي؟

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد، فهو يذكر جيدًا أنني قد قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومي: كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد في دراسة أشعار الشريف الرضي.

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين، فهو يذكر جيدًا أني نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضي كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث؛ لأن له خصائص ذاتية لا نجدها عند أولئك الشعراء.

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادي الموظفين بالقاهرة، فقد طلب في سنة ١٩٣٢ أن ألقي محاضرة عن أعظم شاعر في اللغة العربية، فكانت محاضرتي عن الشريف الرضي.

ابتدأت بالشريف الرضي على غير موعد، فقد رأيتني فجأة بين دجلة والفرات، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر الذي تعصبت له منذ أعوام طوال.

ويشهد الله — وهو خير الحاكمين — أني لم أفكر في إنصاف الشريف الرضي يوم قدم لي الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الأستاذ أنيس المقدسي عن أمراء الشعر في العصر العباسي، فأزعجني أن يهتم بأبي العتاهية وينسى الرضي، مع أن ديوان أبي العتاهية لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف.

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لي غاية في التعصب للشريف الرضي فليتق الله في نفسه، وليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء، ولكنه —بلا أسف — سيموت فقيرًا؛ لأنه أنفق نشاطه في خدمة الأدب العربي.

والأدب العربي خليق بأن يكون له شهداء، وأنا في طليعة أولئك الشهداء.

سيرى قراء هذا الكتاب أني قد جعلت الشريف أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد: أيكون الشريف أشعر من المتنبي؟

وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي في أي كتاب، ولن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتابًا مثل هذا الكتاب!

والقول الفصل في هذه القضية أن المتنبي في بابه أشعر من الشريف، والشريف في بابه أشعر من المتنبي، وكل عبقري هو في ذاته أعظم الناس؛ لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه، والشريف بهذا المعنى أفحل الشعراء؛ لأنه جرى في ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الأجيال.

وما الذي يضر أنصار المتنبي حين أقدم عليه الشريف؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبي؟

إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأنني كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي، ولي على ذلك شهود منهم الشيخ أحمد السكندري والأستاذ عباس محمود والدكتور منصور فهمي.

وما الذي يضر أهل العراق من أن اهتم بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخي ويجهلوا قبر الشريف الرضي؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص!

إن كان خصومي في بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضي عنه ناس وغضب عليه ناس، فليذكروا أنني كنت كذلك طول حياتي فوضعت بالنقد قومًا ورفعت آخرين، وفقًا للحق لا طوعًا للأهواء.

وأنا والله راض بأن يغضب عليَّ أهل بغداد، فقد غضبوا على أبي طالب المكي فمنحوه الخلود.

أنا أحب الخصومات؛ لأنها تذكي عزيمتي، ومن أجل هذا أنظر نظر الجزع على مصير خصوماتي في بغداد، فلن يكون لي في بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب، وإنه لقادر على أن يفجر العطف في القلوب المنحوتة من الجلاميد.

سيذكر أدباء بغداد أنني أحببت شاعرًا هو من ثروة العروبة وثروة العراق، سيذكر أدباء بغداد أنني وفيت لمدينتهم السحرية، حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد.

وكتابي هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبي، القواعد التي أذعتها في كتاب «الموازنة بين الشعراء» وهو من أجل هذا لون جديد في اللغة العربية، وسيكون له تأثير شديد في توجيه الدراسات الأدبية، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين.

وبيان ذلك أني لم أقف من الشاعر الذي أدرسه موقف الأستاذ من التلمذ، كما يفعل المتحذلقون، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق، والتشابه بيني وبين الشريف الرضي عظيم جدًّا، ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق، فقد عانى في حياته ما عانيت في حياتي: كافح في سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه، وكافحت في سبيل المجد ما كافحت، وجهلني قومي وزماني.

وهذا الترفق في معاملة الشريف ليس نزوة شخصية، وإنما هو وثبة علمية، فما كان يمكن أن أكون وفيًّا للبحث إلا إن سايرت الشاعر الذي أعرض عقله وروحه على تلاميذي، وهذه هي المزية التي انفرد بين أساتذة الأدب العربي.

سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق: فإن آمن آمنت، وإن كفر كفرت، وإن جد الشريف جددت، وإن لعب لعبت، إن عَقَل الشريف عقلتُ وإن جُن جُنِنت، إن قال الشريف: إن غاية الرجل العظيم هي الحرب قلت: صدقت، وإن قال: إن الحياة هي الحب، قلت: والحب حياة!

ولكني مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق، نبهته تنبيهًا دقيقًا جدًّا لا يفطن إليه إلا الأذكياء — وفي بني آدم أذكياء نبهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة، وما أظنه يحقد علي؛ لأن الصديق الذي في مثل حالي تغفر له جميع الذنوب.

والشواهد في هذا الكتاب كثيرة جدًّا، وذلك هو أسلوبي في البحث فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذي أدرسه أكثر مما أشغله بنفسي، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون.

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ما صادفني فيها من أغلاط، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذي لا يفهم قيمة الوقت الذي ينفقه الشارح في تحديد المعاني، وصححت الكتاب كله بنفسي تصحيحًا دقيقًا، فإن رأى فيه القارئ أغلاطًا فذلك ذنب العجلة لا ذنبي، وأدخلت فنونًا من الذوق على الطباعة في بغداد سيذكرها من عاملت من أصحاب المطابع.

بغداد

هذا كتابي، أقدمه بيميني في تهيب واستحياء، فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل!

اصنعي في ودادي من التنكر والتقلب ما شاء لك الدلال، أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبي وعقلي ما عجزت عنه القاهرة وباريس.

أنت مظلومة يا بغداد، وأنا مظلوم يا بغداد، والظلم يجمع بين القلوب. نصرك الله ونصرني، ورعاك ورعاني، إنه سميع مجيب! وعليك مني السلام!

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم محمد زكي عبد السلام مبارك

مصر الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله الذي أمدني بالصبر على مكاره الحياة الأدبية، باسم الله الذي حبب إلي الأنس بعناء البحث والدرس في غفوات الليل، باسم الله أقدم الطبعة الثانية من كتاب «عبقرية الشريف الرضي» مصحوبة بزيادات وتحقيقات، رجوت بها أن يكون كتابي هو الفيصل في قضاء حق الشريف.

وهذا الكتاب هو صورة من صور النشاط الذي بذلته حين تشرفت بخدمة العلم والأدب بدار المعلمين الغالية في بغداد، وهو عزيز علي جدًّا؛ لأنه جعل لي مقام صدق في الأقطار العربية والإسلامية؛ ولأنه من كرائم الذكريات التي خلفها في ديار الرافدين؛ ولأن القلم جرى فيه بأسلوب ما أحسبني سبقت إليه في شرح أغراض الشعراء، حتى كدت أتوهم أني طفت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين!

وما تذكرت عهدي بدار المعلمين العالية في بغداد إلا ذكرت بالخير تلامذتي وزملائي هناك: فقد كانت أيامي في صحبتهم من أخصب العهود في حياتي. حفظ الله عليهم نعمة العافية، وجعلهم من ذخائر الأدب الرفيع!

هذا، وقد كان قيل: إني احتفلت بالأسلوب في هذا الكتاب، وأقول: إني لم أتعمد ذلك، فقد كانت المطابع تأخذ المواد ورقة ورقة بحيث لم أستطع مراجعة ما كنت أكتب من أفانين البحوث، وكنت حينذاك أغذي مطبعتين في وقت واحد، مع الاشتغال بأصول كتاب «وحي بغداد» وكتاب «ليلى المريضة في العراق» وكتاب ثالث سيعلم القراء أنباءه بعد حين، وتلك جهود لا يتسع معها الوقت للزخرف والتنميق.

وإنما فتن بأسلوبي في هذا الكتاب من فتن؛ لأنه رآني أقبس من النار التي قبس منها الشريف، ومن هنا جاز لأحد الفضلاء أن يقول في إحدى مجلات بغداد: «إن نثر زكي مبارك له روعة تفوق روعة شعر الشريف في بعض الأحيان»، فإن صح ذلك القول فهو شاهد على قوة الصلة بيني وبين الشريف، وهو أيضًا من علائم التوفيق، فما كان يجوز أن نلقى الشريف إلا بنثر يماثل شعره في القوة والعذوبة والصفاء.

أيها الشريف!

لقد قضيت حقك وأنصفتك، وأيدت مركزك في عالم الخلود، بلا من عليك، وهذا كتابي أقدمه هدية إليك بمناسبة مرور ألف سنة على ميلادك، وأنا أحمد الله الذي وصل جناحي بوطنك لأحلق في الجو الذي عشت فيه فأرى أسرار قلبك وسرائر روحك، وألقاك وجهًا لوجه بين مدارج الرشد والغي في ضمائر «الزوراء».

وأرجو — أيها الشريف — أن تنسى بعض ما قدمت إليك من إساءة في هذا الكتاب، فمن واجب الصديق أن ينسى هفوات الصديق، إذا صدرت عن إخلاص للأدب وغيرة على التاريخ.

عبقرية الجندي المجهول

أيها السادة

من طرائف ما اصطلح الناس عليه في العصر الحديث إقامة ضريح يحج إليه المشغوفون بتقديس البطولة والأبطال، وهو الذي يسمونه قبر الجندي المجهول، وذلك القبر يضم عظامًا لا يعرف صاحبها على التحقيق، ولكنها في أذهان الناس رمز التضحية والإخلاص.

قد يكون ذلك الجندي أشجع الجنود، وقد يكون أجبن الجنود، ولكنه في جميع حالاته أسعد الأموات؛ لأن النار المقدسة تظل مشبوبة فوق قبره صباح مساء؛ ولأن قبره يظل كعبة تقدم إليها أطيب القرابين، من الأزهار والرياحين، فهو إن كان في حقيقة أمره من أشجع الجنود حمد الطالع السعيد الذي قضى بأن ينال حقه فيكون رمز الوفاء، وإن كان من الضعفاء الجبناء شكر الله على ستر حاله فأضافه إلى الشهداء.

وإقامة الضريح للجندي المجهول هي أعظم تعزية لأرواح الأبطال الذين جهلت أقدارهم بعد الموت، فكلهم يرجو أن يكون الصورة التي يتمثلها من يزور قبر الجندي المجهول، وكلهم يرجو أن يكون له حظ من الذكرى ومن الدموع يوم يحج الناس إلى ذلك القبر في المواسم والأعياد.

ولكن حدثوني، أيها السادة، كيف يكون شعور الروح، روح الجندي المعروف لا المجهول، حين يمر الناس على قبره فلا تلوح لهم من وجهه صورة، ولا يعترضهم من روحه مثال؟

كيف يكون شعور الروح، روح القائد المغوار الذي يمر الناس على قبره، فلا يذكرون كيف صارع النوائب وصاول الخطوب؟

حدثوني كيف يكون شعور ذلك الروح، وكان في دنياه أرق من الزهر، وأقسى من الزمان؟ ولو كان ذلك الروح يعرف أن عظامه دفنت في أرض موات لهان عليه خطب النسيان!

ولكنه يعرف أن عظامه دفنت في أرض تخرج أطيب الثمرات، وتختال بمن يمشي فوقها من أقطاب الرجال، كيف يكون شعور ذلك الروح في تلك الأرض: الروح الذي اسمه «الشريف الرضي» في الوطن الذي اسمه «العراق»؟

ولكن مهلًا فلن ينسى الشريف الرضي بعد اليوم، فستنتشر ذكراه في جميع الأقطار العربية، وسيذكر في أكثر اللغات الأجنبية، وسيحيا شعره على الألسنة والقلوب فيما سيأتي من الأجيال.

قد تسألون؟ وكيف تحكم على الشريف الرضي بالخمول وهو جد معروف؟

وأجيب بأن الشريف الرضي لقي في دنيا الأدب أعنف ضروب العقوق: فهو أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، وأعظم شاعر تنسم هواء العراق، ومع ذلك سكت عنه النقد الأدبي فلم يؤلف عنه كتاب ولا فصل جيد من كتاب، ولو كان ديوان الشريف الرضي في لغة الفرنسيس أو الإنجليز أو الألمان لصنفت في شعره مئات المصنفات وأقيمت له عشرات التماثيل.

أليس من العجيب أن يطبع ديوان الشريف الرضي منذ ثلاثين سنة في وطن غير وطنه، ثم لا يعاد طبعه بعد ذلك الحين؟!

أليس من العجيب أن لا يعرف قبر الشريف الرضي على التحقيق فيقام له ضريح في الكاظمية، مع أن مترجميه ينصون على أنه دفن في كربلاء؟

أليس من العجيب أن يسألنا الأستاذ علي الجارم بك المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية عن المصدر الذي يرجع إليه في أبيات الشريف:

ولقد وقفت على ديارهم ... وطلولها بيد البلى نهب
فبكيت حتى ضج من لغبٍ ... نضوي ولج بعذليَ الركب
وتلفتت عيني فمذ خُفيت ... عني الطلول تلفت القلب

وأن يجزم بأنه لم يرها في ديوان الشريف مع أنها مثبتة في الديوان، وكان ذلك دليلًا على أن الشريف منسيٌّ لا يعرف ديوانه رجل في منزلة الجارم وهو شاعر مجيد؟!

على أن هذه الأبيات لم يعرفها الأدباء؛ إلا لأنها اتصلت بحادثة وجدانية تناقلها المؤلفون، ولولا ذلك لظلت مطمورة لا يرويها سامر ولا يتمثل بها خطيب.

قد يكون فيكم من ينكر أن يكون الشريف الرضي من الخاملين.

وأنا أيضًا أنكر ذلك الخمول.

ولكن حدثوني في أي ميدان كانت نباهة الشريف عند المؤلفين والناقدين.

لقد تكررت الإشارة إلى اسمه عند القدماء من المؤلفين بالعربية، وعند المحدثين من المستشرقين الذين نوهوا باسمه في اللغات الأوروبية.

ولكن كيف وقع ذلك؟ لقد وقع في معرضين: الأول في التاريخ السياسي حين تحدث المؤرخون عن النضال بين الفاطميين في مصر والعباسيين في العراق، فقد حدثوا أن الشريف الرضي قال في التعريض بحكومة الخليفة القادر بالله:

ما مقامي على الهوان وعندي — مقولٌ صارمٌ وأنف حميُّ
وإباءٌ محلقٌ بي عن الضيـ — ـم كما راغ طائر وحشي
أيُّ عذر له إلى المجد إن ذل — غلام في غمده المشرفيُّ
ألبس الذل في ديار الأعادي — وبمصر الخليفة العلويُّ
من أبوه أبي ومولاه مولا — ي إذا ضامني البعيد القصي
لفَّ عرقي بعرقه سيدا الناس — جميعًا محمد وعليُّ
إن ذلي بذلك الجو عز — وأوامي بذلك النقع ريُّ
قد يذل العزيز ما لم يشمر — لانطلاق وقد يضام الأبيُّ
إن شرًّا علي إسراع عزمي — في طلاب العلا وحظي بطيُّ
أرتضي بالأذى ولم يقف العز — م قصورًا ولم تعز المطيُّ
تاركًا أسرتي رجوعًا إلى حيـ — ـث عذيري قد ورعيٌ وبيُّ
كالذي يخبط الظلام وقد أقـ — ـمر من خلفه النهار المضيُّ

ولهذه الأبيات قصة أشار إليها ابن أبي الحديد، ولولا صلتها بالتاريخ السياسي لسكت عنها الكاتبون، وللسبب عينه تحدث المؤرخون عن أبياته في خطاب القادر بالله:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا   في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت   أبدًا كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني   أنا عاطل منها وأنت مطوق

أما المعرض الثاني الذي أثير فيه اسم الشريف الرضي، فهو الكلام عن صحة النسب، نسب كتاب نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف ما أوثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — من الخطب والحكم والعهود، فقد ارتاب بعض الناقدين في نسب ذلك الكتاب ورجحوا أنه من إنشاء الشريف. والمقام لا يسمح بتحقيق هذه القضية، وقد أشرت إليها في كتاب النثر الفني[١] فلا أعود إليها الآن، وإنما يهمني أن أسجل أن الثورة على نهج البلاغة كانت السبب الثاني في نباهة الشريف، وإنما كانت كذلك؛ لأن الكتاب منسوب إلى علي بن أبي طالب، وهو في جوهره يؤرخ أخطر المعارك القلمية والخطابية في العصر الإسلامي، وتصحيحه أو تزييفه يعد من المواقف الحاسمة في ذلك التاريخ.

فتصوروا كيف يكون الحال لو لم تشأ المقادير أن يقرن اسم الشريف الرضي باسم علي بن أبي طالب، تصوروا كيف كانت تحمل ذكراه، وهو كاتب مبدع لا يعرف التاريخ الأدبي له أثرًا في النثر الفني إلا حين يدعي أنه المنشئ لتلك الخطب والحكم والعهود.

كان من حظ الشريف الكاتب أن يقرن اسمه باسم علي بن أبي طالب، وإلا فحدثوني أين رسائله الطوال التي كانت تقع في ثلاثة مجلدات؟

تقولون: إن التاريخ تحامل على الشريف بسبب التشيع، إن صح ذلك فحدثوني كيف سكت عنه أدباء مصر والشام والحجاز والمغرب والأندلس، وهم لا يعرفون العصبية ضد التشيع؟ بل حدثوني كيف سكت الشيعة أنفسهم عن رسائل ذلك الكاتب البليغ.

تقولون: إن الشريف الرضي قبة تزار بالكاظمية؟

أهلًا وسهلًا، ولكن هل تعرفون لأي معنى يزور الناس قبته بالكاظمية؟

أعيذكم أن تقولوا: إنهم يزورونها باسم الأدب والبيان.

إنهم يزورونها لمعنى ديني صرف، كما يزور المصريون قبة عمر بن الفارض، ولولا ما شاع وذاع من أن ابن الفارض من الأولياء لما عرف المصريون أن له ضريحًا يزار، وتلتمس به البركات وهل عرف المصريون قبر ابن هشام الأنصاري الذي رفع القاهرة مكانًا عليًّا، وجعل هامتها في النحو مساوية لهامة بغداد؟

هل عرف المصريون قبر ابن خلدون الذي يعد أشرف وأعلم من درسوا بالأزهر الشريف؟

هل عرف المصريون قبر القلقشندي الذي دان اللغة العربية بأفضل كتاب في تاريخ الإنشاء وهو «صبح الأعشي»؟

هل عرف المصريون قبر النويري أول مؤلف في الموسوعات العربية؟

هل عرف المصريون قبر ابن منظور صاحب المعجم الباقي على الزمان، صاحب لسان العرب الذي ألفه وهو جالس على الحصير الممزق بحي الحسينية؟

وكيف تقولون: إن الشريف الرضي حمل بفضل التشيع وهو مذهب له قواعد وأصول، مع أن المجون كان من أسباب شهرة أبي نواس، ومع أن الزندقة كانت من أسباب شهرة أبي العلاء؟

أفي الحق أن الرجل لا يشتهر إلا أن أصبح على وفاق مع جميع الناس؟

أفي الحق أن الفضل وحده يسمو بالرحيل إلى أرفع الدرجات؟

إن قلتم ذلك فقد تحدثكم شواهد العصر الحاضر بضد ما تقولون، ألسنا في هذا العصر فرائس للتيارات الاجتماعية والسياسية؟

ما هي الأسباب التي قضت بشهرة محمد عبده وقاسم أمين؟

هل يعرف أحد اليوم أن محمد عبده كان في حقيقة أمره من العلماء المحققين، الذين يدركون أسرار العلوم العقلية والنقلية؟ هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل نضاله الدموي في إصلاح المناهج الأزهرية والثورة العرابية، ولو رفع هذان الحادثان من حياته لما عرف له تاريخ.

هل يفهم أحد اليوم أن قاسم أمين كان من أقطاب التشريع؟ هيهات هيات، إنه لا يعرف إلا بفضل ثباته في الدعوة إلى السفور وحرب الحجاب.

آمنتم الآن بأن الشريف الرضي لم ينل الشهرة إلا بفضل المشكلات السياسية والدينية، ثم تسألون: ولكن كيف كُتب علي الشريف الرضي أن يُرزأ في عالم الشعر بذلك الخمول؟

ونجيب بأن الأمر كان كذلك؛ لأن أدباء اللغة العربية ندر عندهم أن يكون الفن وحده هو مرجع النباهة والشهرة وبعد الصيت: فامرؤ القيس لم تكن شاعريته سبب شهرته، ولولا انتقاله من أرض إلى أرض وموته مسمومًا في سبيل الثأر لأبيه لما ذكره الذاكرون، وطرفة بن العبد لم يسر ذكره إلا لموته قتيلًا وهو في سن العشرين، وحسان

لم يشتهر؛ إلا لأنه كان شاعر الرسول، والشاعر المفلق أبو نواس لم تكن شاعريته سبب شهرته وإنما اشتهر بفضل اشتراكه وهو راغم في فتنة الأمين والمأمون، وأبو تمام لم يشتهر بفضل شاعريته؛ وإنما اشتهر لأنه سجل في شعره حادثة رجت الأرض وهي فتح عمورية، والبحتري لم يشتهر بفضل شعره، وإنما اشتهر؛ لأنه حضر مأساة دونها التاريخ: وهي شهوده قتل المتوكل والفتح بن خاقان، والمتنبي لم يكن شعره سبب شهرته، وإنما اشتهر بفضل حادثتين ظاهرتين: الأولى: رحلته إلى مصر في سبيل المجد، والثانية: موته قتيلًا بالبيداء.

ولم يتفق للشريف الرضي شيء من ذلك، فقد كان يطلب الخلافة سرًّا لا علانية، ولو تم له ما أراد من الملك لعرف الناس شاعريته وسطروا في الثناء عليه مئات التآليف، ولكنه مات ميتة عادية، فلم يذكر الناس يوم موته إلا أنه رجل شريف ينبغي أن يدفن بجانب جده الحسين في كربلاء.

ولست بهذا أتجنّى على أسلافنا من أدباء اللغة العربية، وإنما أذكر حقائق مؤلمة كانت السبب الأصيل في انحراف الموازين.

فإن لم يكن ذلك صحيحًا فحدثوني عن المشهور من قصائد الشريف؟

أليست قصيدته في رثاء أبي إسحاق الصابي أشهر شعره؟ بلى، هي كذلك، فهل تعرفون أن تلك القصيدة لم تشتهر إلا بفضل ما اتصل بها من الشذوذ، إذ كانت في رجل صابئ يرثيه سيد شريف؟

فإن تخطيتم هذه القصيدة لم تجدوا من يعرف عيون القصائد في ديوان ذلكم الشاعر العظيم.

أين من يعرف الدالية:

جري النسيم على ماء العناقيد   وعللي بالأماني كل معمود
يا نفحة هزت الأحشاء شانقة   فذكرت نفحات الخرد الغيد

أين من يعرف العينية:

منابت العشب لا حام ولا راع   مضى الردى بطويل الرمح والباع

أين من يعرف اللامية:

أمل من مثانيها فهذا مقيلها وهذي مغاني دورهم وطلولها

ولو كان أسلافنا من أدباء اللغة العربية تستهويهم المعاني مجردة عن الحوادث الدامية لوجدوا في أشعار الشريف أوسع مجال: فسترون عنده كرائم الطيبات، سترون أن ذلك الرجل عانى في حياته أعنف أزمات الوجدان، سترون كيف كان الرجل يشغل أعظم وظيفة دينية وهي نقابة الأشراف، ثم يكون في الوقت نفسه أعظم شاعر يتغنى بالحب والجمال، سترون أن الشريف الرضي تفرد بوصف مواسم العيون والقلوب في الحجازيات، سترون أنه قال في الصداقة والأصدقاء ما لم يسبقه إليه سابق، وما يعسر أن يلحقه فيه لاحق، سترون أن كلمة (العلا) وكلمة (المعالي) لم يهتف بهما خاطر أشرف من ذلك الخاطر، ولم يلهج بهما لسان أفصح من ذلك اللسان، سترون أن العفاف لم يجد شاعرًا يجعله أظرف من الفسق وأعذب من المجون غير ذلك الشاعر العفيف الشريف، سترون أن الأحباب الذاهبين لم يجدوا من يبكيهم بأندى من ذلك الدمع وأصدق من ذلك الفؤاد، سترون أن لئام الناس لم توسم جباههم وجنوبهم بميسهم أقوى وأعنف من قصائد ذلك الفاتك الصوال.

سترون أيها السادة أن الشريف الرضي كان شاعر القلب والعقل والذكاء، سترون شاعر الإنسانية يفصح عما تعاني من شهوات وأهواء وآلام وأرزاء، وأمان وآمال.

سترون أنه يحس ما تحسون اليوم، ويشعر بما تشعرون، مع أنه سبقكم إلى تنسم هواء العراق بنحو ألف سنة، وسيظل يشارك الناس في أحلامهم وأحقادهم آلاف السنين.

أفما كان في تلك الجوانب النفسية والذوقية والعقلية ما يلفت أنظار النقاد إلى ذلك الرجل لو كانوا يفهمون أقدار المعاني؟

ألم تكن هموم المجد في أشعار الشريف الرضي أولى بعناية النقاد من البحث عن شرقات المتنبي؟

ألم يكن الحرص على تدوين أوابده في نقد المجتمع أولى من الحرص على تدوين قصائد ابن الرومي في شتم الناس؟

ألم يكن فيهم من سمع الشريف وهو يصرخ فيقول:

أنا النضار الذي يُضنُّ به   لو قلبتني يمين منتقِدِ

ألم يكن فيهم من يدفعه التطلع إلى شكواه من طول الليل في بغداد؟ إذ يقول:

ليلي ببغداد لا أقرُّ به   كأنني فيه ناظر الرمد
ينفر نومي كأن مقلته   تشرج أجفانها على ضمد

أما كان فيهم من يسأل كيف ضجر الرجل من أهل بغداد؟ فقال يخاطب الثلج الذي رآه أهلها أول مرة في شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٨:

أقول له وقد أمسى مكبًّا   على الأُطار يضعف أو يزيد
وراءك فالخواطر باردات   على الإحسان والأيدي جمود
وإنك لو تروم مزيد برد   على برد لأعوزك المزيد

إن النقاد سكتوا عن ضجر الشريف من العراق، ولكنهم لم يسكتوا عن ضجر المتنبي من مصر؛ لأن ضجر الشريف من العراق لم تشهره الحوادث، أما ضجر المتنبي من مصر فقد صحبته خطوب تحدث بها الركبان، فكان الرواة والنقاد لا يلتفون إلى الشعر إلا أن دقت من حوله الطبول.

ألا ترونهم يذكرون ما قال بشار في التعريض بخلفاء بني أمية، ولا يذكرون ما قال الرضي في التعريض بخلفاء بني العباس؟

إنهم يذكرون أبيات بشار؛ لأنها جرت عليه القتل، ولا يذكرون أبيات الرضي؛ لأنه خرج منها بعافية، وإلا فأي شعر أخطر من شعره وهو يقول في التعريض بخلفاء بني العباس:

أما تحرك للأقدار نابضة   أما يغير سلطان ولا ملك
قد هادن الدهر حتى لا قراع له   وأطرق الخطب حتى ما به حرك
كل يفوت الرزايا أن يقعن به   أما لأيدي المنايا فيهم درك
قد قصر الدهر عجزًا عن لحاقهم   فأين أين ذميل الدهر والرتك[٢]
أخلت السبعة العليا طرائقها؟   أم أخطأت نهجها أم سمر الفلك؟

لقد غفل النقاد عن المعاني الإنسانية والشخصية في أشعار الشريف الرضي، ولم يتحدثوا عن عيون القصائد في ديوان ذلك الشاعر القلل النظائر والأشباه، فهل ترونهم قيدوا ما في أشعاره من الحكم والأمثال؟ هل سمعتم أن أديبًا جاد من وقته بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع في الغوص على ما في ديوان الشريف من اللؤلؤ المكنون؟

أعيذكم أن تظنوا أن ذلك الشاعر خلا ديوانه من الأبيات النوادر التي تفصح عن بصره بخلائق المجتمع وسرائر الناس، فقد أستطيع أن أجزم بأنه في هذه الناحية أشعر من المتنبي؛ لأن المتنبي كان يقصد إلى الحكمة قصدًا، ويتعمدها وهو متكلف، أما الرضي فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجية والطبع، فيرسلها عفوًا بلا تصنع ولا اعتساف.

ما رأيكم في هذا البيت:

إذا قلَّ مالي قلَّ صحبي وإن نما   فلي من جميع الناس أهل ومرحب

وهذا البيت:

يغر الفتى ما طال من حبل عمره   وترخي المنايا برهة ثم تجذب

وهذا البيت:

وآمل أن تقي الأيام نفسي   وفي جنبي لها ظفر وناب

وهذا البيت:

تفدي الفتى في عيشه ألسنٌ   وما له من حتفه فاد

وهذا البيت:

كل حبس يهون عند الليالي   بعد حبس الأرواح في الأجساد

وهذا البيت:

علامة العز أن حسدت به　　　إن المعالي قرائن الحسد

وهذا البيت:

ينال الفتى من دهره قدر نفسه　　　وتأتي على قدر الرجال المكايد[٣]

وهذا البيت:

يعرفك الاخوان كل بنفسه　　　وخير أخ من عرَّفتك الشدائد

وهذا البيت:

ليس الغريب الذي تنأى الديار به　　　إن الغريب قريب غير مودود

وهذا البيت:

ما الفقر عار وإن كشفتَ عورته　　　وإنما العار مال غير محمود

وهذا البيت:

إذا بزني مالي عطاء تركته　　　حميدًا وطالبت القواضب بالرد[٤]

وهذا البيت:

إذا الشمس غاضت كل عين صحيحة　　　فكيف بها في هذه المقل الرُّمدِ

وهذا البيت:

كل جواد كاذب في الوعد　　　وكل خل خائن في الود

وهذا البيت:

واهًا لنفس حُبست في جلدي   إن الأسـيـر غـرض بـالـقـد[٥]

وهذا البيت:

وعتاب الزمان مثل عتاب الـ   ـعين تنهَى ودمعها بازدياد

وهذا البيت:

وما هذه الدنيا لنا بمطيعة   وليس لخلق من مداراتها بد

وهذا البيت:

والمال أهون مطلبًا من أن أرى   ضـرعًـا أرامـي دونـه وأداري

وهذا البيت:

نالوا على قدر الرجاء وإنما   يروَى على قدر الأوام الصادي

وهذا البيت:

ما أنصف الفاسق في لحظه   لـمـا أرانـا عـفـة الـعـابـد

وهذا البيت:

كنت أداوي كبدي   لو تركوا لي كبدا[٦]

وهذا البيت:

وإن حديث النفس بالشيء دونه   رمـال الـنـقـا مـن عـالـج لـشـديـد

وهذا البيت:

وجدوا وما جادوا ومحتقب　　للوم من أثرى ولم يجد

وهذا البيت:

أما كان فيكم مجملٌ أو مجاملٌ　　إذا لم يكن فيكم أغر جواد

وهذا البيت:

ما مقامي على الجداول أرجو　　ها لِنَيْلٍ وقد رأيت البحارا[٧]

وهذا البيت:

إذا قيد الليل خطو المنى　　مشى النوم في مقلة الساهر

وهذا البيت:

لحا الله دهرًا كثير العدو　　حتى الظلام يعادي النهارا

وهذا البيت:

وكيف يتم في بلد صلاة　　وجل بقاعه قبل الفجور

وهذا البيت:

وما فخر العفيف الجسـ　　ـم إن فسقت سرائره

وهذا البيت:

من يعشق العز لا يرنو لغانية　　في رونق الصفو ما يغني عن الكدر

وهذا البيت:

والليث لا ترهب الأقران طلعته حتى يصمم منه الناب والظفر

وهذا البيت:

ما كل نسل الفتى تزكو مغارسه قد يفجع العود بالأوراق والثمر

وهذا البيت:

كم حاطب خانه حبل فأقعصه ذلًّا وشر الحبال الحية الذكر

وهذا البيت:

سالم تصاريف الزمان فمن يَرُم حرب الزمان يعد قليل الناصر

وهذا البيت:

لو كان حفظ النفس ينفعنا كان الطبيب أحق بالعمر

وهذا البيت:

كل يوم نذم للدهر عهدًا خان فيه ونشتكي منه غدرًا

وهذا البيت:

إنما المرء كالقضيب تراه يكتسي الأخضر الرطيب ليعرى

وهذا البيت:

إذا تناءت بنا قلوب فلا تدانت بنا ديار

وهذا البيت:

ومن قيد الألفاظ عند نزاعها   بقيد النهى أغنته عن طلب العذر

وهذا البيت

والحر تنهضه إما شجاعته   إلى المل وإما خشية العار

وهذا البيت:

وهل نافعي يوم أقضي صدى   إذا صاب وادي قومي المطر[٨]

وهذا البيت:

والناس أسد تحامي عن فرائسها   إما عقرت وإما كنت معقورا

وهذا البيت:

وليس كل ظلام دام غيهبه   يسر خابطه أن يطلع القمر

وهذا البيت:

ما كل مثمرة تحلو لذائقها   إن السياط لها من مثلها ثمر[٩]

وهذا البيت:

وهبك اتقيت السهم من حيث يُتقى   فمن لِيَدٍ ترميك من حيث لا تدري

وهذين البيتين:

يقولون: نم في هدأة الدهر آمنًا   فقلت: ومن لي أن يهادنني الدهر؟

هل الحرب إلا ما ترون نقيضة من العمر أو عدم من المال أو عسر

وهذا البيت:

وهل نافع يومًا وجدك راجل إذا قيل يوم الروع: إنك فارس؟

وهذين البيتين:

إن زدتهم فلقد نقصتهم إن الزيادة بالشغا نقص[10]
ومن المخازي عند لابسها ما لا تواري الأزر والقمصُ

وهذا البيت:

يقدم الباسل الأبي على الحيف وفيه الهوان نكوص

وهذا البيت:

وكيف وفور العرض والمال وافر ومن يخزن الأموال ينفق من العرض

وهذا البيت:

والسيف إن مر على هامة زوَّعها إن هو لم يقطع

وهذا البيت:

ألا إن رمحًا لا يصول لنبعة وإن حسامًا لا يقدُّ قطيع[11]

وهذا البيت:

وبعض مقال القائلين مكذب وبعض وداد الأقربين خدوع

وهذا البيت:

ما لبث من يمسي مجازًا للردى ومعرج القدر المغذِّ المسرع

وهذا البيت:

رأى بارقًا لم يروني وهو حاضر فكيف أرجي ريَّه وهو شاسع

وهذين البيتين:

الناس حولك غربان على جيف بُلْهٌ عن المجد إن طاروا وإن وقعوا
فما لنا فيهم إن أقبلوا طمع ولا عليهم إذا ما أدبروا جزع

وهذين البيتين:

يقولون: ماش الدهر من حيث ما مشى فكيف بماش يستقيم وأظلع؟
وما واثق بالدهر إلا كراقد على فضل ثوب الظل والظل يسرع

وهذا البيت:

لقد عاف أمواله من يجود وقد طلق النفس من يشجع

وهذا البيت:

بالجد لا بالمساعي يبلغ الشرف تمشي الجدود بأقوام وإن وقفوا

وهذا البيت:

ومن يشرب بصاف غير رنق يرد يومًا برنق غير صافي

وهذا البيت:

كأن الليالي كن آلين حلفة　　بأن لا يرى فيهن شمل مؤلف

وهذا البيت:

كيف يرجو الكثير من راضه الشو　　ق إلى أن رضي ببذل الطفيف

وهذا البيت:

وضيوف الهموم مذ كنَّ لا ينـ　　ـزلن إلا على العظيم الشريف

وهذا البيت:

والحظوظ البلهاء من ذي الليالي　　أنكحت بنت عامر من ثقيف[١٢]

وهذا البيت:

إنما نلبس الدروع ثقالًا　　لرجوع إلى خفاف الشفوف

وهذا البيت:

إذا أنت فتشت القلوب وجدتها　　قلوب الأعادي في جسوم الأصادق

وهذا البيت:

وما جمعي الأموال إلا غنيمة　　لمن عاش بعدي واتهام لرازقي[١٣]

وهذا البيت

كم لسان دنا إليك بقلب منافق

وهذا البيت:

ولا دار إلا سوف يجلي قطينها على نعق غربان الخطوب النواعق

وهذا البيت:

وما العيش إلا غمة وارتياحة ومفترق بعد الدنو وملتقى

وهذا البيت:

أراك تجزع للقوم الذين مضوا فهل أمنت على القوم الذين بقوا؟

وهذا البيت:

وإذا الحليم رمى بسر صديقه عمدًا فأولى بالوداد الأحمق

وهذا البيت:

كفى بقوم هجاء أن مادحهم يهدي الثناء إلى أعراضهم فرقا

وهذا البيت:

سابق فليس تنال أغـ ـراض المُنى إلا سباقًا

وهذا البيت:

وليس ينال الأمر إلا بحازم من القوم أحمى ميسمًا ثم ألصقا

وهذا البيت:

ولا تزرعوا شوك القتاد فإنكم جديرون أن تدموا به وتشاكوا

وهذا البيت:

أبتغي عدل زمان قاسط[١٤]　　إنما الناس على دين الملك

وهذا البيت:

وللنفس عمن عجز الفتى وزماعه　　زمـام إلـى مـا يـشـتـهـي وعـقـال

وهذا البيت:

ولا تسمعن من حاسد ما يقوله　　فـأكثر أقوال الـعداة مـحـال[١٥]

وهذا البيت:

وليس يأتلف الإحسان في ملك　　حتى يؤلف بين القول والعمل

وهذا البيت:

كل حبيب أبدًا　　أيـامـه قـلائـل

وهذا البيت:

ومن دواء الداء إن　　ماطل كيٌّ عاجلُ

وهذا البيت:

وما طلب البذل من باخل　　بميسوره غير داء عضال

وهذا البيت:

وإن طراد النفس عما ترومه　　أشد عناء من طراد قبيل[١٦]

وهذا البيت:

وأول لؤم المرء لؤم أصوله   وأول غدر المرء غدر خليل

وهذا البيت:

ألا إنما الدنيا إذا ما نظرتها   بقلبك أم للبنين أكول[١٧]

وهذا البيت:

وإني رأيت غني الأنام   إذا لم يكن ذا علاء مقلًّا

وهذا البيت:

النفس أدنى عدو أنت حاذره   والقلب أعظم ما يبلى به الرجل

وهذه الأبيات:

عادة الزمان في كل يوم   يتناءى خل وتبكي طلول
فالليالي عون عليك مع البيـ   ـن كما ساعد الذوابل طول
هي دنيا إن واصلت ذا جفت هـ   ـذا ملالًا كأنها عطبول
كل باك يبكى عليه وإن طا   ل بقاء والثاكل المثكول

وهذا البيت:

نؤمل أن نروي من العيش والردى   شروب لأعمار الرجال أكولُ

وهذا البيت:

وموت الفتى خير له من حياته   إذا جاور الأيام وهو ذليل

وهذا البيت:

ومن مات لم يعلم وقد عانق الثرى بكاه خليل أم سلاه خليل

وهذا البيت:

نغالب ثم تغلبنا الليالي وكم يبقى الرمي على النبال

وهذا البيت:

سلي عن العيش أنَّا لا ندوم له وهوَّن الموت ما نلقى من العلل

وهذا البيت:

هل نافع نفسك أذللتها كرامة البيت وعز القبيل

وهذا البيت:

وسيان عندي من طواني على جوى يعذب قلبي أو طواني على دخل

وهذا البيت:

وكل فتى لا يطلب المجد أعزل وكل عزيز لا يجود ذليل

وهذا البيت:

وما المكرهون السمهرية في الطلى بأشجع ممن يكره المال في البذل

وهذه الأبيات:

اشتر العز بما بيـ ـع فما العز بغال

بالقصار الصفر إن شئـ ـت أو السمر الطوال
ليس بالمغبون عقلًا من شرى عزًّا بمال
إنما يدخر الما ل لحاجات الرجال
والفتى من جعل الأمـ ـوال أثمان المعالي

وهذا البيت:

إذا ما نفع الجهل فإن الضائر العقل

وهذا البيت:

وما شرر تطاوح عن زناد بمفتقد إذا بقي الضرام[١٨]

وهذا البيت:

وكيف نوم المرء من تحته دون الكرى مضطرب الأرقم

وهذا البيت:

إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحمًا ولا دمًا

وهذا البيت:

كالغيث يخلفه الربيع وبعضهم كالنار يخلفها الرماد المظلم

وهذا البيت:

أهبوا فقد تتيقظ الأجداد للقوم النيام

وهذا البيت:

ما الذنب للمزن جازتني مواطره ... وإنما الذنب للأرزاق والقسم

وهذا البيت:

إن من خاضت النواظر فيه ... لحر أن تخوضه الأقدام

وهذا البيت:

وما الليث إلا من يُدلُّ بنفسه ... ويمضي إذا ما بادهته العظائم

وهذا البيت:

لا تصفحن عن المليم إذا جنى ... وإذا المضارب أمكنتك فصمِّم

وهذا البيت:

لا يذخر الضيغم من قوته ... ما يذخر النمل من المطعم

وهذا البيت:

قد يبلغ الرجل الجبان بما له ... ما ليس يبلغه الشجاع المعدم

وهذا البيت:

وقد يقدع المرء وإن كان ابن عم ... ويقطع العضو الكريم للألم

وهذا البيت:

وما كل ليث يغنم القوم زاده ... إذا خفقت تحت الظلام الضراغم

وهذا البيت:

إذا العدو عصاني خاف حد يدي وعرضه آمن من هاجرات فمي

وهذا البيت:

ولو أمن الجبان من المنايا لأغمد سيفه البطل المحامي

وهذا البيت:

من أضمر الصد عمن ليس يضمره بغيًا مشى في نواحي سره الندم

وهذا البيت:

وغير بعيد منك ناء تزوره وغير قريب قاطن لا تؤمه

وهذا البيت:

أضعت الهوى حفظًا لحزمي وإنما يصان الهوى في قلب من ضاع حزمه

وهذا البيت:

تشف خلال المرء لي قبل نطقه وقبل سؤالي عنه في القوم ما اسمه

وهذا البيت:

ولا تيأسن من عفو حر فإنما تحمله باق إذا ضاع حلمه

وهذا البيت:

فلا عار أن تستنجد الكأس راحة أضر بها حمل الجزار المصمم

وهذا البيت:

تمضي الزمان ولا نحس كأنه ريح تمر ولا يشم نسيمها

وهذا البيت:

كم ذاهب أبكى النواظر مدة ومضى وطاب لمقلة تهويمها[١٩]

وهذا البيت:

ونلقى قبل لقيان المنايا رماح الداء تطعن في الجسوم

وهذا البيت:

فليت كريم قوم نال عرضي ولم يدنس بحمد[٢٠] من لئيم

وهذا البيت:

تملي المقادر أعمارًا وننسخها ويضرب الدهر أيامًا بأيام

وهذا البيت:

نصف عيش المرء نوم والذي يعقل العاقل منه كالحلم

وهذين البيتين:

والحر من حذو الهوا ن يزايل الأمر الجسيما
والضم أروح منه مط ـرور الظبا بلغ الصميما[٢١]

وهذا البيت:

وخاطر على الجلي خطار ابن حرة		وإن زاحم الأمر العظيم فزاحم[٢٢]

وهذا البيت:

لا تصحبن دهرك إلا خائفًا		فراق إلف ونبوا عن وطن

وهذين البيتين:

ومنظر كان بالسراء يضحكني		يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية		قد ضل ولاج أبواب السلاطين

وهذا البيت:

لا تـأمـنـن عـدوًّا لان جـانـبـه		خشونة الصل عقبى ذلك اللين

وهذا البيت:

لا تخلدن إلى أرض تهون بها		بالدار دار وبالجيران جيران

وهذا البيت:

إذا الفتى كان في أفعاله شوه		لم يغن أن قيل: إن الوجه حسان

وهذا البيت:

يا قوم إن طويل الحلم مفسدة		وربما ضرب إبقاء وإحسان

وهذا البيت:

ما ينفع الماضين أن بقيت لهم　　خـطـط مـعـمـرة بـعـمـر فـان

وهذا البيت:

وما خير عين خبا نورها　　ويمنى يد جذ منها البنان

وهذا البيت:

وما كل أصل كريم العرو　　ق تأبى على الغمز عيدانه

وهذا البيت:

إذا منزل راب سكانه　　من الأرض حرم إيطانه

وهذا البيت:

وما الحب إلا فرقة بعد ألفة　　وإلا حذار بعد طول أمان

وهذا البيت:

إذا المرء لم يحفظ ذمامًا لقومه　　فـأحـج بـه أن لا يـفـي بـضـمـان

وهذا البيت:

تعرفني بأنفسها الليالي　　وآنف أن أعرفها مكاني

وهذه الأبيات:

فكم صاحب تدمى علي بنانه　　ويـظـهـر أن الـعـز لـثـم بـنـانـي

يضم حشا البغضاء عند تغيبي ويجلو جبين الود حين يراني
مسحت بحلمي ضغنه عن جنانه فلما أبى مسحته بسناني
سبقت برميي قلبه فأصبته ولو لم أصبه عاجلًا لرماني

وهذين البيتين:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها لعظيم ما ألقى من الخلان
وإذا أمنت من الزمان فلا تكن إلا على حذر من الإخوان

وهذا البيت:

وما تنفع المرء الشمال وحيدة إذا فارقتها بالمنون يمين

وهذا البيت:

وسمعت أيامي ولم تسعني أفضل عنها وتضيق عني

وهذا البيت:

وليس على زهر الكواكب سبة إذا غض من أنوارها زبرقانها[٢٣]

وهذا البيت:

أكرر في الإخوان عينًا صحيحة على أعين مرضى من الشنئان[٢٤]

وهذا البيت:

لا تجعلن دليل المرء صورته كم مخبر سمج عن منظر حسن

وهذا البيت:

ورب وفاح الوجه يحمل كفه   أنامل لم يعرق بهن عنان

وهذين البيتين:

وشر الأذى ما جاء من غير حسبة   وكيد المبادي دون كيد المداهن
وإن بلوغ الخوف من قلب خائف   لدون بلوغ الخوف من قلب آمن

وهذين البيتين:

قصور الجد مع طول المساعي   وقول الناس: لم ينجح فلان
أحب إلي من سعي هجين   وإن بلغ العلا جد هجان[٢٥]

وهذين البيتين:

ومن عجب صدود الحظ عنا   إلى المتعممين على الخزايا
أسف بمن يطير إلى المعالي   وطار بمن يسف إلى الدنايا

وهذين البيتين:

وتفرق البعداء بعد مودة   صعب فكيف تفرق القرباء
وخلائق الدنيا خلائق مومس   للمنع آونة وللأعطاء

وهذا البيت:

إذا ما الحر أجدب في زمان   فعفته له زاد وماء

وهذا البيت:

هيهات يا دنيا وبرقك صادق   أرجو، فكيف إذًا وبرقك كاذب

وهذا البيت:

وأعظم ما ألاقي أن دهري   يعد محاسني لي من ذنوبي

وهذا البيت:

وللحلم أوقات وللجهل مثلها   ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

وهذين البيتين:

تجاذبني يد الأيام نفسي   ويوشك أن يكون لها الغلاب
وتغدر بي الأقارب والأداني   فلا عجب إذا غدر الصحاب

وهذين البيتين:

فما لي طول الدهر أمشي كأنني   لفضلي في هذا الزمان غريب
إذا قلت: قد علقت كفي بصاحب   تعود عوادٍ بيننا وخطوب

فما رأيكم فيما سمعتم يا أدباء بغداد!

ألا ترون أن الثروة الشعرية كانت خليقة بعناية الدارسين والناقدين؟ ألا ترون أن الشريف كان أهلًا لأن يتعقبه أحد النقاد فيدرس ما في شعره من الحكم والأمثال، ثم يبين ما فيها من المبتكر والمنقول؟ أما كان أهلًا لأن يشغل به النقاد فيقولون: إنه ابتكر كَيْت أو سرق زَيْت؟

لقد رأيناهم يتعقبون المتنبي فيردون حكمه وأمثاله إلى الأدب المأثور عن قدماء اليونان، فما بالهم سكتُوا عن الرضي ذلك السكوت؟

أتريدون الحق أيها الأدباء؟ الحق أن النقاد شغلوا أنفسهم بالمتنبي طاعة لبعض الرؤساء، ولم يشغلوا أنفسهم به حبًّا في الوقوف على أصائل المعاني. إن حقد الصاحب

بن عباد على المتنبي هو الذي وجَّه الشعراء إلى نقد شعره، وكان ذلك النقد على ما فيه من ظلام الهوى والغرض أساس الشهرة التي تمتع بها المتنبي في الحياة وبعد الممات، ولولا التحامل على المتنبي في الحياة وبعد الممات، ولولا التحامل على المتنبي لما وجد له أنصار يرفعون اسمه فوق الأسماء.

وقد حرم الشريف الرضي أسباب الشهرة من هذه الناحية، فقد حمله التجمل والتعفف على هجر أبواب الملوك والوزراء، فلم يكن يمدح حين يمدح إلا عن حب أو مداراة، ولم يره أحد يزاحم الشعراء والأدباء على أبواب السلاطين فكان من أثر ذلك أن قل حاسدوه والحاقدون عليه، فلم يشق في ثلبه قلم ولا لسان، ولم يكن الأدب في تلك العصور يعرف الحياة إلا بفضل المماراة والضجيج.

أفلا ترون معي أيها السادة، أن الأدب كان حظه حظ التاريخ لا يُرفع فيه علم إلا بفضل الدماء؟

لقد ولي مصر في العهد الإسلامي كثير من المتحكمين، وكان كافور أقربهم إلى الأذهان؛ لأنه أزال الغشاوة عن أماني المتنبي، وتولى الوزارة في بغداد كثير من الرجال، وكان أقربهم إلى الأذهان أقطاب البرامكة؛ لأن سلطانهم ختم بالفجائع.

فيا ليت شعري متى يجيء العهد الذهبي الذي تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق، لا بفضل من يحرسها من الجنود.

إن هذه البلية لا تزال تسيطر على العقول والأذواق، ففي عصرنا الحاضر نجد لأهل الأدب وسائل وأساليب لا تعرف المنطق ولا العدل، وتلك الوسائل والأساليب ستصنع في الأدب الحديث أمثال ما صنعت الأساليب القديمة في الأدب القديم، وقد شكا النقاد في فرنسا هذه البلية، إذ تبين لهم أن الكتاب والنقاد انقسموا إلى جماعات تتقارض التلطف والثناء، وهم يسمون ذلك بالكمارادري Camaraderie وتلك الكمارادري معروفة في مصر، ولعلها أيضًا معروفة في الشام والعراق.

وقد شكوت هذه البلية، واتفق لي أن أكون من ضحاياها في كثير من الأحيان، وما شكوته أنا شكاه سواي، فالنقاد اليوم يعرفون أصدقاءهم قبل سائر الناس، والجرائد والمجلات قد تعامل الكتاب والشعراء والمؤلفين وفقًا لصلاتهم بمختلف الأحزاب.

أما بعد فقد بينت لكم بعض الأسباب التي قضت على الشريف الرضي بالخمول، فهل تحبون أن أحدثكم كيف عرفت ذلك الشاعرالعظيم؟

لا تظنوا أني تلقيت الإعجاب به عن الأساتذة والأدباء، فقد كان أهل الأدب في عهد حداثتي لا يختلفون إلا حول أبي تمام والبحتري والمتنبي من بين القدماء، وشوقي وحافظ من المحدثين، ثم اتفق أن شرعت في سنة ١٩١٧ أؤلف كتاب «مدامع العشاق» فحملني ذلك على استقراء المأثور من الشعر الوجداني في مختلف العصور، وكانت فرصة ذهبية عرفت فيها الشريف الرضي شاعر القلب والوجدان.

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحدث الناس عن القائد المعروف لا الجندي المجهول، حتى أصبح له في مصر أشياع يقدمونه على سائر الشعراء، وأصبحتم تسمعون رنين شعره من حنجرة «أم كلثوم».

وها نحن أولاء نعود فندعو أهل بغداد إلى إحياء ذكراه، ها نحن أولاء نعود فنتحدث عنه في المدينة السحرية التي عرف فيها كيف تندي الأزهار، وكيف تقعقع الرعود، وكيف تصطخب القلوب.

ها نحن أولاء نتحدث عنه في خشوع وقنوت، كما يتحدث المؤمن وهو في حرم المحراب.

فيا أيها الشريف: أنا في وطنك وفي ضيافتك، فارفع الحجب عن أسرار قلبك وسرائر عبقريتك، في إلى فهم روحك ظمأ لا ترويه دجلة، ولا يرويه النيل. وسلام عليك بين المصطفين الأبرار من أقطاب الشعراء ...

هوامش

(١) ج١ ص٩٦ وأشرت إليها بعد ذلك في كتاب (وحي بغداد) ص٢٤٦ و٢٤٧.

(٢) الذميل: السير، والرتك: تقارب الخطر.

(٣) في هذا البيت معنى يغاير قول المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

(٤) القواضب: السيوف القواطع.

(٥) الغرض — بكسر الراء — المتضجر، والقد بالكسر: القيد.

(٦) وقد رأيته في قصة غرامية فهل يكون ورد في شعر الشريف عن طريق الاقتباس؟

(٧) وهو ينظر إلى قول المتنبي: ومن قصد البحر استقل السواقيا.

(٨) هذا البيت ينظر إلى قول أبي فراس الحمداني:

معللتي بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآنًا فلا نزل القطر

(٩) الثمر: هنا هو العقد في أطراف السوط، والمراد أن من الثمار ما تعافه النفس ومنها ما يجر إلى الهلاك.

(١٠) الحكمة في الشطر الثاني. وللشريف شطرات كثيرة تجري مجرى الأمثال، ولكنا سكتنا عنها تجنبًا للإسهاب، فليراجعها في ديوانه من يشاء.

(١١) القطيع: السوط.

(١٢) لما ظهر ديوان زكي مبارك اعترض أدباء العراق على هذا البيت:

لم تنسني فتنة الدنيا زينتها وما في شمائلك الغراء من فتن

وقالوا: لا توصف الشمائل بأنها غراء، وإنما توصف بأنها غر، وأطالوا الجدل في مجلة (أبوللو)، واشترك الأب أنستاس في الجدل، وعارضنا معارضة طويلة في منزل الدكتور بشر فارس، والآن نرى الشريف يصف الحظوظ بأنها بلهاء لأبله، فلينقل العراقيون المعركة إلى شاعر العراق.

(١٣) في الديوان «اتهامًا» بالنصب وهو تحريف، ويظهر أن مصحح الديوان ظن أن خبر «ما» منصوب. وهو كذلك في غير هذا الموضع.

(١٤) القاسط: الجائر.

(١٥) المحال — بكسر الميم — المكر والدهاء.

(١٦) في الديوان (قتيل) وهو تحريف.

(١٧) في الديوان (ثكول).

(١٨) تأكل روعة الخيال في هذا البيت.

(١٩) التهويم: النوم القليل.

(٢٠) في الديوان (بذم) والذي أثبتناه أقوى من الوجهة الشعرية.

(٢١) المطرور: المحدد، والظبا: جمع ظبة وهي حد السيف أو السنان.

(٢٢) الجلي: الأمر العظيم.

(٢٣) الزبرهان: القمر.

(٢٤) الشنئان: البغض.

(٢٥) الهجين: اللئيم، والهجان: الكريم، والمراد: أن الخيبة مع السعي النبيل أشرف من الفوز مع السعي الخسيس، فليست القيمة بالحظوظ، وإنما القيمة بصدق الجهاد. وهذا معنى نفيس لا يخطر على بال شاعر إلا إن كان في مثل هذا الشريف.

الشاعر المثقف

أيها السادة

حديث الليلة عن ثقافة الشريف الرضي وبصره بالبلاغة وإحساسه قوة الكلام البليغ.

ولا يمكن تصور هذا الجانب من حياة الشريف إلا بتصور ما كانت عليه الحياة العقلية في القرن الرابع، ذلك العهد الذي رأى كيف تتصاول العقول، وكيف تصطرع الأقلام، وكيف يكون الحول والطول مقرونين بسلاح المنطق وبراعة البيان.

ففي ذلك العصر عرفت اللغة العربية نهضة أدبية لا تزال تسيطر على الأقلام والعقول إلى اليوم، في ذلك العصر نبغ أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه. وفي ذلك العصر نبغ أبو بكر الباقلاني صاحب إعجاز القرآن. وفيه نبغ أبو القاسم الآمدي صاحب الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري. وفيه ظهر أبو علي الحاتمي الذي سن المذاهب للهجوم على المتنبي. وفيه تفجرت فصاحة أبي هلال العسكري صاحب الصناعتين.

وفي ذلك العصر ظهر إخوان الصفاء الذين دانوا اللغة العربية برسائلهم العميقة التي وعت معارف العرب والفرس واليونان. وفيه نبغ أبو حيان التوحيدي وابن مسكويه. وفيه عرف النثر الفني أقطابًا عظامًا لا يزالون أعلام الفصاحة وفرسان البيان، وكيف تنسى لغة العرب آثار ابن العميد وابن عباد والهمذاني والخوارزمي والتنوخي وابن وشمكير وابن شهيد.

ومن هذه الإشارات ترون القرن الرابع تميز بمزايا ثلاث: النقد الأدبي والجدل العقلي، والنثر الفني، وهي مزايا كانت تفترق ما شاء لها الزمن الجائر، فيرى بعضها

في الشام، وبعضها في مصر، وبعضها في الأندلس، ولكنها كانت تجتمع في بغداد، وكانت بغداد وطن الشريف كما تعلمون.

وصورة بغداد في القرن الرابع تتمثل في قول الصاحب بن عباد في خطابه إلى ابن العميد: «بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد» وتتمثل أيضًا في الجزع على فراقها، الجزع الذي أحسه أبو العلاء وأبو العلاء كما تعرفون كان يرى الدنيا بأذنيه لا بعينيه، فلما قدم بغداد رأت أذناه ما لم تريا من قبل، وصارت المجالس والمساجد هي الزهر والماء في إحساس ذلك الأديب الفيلسوف.

ومن ثقافة القرن الرابع ومعارف بغداد تكونت عقلية أبي العلاء، الذي دان الأدب برسالة الغفران وبقصائده اللزوميات.

وقد شاءت الظروف أن يعيش الشريف الرضي في القرن الرابع، وبعقل القرن الرابع، وشاءت الظروف أيضًا أن يكون من أسرة لها في العلم والأدب ماض جميل، بل وشاءت الظروف أن يكون له أخ من الأئمة في العلوم العقلية والنقلية، ثم قضت بأن يكون الشريف الرضي نقيب الأشراف في زمن لم يكن فيه للأشراف عرش ولا تاج، وإنما كان لهم مجد العلم والأدب والبيان.

وقد وفى الشريف الرضي لعصره وأسرته أصدق الوفاء، فأقبل على الحياة العلمية والأدبية إقبال الرجال، وشارك في التأليف مشاركة الفحول، فألف كتاب «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» وكتاب: «مجازات الآثار النبوية» وكتاب: «تلخيص البيان عن مجازات القرآن» وكتاب: «الخصائص» و«أخبار قضاة بغداد».

وما أزعم أني اطلعت على جميع هذه المؤلفات، فقد ضاع أكثرها مع الأسف، وإنما اطلعت على مجازات الآثار النبوية، وهو كتاب ممتع، يمثل ثقافة الشريف أصدق تمثيل، ويدل على بصره باللغة والأدب ومذاهب البيان.

ولم تكن ثقافة الشريف مقصورة على الجوانب الجافية التي وقف عندها بعض الأعلام في ذلك الزمان، وإنما رق الشريف وظرف، فمشى به ذوقه اللطيف إلى دراسة شعر ابن حجاج أظرف شعراء القرن الرابع وأبرعهم في وصف اللهو والمجون، وقد تخير الشريف طائفة من شعره سماها: (الحسن من شعر الحسين) ولعله بهذه التسمية كان صاحب الفضل على أبي العلاء الذي سمى كتابه عن المتنبي: (معجز أحمد) وكتابه عن البحتري: (عبث الوليد) وكتابه عن أبي تمام: (ذكرى حبيب).

ولم تكن ثقافة الشريف موقوفة على ما وعت الكتب والمصنفات، وإنما امتد بصره فدرس الدنيا وخبر الناس، وساقه إلى ذلك أسباب خطيرة ترجع في جملتها إلى اثنين:

الأول: تطلعه إلى الخلافة وحرصه على الاتصال بأقطاب الزعماء في الحواضر الإسلامية، والثاني. تشوفه إلى ما أجن الوجود من غرائب الصباحة، وعجائب الجمال، وسترون في الليالي المقبلات كيف كان الشريف يعيش موزع القلب والعقل بين الحب وبين المجد، وكيف كان فريسة للدسائس في عالم المجد وعالم الوجدان.

فالشريف الرضي أيها السادة عاش شعره كله، كما يعبر الفرنسيون، وهو لم يصف أزمات الحياة كما يفعل اللاهون والعابثون، وإنما وصف حياة رآها بعينيه، وأحسها بقلبه، وذاق من شهدها وصابها ما يذوق أحرار الرجال.

ونحن بهذه الأحكام لا نتعصب لشاعر أحببناه، وإنما نطوف حول نفس روحانية لم يعرف نظيرها العلم، ولم يشهد مثيلها الخيال.

نطوف حول نفس مظلومة مهيضة كافحت في الحياة أصدق كفاح، وناضلت في سبيل المجد أشرف نضال.

لقد كان الناس في عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا، أما هو فكان يتفقه ليسود.

كان الشعراء في عهد الشريف ينظمون الشعر ليحظوا بأعطيات الخلفاء، أما هو فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسي من عروش الخلفاء.

كان الشعراء يتغزلون لاهين لاعبين، أما الشريف فكان له في كل أرض صبابة، وكان له في كل بقعة غرام ماحق مبيد.

وكان ذلك مزاجًا بين طغيان العقل وعدوان القلب، كان مزاجًا بين العقل المثقف والقلب الحساس.

وجملة القول: أن الرضي لم يكن من طراز شعراء الجاهلية، الشعراء العوام الذين لم يعرفوا غير ما كان يعرف سكان البيداء، ولم يكن من طراز شعراء العصر الأموي الذين وقفوا عند المعارف الجاهلية بعد أن أنارتها بعض المعارف الدينية، ولم يكن من طراز الشعراء الذين شهدوا صباح العصر العباسي، أولئك الشعراء الذين وقفوا عند عربدة الكؤوس، ولم يعرفوا الخلفاء إلا في طلب الرزق الحرام أو الحلال، وإنما كان شاعرًا مثقفًا يدرك تمام الإدراك كيف تصطرع العقول والمذاهب والأهواء، ويفهم أن الدنيا في عصره نهب مقسم بين الديلم وأحفاد بني العباس، ويتمنى لو أقام على شواطئ دجلة حاضرة تساوي الحاضرة التي أقامها الفاطميون على شواطئ النيل.

فالشريف الرضي كان يرى الدنيا بعين الرجل المثقف، المثقف الشريف لا المثقف الصعلوك، وكانت أحاسيسه في دنياه لا تقدر بالأوهام، وإنما كان ينصب لها دقيق الموازين، ويسعى في تحقيقها سعي الفحول.

كان الشريف في حرب شعواء بين القلب والعقل، وكان يطمح في أن يجمع لنفسه جميع أقطار المجد، فيكون من أئمة الفقهاء، وأقطاب الشعراء، وأعيان الخلفاء.

وقد ضاعت أمانيه ضياع الزهر في الوادي الجديب، ولم يبق منها الإمامة في الشعر والبيان.

أيها السادة

قد تقولون: وأين الشواهد على بصره بالمذاهب اللغوية والأدبية؟

إن قلتم ذلك فنحن نحدثكم عن فهمه لأصول الكلام البليغ، وحجتنا في ذلك ما وصف به شعره وما تحدث به عن البلاغة وهو يتحدث عن اللغويين والشعراء.

وأول ما ننص عليه: إحساس الشريف بالصلة بين المعاني وبين الأوزان، يدل على ذلك ما جاء في ص٩٤٥ من الديوان، فقد أرسل إليه أبو إسحاق الصابي قصيدة مدح نثبت منها هذا المطلع:

أبا كل شيء قيل في وصفه حسن إلى ذاك ينحو من كناك أبا الحسن

قال جامع الديوان: «فأجابه عن هذه القصيدة وجعل الجواب على رويها دون وزنها؛ لأن ذلك الوزن المقيد لا يجيء في الكلام إلا مقلقلًا ولا النظم إلا مختلًّا».

فالشريف كان يشعر بالصلة بين الوزن وبين المعنى، وهذا الاتجاه كان معروفًا عند أدباء القرن الرابع، فقد حدثنا الصاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحبهم من الأدباء من يفهم الشعر كما كان يفهمه أبو الفضل ابن العميد «فإنه كان يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير الوزن والقافية»، وحدثنا أن ابن العميد كان يقول: «إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ويبتدأ النسج؛ لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمرارًا ومع أي القوافي يحصل أجمل إطراد».[١]

فما كان ابن العميد يراه من الوجهة النظرية كان الشريف يحققه من الوجهة العملية، وما كان الشريف شاعرًا فحسب، وإنما كان كذلك من أقطاب الناقدين.

ويتصل بهذا حرصه على تحبير القصائد، وقد كان ذلك الحرص يوقعه أحيانًا في المضحكات، فقد احتفل بنظم قصيدة يهنئ بها أخاه المرتضى بمولود، ولكن شاء الحظ

أن تلد امرأة أخيه بنتًا، فصرف القصيدة إلى غيره من الأصدقاء. وقد وقع له هذا الحادث المضحك مرتين.[٢]

وقيمة هذا الشاهد ترجع إلى دلالته على احتفال الشريف بقرض القصائد، فقد كان يتخير المناسبات ويستعد لها أتم استعداد.

وهناك وجه آخر من وجوه البصر بالتاريخ الأدبي، فقد تفرد بميزة لم نجدها إلا قليلًا عند غيره من الشعراء، وتلك عنايته بتاريخ قصائده، فهو الشاعر الوحيد الذي نجد جميع قصائده مؤرخة من بين سائر القدماء، ولهذا التاريخ نفع من وجهتين: فهو أولًا شاهد على شعور الشريف بأن البلاغة من المواد الوصفية في حياة المجتمع، وأنها لذلك خليقة بالتاريخ، وهو ثانيًا يسعف من يهمهم أن يعرفوا كيف تطورت عقلية الشاعر من حال إلى حال.

ولقد تظنون أن هذا العمل النافع قام به جامع الديوان، ولم يقم به الشريف، ونجيب بأن ديوان الشريف رُتِّبَ بعنايته وهو حيٌّ، وقد طلبت منه «تقية» بنت سيف الدولة نسخة وهي بمصر، وطلبه كذلك الصاحب بن عباد، ولا يطلب الديوان إلا وهو عند صاحبه حاضرٌ عتيد.

وقد كان الشريف ينظر إلى الشعر نظر الفنان، فنراه يقول في وصف قصائده الجياد:

منتصبات كالقنا لا ترى　　عيًّا من القول ولا أفنا
لا يفضل المعنى على لفظه　　شيئًا ولا اللفظ على المعنى

فمثل الشريف في نظم شعره مثل الصيدلي البارع الذي يحسن تركيب الدواء، فهو شخص مسئول يركب الدواء بمقادير معينة محددة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضارًّا أو غير مفيد.[٣]

وكان يشعر بأن أهم عناصر البلاغة قوة الذاتية، نعرف ذلك من كلامه في تجريح من يسرقون شعره وينتحلونه في بعض البلاد، فقد هدَّدهم بالفضيحة وأعلنهم أن شعره سينمُّ عليه وسيبوءون بالخيبة والإخفاق، وذلك إذ يقول:

ألا من عذيري من رجال تواعدوا   لحربيَ من رامي عقوق ورامح
وغرهم مني اصطبار على الأذى   وقد يكظم المرء الأذى غير صافح
فما الجارم الجاني عقوق بسالم   ولا الماطل اللاوي ديوني برابح
أغار على ذود من الشعر آمن   تقادم عندي من نتاج القرائح[٤]
فيا ليتهم أدوه في الحي خالصًا   ولم يخلطوه بالرذايا الطلائح[٥]
وإنك لو موهت كل هجينة [٦]   على ناظر ما عددت في الصرائح
أرى كل يوم والعجائب جمة   على وبر الجربَى وسوم الصحائح[٧]
إذا طاردوها خالفت برقابها   رجوعًا إلى أوطانها والمسارح
وإن أوردوها غير مائي حايدت   حياد عيوف ينكر الماء قامح[٨]
إذا انجلفت[٩] في غارة بت ناظرًا   أراقب منها روحة في الروائح
كأن بني غبراء إذ ينهبونها   أحالوا على مال بذي الدوح سارح
يرجون منها والأماني ضلة   رجاء نتاج الحمل من غير لاقح[١٠]
أباغث أضرتها السفاهة فاغتدت   تخطف هذا القول خطف الجوارح[١١]
هبوها إليكم من يدي منيحة   لقد آن يا للقوم رد المنائح[١٢]
دعوا وردماء لستم من حلاله[١٣]   وحلوا الروابي قبل سيل الأباطح[١٤]
ولا تستهبوا العاصفات وأصلكم   نجيلٌ رمت فيه الليالي بقادح[١٥]
فما أنتم من مالئ ذلك الحبا   ولا فيكم أكفاء تلك المناكح
ولم تحسنوا رعي السوامخ قبلها   فكيف تعاطيتم ركوب الجوامح[١٦]
ولا تطلبوها سمعة في معرة   تحدث عنكم كل غاد ورائح
خمول الفتى خير من الذكر بالخنا   وجر ذيول المنديات الفواضح[١٧]

فهذا الشاعر يصور قصائده المسروقة حين تضاف إلى قصائد غيره بصور الصحاح من الإبل والخيل، حين تضاف إلى المراض، ويتمثلها تلوي رقابها نزاعًا إلى وطنها الأصيل، وتأبى ورود الماء الغريب ثم يرمي سارقي شعره بأنهم ليسوا أكفاء للزواج من تلك القصائد، وأنهم لم يحسنوا رعي البقل فكيف يخاطرون بركوب الجياد الجوامع؟

ووصف قصائده المسروقة في مكان آخر فقال:

تصغي لها الأسماع والقلوب   مثل السهام كلها مصيب

لطيمة نم عليها الطيب[18] ... تودعها الأردان والجيوب[19]
يتعب ذو البراعة الأديب ... ويغنم الهلباجة المعيب[20]
في كل هجمة تلوب[21] ... هاج عليها الكلا الرطيب[22]
يطلبن أرضي والهوى طلوب ... لا أمم مني ولا قريب
عند الأعادي وسمها غريب ... يرصدهن الحارب المريب[23]

فأنتم ترون أن الشريف يؤمن بأن سرقة شعره عناء في عناء وهي نظرة لا تقع إلا من رجل مثقف العقل، وهي دليل على قوة الذاتية التي تعد من أهم العناصر في مقومات الآداب والفنون، فالشاعر الوسط، أو الكاتب الوسط، أو الموسيقار الوسط، تضاف آثاره إلى آثار غيره فلا يحس أحد أنها نقلت من أرض إلى أرض. ومن الأدباء والفنانين من تصبح آثارهم كالدنانير التي يتميز بها جيل عن جيل، ولا يمكن تزييفها إلا بجهد عنيف، وأنتم تجدون شواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم، فشوقي ينم شعره عليه، والبارودي ينم شعره عليه، وكذلك ينم الأسلوب عن أمثال إبراهيم المازني وطه حسين، ولو نشروا رسائلهم بدون إمضاء.

والشريف الرضي كان أعجوبة الأعاجيب في هذا الباب، فلا هو من طراز أبي نواس ولا مسلم بن الوليد ولا أبي تمام ولا البحتري ولا المتنبي، وإنما هو الشريف صاحب الحجازيات.

وإحساس الشريف بخطر البلاغة قاده إلى الإشادة بقوة القلم وما له من السيطرة على الوجود. والحديث عن قوة القلم معروف، فقد أقسم الله به في كتابه الكريم، واهتم بوصفه كثير من الشعراء والكتاب، كما ترون في الفقرات التي أثبتها الثعالبي في سحر البلاغة ونقلها الحصري في زهر الآداب، ولكن حديث الشريف عن القلم لا دلالة على اتجاهاته الذوقية والنفسية، فهو يتحدث عنه حديث المتيم المشتاق، ويكاد يتغزل فيه وهو يجول فوق القراطيس. وأي سحر فات الشريف وهو يصف قلم الصاحب بن عباد:

لك القلم الماضي الذي قرنته ... يجري العوالي كان أجرى وأجودا[24]
إذا انسل من عقد البنان حسبته ... يحوك على القرطاس بردًا معمدا[25]
يغازل منه الخط عينًا كحيلة ... إذا عاد يومًا ناظر الرمح أرمدا

وإن مج نصل من دم الصرب أحمرا[٢٦] أراق دمًا من مقتل الخطب أسودا
إذا استرعفته همة منك غادرت[٢٧] قوادمه تجري وعيدًا وموعدا

أو حين يقول:

لك القلم الجوال إذ لا مثقف يجول ولا عضب تهاب مواقعه[٢٨]
سواء عشيته النقس رهبة وذو لهذم غشي من الدم رادعه[٢٩]
يلجلج من فوق الطروس لسانه وليس يؤدي ما تقول مسامعه
وينطق بالأسرار حتى تظنه حواها وصفر من ضمير أضالعه[٣٠]
إذا اسود خطب دونه وهو أبيض يسود وابيضت عليه مطالعه

أو حين يقول:

له قلم إن جرى غربه أمنا القنا وخشينا اليراعا[٣١]

والشريف حين يمنح القلم هذه الأوصاف إنما يفعل ذلك وهو يتمثل ما صنعت الأقلام في بناء الممالك والشعوب، ويتصور جناياتها على التيجان والعروش.

وهو أيضًا يشعر بمعنى الوصف ومعنى البيان، فليست الأوصاف عنده تهاويل وتزاويق، وإنما هي استقراء واستقصاء، وليس البيان في فهمه ضربًا من المحاجاة أو التنميق، وإنما هو كشف وجلاء، نعرف هذا من قوله في خطابه خاله أبي الحسين:

يشيعني بوصفك كل نطق ويعرفني بمدحك من رآني
وليس الوصف إلا بالتناهي وليس القول إلا بالبيان

وهو بهذا يثور على التقاليد الأدبية التي شاعت في القرن الرابع، وكانت تعتمد على البهرج والبريق.

وكان معه فهمه لقيمة البيان ذلك الفهم يدرك تمام الإدراك أن البيان يوجب على طالبه أن يكد خاطره في تصيد كرائم المعاني، وتحير الألفاظ الصحاح التي لا يصلح بغيرها أداء، نفهم ذلك من قوله عتاب الخليفة الطائع لله:

فالآن منك اليأس ينقع غلتي[٣٢] واليـأس يـقـطـع غـلـة الـظـمـآن
فاذهب كما ذهب الغمام رجوته فطوى البروق وضن بالتهتان
أو بعد أن أدمى مديحك خاطري بصقال لفظ أو طلاب معاني

وفي هذا المعنى نفسه يقول في مدح أبيه:

قدها فغرتها من الكلم الجني وحجولها من صنعة ومعاني[٣٣]
هي نطفة رقرقتها من خاطري بـيـضـاء تـنـقـع غـلـة الـظـمـآن

وكذلك يقول في آخر موطن:

ومـحـوكـة كـالـدرع أحـكـم سـردهـا صنع فأفصح في الزمان الأعجم[٣٤]

وفي هذا المعنى يقول في العتاب:

جـاءتـكـم أسـلًا مـشـرعـة متوقعًا فيكم تقصفها[٣٥]
قد بات فيها قائل صنع يحمي لها ذمها ويرهفها
أعزر علي بأن يكون لكم بالأمس ثقفها مثقِّفُها

ويقول في وصف نظام قصائده وهو يمدح أحد وزراء بهاء الدولة:

وعندي لك الغر التي لا نظامها يهي أبدًا ولا يبوخ شهابها[٣٦]
وعـنـدي لـلأعداء فيك أوابد[٣٧] لعاب الأفاعي القاتلات لعابها

وفي قوة نظام القصائد يقول أيضًا وهو يمدح أباه:

تـصـون مـنـاقـبـك الـشـاردا ت أن تتخطى إليها العيوب
إذا نـثـرتـهـا شـفـاه الـروا ةِ راقك منها النظام العجيب

وفي سلاسة النظام يقول:

براني الدهر سهمًا ثم ولى   فجردني من الريش اللؤام
وهـا أنـذا أبـثـك كـل بـيـت   رقيق النسج رقراق النظام

وفي رنين شعره يقول:

منحتك من منطقي تحفة   رأيت بـها فرصة تستلب
تـصـفـقـهـا بـالـنـشـيـد الـرواة   كما صفق الماء بنت العنب

ويصف جلجلة شعره فيقول:

أنا القائل المرموق من كل ناظر   إذا صلصلت للسامعين غرائي

ويصف قدرته على إيذاء الأعداء بالشعر فيقول:

فلا ترهبوني بالرماح سفاهة   فعيدان أوطاني قنًا وصعاد[٣٨]
ولا توعدوني بالصوارم ضلة   فبيني وبين المشرفي ولاد[٣٩]
سأمضغ بالأقوال أعراض قومكم   ولـلـقـول أنـيـاب لـدي حـداد[٤٠]
تـرى لـلـقـوافـي والـسـمـاء جـلـيـة   عـلـيـكـم بـروق جـمـة وعـاد

ويصف نفسه بالسيطرة على الألفاظ فيقول:

ألا من كنت شاعره   فإن المجد شاعره
وإن اللفظ مطروح   على فكري جواهره

فما رأيكم فيما سمعتم، يا أدباء بغداد؟

أترون كيف يتحدث عن صقال الألفاظ وطلاب المعاني، وكيف يصف نفسه مرات بأنه صنع، ويصف قصائده بأنها كمشرعات الأسل ومحكمات الدروع؟

أرأيتم كيف يبدئ ويعيد في وصف ما تمتاز به قصائده من إحكام النظام، وكيف تجلجل جلجلة الرعود والبروق؟

إن هذا الشاعر يقفنا أمام حقيقتين: الأولى: أن البلاغة بريئة من البهرج والتكلف، والثانية: أن البلاغة لا تكون دائمًا من عفو الطبع، وإنما يصل إليها الرجال بالجهاد والجلاد في تخير الألفاظ وتصيد المعاني، وهذا ولا ريب مطمح الشاعر المثقف الذي يعرف أنه مهدد بالشهرة التي غنمها المتنبي والشهرة التي سيغنمها أبو العلاء.

وعقل القرن الرابع هو الذي أورد شاعرنا هذه الموارد، فقد كان يرى العلم والفلسفة يحيطان به من كل جانب، وكان يرى الناس لا يقنعون بالمواهب الفطرية التي كانت تغني في عصر امرئ القيس أو عمر بن أبي ربيعة أو مسلم بن الوليد، وكان يرى الأدباء يتغنون بفنون أبي تمام والبحتري وابن الرومي، وكان يتطلع إلى أن تكون له منزلة في صدور الأدباء المتفلسفين أمثال التوحيدي والصاحب بن عباد.

وسترون في المحاضرة المقبلة أن الشريف الرضي لم يكن يعيش وحده، وإنما كان يعيش في زمن أكثر علمائه شعراء، فهو يقارعهم مقارعة الشاعر المثقف، ويلقاهم بعزائم الفحول.

ننتقل إلى فن آخر يظهر فيه حرصه على الكلام البليغ، فنرى كيف كان يدرك أن محاسن الرجال لا تتم بغير العقل والبيان.

كتب إليه الصابي يشكو زمنه عرضت له، فقال الشريف يجيبه من قصيد طويل:

لئن نال قبضًا من بنانك حادث ... لقد عاضنا منك انبساط جنان[41]
وإن بز من ذاك الجناح مطاره ... فرب مقال منك ذي طيران[42]
وإن أقعدتك النائبات فطالما ... سر موقرًا من مجدك الملوان[43]
وإن هدمت منك الخطوب بمرها ... فثم لسان للمناقب باني[44]
مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظر ... وما سمعت من سامع أذنان
وموسوعة مقطوعة العقل لم تزل ... شوارد قد بالغن في الجولان[45]
وما زال منك الرأي والعزم والحجا ... فنأسى إذا ما زلت القدمان[46]

وهو في هذه الأبيات يرى أن مرض الصابي غير ضائر ما دام له قلب ولسان. ونصه على بلاغة الصابي وهو يعزيه في علته يشرح لكم كيف كان يقدر نعمة الكلام البليغ.

ولما مات الصابي رثاه الشريف أكثر من مرة، وكان كلما رثاه نص على قلمه وبلاغته، كأن يقول:

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيًا ... أنى ومثلك معوز الميلاد[٤٧]
من للبلاغة والفصاحة إن همى ... ذاك الغمام وعب ذاك الوادي[٤٨]
من للملوك يحز في أعدائها ... بظبًا من القول البليغ حداد[٤٩]
من للممالك لا يزال يلمها ... بسداد أمر ضائع وسداد[٥٠]
من للجحافل يستزل رماحها ... ويرد رعلتها بغير جلاد[٥١]
من للموارق يسترد قلوبها ... بزلازل الإبراق والإرعاد
وصحائف فيها الأراقم كمن ... مرهوبة الإصدار والإيراد[٥٢]
تدمي طوائعها إذا استعرضتها ... من شدة التحذير والإبعاد[٥٣]
حمر على نظر العدو كأنما ... بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطل ... أن ينهزمن هزائم الأجداد
فقر بها تمسي الملوك فقيرة ... أبدًا إلى مبدى لها ومعاد
وتكون سوط للحرون إذا ونى ... وعنان عنق الجامح المتمادي[٥٤]
ترقى وتلدغ في القلوب وإن يشأ ... حط النجوم بها من الأبعاد[٥٥]

فماذا ترون في هذه الصورة الشعرية، صورة القلم البليغ الذي يحز في قلوب الأعداء وكأنه السيف المسلول، القلم البليغ الذي يستنزل الرماح ويرد الجنود، ويسترد موارق القلوب بالترهيب والتخويف، القلم الذي يصير الصحائف وكأنها مملوءة بكوامن الأراقم والصلال، القلم الذي يخيل الصحائف للعدو وهي حمر قانية كتبت بالدم لا بالمداد، القلم الذي يسد مسد السوط في رياضة الحرون، ومسد العنان في عنق الجواد الجموح، القلم الذي يلدغ القلوب إن شاء، ويرقيها إن شاء، ويحط النجوم من الابعاد حين يريد.

إن هذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن فهم الشريف لقوة القلم البليغ، وهو ليس كالوصف الذي رأيناه منذ لحظات، وإنما هو وصف حي يأخذ ملامحه من قوة الإحساس ويقظة الجنان.

وقد وصف البلاغة مرة ثانية وهو يرثي الصابي فقال:

إن تمض فالمجد المرجب خالدٌ أو تفن فالكلم العظام بواقي[٥٦]
مشحوذة تدمَى بغير مضارب كالسيف أطلق في طلى الأعناق[٥٧]
يقبلن كالجيش المغير يؤمه كمش الإزار مشمر عن ساق[٥٨]
قرطات آذان الملوك خليقة بمواضع التيجان والأطواق[٥٩]
عقدوا بها المجد الشرود وأثلوا درجًا إلى شرف العلا ومراقي
أوترتها أيام باعك صلب وكددتها بالنزع والإغراق[٦٠]
حتى إذا مرحت قواك شددتها باسم على عقب الليالي باقي[٦١]
كنجائب قعدت بها أرماقها محسورة فمشين بالأعراق[٦٢]

وهو في هذه الأبيات يضع أمام أعيننا صورة ثانية تغاير الصورة الأولى بعض المغايرة وتماثلها في المدلول، ولكنه يأتي بمعنى جديد حين يصور ما كان عليه القلم في الحالين: حال الشباب وحال المشيب، فهو في الحال الأول يشد كلامه بوثاق القوة، وهو في الحال الثاني يسند كلامه بقوة الروح.

وقد وصف بلاغة الصابي وهو يرثيه مرة ثانية فقال:

هو الخاصب الأقلام نال بها علا تقاصر عنها الخاضبون العواليا
مفيد ضراب باللسان لو انه بيوم وغى فل الجراز اليمانيا[٦٣]

وهذا يدلكم على أن البلاغة كانت تملأ أقطار ذهنه فيراها أكرم ما يبكي به الرجال.

ومدح الشريف ابن جنى ورثاه، وقد رأيناه في الحالين ينص على بلاغته، فيقول في المدح:

فدى لأبي الفتح الأفاضل إنه يبر عليهم إن أرم وقالا[٦٤]
إذا جرت الآداب جاء إمامها قريعًا وجاء الطالبون إفالا[٦٥]
فتى مستعاد القول حسنًا ولم يكن يقول محالًا أو يحيل مقالا[٦٦]
ليقري أسماع الرجال فصاحة ويورد أفهام العقول زلالا[٦٧]
ويجري لنا عذابًا نميرًا وبعضهم إذا قال أجرى للمسامع آلا[٦٨]

ويقول في الرثاء:

فمن لأوابي القول يبلو عراكها ... ويحذفها حذف النبال الموارق[٦٩]
إذا صاح في أعقابها اطردت له ... ثواني بالأعناق طرد الوسائق[٧٠]
وسومها ملس المتون كأنها ... نزائع من آل الوجيه ولاحق[٧١]
تغلغل في أعقابهن وسومه ... بأبقى بقاء من وسوم الأيانق[٧٢]
ففي الناس منها ذائق غير آكل ... وقد كان منها آكلًا غير ذائق
ومن للمعاني في الأكمة ألقيت ... إلى باقر غيب المعاني وفاتق[٧٣]
يطوح في أثنائها بضميره ... مرير القوى ولاج تلك المضايق[٧٤]
تسنم أعلا طودها غير عاثر ... وجاوز أقصى دحضها غير زالق[٧٥]

فهو في الأبيات الأولى يصفه بحلاوة القول، وهو في الأبيات الأخيرة يصفه بسياسة القول. ولا يلتفت إلى سياسة القول إلا الشعراء المثقفون الذين راضتهم الأيام على وزن مقامات البيان.

ولا بأس من أن نستطرد قليلًا فنقول: إن اهتمام الشريف بمدح ابن جني ورثائه موصول الأواصر بحياته الأدبية، فقد كان ابن جني شرح قصيدته الرائعة في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني، وهي التي يقول في مطلعها:

ألقى السلاح ربيعة بن نزار ... أودى الردى بقريعك المغوار[٧٦]
وتجردي عن كل أجرد سابح ... ميل الرقاب نواكس الابصار[٧٧]

وسنعود إلى هذه القصيدة بعد حين، ولكن المهم أن نسجل أن الشريف كان يعادي ويصادق في سبيل حياته الشعرية، فهو قد مدح ابن جني ورثاه؛ لأنه شرح إحدى قصائده في الرثاء، وكذلك فعل مع الصاحب بن عباد، فقد بلغه أن شيئًا من شعره وقع إليه فأعجب به وأنفذ إلى بغداد لاستنساخ سائر شعره، فلما بلغه ذلك أخذ منه الطرب كل مأخذ، ومدح الصاحب بقصيدة بارعة منها الأبيات التي سلفت في وصف القلم، ولكنه أخفاها عنه ولم يرسلها إليه خوفًا من أن يتهم بالسعي في طلب المال، ثم مدحه بقصيدة ثانية لا يعنينا منها في هذا المقام إلا اهتمامه بوصف بلاغة الصاحب إذ يقول:

كم حجة لك في النوافل نوهت بدعاء دين العدل والتوحيد[٧٨]
ومجادل أدمي جدا لك قلبه وأعضه بجوانب الصيخود[٧٩]
وشفيت ممترض الهوى من معشر سدوا من الآراء غير سديد
قارعتهم بالقول حتى أذعنوا وأطلت نوم الصارم المغمود
جمر بمسهكة الرياح نسفته كان الضلال يمده بوقود[٨٠]

فهذه الأبيات تمثل فهمه لخطر الجدل والقلم أصدق تمثيل، وترينا كيف كان يدرك أن القلم واللسان يغنيان أحيانًا عن سل السيوف في كبح الخصوم وتأييد الآراء؟

ولما مات الصاحب رثاه الشريف بقصيدة قوية جاء فيها قوله في وصف ما تصنعه الأقلام:

واهًا على الأقلام بعدك إنها لم ترض غير بنان كفك آلا[٨١]
أفقدن منك شجاع كل بلاغة إن قال جلى في المقال وجالا
من لو يشا طعن العدا برؤوسها وأثار من جريالها قسطالا[٨٢]
وإذا تجايشت الصدور بموقف حبس الكلام وقيد الأقوالا[٨٣]
بصوائب كالشهب تتبع مثلها ورعال خيل يتبعن رعالا[٨٤]

فهو يجعل الحجج الصوائب في قوة الخيل المغيرات، وهي أخيلة بدوية كلن يحس صورها كل الإحساس.

وفي الشواهد التي سلفت ما يريكم كيف كان الشريف يهتم بوصف اللسن، وكيف كانت تروعه قوة الجدل، وقد وصل في ذلك إلى أبعد الغايات وهو يقول في رثاء عبد العزيز بن يوسف:

أبكيك يا عبد العزيز لخطة تعمي مطالعها وخطب مضلع[٨٥]
ومقاوم ما زلت تُعجز ليلها بلسان قوَّال وقلب سَمَيذَعِ[٨٦]
إني أرى في المجد بعدك ثَلمة تبقى وخرقًا ما له من مرقع[٨٧]
من يشرق الخصم الألدَّ بريقه عيًّا ويقدع منه ما لم يقدع[٨٨]
أم من يبلغ بالبلاغة غايةً تُلوى بحسرى طالبين وظلع[٨٩]

أم من يرد من المغيرة غربها　　والخيل تنهض كالقطا بالدرع[٩٠]
بنوافذ للقول يبلغ وقعها　　ما ليس يبلغ بالرماح الشرع[٩١]
شهب تشعشع في النوائب ضوءُها　　كالشمس تنغض رأسها للمطلع[٩٢]
حتى يقول الغابطون وقد رأوا　　فعلاتِه: زاحم بجدٍّ أو دع
ويود من حمل الثنا لو أصبحت　　تلك الأداة على الكميِّ الأروع[٩٣]
إن لا تكن في الجمع أمضي طعنةً　　فلأنت أمضى خطبة في المجمع[٩٤]
إن الفصاحة ذللت لك عنقها　　فأخذت منها بالعِنان الأطوع
أمست ظهور المجد عندك ترتقي　　منها إلى قمع السَّنام الأمنع[٩٥]
كيد كمارقة النضال ودونه　　بشر كبارقة النصول اللمع[٩٦]
نهاز أذنبة الكلام إذا هفا　　قلب الجريء وعي قول المصقع[٩٧]
قد قلت للمتعرضين لسطوه:　　خلوا وجار الأرقم المتطلع[٩٨]

وهذا فن جديد عند الشريف، فأكثر من وصفهم بالبلاغة كانوا من رجال السيف، أما عبد العزيز بن يوسف فلم يكن له من أدوات القتال غير القلم واللسان، وقد وصف كلماته بأنها تفعل ما لا تفعل مشرعات الرماح، وإنها ترد الخيل المغيرة وعليها أقطاب الدارعين، وحدد مقامه بين مقامات الأبطال بهذا البيت:

إن لا تكن في الجمع أمضى طعنة　　فلأنت أمضى خطبة في المجمع

وقد وصفه بالكيد، وذلك وصف طريف؛ لأنه يفصح عن خصلة نادرة لا يجيدها إلا الأقلون، والكيد سلاح عرفه الساسة من قديم الزمان وأنا لا أعرف من أصوله شيئًا، ولكني سمعت أنه يبني ويهدم ويبرم وينقض. والشريف يعني ما يقول وهو ينعت مبكيه بالكيد في موقف لا تذكر فيه غير كرائم الخلال.

وقد قلت في كتاب النثر الفني: إن ما بين أيدينا من أخبار عبد العزيز بن يوسف ورسائله لا يعطينا صورة صحيحة عن نفسه وأخلاقه، فهل أستطيع اليوم أن أعتمد على حكم الشريف فأقول: إن ذلك الكاتب كان من كبار الكائدين؟

المهم أن نسجل أن الشريف كان يفهم جيدًا خطر القول، وكان يعرف أنه يطلب لكثير من الغايات، ويدرك أن البلاغة لها مواطن خفية يدركها أقطاب الليل. ونعوذ بالله من كيد الكائدين، ودسائس الخاتلين.

ومع هذا لم يكن الشريف يرى الدنيا في جميع أحوالها حومة قتال، فقد كانت عنده مواطن يرى فيها البلاغة تطلب لإيناس الافئدة والقلوب، أليس هو الذي يقول في رثاء أبي منصور الشيرازي؟:

كم مجلس صبحته ألسننا تفض فيه لطائم الأدب[٩٩]
من أثر يونق الفتى حسن أو خبر يبسط المنى عجب[١٠٠]
أو غرض أصبحت خواطرنا تساقط الدر منه في الكتب
كالبازد العذب روقته صبا الفجر أو الظلم زين بالشنب[١٠١]

وكيف لا يعشق البلاغة ويراها من موارد الأنس من يقرنها بجمال العزم والحلم، فيقول في مدح أبي سعيد بن خلف:

خطاب مثل ماء المزن تبرى مواقعه العليل من القلوب[١٠٢]
وعزم إن مضيت به جريًا هوى مطر القنا بدم صبيب[١٠٣]
وحلم إن عطفت به معيدًا أطار قوادم اليوم العصيب[١٠٤]
وألفاظ كما لعبت شمال ملاعبها على الروض الخصيب[١٠٥]

أيها السادة

تلكم ثقافة الشريف الرضي، وذلكم إحساسه بخطر البلاغة وقوة الكلام البليغ.

وإنما أطلنا في سرد الشواد وضرب الأمثال لنريكم أن الشريف لم يكن في حياته الشعرية من اللاهين، وإنما كان يقتحم البلاغة اقتحام الفحول، ويؤمن بأن الفصاحة من أشرف ما يزدان به الرجال، ويرى آثار الأقلام أبقى على الزمن من آثار الرماح والسيوف.

فإن قلتم: وكيف صح للشريف أن يفتن بنفسه وبشعره ذلك الفتون؟

قلنا: إن لذلك موجبات سنعود إليها في المحاضرة المقبلة بالتفصيل.

هوامش

(١) انظر تحقيق هذه القضية في كتاب الناثر الفني ج٢ ص٥٢ و٥٦.

(٢) انظر الديوان ص٢٥١ و٤٦٢.

(٣) النثر الفني ج١ ص٢٩٦.

(٤) الذود من الثلاثة إلى العشرة في الإبل والخيل. وهو هنا مجاز عن القصائد.

(٥) الرذايا: جمع رذي وهو الذي أثقله المرض، والأنثى رذية، وأرذى صارت إبله وخيله رذايا. والطلائح جمع طليح وهو المهزول.

(٦) الهجينة: غير الكريمة. والهجين من أبوه خير من أمه، والصرائح جمع صريح وهو ضد الهجين.

(٧) الوبر: صوف الابل والأرانب ونحوها. والجربى: جمع جربان والوسوم: جمع وسم وهو العلامة التي يميز بها الحيوان من ضروب الصور.

(٨) المحايدة: المجانبة. والقامح: الذي يرفع رأسه عند الخوف ويمتنع من الشرب.

(٩) انجفلت: نفرت.

(١٠) اللاقح: الناقة قبلت اللقاح.

(١١) الأباغث والبغاث: لئام الطير، وتطلق مجازًا على أخلاط الناس. والجوارح ذوات الصيد من السباع والطير.

(١٢) المنيحة من قولهم: منحة الناقة إذا جعل له وبرها ولبنها وولدها.

(١٣) أي: لستم أهلًا للحلول به.

(١٤) الروابي: جمع رابية وهي ما ارتفع من الأرض. والأباطح: جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. وهو ينهاهم عن التعرض للخطر بانتحال أشعاره.

(١٥) النجيل ضرب من الحمض وهو معروف في مصر وتصلح به أرض الملاعب والقادح: كان يقع في النبت والشجر والأسنان.

(١٦) السوامخ: البقول: والجوامح جمع جامح وهو الفرس الذي يركب رأسه فلا يراهن.

(١٧) المنديات: جمع مندية وهي الفعلة يندى لها الجبين.

(١٨) اللطيمة: المسك وكل طيب يحمل على الصدغ.

(١٩) الأردان: جمع ردن بالضم وهو أصل الكم.

(٢٠) الهلباجة: الأحمق الجامع لكل عيب.

(٢١) الهجمة من الإبل أولها أربعون. أو هي ما بين السبعين إلى المئة. وتلوب: تعطش وإبل أوب ولوائب: عطاش.

(٢٢) هاج الكلأ: يبس.

(٢٣) الحارب: الناهب.

(٢٤) العوالي: رؤوس الرماح، مفردها عالية.

(٢٥) المعمد: الموشى.

(٢٦) الصرب بالكسر هو الصبغ الأحمر.

(٢٧) استرعفته: أخرجت منه الرعاف وهو الدم. والعبارة مجازية.

(٢٨) المثقف: الرمح. والعضب: السيف.

(٢٩) النقس: المداد. واللهذم: السنان القاطع. والرادع: الملطخ بالدم.

(٣٠) صفر: خال.

(٣١) الغرب: الحد. والقنا: الرمح. واليراع: القصب.

(٣٢) الغلة بالضم: الظمأ الشديد.

(٣٣) الغرة: البياض في جبين الفرس. والحجول جمع حجل بالكسر وهو البياض في قوائم الفرس.

(٣٤) محوكة: صفة من الحوك وهو النسج. والسرد: نسج الدرع. والصنع بالتحريك: الماهر في الصناعة. والمؤنث صناع.

(٣٥) الأسل بالتحريك: الرماح. والمشرعة: المسددة. والتقصف: التكسر.

(٣٦) يبوخ: يبرد.

(٣٧) الأوابد: القوافي الشوارد.

(٣٨) القنا: جمع قناة وهي الرمح. والصعاد: جمع صعدة وهي القناة التي تثبت مستوية فلا تحتاج إلى مثقف.

(٣٩) المشرفي: السيف. نسبة إلى مشارف الشام.

(٤٠) حداد: جمع حديد. من الحدة وهي القوة.

(٤١) الجنان بالفتح: القلب.

(٤٢) بز: سلب.

(٤٣) موقر: مثقل. من قولهم: نخلة موقرة إذا كانت كثيرة الثمار. والملون الليل والنهار. ولا مفرد له. ومن أجل ذلك جازعود الضمير عليه بالتذكير.

(٤٤) المناقب: المحامد. والمفرد منقبة.

(٤٥) العقل: جمع عقال.

(٤٦) نأسي من الأسى وهو الحزن.

(٤٧) معوز الميلاد: قليل الأمثال.

(٤٨) همى الغمام: انهمر. وعب الوادي: سال.

(٤٩) الظبا: جمع ظبة بالضم هي حد السيف أو السنان.

(٥٠) السداد بالكسر: صحة التدبير. وبالفتح صواب.

(٥١) الجحافل: جمع جحفل وهو الجيش الكثير، والرعلة. القطعة من الخيل. والجلاد: القتال.

(٥٢) الأراقم جمع أرقم وهو أخبث الحيات. والكمن: جمع كامن وهو المستتر. والمرهوبة: المخوفة.

(٥٣) تدمي: يسيل منها الدم. والايعاد: الانذار.

(٥٤) الحرون: الذي يعف بعد أن يستدر الجري. والجامع: الذي يخرج على طاعة الفرس.

(٥٥) ترقى: من الرقية بالضم وهي علاج المريض بالتعاويذ.

(٥٦) المرجب: المصون. على التشبيه بالنخلة المرجبة وهي التي يوضع حولها الشوك؛ لئلا يصل إليها آكل.

(٥٧) الطلي: أصول الأعناق. والمفرد طلية بضم فسكون أو طلاة.

(٥٨) يؤمه: يقوده. وكمش وكميش: مشمر.

(٥٩) القرطات: جمع تصحيح القرطة بكسر ففتح والقرطة جمع تكسير للقرط، وهو الحلية تعلق في شحمة الأذن.

(٦٠) أوترها جعل لها وترًا وهو شرعة القوس. والصلب: الشديد. والكد النزع بشدة، والاغراق من قولهم: إغراق النازع في القوس إذا استوفى مدها.

(٦١) مرحت قواه: ضعفت.

(٦٢) الأرماق: جمع رمق وهو بقية الحياة. والمحسورة التي نال منها الأعيان.

(٦٣) الوغي: الجلبة في الحرب، وفل: كسر. والجراز. السيف القاطع.

(٦٤) يبر عليهم: يغلبهم. أرم: سكت.

(٦٥) القريع: الفحل. والأفال جمع أفيل. على وزن أمير. وهو الفصيل.

(٦٦) المحال من الكلام ما غدل به عن وجهه. وأحال المقال أتى به كذلك.

(٦٧) يقري من القرى بكسر القاف وهو إكرام الضيف.

(٦٨) النمير: الصافي. والآل: السراب.

(٦٩) الأوابي: الممتنعات. والمفرد أبية وهي في الأصل الناقة تعاف الماء. والعراك هنا ازدحام الإبل في الورد. والحذف: الرمي.

(٧٠) الوسائق جمع وسيقة وهي من الإبل كالرفقة من الناس. فإذا سوقت طردت معًا.

(٧١) سومها: أرسلها. والملس جمع أملس وهو الصحيح المتن أي: الظهر. وفي المثل. «دهان على الأملس مالاق الدبر» يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه. والنزائع جمع نزيع وهو الغريب. والوجيه ولاحق فرسان تنسب إليهما الخيل العتاق.

(٧٢) الوسوم: العلامات. وهي ما يوسم به الحيوان من ضروب الصور والأيانق: جمع الجمع للناقة التي نجمع على أينق ونياق وأنواق.

(٧٣) الأكمة جمع كمامة بالكسر وهي وعاء الطلع وغطاء النور. والباقر: هو الذي يكشف مكنونات المعاني، وبه سمي الباقر محمد بن علي بن الحسين — رضي الله عنهم — لتبحره في العلم. والفائق كذلك.

(٧٤) القوي جمع قوة وهي طاقة الحبل. والمرير المحكم القتل. والعبارة مجازية.

(٧٥) تسنم الطود: علاء. والطود: الجبل. والدحض: المكان الزلق وجمعه دحاض ومنه المدحضة وهي المزلة.

(٧٦) القريع: الفحل.

(٧٧) الاجرد: الحصان القصير الشعر. والميل: جمع أميل. وهو من يميل على السرج. وهو هنا المنكسر الذي يميل عنقه من الضعف.

(٧٨) النوافل هنا معناها الشدائد. ومفردها نوفل. والعدل هو مذهب الاعتزال. وفي أخبار المصاحب بن عباد أنه كان يذهب مذهب العدل

(٧٩) الصيخود: الصخرة الشديدة.

(٨٠) المسهكة: ممر الرياح.

(٨١) الآل: أصله أهل أبدلت الهاء همزة فصارت أأل بفتح فسكون ثم إبدلت الهمزة الثانية ألفًا. ويقال في تصغيره: أويل وأهيل.

(٨٢) الجريال: ما خلص من لون أحمر أو غيره. والقسطال والقسطل: الغبار.

(٨٣) تجايشت الصدور: غلت وهاجت.

(٨٤) الرعال: جمع رعلة بالفتح وهي القطعة من الخيل.

(٨٥) خطب مضلع: مهلك.

(٨٦) المقاوم: جمع مقام وهو المجلس. والسميذع: السيد الكريم والشجاع.

(٨٧) الثلمة: فرجة المكسور والمهدوم.

(٨٨) القدع: الكبح.

(٨٩) الحسرى: جمع حسير وهو الذي نال منه الإعياء. والظلع: جمع ظالع وهو الذي يغمز في مشيه من الضعف.

(٩٠) الغرب: الحدة. والدرع جمع دراع وهو لابس الدرع.

(٩١) الشرع: المرسلة.

(٩٢) تغض: تحرك واضطرب. وأنغض. أمال وحرك.

(٩٣) الكمي: الشجاع أو لابس السلاح. والأروع: من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته. ومثله الرائع.

(٩٤) الجمع في ميدان القتال. والمجمع في حومة الجدال.

(٩٥) القمع: جمع قمعة بالتحريك وهي رأس السنام. والأمتع الذي لا ينال.

(٩٦) النصال والنصول جمع نصل وهو حديدة السهم والرمح والسيف ما لم يكن له مقبض.

(٩٧) الأذنبة جمع ذنوب بفتح فضم، وهو الدلو، والنهاز الذي يضرب بالدلو في الماء لتمتلئ، والمقصع على وزن منبر البليغ أو العالي الصوت أو من لا يرتج عليه ولا يتتعتع، ولعله جاء من الصقعاء وهي الشمس لما يمتاز به من الوضوح والجلاء.

(٩٨) الوجار بالكسر والفتح الجحر. والأرقم: الحية. وهو أخبث الحيات. والمتطلع وصف كاشف للأرقم؛ لأنه يتطلع إلى إيذاء الناس ويبدأ بالعدوان.

(٩٩) صبحته: سقته الصبوح وهو ما حلب من اللبن بالغداة وما أصبح عند السامرين من شراب. واللطائم جمع لطيمة وهي المسك.

(١٠٠) يوفق: يعجب ويطرب.

(١٠١) الظلم بالفتح الثلج وهو هنا ماء الأسنان. وأظلم الثغر تلألأ، والشنب بالتحريك ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان.

(١٠٢) تبزي: تشفى. فهي من البرء.

(١٠٣) صبيب: متدفق.

(١٠٤) القوادم هنا جمع قادم وهو الرأس.

(١٠٥) الشمال بالفتح ويكسر الريح التي مهبها نين مطلع الشمس. وبنات نعش أسماء كواكب والمعروف أن ريح الشمال ميمونة الهبوب وفيها لطف ورفق.

مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع

أيها السادة

حديث الليلة عن شاعرية الشريف الرضي كما يصورها في قصائده القصار والطوال، وقد تعقبنا حديثه عن شعره فرأينا زُهي به واختال أكثر من ستين مرة، فساقنا ذلك إلى البحث عن السر فيما أدى به إلى الإسراف في الزهو والاختيال.

قد تقولون: وهل تفرد الشريف الرضي بالحديث عن شعره حتى تبحث عن السر في ذلك؟ ألم تعرف هذه السجية فيمن سبقه من الشعراء كأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي؟

وأجيب بأن هذه الخصلة لم يتفرد بها الشريف، ولكنه أفرط وأسرف فلم يكن بد من الكشف عن سر ما وقع فيه من الإفراط والإسراف.

ولكي تعرفوا كيف أفرط وأسرف، أسوق إليكم شواهد تبين غلبة الزهو على ذلك الشاعر، ثم أتبعها بالبحث عن أسرار ذلك الاختيال.

ولا أرى موجبًا للإشارة إلى جميع المواطن التي زُهي فيها بشعره، فقد حدثتكم أنها تزيد على الستين، وإنما أطوف ببعض الأشعار التي تكشف عن تلك الخصلة بوضوح وجلاء.

وأول ما أشير إليه هو إحساسه بأن الشعر دون قدره، وأن نفسه أعلا من أنفس الشعراء وأرفع، وهو يحدثنا أنه يتخذ الشعر وسيلة إلى غرضه فيقول:

وما قـولـيَ الأشـعـارَ إلا ذريـعـةٌ   إلـى أمـل قـد آن قَـوْدُ جـنـيـبـه[1]
وإنــي إذا مـا بـلَّـغ الـلـه غـايـةً   ضمنت له هجر القريض وحوبه[2]

ويرى سيماه غير سيماء الشعراء فيقول:

وما الشعر فخري ولكنَّما   أطول به همة الفاخر
أنزهه عن لقاء الرجال   وأجعلـه تُحفة الزائر
فما يتهدَّى إليه الملو   كُ إلَّا من المثل السائر
وإني وإن كنت من أهله   لتنكرني حرفة الشاعر

ويرى القول دون الفعل فيقول:

مالك ترضى أن يقال: شاعر   بعدًا لها من عُدَدِ الفضائل[3]
كفاك ما أورق من أغصانه   وطال من أعلامه الأطاول
فكم تكون ناظمًا وقائلًا   وأنت غِبَّ القول غير فاعل[4]

وهذه الشواهد الثلاثة ترينا كيف كان يرى الشعر دون قدره، وكيف كان يرى منزلته أرفع من منازل الشعراء.

ولكن هل يهرب من شاعريته؟ أن هذا محال!
فلم يبق ألا أن يرى نفسه أشعر الأمم فيقول:

كفاك بأن عرضك من   طروق العار في ذممي
وذلك عصمة مني   بحبل غير منجذم[5]
وحسبك أن يفل شبا   ة هجوك أشعر الأمم[6]

أو يرى شعره فوق شعر البحتري ومسلم بن الوليد فيقول:

شعر أثير به العجاج بسالة[7]   كالطعن يدمي والقنا تتحطم

وفصاحة لولا الحياء لهجنت أعلام ما قال الوليد ومسلم

أو يتواضع فيرى نفسه زميل الفرزدق أو جرير فيقول:

وقـصـيـدة عـذراء مـثـــ ـل تألق الروض النضير[٨]
فـرحـت بـمـالـك رقـهـا فرح الـخـميلـة بالـغـدير[٩]
وكـأنـه فـي رصـفـهـا[١٠] جار الـفـرزدق أو جـريـر
وكـأنـه مـن حـسـنـهـا بين الخورنق والسدير[١١]

أو يرى قوافيه كقوافي البحتري وأبي نواس فيقول:

وشرب قد نحرت لهم عقارًا كحاشية الرداء الأرجواني[١٢]
كأن الشمس مال بها غروب فأهوت في حيازيم الدنان[١٣]
فصل بدم العقار دم الأعادي وأصوات العوالي بالأغاني[١٤]
فـيـوم أنـت غـرتـه جـوادٌ يبذ بشأوه طلق القران[١٥]
جعلت هديتي فيه نظامًا صقيلًا مثل قادمة السنان
بلفظ فاسق اللحظات تنمي محاسنه إلى معنى حصان[١٦]
وصلت جواهر الألفاظ فيه بأعراض المقاصد والمعاني
فجاءت غضة الأطراف بكرًا تخير جيدها نظم الجمان
كـأن أبـا عـبـادة شـق فـاهـا وقبل ثغرها الحسن بن هاني

أو يرى نفسه ضريبًا لزهير فيقول:

أنا زهير فمن لي في زمانك ذا ببعض ما افترقت عنه يدا هرم

أو يرى شعره فوق شعر زهير فيقول:

بـز زهـيـرًا شـعـري وهـأنـذا لم أرض في المجد أنه هرم

أو يرى كلامه فوق كلام الرجال فيقول:

جاءتك محصدة القوى حبارة   تستعبد الأرواح في الأجسام[17]
من لي بإنشاديكها في موقف   أعتده شرفًا مدى أيامي
لا أدعي فيه الغلو وإنما   يوفي على قلل الرجال كلامي[18]

أو يقول:

وإن قوافي الشعر ما لم أكن لها   مفسفة فيها عتيق ومقرف[19]
أنا الفارس الوثاب في صهواتها[20]   وكل مجيد جاء بعدي مردف[21]

أو يرى لسانه أمضى من السيف فيقول:

وأنا المضارب عن علاك بمقول   ماضي الغرار ولا الجراز المقصل[22]
يدمي الجوارح وهو ساكن غمده   ولقلما يمضي بغمد منصل[23]

ويرى نفسه فوق الشعراء — إذ كان يبتغي الكرامة ويبتغون المال فيقول:

مدحت أمير المؤمنين وإنه   لأشرف مأمول وأعلا مؤمم[24]
فأوسعني قبل العطاء كرامة   ولا مرحبًا بالمال إن لم أكرم

ويرى شعره يرفع أقدار الرجال فيقول:

أبا قاسم جاءت إليك قلائد   تقلد أعناق الرجال المناقبا
قلائد من نظمي تود لحسنها   قلوب الأعادي أن تكون ترائبا[25]
إذا هدها راوي القريض حسبته   يقوم بها في ندوة الحي خاطبا[26]
فلو كن غدرانًا لكن مشاربًا   ولو كن أحداثًا لكن تجاربا[27]

أو يقول:

فحسبك فخرًا بهذا المديح　　　وإن غاض في المدح ماء افتخاري
يزورك بين قلوب العداة　　　فيقطعها في اتصال المزار
غدت كف مجدك من مدحتي　　　تجول معاصمها في سوار

ويشبه أشعاره بالعقائل[٢٨] فيقول:

وكنت زمانًا أذود الملوك[٢٩]　　　عن السلك رقرقت فيه النظاما
أريد الكرامة لا المكرمات　　　ونيل العلا لا العطايا الجساما
فحوزوا العقائل عن خاطري　　　إلى مَ أماطل عنها إلى ما

ويرى شعره أعز من أن يمدح به غير الخلفاء، فيقول في خطاب الطائع لله:

أنت أفسدتني على كل مأمو　　　لٍ وأعديتني على كل خطب
فإذا ما أراد قربي مليك　　　قلت: قربي من الخليفة حسبي[٣٠]
عزَّ شعري إلا عليك وما زا　　　ل عزيزًا يأبى على كل خطب

أو يمنُّ به على أحد الوزراء[٣١] فيقول:

خطبت شعري إلى قلب يَضِنُّ به　　　إلا عليك فباشرْ خير مخطوب

وقد يرى شعره بشيرًا بالنعيم، ونذيرًا بالعذاب، فيراه غيثًا ينفع الأولياء، وصواعق تحرق الأعداء، كأن يقول في خطاب أبيه:

وهذا مقالي فيك غيثٌ وربما　　　رميت العدا من وقعه بالصواعق

وكأن يقول في التهديد:

حِذَارَكُم بني الضحاك إني　　　إلى الأمر الذي تُومون أومي

فلا تتعرضوا لذراع عادٍ مُدِلٍّ عند جِيسته شتيم[٣٢]
فإن تك مدحة سبقت فإني بضد نظامها عين الزعيم
وقافية تُخَضْخِضُ ما ترامت بها الأيام في عِرض اللئيم
تردد ما لها ممن يعيها سوى الإطراق منها والوجوم
لها في الرأس سورات يطاطي لها الإنسان كالرجل الأَميم[٣٣]
ليعلم من أناضل أن شعري يطالع بالشفاء وبالنعيم

وللشريف أفانين من التهديد، وهو يتوعد توعُّد الباطشين، ويرى شعره يعرق العظام وينكل بالأحساب. وانظروا كيف يقول:

فدونكها قاصفًا عاصفًا من الشر أو عارضًا مرزما
قوارص تنثر نظم الدروع وتستنزل البطل المعلما[٣٤]
فمن كان يسقيك أري الجنى فإني سألعقك العلقما[٣٥]
ومن كان يلقاك مستسلمًا فإني ألاقيك مستلئما[٣٦]

والشريف في وعيده يكشف عن صدر صهره الغيظ، وقلب أضرمته الضغائن والحقود. وما كان لمثل هذا الرجل أن يلقى جميع الناس بقلب رفيق، وهل يعرف الرفق من يقول:

أحرجتني فهاكها بنت عناق والرقم[٣٧]
والليث لا يخرج إلا محرجًا من الأجم[٣٨]
كلذعة الميسم في شواظ نار وضرم
والحية الرقطاء تر دي أبدًا بغير سم
حقًّا على أعراضكم تعطها عط الأدم[٣٩]
فاستنشقوها نفحة تجدع مارن الأشم[٤٠]
تقرض من جنوبكم طم اللمام بالجلم[٤١]
كأنما تضرب في ال عرض الأعز بالقدم[٤٢]
مذكورة ما بقيت من غير عقد لرتم[٤٣]

ترى على عاري العظا م وسمها وهي رمم
فلو نزعت الجلد كا ن رقمها كما رقم
كم جردت شفارها لحم فتي بلا وضم
خابطة لا تتقي صدم أخ ولا ابن عم

أيها السادة

قد أشرت كما ترون إلى نحو عشرين موضعًا زهي فيها الشريف بشعره واختال، وقد حدثتكم أن تلك المواضع نيفت على الستين، والآن أحب أن نفهم معًا كيف صح ذلك الزهو وذلك الاختيال:

كان يكفي أن نسجل هذه الظاهرة النفسية، وأن نقول: إنه سلك طريقًا سار فيه كثير من الشعراء، ولكني رأيت بعد التأمل والدرس أن هذه الظاهرة النفسية تجر وراءها أشياء، وأكاد أجزم بأنها تدل دلالة على أن الرجل كان يحس أنه يحيا في عصره حياة المغبون، وأنه كان على أهل زمانه من الحاقدين.

ولكن كيف يصح هذا الافتراض؟ هاكم البينات:

كان الشريف يعيش في عصر احتله الأموات واحتله الأحياء.

أما الأموات الذين احتلوا عصره فهم: البحتري وأبو تمام والمتنبي، وقد شاء النقاد أن يمكنوا أولئك الأموات من ذلك الاحتلال، وأظهر شاهد على ذلك ما صنع أبو العلاء المعري الذي عاش دهره كله وهو يحقد على الشريف الرضي أبشح الحقد، فقد ألف ثلاثة كتب في شاعرية أبي تمام والبحتري والمتنبي، وأراد أن يسجل أن دنيا الشعر وقف على هؤلاء الثلاثة فقال: البحتري هو الشاعر، وأبو تمام والمتنبي حكيمان. وكان الغرض من هذا الحكم أن يكون هؤلاء الثلاثة محور الجدل والخلاف.

ويضاف إلى هذا أن الشريف الرضي أعلن خصومته لشاعرية المتنبي وإعلان هذه الخصومة عاد على ذكرى المتنبي بأجزل النفع، فقد كان للشريف كثير من الأعداء، وأولئك الأعداء أصابوا فرصة لم تكن تخطر ببال، فقد مضوا يبدئون ويعيدون في الكلام عن عبقرية المتنبي، وأذاعوا في الناس أنه شاعر لن يجود بمثله الزمان، وكانت هذه الأحكام ظاهرها حب الأدب وباطنها إغاظة الشريف.

وقد أراد خصوم المتنبي أن يقوموا بحركة عكسية، ولكنهم لم يفلحوا، فقد أرسل الصاحب بن عباد يستنسخ ديوان الشريف؛ ليفهم الناس أن الشريف هو شاعر الجيل، وأن العصبية للمتنبي لا تمنع من التسليم بأن عالم الشعر لا يزال فيه مجال للأعلام والأقطاب.[٤٤]

قد تقولون: وكيف جاز للشريف أن يحقد على رجل مات قبل أن يجيء هو إلى الدنيا بأعوام؟

وأجيب بأن موت المتنبي في القرن الرابع لم يكن مثل موت شوقي في القرن الرابع عشر: فقد سكت النقاد عن شوقي بعد إذ مات؛ لأن شوقي كان ملك الجماهير في زمانه ملكًا قويًّا، وكان تفرد بأفانين من الشعر عجز عنها معاصروه، فلما مات سلموا له بالإمارة الشعرية، وعادوا إلى شؤونهم ساكتين.

ولم يكن الحال كذلك بعد موت المتنبي، فقد كان على جهارة صوته وجلجلة شعره يحدث الناس بما يألفون، وكانت له بدوات لفظية ومعنوية تؤلب الناس عليه، وتهيج النحويين واللغويين، فلما مات بقيت الفرصة للجدل والشغب والضجيج، وانقسم الناس حول شعره إلى فريقين: عدو وصديق، وكذلك ظل يثير الهيجاء وهو هامد بين الصفائح والتراب، ولو تسمع الناس صوت رفاته البالي لرأوه يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ومن المؤكد أن الشريف شهد الخصومة حول شعر المتنبي وهو طفل، ومن المؤكد أيضًا أن عظمة المتنبي احتلت أقطار نهاه، ولعلها كانت السبب في أن ينظم الشريف أجود الشعر وهو ابن عشر سنين، فليس من المستبعد أن يكون في أساتذة الشريف من لقنه الحقد على المتنبي، ثم ظل هذا الحقد عقيدة أدبية يساورها وتساوره طول الحياة.

وأقف عند الغرض الأصيل فأقول: إن الشريف كان يعجب لانصراف الناس عن شعره وإقبالهم على شعر المتنبي، وقد انقلب هذا العجب إلى حقد؛ لأنه كان يرى نفسه أشعر من المتنبي، وكان يفهم جيدًا أن الناس لو خلصت ضمائرهم من أوضار العصبيات الدينية والسياسية والأدبية لفضلوه على المتنبي، ولكنهم لن يخلصوا ولن يسعفوا الشريف بما يريد.

ولم يكن المتنبي هو الشاعر الوحيد الذي يحتل أذهان أهل بغداد، فقد كانت هناك أطياف ترد إلى أهل بغداد من شاعر ولد في بلد بعيد وعاش في القرن الرابع: وهو

أبو القاسم بن هاني الذي ولد في إشبيلية، وسمت به همته إلى أن يكون أمير الشعراء في مصر، ثم احتضره الموت وهو في الطريق، فلم يشهد بساتين الجزيرة ولا مساجد الفسطاط.

وكانت أطياف ابن هاني تغيظ الشريف الرضي أشد الغيظ؛ لأن الناس لم يكونوا يجدون عبارة تفيه حقه من الثناء إلا أن يقولوا هو: متنبي المغرب. ولا نعرف بالضبط كيف عرف العراقيون شعر ابن هاني لعهد الشريف، ولكن من المؤكد أن ابن هاني كانت له سمات تلفت العراقيين إليه: فقد كان شاعر الفاطميين أعداء العباسيين، الفاطميين الذين أنشأوا القاهرة لينافسوا بغداد، وليخلقوا الخصومة بين دجلة والنيل.

أيها السادة

حدثتناكم حديثًا موجزًا عن شاعرين كانا يحتلان أذهان الناس في بغداد من بين الأموات، وهما المتنبي وابن هاني، وبينا كيف كان الشريف يغتاظ لصيرورة ما أبدعا من الآيات، فما بالنا لا نخبط شجرة الشعر في القرن الرابع لنرى كيف كان الشريف يتعب ويضجر ويلتاع؛ ليرفع رايته في ذلك البحر المحيط؟

لقد كان العراق في القرن الرابع مسرحًا لعرائس الشعر الجميل، وكان المرء لا يلتفت إلا رأى نفائس وغرائب تبهر الأذواق والقلوب والعقول.

ففي القرن الرابع ولد السلامي، ولد بالكرخ لست خلون من رجب سنة ٣٣٥، وقد بهر الناس بشعره في مطلع صباه، فقد كان أول ما سار من شعره قوله وقد ركب سفينة في دجلة، وكان ركبها أول مرة.[٤٥]

وميدان تجول به خيول — تقود الدارعين ولا تقاد
ركبت به إلى اللذات طرفًا[٤٦] — له جسم وليس له فؤاد
جرى فظننت أن الأرض وجه — ودجلة ناظر وهو السواد

وقد مضى السلامي يبدع ويجيد حتى فتن أهل بغداد، وحتى استطاع أن يقول:

وفيهن سكرى اللحظ سكرى من الصبا — تعاتب حلو اللفظ حلو الشمائل
أدارت علينا من سلاف حديثها — كؤوسًا وغنتنا بصوت الخلاخل

واستطاع أن يجيد وصف الزنانير التي تضجر أهل بغداد فيقول:

ولابس ون واحد وهو طائر ... ملونة أبراده وهو واقع
أغر محشي الطيلسان مدبج ... وسود المنايا في حشاه ودائع
إذا حك أعلا رأسه فكأنما ... بسالفتيه من يديه جوامع
يخاف إذا ولَّى ويؤمن مقبلًا ... ويخفي على الأقران ما هو صانع
بدا فارسي الزي يعقد خصره ... عليه قباء زينته الوشائع[٤٧]
فمعجره الوردي أحمر ناصع ... ومئزره التبري أصفر فاقع
يرجع ألحان الغريض ومعبد ... ويسقي كؤوسًا ملؤها السم ناقع

والسلامي هذا كان شغل أهل العراق في القرن الرابع فمنحوه لقب أمير الشعراء، فانظروا كيف كان يصح للشريف الرضي أن يسكت عن ضياع شعره، وهو أشعر من أمثال السلامي بلا جدال.

وفي ذلك العصر نبغ في العراق ابن نباتة السعدي الذي وصف الثعالبي قصائده بأنها أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب. وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب، ابن نباتة الذي يقول:

وكم لليل عندي من نجوم ... جمعت النتر منها في نظام
عتابًا أو نسيبًا أو مديحًا ... لخل أو حبيب أو همام
تفيد بها العقول نهى وصحوا ... وقد فعلت بها فعل المدام
لها في حلبة الآداب ركض ... إلى حب القلوب بلا احتشام

ابن نباتة الذي يقول:

عجبت له يخفي سراه ووجهه ... به تشرق الدنيا وبالشمس بعده
ولا بد لي من جهلة في وصاله ... فمن لي بخل أودع الحلم عنده

وفي ذلك العهد نبغ بالموصل شاعر فحل هو السري الرفاء[٤٨] السري الذي يقول وقد شرب في زورق:

ومعتدل يسعى إلي بكأسه ... وقد كاد ضوء الصبح بالليل يفتك
وقد حجب الغيم السماء كأنما ... يزر عليها منه ثوب ممسك
ظللنا نبث الوجد والكأس دائر ... ونهتك أسرار الهوى فنهتك[٤٩]
ومجلسنا في الماء يهوي ويرتقي ... وإبريقنا في الكأس يبكي ويضحك

وأكاد أجزم بأن السري الرفاء نال من نفس الشريف كل منال، فقد شغل النقاد بشعر الرفاء شغلهم بشعر المتنبي، فأفنوا الليالي في إخراج سرقاته الشعرية ومزقوه كل ممزق، وكان الشريف يتمنى أن يظفر شعره من النقاد بعض ما ظفر به شعر الرفاء.

وفي عصر الشريف نبغ في العراق شاعران ماجنان هما: ابن سكرة وابن حجاج، وكان لهذين الشاعرين في زمانهما مكان مرموق، فكان يقال في بغداد: (إن زمانًا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخي جدًّا)،[٥٠] وكانت أشعار هذين الماجنين تباع في الأسواق بأثمان غالية، وكان الناس يتشوفون إلى أشعارهما تشوف الصائمين إلى طلعة شوال، وما ظنكم بديوان شعر يباع بخمسين دينارًا في أزمان قضت عليها الفتن والثورات بضيق العيش واختلال الأحوال!

وقد طغى هذان الشاعران في زمانهما أبشع الطغيان، بفضل ما خلبما به الناس من أشعار الهزل والمجون، وبفضل ما رزقا من قوة الافتنان مع خفة الروح.

أما ابن سكرة فكان يبدع في وصف مجالس اللهو والأنس كأن يقول:

ويوم لا يقاس إليه يوم ... يلوح ضياؤه من غير نار
أقمنا فيه للذات سوقًا[٥١] ... نبيع العقل فيها بالعقار

وقد اتفق له أن يعشق قينة سوداء اسمها «خمرة» فقال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت، وكانت هذه الحكاية مدار السمر في أندية بغداد، وأثرت في الشريف الرضي نفسه فأنشأ القصائد الطوال في التشبيب بالسود الملاح.[٥٢]

وأما ابن حجاج فقد تفرد بفن من السخف لم يسبقه إليه سابق،[٥٣] وكان السخف في ذلك الزمن شيئًا يطلبه أحرار الرجال ليتلهوا عما يحيط بهم من المعاطب والظلمات. وقد

بلغ الشعر بابن حجاج كل مبلغ فحصل الأموال، وعقد الأملاك، وصار مقضي الحاجة، مقبول الشفاعة، محذور الجانب، متقي اللسان.[٥٤]

ولم يكن السخف كل بضاعة ابن حجاج: فقد كان يجيد في سائر ضروب الشعر إجادة الفحول، واضطر الشريف إلى العكوف على دراسة شعره فأخرج منه مختارات سماها (الحسن من شعر الحسين).

ولما مات رثاه الشريف بقصيدة جيدة ابتدأها بهذين البيتين:

نعوه على ضن قلبي به فلله ماذا نعي الناعيان
رضيع ولاء له شعبة من القلب فوق رضيع اللبان

وختمها بهذين البيتين:

فزل كزيال الشباب الرطيـ ـب خانك يوم لقاء الغواني
ليبك الزمان طويلًا عليك فقد كنت خفة روح الزمان

وأستطيع أن أقول: إن الشريف كان يعطف على ابن حجاج لبعض الوفاق في المذاهب الدينية أو السياسية: فقد كان يعرض ببعض خصوم أهل البيت، كأن يقول في خطاب أبي إسحاق الصابي:

فداك الله بي وبكل حيٍّ من الدنيا دني أو شريف
يحل لك التغافل عن أناس تولوا ظلم خادمك الضعيف
ولست بكافر فيحل مالي ولا الحجاج جدي من ثقيف
فمر بدراهمي ضربًا وإلا جعلت سبال قوفًا في الكثيف[٥٥]

ولم تمنعه مراعاة الخلافة العباسية في بغداد من مدح الخلفاء الفاطميين بالقاهرة، والظفر بما في مصر من طيبات الهدايا والدنانير.[٥٦]

ولكن من الظلم أن تقضي بأن ذلك التوافق المذهبي كان كل الأسباب في عطف الشريف على ابن حجاج، فقد كانت لهذا الرجل وثبات شعرية قليلة الأمثال، فهو الذي يقول:

ومدلل أما القضيب فقده شكلًا وأما ردفه فكثيب
يمشي وقد فعل الصبا بقوامه فعل الصبا بالغصن وهو رطيب
متلون يبدي ويخفي شخصه كالبدر يطلع مرة ويغيب
أرمي مقاتله فتخطئ أسهمي غرضي ويرمي مقتلي فيصيب
نفسي فداؤك إن نفسي لم تزل يحلو فداؤك عندها ويطيب
ما لي وما لك لا أراك تزورني إلا ودونك حاسد ورقيب

تلكم حال ابن سكرة وابن حجاج، فهل يمكن القول: بأن الشريف كان ينظر إلى نجاح هذين الشاعرين بعين الارتياح؟

وكيف وهو يراهما ينتهبان الجو الأدبي أفظع انتهاب، ويبلغان بالهزل ما لا يبلغ معشاره أصحاب الجد الصراح؟

ولا تنسوا أني أسوق هذا الكلام لأبين السر في حرص الشريف على الزهو بشعره، والاختيال بعبقريته، فقد كان مضطرًّا إلى تذكير أهل العراق بما له في الشعر من مقام جليل.

وفي القرن الرابع نبغ أبو الحسن الجرجاني الذي ذكر الناس بعهد البحتري، وقد فصلت الكلام عن شعره ونثره في الجزء الثاني من كتاب «النثر الفني» فلا أعود إليه الآن، وإنما يهمني أن أنص على أنه كان من أشهر من أنصفوا المتنبي، وكان الشريف يبغض المتنبي، كما تعلمون.[٥٧]

ومن نوابغ القرن الرابع أبو الفتح كشاجم، وكان شعره في ذلك العهد ريحانة أهل الأدب في العراق، وكان مورد رزق للنساخ والوراقين، وطوفت أشعاره بالمشرق والمغرب حتى وصلت إلى القيروان، وتخير أطايبها مؤلف «زهر الآداب» فانظروا كيف يضيق صدر الشريف الرضي وهو يرى هذه الشهرة لشعر كشاجم، على حين يظل شعره الفخم بلا رواة ولا شراح ولا نقاد، وهو في نفسه أشعر الناس.

ومن أعلام ذلك العصر أبو حامد الأنطاكي، وهو شاعر نشأ بالشام ثم رحل إلى مصر فعاش فيها عيش الترف إلى أن مات سنة ٣٩٩، وقد كانت لهذا الشاعر في زمانه شهرة عظيمة؛ لأنه أراد أن يكون في مصر والشام كابن سكرة وابن حجاج في العراق.

ويظهر أنه صادف في مصر جماعة من أهل الهزل والمجون، فأوغل في السخف كل الإيغال، وسمى نفسه أبا الرقعمق، وأعلن أنه حليف الرقاعة والحماقة، حتى صح له أن يقول:

أستغفر الله من عقل نطقت به ... ما لي وللعقل؟ ليس العقل من شاني!

ولكن هذا الشاعر لم يخل من عبقرية نبيلة، فقد سجل في شعره ليل تنيس وهي مدينة مصرية كان لها حظ مرموق، وكان بها في بعض العهود خمس مائة صاحب محبرة يكتبون الحديث، وكانت كذلك من أماكن الصيد صيد الطير لا صيد الظباء، فكان بها من أنواع الطيور مئة ونيف وثلاثون صنفًا ذكرها بأسمائها صاحب معجم البلدان. وسجل الأنطاكي كذلك ملاعب الجزيرة، جزيرة الفسطاط، لا الجزيرة التي يصلنا بملاعبها في هذه الأيام جسر إسماعيل، وانظروا كيف يقول وقد طال شوقه إلى ملاعب الفسطاط:

ليلي بتنيس ليل الخائف العاني ... تفنى الليالي وليلي ليس بالفاني
أقول إذ لج ليلي في تطاوله: ... يا ليل أنت وطول الدهر سيان
لم يكف أني في تنيس مطرح ... مخيم بين أشجان وأحزان
حتى بليت بفقدان المنام فما ... للنوم إذ بعدوا عهد بأجفاني
ما صاعد البرق من تلقاء أرضهم ... إلا تذكرت أيامي بنعمان
ولا حننت إلى نجران من طرب ... إلا تكنفني شوق لنجران
لا تكذبن فما مصر وإن بعدت ... إلا مواطن أطرابي وأشاني[٥٨]
ليالي النيل لا أنساك ما هتفت ... ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لي سلفت ... قطعتهن وعين الدهر ترعاني
مع سادة نجب غر غطارفة ... في ذروة المجد من ذهل بن شيبان
وذي دلال إذا ما شئت أنشدني ... وإن أردت غناء منه غناني
سقيته وسقاني فضل ريقته ... وجادلي طرفه عفوًا ومناني
ما زال يأخذها صفراء صافية ... حتى توسد يسراه وخلاني
الله يعلم ما بي من صبابته ... وما علي جناه طرفه الجاني

كم بالجزيرة من يوم نعمت به ... على تضاحك نايات وعيدان
سقيًا لليلتنا بالدير بين ربًا ... باتت تجود عليها سحب نيسان
والطل منحدر والروض مبتسم ... عن أصفر فاقع أو أحمر قاني
والنرجس الغض منهل مدامعه ... كأن أجفانه أجفان وسنان

ولا يمكن الشك في أن الشريف الرضي سمع بأخبار هذا الشاعر، وما كان لشعره من الذيوع في الأقطار الشامية والديار المصرية.

وفي القرن الرابع نبغ ابن درَّاج الأندلسي، وقد فصلتُ أخباره ووازنت بينه وبين أبي نواس في كتاب «الموازنة بين الشعراء»، وإنما يهمني أن أنص على أن في أشعاره ما يدل على أنه رحل إلى المشرق فعرف العراق وخراسان إذ يقول:

فإن غرَّبتْ أرضُ المغارب موئلي ... وأنكرني فيها خليطٌ وخلانُ
فكم رحبت أرض العراق بمقدَمي ... وأجزلت البشرى عليَّ خراسان
وإن بلادًا أخرجتني لَعاطلٌ ... وإن زمانًا خان عهدي لخوَّان
سلام على الإخوان تسليم آيسٍ ... وسقيًا لدهر كان لي فيه إخوان
فلا مؤنس إلا شهيق وزفرة ... ولا مسعد إلا دموع وأجفان
وما كان ذاك البين بين أحبة ... ولكن قلوبٌ فارقتهن أبدان
فيا عجبًا للصبر مِنَّا كأننا ... لهم غير من كنا وهم غيرَ من كانوا
مضى عيشهم بعدي وعيشي بعدهم ... كأنيَ قد خُنت الوفاء وقد خانوا

ولا تندهشوا أيها السادة حين أحدثكم عن غيرة الشريف الرضي من سلطان الشعراء في المشرق والمغرب، فقد كانت الدواوين الشعرية تصل إلى بغداد في حَيَوات أصحابها، وكانت بغداد تشعر بخطر المنافسة، منافسة القاهرة وقرطبة، فكانت تستورد كل ما تجود به القرائح، وإن تباعدت البلاد.

وكان العراقيون ومن والاهم من أهل المشرق يضنون بالكتب ضن الأشراف بالأعراض؛ فقد غلب أديب على نسخة الجمهرة لابن دريد، غلبه الفقر، وهو أبو الحسن علي بن أحمد الفالي، فباعها للشريف المرتضى بستين دينارًا، فلما تصفحها الشريف وجد فيها بخط البائع هذه الأبيات.

أنست بها عشرين حولًا وبعتُها — فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها — ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ — صغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عَبرة — مقالة مكويِّ الفؤاد حزين
(وقد تخرج الحاجات يا أم مالك — كرائم من ربٍّ بهنَّ ضنين)

ويقال: إن المرتضى رد النسخة إلى صاحبها بعد قراءة هذه الأبيات وترك الدنانير.

أيها السادة

رأيتم كيف كان الشعر يرفع أهله في القرن الرابع، وكيف كان الشريف يضجر من خموله بين الشعراء، مع أنه كان في نفسه وفي الواقع سيد الشعراء.

فلننظر الآن نظرة ثانية نرى بها كيف عظمت منزلة الشعر في القرن الرابع، حتى استطاع الرضيُّ على شرف منبته أن يرى الشعر من أظهر مزاياه.

كان الشعر في ذلك العصر ممَّا يتحلى به الأمراء والرؤساء، فكان من أقطابه أمير مصر تميم بن المعز، وكان من أعلامه السادة الحمدانيون من أمثال سيف الدولة وأبي فراس.

وكيف لا يعز الشعر في زمن يكون من شعرائه وزراء عظام كأبي الفضل ابن العميد والصاحب بن عباد؟ كيف لا يعز الشعر في زمن يكون من شعرائه قاضٍ كأبي الحسن الجرجاني وكاتب مثل عبد العزيز بن يوسف؟

ومن عجائب ذلك العصر أن رجاله كانوا في الأغلب يجمعون بين الصناعتين: الشعر والإنشاء، فكانت البلاد تموج موجًا بمواكب الخيال والبيان.

وكان الشريف الرضي ينظر إلى تلك المواكب بعين القلق والحيرة؛ لأن الظروف السياسية كانت ضيقت عليه الخِنَاق، وأقصت عنه أسباب السلطة الأدبية، وهي سلطة هائلة كان لها الأمر يومئذٍ في مصاير الرجال.

وسترون في المحاضرة المقبلة تفصيل هذا الجانب من حياة الشريف، ولكن المهم في هذه اللحظة أن تثقوا بأن الظروف هي التي أحرجته وقضت عليه وهو رجل مهذب بأن يخرج على قواعد الذوق فيُزْهَى بشعره ويختال، المهم عندي أن تعذِروا الشريف حتى ترونه يقول:

سيُسكتني يأسي وفي الصدر حاجة ... كما أنطقتني والرجال المطامع
بضائع قول عند غيريَ ربحها ... وعنديَ خُسراناتها والوضائع
غرائب لو هدَّت على الطود ذي الصفا ... أصاخ إليها يذبل والقعاقع
تضاع كما ضاعت خلاة بقفرة ... زفتها النُّعامى والرياح الزعازع[٥٩]
كأن لساني نِسعةٌ حضرمية ... طواها ولم يبلغ لها السوم بائع[٦٠]
لقد كان لي عن باحة الذل مذهب ... ومضطرَبٌ عن جانب الضيم واسع
وما مُدَّ ما بيني وبين مذاهبي ... حجاز ولا سدت عليَّ المطالع[٦١]
سيُدرَى من المغبون منا ومنكم ... إذا افترقت عمَّا نقول المجامع
وهل تدَّعي حفظ المكارم عصبةٌ ... لئام ومثلي بينها اليومَ ضائع
نعم لستم الأيدي الطوالَ فعاونوا ... على قدركم قد تُستعان الأصابع
إذا لم يكن وصلي إليكم ذريعة ... فيا ليت شعري ما تكون الذرائع
أرى بارقًا لم يُروني وهو حاضر ... فكيف أرجِّي رِيَّهُ وهو شاسع
سأذهب عنكم غير باكٍ عليكم ... وما لي عذرٌ أن تفيض المدامع
وأعتد فجًّا أنتم من حِلالِهِ ... ثنيَّةَ خوفٍ ما له اليوم طالع[٦٢]
وما موقفي والركب يرجى على الصدى ... موارد قد نشت بهن الوقائع[٦٣]
أفارقكم لا النفس ولهى عليكم ... ولا اللب مخلوس ولا القلب جازع
ولا عاطفًا جيدي إليكم بلفتة ... من الشوق ما سار النجوم الطوالع
ولا ذاكرًا ما كان بيني وبينكم ... مراجعة، إن المحب المراجع
نبذتكم نبذة المخفف ثقله ... وإني لحبل منه الغدر قاطع[٦٤]

أيها السادة

ذلكم مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع، وتلكم شكواه من جماهير الناس في بغداد، فليته يعود اليوم ليرى كيف تعطفون عليه بعد مئات السنين، وكيف تتوجعون لما كان يتوجع، وكيف تشفقون عليه إشفاق الأكرمين من الأوفياء.

هوامش

(١) الجنيب والجنوب: الفرس تقوده إلى جنب فرسك في السباق. فإذا فتر المركب تحولت إلى الجنوب. والذريعة: الوسيلة.

(٢) الحرب بالفتح ويضم: الإثم، وهو هنا مضموم الحاء. وهو مجرور بالعطف على القريض.

(٣) العدد جمع عدة بضم العين وهو ما تتوسل به إلى غرضك.

(٤) الغب بالكسر عاقبة الشيء.

(٥) منجذم: منقطع.

(٦) الشباة: إبرة العقرب وحد كل شيء. وفل شباة هجوه كسوها.

(٧) البسالة: الشجاعة.

(٨) التألق: البريق واللمعان.

(٩) الخميلة: الموضع يكثر فيه الشجر الملتف. والغدير: الماء يغادره السيل. والجمع غدران.

(١٠) الرصف في الأصل ضم الحجارة بعضها إلى بعض. وهو هنا نظم الكلام.

(١١) الخورنق قصر الثعبان الأكبر معرب خورنكاه. أي: موضع الأكل. والسدير: نهر بناحية الحيرة. وقد وصف تلك الأماكن في كتاب «ليلى المريضة في العراق».

(١٢) الشرب بفتح الشين هم القوم يجتمعون على الشراب. والعقار بضم العين هي الخمر سميت بذلك لمعاقرتها أي: لملازمتها الدن أو؛ لأنها تعقر شاربها عن المشي. والأرجواني بضم الهمزة والجيم الأحمر القاني.

(١٣) الحيازيم جمع حيزوم وهو الصدر أو وسطه. والدنان جمع دن بفتح الدال. وهو الراقود العظيم توضع فيه الخمر.

(١٤) العوالي: الرماح.

(١٥) يبذ: يفوق. والشأر. السبق. والقرآن: وبكسر القاف هو هنا النبل بفتح النون..

(١٦) الحصان بفتح الحاء: العفيف.

(١٧) محصدة القوى: محكمة الفتل. وهي عبارة مجازية. والحبارة. صفة مدح مأخوذة من الحبير وهو البرد الموشي.

(١٨) القلل: جمع قلة بضم القاف وهي أعلى الرأس والسنام والجبل.

(١٩) العتيق: الشريف. والمقرف ما يداني الهجنة أي: أمه عربية لا أبوه؛ لأن الأقراف من قبل الفحل والهجنة من قبل الأم. والعبارة أيضًا مجازية.

(٢٠) الصهوات جمع صهوة وهي مقعد الفارس من الفرس.

(٢١) المردف كالرديف. والمرتدف هو من يركب خلف الراكب.

(٢٢) القول بكسر الميم هو اللسان. والغرار بكسر الغين حد الرمح والسهم والسيف، والجزار بضم الجيم: السيف القاطع، والمقصل: على وزن منبر صفة للسيف. من القصل وهو القطع.

(٢٣) المنصل بضم الميم والصاد. السيف.

(٢٤) مؤمم على وزن المفعول: مقصود.

(٢٥) الترائب عظام الصدر وهي هنا موضع القلادة.

(٢٦) هد في هذا البيت فعل من الهد وهو الصوت والترنم.

(٢٧) الغدران: تكون في الأغلب مشوبة بالقذى فهي لا تكون مشارب إلا إن غلب عليها الصفاء. والأحداث شارة الشقاء في الأغلب ولا يغلب عليها القبول إلا إن صارت من التجاريب.

(٢٨) العقائل جمع عقيلة وهي السيدة الكريمة المخدرة.

(٢٩) أذود: أمتع.

(٣٠) يشير بهذا إلى زهده في مدح الملوك من بني بويه، وكان صدف عنهم بعد أن حبس عضد الدولة أباه. ولكنه سيمدح بهاء الدولة ويطيل في الثناء عليه.

(٣١) هو أبو نصر سابور أردشير وقد قدم بغداد مع شرف الدولة سنة ٣٧٦.

(٣٢) الخيسة بالكسر والخيس: موضع الأسد. والشتيم: الأسد العابس.

(٣٣) الأميم والمأموم هو الذي أصابت الضربة أم رأسه.

(٣٤) المعلم بصيغة المفعول هو الذي يحمل علامة الحرب.

(٣٥) الأري: العسل.

(٣٦) المستلئم لابس اللأمة وهي الدرع المحكمة.

(٣٧) العناق على وزن سحاب: الداهية، وكذلك الرقم بالتحريك.

(٣٨) أصل هذا المعنى لأبي تمام إذ يقول:

أخرجتموه بكره عن سجيته — والنار قد تنتضي من ناضر السلم

وطأتموه على جمر العقوق ولو　　لم يحرج الليث لم يخرج من الأجم

(٣٩) تعطها: تشقها. والمعطوط: المغلوب قولًا وفعلًا. والأدم: الجلد.

(٤٠) المارن: الأنف. أو طرفه. أو ما لان منه.

(٤١) طم الشعر: جزء أو عقصه. واللمام: جمع لمة وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن. والجلم: المقص.

(٤٢) القدم: جمع قدوم.

(٤٣) الرتم: خيط يعقد في الأصبع للتذكير.

(٤٤) وهناك سبب سياسي لعطف الصاحب على شعر الشريف: فقد كان الشريف يكره عضد الدولة؛ لأنه سجن أباه. وكان الصاحب يكره عضد الدولة؛ لأنه كان يسعى لقتله في الخفاء. فالاشتراك في بغض عضد الدولة كان من أهم أسباب المودة بين الشريف الرضي والصاحب بن عباد.

(٤٥) عبارة اليتيمة (وكان رآها أول مرة) وهذا يكاد يكون غير معقول.

(٤٦) الطرف بالكسر: الحصان.

(٤٧) الوشائع جمع وشيعة وهي الطريقة في البرد، من الوشع وهو زهر البقول.

(٤٨) عاش هذا الشاعر إلى سنة ٣٦٦ فكان عمر الرضي وقت وفاته نحو ثمان سنين.

(٤٩) الكأس قد يذكر. ومن شواهد تذكيره هذا البيت.

(٥٠) انظر اليتيمة.

(٥١) في اليتيمة (شوقًا) بالشين وهو تحريف.

(٥٢) سنرى شواهد ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٥٣) تجارب الأمم ج٣ ص٤٠٣.

(٥٤) ص٤٠٤.

(٥٥) قوفا هو أبو الحسن محمد بن الهماني.

(٥٦) تجارب الأمم ج٣ ص٤٠٤.

(٥٧) سنرى فيما بعد رأيًا للأستاذ طه الراوي ينفي الخصومة التي قيل: إنها ثارت بين المعري والشريف الرضي بسبب المتنبي.

(٥٨) مصر في هذا البيت هي الفسطاط، وجمهور المصريين يسمون عاصمتهم مصر، حتى القاهرة تسمى عندهم اليوم مصر.

(٥٩) الخلاة: واحدة الخلا وهو الرطب من النبات. والنعامى بالضم ريح الجنوب، وزفته طردته.

(٦٠) النسمة قطعة من النسع وهو سير من الجلد تشد به الرجال.

(٦١) الحجاز: هو الحاجز.

(٦٢) الحلال بالكسر هم النازلون بالمكان. والثنية: العقبة في الجبل.

(٦٣) النش: نضوب الماء، والوقائع: مساقط الماء.

(٦٤) في طبعة بيروت (مئة الغدر) وقد أتعب المصحح نفسه فشكل كلمة (منة) بفتح الميم وتشديد النون وضم التاء، والصواب (منه) وهو فعل ماض من المن وهو القطع. وفي القرآن (لهم أجر غير ممنون) أي: غير مقطوع.

أعوام البؤس في حياة الشريف

أيها السادة

أحدثكم هذه الليلة عن أعظم حادثة أثرت في حياة الشريف، وأضرمت النار في صدره، وبصرته بحقائق الدنيا وخلائق الناس.

وهذه الحادثة تفسر لكم إلحاح الشريف في مدح أبيه، والتشوق إليه، بطريقة لم تعرف عن أحد من الشعراء.

هذه الحادثة هي اعتقال أبيه وحبسه في قلعة فارس من سنة ٣٦٩ إلى سنة ٣٧٦.

وقبل أن نفصل أسباب هذه الحادثة نذكر أن الرضي ولد في أيام كانت تفيض بالنكبات، وتعج بالدماء، فقد حدث وهو صبي في المهد أن ثارت الفتن بين الديلم والأتراك ثورة عادت على بغداد بأعظم الفجائع، وأبيحت مدينة الكرخ فدام فيها الحريق أكثر من أسبوع، وأحرق الرجال والنساء في الدور والحمامات، وتقدم أبو أحمد الموسوي والد الرضي لمخاطبة العباس بن الحسين وزير بختيار ومحاسبته على ما وقع في الكرخ، فغضب الوزير وصرفه عن النقابة، وكانت يومئذ أعظم منصب يتولاه الأشراف.

وما كاد الشريف يدرك كيف يبتسم لأبويه وهو في المهد حتى وقع حادث انكشفت به الخلافة الإسلامية أبشع انكشاف: فقد وردت الأخبار إلى بغداد بأن الروم غزوا نصيبين فملكوها وأحرقوها وقتلوا الرجال وسبوا الذراري، ثم ورد ناس من ديار ربيعة وديار بكر مدينة بغداد واستنفروا المسلمين في المساجد والأسواق، وخوفوا البغداديين عواقب ما يتطلع إليه الروم من غزو العراق، وقامت مظاهرة هائلة توجهت إلى قصر الخليفة المطيع لله، وحاول المتظاهرون الهجوم عليه، وقلعوا طائفة من نوافذ القصر، فأغلقت دونهم الأبواب بعد أن كادوا يصلون إلى الخليفة، ولكنهم لم ينصرفوا حتى أسمعوه أفحش السباب.

وفي تلك اللحظة الحرجة تقدم بختيار يطالب الخليفة بما عنده من المدخرات ليستعين بها على غزو الروم، فأجاب الخليفة:

> إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإليَّ تدبير الأموال والرجال، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفايتي، والدنيا في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت عن هذا المقدار أيضًا، وتركت لكم الأمر كله.

ولكن هذا الجواب على ما فيه من فضيحة الخليفة لم يرض بختيار: فما زال يوعد ويهدد حتى اضطر الخليفة المطيع لله إلى بيع ثيابه، وبعض أنقاض داره ليجمع أربع مائة ألف درهم يسلم بها من غضب بختيار الذي أخذ من الخليفة ومن الناس ما أخذ ولم يخط خطوة واحدة في قتال الروم!

وقد تجلت هذه البلايا عن قوتين تخاصمان بني بويه: قوة الخلافة إن بقيت لها قوة، وقوة أبي أحمد الموسوي الذي عزله وزير بختيار عن نقابة الأشراف.

وبعد سنتين من ذلك التاريخ سنة ٣٦٣ شبت الثورة بين الترك الديلم مرة ثانية، فسفكت الدماء، وأحرقت مدينة الكرخ حريقًا ثانيًا بعد الحريق الأول، وعانت بغداد أهوالًا أسود من قطع الليل[١] ... ولستم في حاجة إلى من ينبهكم إلى خطر هذه البلايا وآثارها السود في تشتيت الأواصر وتمزيق الصلات، فما كانت الفتن تأخذ وقودها كله من الترك والديلم، وإنما كانت تمد ضريمها فتنتهب ما تشاء من سواد الناس في أرجاء العراق، وكانوا فريقين: فريقًا يشايع الديلم وفريقًا يناصر الأتراك.

وفي سنة ٣٣٦ قامت الحرب بين بختيار وعضد الدولة، وكانت لهذه الحرب نتائج دميمة في تمزيق البصرة، فقد انضمت مضر إلى عضد الدولة وانضمت ربيعة إلى بختيار، ولم يكن يهم ربيعة أن ينتصر بختيار، وإنما فعلت ذلك طوعًا للأحقاد الموروثة بينها وبين مضر، وكذلك استفحلت الثورة فأحرقت المحال، وانتهبت البضائع، وانتهكت الحرمات.

وفي تلك الأزمنة العصيبة نرى اسم أبي أحمد الموسوي بين الأسماء، ولكن في أي صف؟ في صف بختيار لا صف عضد الدولة، بختيار الذي عزله عن نقابة الأشراف منذ سنين، وما تقول: إن أبا أحمد الموسوي امتشق الحسام في سبيل بختيار، وإنما قبل: أن يكون رسول بختيار إلى عضد الدولة في مطلب لم يكن يراه عضد الدولة لائقًا بالملوك: فقد كان صورة دميمة من صور الشهوات.

ثم دارت الدائرة على بختيار وانتهى أمره بالقتل، وخلع الخليفة المطيع وتولى ابنه الطائع، ونال عضد الدولة من الهيبة والقوة ما فرض على الخليفة الجديد أن يمنحه خصائص لم يظفر بمثلها أحد من قبل.

وكان الظن أن يستوحش عضد الدولة من أبي أحمد الموسوي لسابقة اتصاله بعدوه الغادر بختيار، ولكن رأينه يعتمد عليه في بعض شؤونه حين جدت الحرب بينه وبين المسيطرين على الأُطار الشامية، فنفهم أن عضد الدولة يرى في أبي أحمد قوة أدبية يحسب لها حساب، وتغفر لصاحبها بعض الذنوب.

فما الذي جد من الأمور حتى نفض عضد الدولة يده من أبي أحمد وقضى على أملاكه بالمصادرة، وعلى شخصه وشخص أخيه بالقبض والاعتقال؟

هناك أسباب كثيرة لم تفصلها كتب التاريخ، وإنما فهمناها من ملامح الحروف ونحن نستخبر ما سطر المؤرخون عن ذلك العهد، ويكفي أن نشير إلى كلمة عضد الدولة وهو يقول لمن سأله العفو عن أبي الصابي: «أما العفو عنه فقد شفعناك له عن ذنب لم نعف عما دونه لأهلينا — يعني الديلم — ولا لأولاد نبينا ﷺ يعني: أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي وأخاه — ولكنا وهبنا إساءته لخدمته».

ومن هذه الكلمة نفهم أن عضد الدولة كان نقم على أبي أحمد الموسوي أشياء دعته إلى المبادرة باعتقاله، ومصادرة أملاكه ليكون عبرة لغير من الرؤساء.

وهنا تبدأ أعوام البؤس في حياة الشريف الرضي، ذلك الطفل الذكي النبيل الذي يواجه مكاره الحياة وهو ابن عشر سنين.

وما ظنكم بطفل يتوقد غيرة وحماسة، ويقبل على الدرس إقبال الرجال فيصل النهار بالليل في درس العلوم العقلية والنقلية، ويأوي إلى بيت عامر بالكرم والجود تعج أرجاؤه بأصوات الخدم والحاشية، ويرى أباه في الصباح والمساء وهو عماد المكروبين، وغياث الملهوفين، ويرى أساتذته يبالغون في إكرامه؛ لأنه ابن النقيب، ما ظنكم بطفل هذه أحواله يمسي بعافية ثم يصبح فيرى البيت اللب، ذاهل العقل، أن أباه جرد من الحول والطول، وألقى به في غياهب الاعتقال.

دعوا جانبًا ما حدثتكم به في المحاضرة الماضية من أن شهرة المتنبي هي التي أطعمت هذا الفتى في الشعر، وأنطقته به وسنه فوق العشر بقليل، فأصدق الرأي أيها السادة، أن هذه النكبة هي التي خلقت ذلك الشاعر في يوم واحد رجلًا ينظر إلى الدنيا بعين الكهول وهو في سن الأطفال.

إن من العسير أن تتصوروا النبوغ الشعري في طفل عرير؛ لأنكم تعيشون في أزمان لا تعرف الشقاء، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصيدة وهو ابن عشر سنين، ولكن يسهل عليكم تخيل ذلك حين تتذكرون كيف كان حال الشريف الرضي حين نقل أبوه منفيًّا إلى فارس، حين تتصورون كيف أمسى ذلك الطفل فقيرًا ذليلًا بعد الغنى والعزة، حتى صح لبعض أساتذته أن يهبه دارًا يسكنها.

وما أظلم الأيام التي تحوج طفلًا مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمنع وإباء. تصوروا حال الشريف وهو يحاور أستاذه فيقول: بر أبي فكيف أقبل برك؟! فيجيب الأستاذ وهو يتوسل إليه: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك!

إي والله! إن حق الأستاذ أعظم من حق الوالد، ولكن القسوة هي في تلك الحال، حال الطفل الذي تروضه الأيام على أن يلقي أساتذته وهو غني الرأس، فقير الجيب!

كانت هذه الحادثة مشئومة على الشريف الرضي، وإن أحسنت في إيقاظ ما غفا من مشاعر ذلك الطفل النبيل.

كانت مشئومة؛ لأنها سدت عليه منافذ القول في هجاء عضد الدولة وحرمته اللذة الطبيعية، لذة التشفي بالهجاء والسباب؛ لأن عضد الدولة أخرسه وأخرس جميع أهل العراق، وسكت الطالبيون أنفسهم فلم يرتفع لهم صوت في وجه ذلك «المستبد»، الذي أودع نقيبهم غيابات السجن والاعتقال!

فإن سألتم: وكيف صح ذلك؟ فإنا نجيبكم بأن عضد الدولة شغل الناس جميعًا بشواغل شريفة كان لها أحسن الوقع في أنفس الأعداء قبل الأصدقاء، فقد أمر بعمارة ما هدمته الثورات من مرافق بغداد، فأعيدت المنازل والمساجد والاسواق، وأدرت الأرزاق على القوام والأئمة والمؤذنين والقراء، وأقيمت الجرايات لمن يأوي إلى المساجد من الغرباء والضعفاء، وألزم أرباب العقارات التي احترقت في أيام الفتنة بإعادتها إلى أحسن أحوالها من العمارة والزينة، فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت المال ليرتجع منه عند الميصرة، ومن لم يوثق منه بذلك أو كان غائبًا أقيم عنه وكيل وأطلق له ما يحتاج إليه، فأصبحت بغداد بعد مدة يسيرة وهي أحسن مما كانت عليه من قبل.

ثم مضى عضد الدولة في تجميل شواطئ دجلة مما يساير بغداد، فقضى بأن تقوم عليها عمارات المنازل ونضيرات البساتين.

وتلفت فرأى بغداد كانت ترويها أنهار كثيرة، ثم قضت عليها الثورات — أنهار تنقل ماء دجلة إلى سكان بغداد، تشبه القنوات التي كانت تنقل ماء النيل إلى سكان

الفسطاط — تلفت عضد الدولة فرأى أهل بغداد يشربون مياه الآبار وهي ثقيلة، أو يتكلفون حمل الماء من دجلة من مسافات طويلة، فأمر بحفر الأنهار القديمة، وأقام عليها القناطر ليجتاز عليها النساء والأطفال والضعفاء.

ونظر فرأى جسر بغداد قد ضعف بحيث لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه، فاختار له السفن الكبار المتقنة وعرضه حتى صار كالشوارع الفسيحة وحصنه بالدرابزينات، ووكل به الحفظة والحراس.

وامتدت نظراته الإصلاحية فشغل نفسه بالفلاحين، وأقام لهم قناطر الأنهار وساعدهم على استنبات الأرض وإقامة البساتين: فشعر العراقيون بأنهم خلقوا من جديد.

ولم يكفه كل ذلك بل مضى فأنشأ المستشفيات لمداواة المرضى من الفقراء ورفع الجباية عن قوافل الحجيج، وأمن الطريق إلى الحج وأقام فيه المناهل وأفاض الينابيع، وحمل الكسوة إلى الكعبة، وأطلق الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالمدينة وغيرهم من ذوي الفاقة. وهدته السياسة الرشيدة إلى إصلاح المشهدين بالغري والحائر وإصلاح مقابر قريش، فاشتركت الناس في الزيارات والمصليات، وكادوا ينسون ما توارثوه من العداوات. وهدته السياسة أيضًا إلى بسط الرسوم للفقراء وللفقهاء والمفسرين والمتكلمين والمحدثين والنسابين والشعراء والنحويين والعروضيين والأطباء والمنجمين والمهندسين.

تلكم أيها السادة خلاصة ما صنع عضد الدولة في مدينة بغداد وأرجاء العراق.

فماذا يصنع الشريف لو فكر في هجاء رجل مثل هذا الداهية؟!

ماذا يصنع وقد تطوع أهل بغداد أنفسهم لخلق الأساطير والأقاصيص في الإشادة بأعمال هذا المصلح العظيم؟

ماذا يصنع والألسنة كلها تلهج بالثناء على عضد الدولة، وتراه أشرف من شهدت بغداد بعد عصور المصلحين من الخلفاء.

ماذا يصنع في هجاء ملك «حمى البلاد من كل مفسد، وحفظ الطرق من كل عائث، وهابه الحواضر والبوادي».[٢]

لقد نسي الناس أبا أحمد الموسوي ونسوا أخاه، فليظلا في غياهب الاعتقال، وليشرب الشريف الرضي كؤوس الصاب والعلقم — إن شاء.

ولكن عضد الدولة سيموت كسائر الأحياء، وقد مات في الثامن من شوال سنة ٣٧٢، فماذا يصنع الشريف الرضي وقد وصل إليه هذا النبأ «السعيد»؟

كان في ذلك العهد شابًّا مراهقًا يجاوز الثلاث عشرة بقليل، ولكنه كان يفهم أن موت عضد الدولة لن يكون باب الفرج لأبيه؛ لأنه كان يرى الظروف السياسية لا تزال حالكة السواد، وكان يدرك أن أبناء عضد الدولة سيجرون على سنة أبيهم في معاملة من كان يعادي أو يصادق من الرجال.

فلم يبق إلا أن يخاطب أباه بهذه الأبيات:

أبلغا عني الحسين ألوكا[٣] ... إن ذا الطود بعد عهدك ساخا[٤]
والشهاب الذي اصطليت لظاه ... عكست ضوءه الخطوب فباخا[٥]
والفنيق الذي تدرع طول الأر ... ض خوى به الردى فأناخا[٦]
إن ترد مورد القذى وهو راض ... فبما يكْرَعُ الزلال النقاخا[٧]
والعُقاب الشَّغواء اهبطها النيـ ... ـق وقد أرعت النجوم سماخا[٨]
أعجلتها المنون عنَّا ولكن ... خلفت في ديارنا أفراخا
وعلى ذلك الزمانُ بهم عا ... دَ غلامًا من بعدها كان شاخا

هذا كل ما استطاع الشريف أن يقوله يوم مات عضد الدولة، فهو يراه فنيقًا هلك، وشهابًا هوى، وجبلًا ساخ، ولكنه يتخوف العواقب: لأن تلك العُقاب تركت أفراخًا من الجوارح عاد بها الزمان غلامًا بعد أن كان اكتهل وشاب.

والواقع أن الشريف الرضي عجز عن إعلان الشماتة بالقصائد الطوال؛ لأن موت عضد الدولة أحاطت به قوتان: قوة الرأي العام، وقوة ابنه صمصام الدولة.

أما قوة الرأي العام فتمثِّلها الكلمات التي قالها أقطاب البيان في ذلك الحين، وقد سجَّلها التوحيدي فقال: لما صحَّت وفاة عضد الدولة كنا عند أبي سليمان السجستاني، وكان القومسي حاضرًا والنوشجاني وأبو القاسم غلام زحل وابن المقداد والعروضي والأندلسي والصيمري فتذاكروا الكلمات العشر المشهورة التي قالها الحكماء العشرة عند وفاة الإسكندر. فقال الأندلسي: لو تفوَّه مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يؤثر عنكم.

فقال أبو سليمان: ما أحسن ما بعثت عليه. أما أنا فأقول: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، وأعطاها فوق قيمتها، وحسبك أنه طلب الربح فيها فخسر روحه.

وقال الصيمري: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم بها فهذا انتباهه.

وقال النوشجاني: ما رأيت غافلًا في غفلته ولا عاقلًا في عقله مثله، لقد كان ينقض جانبًا وهو يظن أنه مبرم، ويغرم وهو يظن أنه غانم.

وقال العروضي: أما إنه لو كان معتبرًا في حياته، لما صار عبرة في مماته، وقال الأندلسي: الصاعد في درجاتها إلى سفال، والنازل من درجاتها إلى معال.

وقال القومسي: من جد للدنيا هزلت به، ومن هزل راغبًا عنها جدت له، انظر إلى هذا كيف انتهى أمره، وإلى أي حضيض وقع شأنه، وإني لا أظن أن الرجل الزاهد الذي مات بالشونيزية أخف ظهرًا وأعز ظهيرًا من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحة.

وقال غلام زحل: ما ترك هذا الشخص استظهارًا بحسن نظره وقوته، ولكن غلبه ما منه كان، وبمعونته بان.

وقال ابن المقداد: إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحًا زعزعت هذا الركن لعصوف.[٩]

وهذه الكلمات — وإن كان ظاهرها الشماتة — تمثل قوة الرأي العام أصدق تمثيل، فهم كانوا يرون عضد الدولة شبيهًا بالإسكندر الذي دوخ ممالك الأرض، وطئت حوافر خيله أمنع البقاع في أرباض الشرق.

ومع أن عضد الدولة لم يملك العراق غير خمس سنين ونصف، فقد استطاع أن يملك قلوب العراقيين، وأن يشغلهم بالعلم والحضارة، وأن ينسيهم ما صنعت عواصف السنين بالأنفس والأموال.

أما القوة الثانية التي صدمت الشريف الرضي وحرمته لذة التشفي بموت عضد الدولة، فهي قوة صمصام الدولة. وكان هذا الملك الجديد على جانب من صحة الرأي في بداية أمره، فقد أخفى على الناس موت أبيه عضد الدولة إلى أن تستقيم له الأمور، فلما تم له من ذلك ما أراد أعلن موت أبيه وأعلن في الوقت نفسه إلغاء الضرائب التي كان فرضها أبوه، وهي ضرائب كان يضج منها الناس في السر، ويتهيبون التضجر منها في العلانية.

وكذلك رأى الشريف الرضي أن الدنيا بالنسبة إليه انتقلت من قبح إلى قبح، وأن سجن أبيه سيطول، فأخفى ضغائن قلبه، وأقبل على شؤونه العادية وهو كاسف البال حزين.

ولكن وقع بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان: فقد كان لعضد الدولة ابن آخر هو شرف الدولة، وكان لهذا الابن رجل من الخواص يقيم في بغداد، فلما وصلت إليه الأخبار

السرية بأن عضد الدولة مات وأن صمصام الدولة يخفي موته بادر ذلك الرجل وكتب إلى شرف الدولة بموت أبيه. وكان شرف الدولة يقيم بكرمان، فكتم أمره وسار إلى فارس، ثم أعلن موت أبيه وجلس للعزاء وأخذ البيعة على أوليائه وأطلق لهم ما جرت به العادة من العطاء.

وعلى هذه الصورة ظهرت في دنيا السياسة لذلك العهد قوتان: قوة شرف الدولة في فارس وقوة صمصام الدولة في العراق.

أما صمصام الدولة فقد اصطنع مذاهب أبيه فكان في الأغلب يعادي من عادى ويصادق من صادق، وأما شرف الدولة فقد نظر إلى أعمال أبيه بعين المتبصر الرشيد، وكان في بواكير ما صنع الإفراج عن أبي أحمد الموسوي وأخيه أبي عبد الله وجماعة من الأشراف (بعد أن طال بهم الاعتقال، وضعفت في خلاصهم الآمال، وكما تطرق النوائب من حيث لا يحتسب، فقد يأتي الفرج من حيث لا يرتقب).[١٠]

وهنا تحدثكم خواطركم بأن الشريف الرضي اندفع يهدر بالشعر فرحًا بنجاة أبيه من غياهب الاعتقال، ثم تأخذ منكم الدهشة كل مأخذ حين تعلمون بأنه طوى فرحه في صدره وسكت عن هذه القضية زمنًا غير قليل.

فما سبب ذلك السكوت البليغ؟

سبب ذلك، أيها السادة، أن صمصام الدولة كان ينقم من أخيه شرف الدولة كل شيء، فكان يرى الإفراج عن أبي أحمد الموسوي ضربًا من العقوق لعضد الدولة الذي اعتقله وصادر أملاكه، وكان عضد الدولة أساس الميراث للأخوين المسيطرين في فارس والعراق، ولا بد أن يكون الشريف الرضي قد خشي أن يكون عطف شرف الدولة على أبيه سببًا من أسباب الوحشة بين أسرته وبين صمصام الدولة القابض على العراق، وكذلك كتم سروره بنجاة أبيه وأخفى عواطفه نحو شرف الدولة إلى أن يزول العبوس من وجه الزمان.

وفي خلال تلك السنين كانت الجفوة متصلة بين شرف الدولة وصمصام الدولة، ثم بلغ الشر أشده في سنة ٣٧٦ فأغار شرف الدولة على أطايب ما يملك صمصام الدولة، وهاجت بينهما الحرب، فانتصر شرف الدولة وقبض على أخيه ودخل بغداد دخول الفاتحين.

وباندحار صمصام الدولة صار من حق أبي أحمد الموسوي أن يعود إلى بغداد، ويرى ابنه المحبوب الذي نظم من القصائد في التوجع لأبيه ما لا ينظم مثله إلا أبر الأبناء في أكرم الآباء.

أيها السادة

أتروني أضجرتكم بهذه الصفحات الدامية من التاريخ؟

لقد أقذيت عيني تحت المصباح ليالي كثيرة لاراجع حوادث تلك السنين وأستخلص منها هذه الصفحات، وما أظنني ظلمت التاريخ حين وجهته على غير ما ينتظر المؤرخون، فقد دونوا ما دونوا وفهمت ما فهمت، ولكل باحث أسلوب.

ولا يعنيني إلا أن أصل بكم إلى تعرف نفسية الشريف التي صبغتها أعوام البؤس بالدم النجيع، لا يعنيني إلا أن تعرفوا كيف صح لذلك الرجل أن ينظم عشرات القصائد في مدح أبيه. وتلك خصلة لا نجدها بهذا الوضوح عند غيره من الشعراء.

إن الأدب، أيها السادة، لا يستطيع أن يستقل عن التاريخ، وكيف وهو من صور التاريخ؟

وقد استطعنا بهذه الجولة السريعة أن نعرف ألوان الأيام التي تفتحت فيها عبقرية الشريف الرضي، وفهمنا كيف كان يرى الدنيا بأعين الكهول وهو في نضرة الشباب. فلنسجل مع ذلك أن الشريف أفاد من أعوام البؤس نعمة باقية، فقد أحب أباه حبًّا لم يسمع بمثله الناس، وصار يتلهف عليه تلهفًا موجعًا، وينظم فيه أشعارًا لها رنين الأسجاع، إسجاع الحمائم الباكية في إثر الأليف المفقود.

وما كان اعتقال والد الشريف إلا نكبة حلت بذلك البيت:

فقد ذهبت دنيا أولئك الناس مرة واحدة، إذ سجن سيد البيت، ثم صودرت الأملاك، وتتابعت الرزايا على صورة تنبت الشجي في أقسى القلوب.

وزاد في تلك المأساة أنها صادفت فتى رقيق الحس، مرهف القلب، شاعر الروح، فصيرته وترًا حنانًا يجيد تصوير الأسى وترجيع الأنين.

وضاعف من نكد تلك البلية أن ذلك الفتى كان يرى الكفر أهون من المكسب الخسيس: فساقه التصون إلى الضنك، ولم يبق أمامه وأمام أخيه غير التصرف فيما كانت تملك أمهما الرؤوم، وقد قسا الدهر وعنف فاضطر تلك السيدة إلى بيع أملاكها وحليها؛ لتضمن لولديها العزيزين عيش الكفاف إلى أن يمن الله على زوجها بالخلاص.

أيها السادة

لم أرد أن أطبع القلم وأنا أكتب هذه المحاضرة فأغزو قلوبكم بالحزن على رجل صار في ذمة التاريخ، ويكفي أن تعرفوا أن صاحبنا لم يقل الشعر الجيد، وهو ابن عشر سنين؛ إلا لأن الزمن رماه في طفولته بما يمنح الأطفال عقول الكهول، وسترون في الليالي المقبلة أنه بدأ يشكو الشيب، وهو في سن العشرين «وشيب الرأس من شيب الفؤاد».

والآن نواجه أشعار الشريف في مدح أبيه فنقول:

إن الشريف مدح أباه بأكثر من أربعين قصيدة. وأشعاره في مدح أبيه تنقسم إلى ثلاث طوائف: الطائفة الأولى: في التوجع لأبيه وهو سجين، والطائفة الثانية: في تهنئة أبيه بالخلاص ورد أملاكه إليه، والطائفة الثالثة: في تهنئته بالأعياد بعد أن لان الزمان. ولكل طائفة من هذه الأشعار خصائص: فالطائفة الأولى: تصور الحزن والجزع والتفجع، والثانية: يغلب عليها الابتسام ولكنها تفيض بالسم الزعاف في الثورة على الناس، والثالثة: تخلع على أبيه رداء الملوك: فهو يدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك.

وقبل أن ندخل في تحليل هذه القصائد نوجه أنظاركم إلى شرح الظاهرة الأدبية التي تجدونها في ديوان الشريف الرضي، فأنتم تذكرون أن جامع الديوان يسمى قصائده القديمة «قواذف»، ويذكر في أغلب الأحيان أن الشريف حذف من تلك «القواذف» أشياء.

وتعليل هذه الظاهرة لا يصعب على من يتذكر الظروف السياسية التي فصلناها في صدر هذه المحاضرة، فتلك «القواذف» كانت بالتأكيد تمس بني بويه، ثم هذبت طلبًا للسلامة من شر أولئك الملوك.

وينبغي أيضًا أن ننص على خصائص الأشعار التي نظمها الشريف بين ٣٦٩ و٣٧٦، فهذه القصائد كان يغلب عليها التبرم والضجر والاكتئاب، وقد حولته الحوادث إلى رجل ودود يعطف على مصائب الناس، لا سيما المنكوبين بقسوة الملوك.

ومن شواهد ذلك قصيدته الهمزية إلى صديق حلت به نكبة، ولم يذكر جامع الديوان ما هي تلك النكبة، ولكننا نفهم أنها نكبة سياسية، إذ نراه يقول:

خطوب لا يقاومها البقاء   وأحوال يدب لها الضراء[١١]

ودهر لا يصح به سقيم | وكيف يصح والأيام داء
وأملاك يرون القتل غنمًا | وفي الأموال لو قنعوا فداء[١٢]
هم استولوا على النجباء منا | كما استولى على العود اللحاء[١٣]
مقام لا يجاذبه رحيل | وليل لا يجاوره ضياء
سيقطعك[١٤] المثقف ما تمنى[١٥] | ويعطيك المهند ما تشاء
بلونا ما تجيء به الليالي | فلا صبح يدوم ولا مساء

وهي قصيدة كثيرة الفنون، نقف منها عند قوله في تعزية ذلك المنكوب.

وما حبستك منقصة ولكن | كريم الزاد يحرزه الوعاء
فلا تحزن على الأيام فينا | إذا غدرت وشيمتنا الوفاء
فإن السيف يحبسه نجاد | ويطلقه على القيم المضاء

وهو بهذه الأبيات يمدح السجن، أو يتكلف مدح السجن؛ لأن أباه مسجون.

وفي تلك المدة تدلنا أشعار الشريف على أن ناسًا كانوا اجترأوا على شتمه وتجريحه، فكان يتجمل ويتحلم صونًا لنفسه عن التسلح بالسباب، كأن يقول:

ما يطلب الدهر والأيام من رجل | يعود بالحمد إشفاقًا على النعم
إذا اقتضته الأماني بعض موعده | غطى بستر العطايا عورة العدم[١٦]
من مد معصمه مستعصيًا بيدي | عصمته بإخاء غير منجذم
ومن أشعه يا من من لوائمه | ولو رموه بجراح من الكلم
ولو هتكت حجاب الغيب لافتضحت | أجفان كل مريب اللحظ متهم
كفى الذي سبني أني صبرت له | فاستنصر العذر واستحيا من الجرم
بردي عفيف إذا غيري لفجرته | كانت مناسح برديه على التهم
إذا العدو عصاني خاف حد يدي | وعرضه آمن من هاجرات فمي[١٧]
جعلت سمعي على قول الخنا حرمًا | فأي فاحشة تدنو إلى حرم

وما نحب أن نطيل في سرد الشواهد، فهي كثيرة في الديوان، ويكفي أن ندل على ملامحها بهذه التوجيهات، وإن كان الشريف أفصح عنها أبلغ إفصاح وهو يقول في مخاطبة الصاحب إسماعيل بن عباد:

فتى سنه عن خمس عشرة حجة ... تربي له فضلًا ومجدًّا ومحتدا
فتي الصبا كهل الفضائل ... إلى العمر إلا احتل في الفضل مقعدا
تفرد لا يفشي إلى غير نفسه ... حديثًا ولا يدعو من الناس منجدا
ولا طالبًا من دهره فوق قوته ... كفاني من الغدران ما نقع الصدى
سأحمد عيشًا صان وجهي بمائه ... وإن كان ما أعطى قليلًا مصردا
وقالوا: لقاء الناس أنس وراحة ... ولو كنت أرضي الناس ما كنت مفردا

ونعود فنذكر أن أول قصيدة قالها الشريف في التوجع لأبيه هي الدالية:

نصافي المعالي والزمان معاند ... وننهض بالآمال والجد قاعد

وقد نظمها وسنه فوق العشر بقليل، نظمها وهو في لفح العبارة القاسية التي فاه بها المطهر بن المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة حين اعتقل والد الشريف، فقد قال: إلى كم تدل علينا بالعظام النخرة!

وكان المنتظر أن تكون هذه القصيدة ضعيفة؛ لأنها من نسج شاعر طفل ولكن قسوة الحوادث أمدت الطفل بعقل الكهول، وأضافته إلى فحول الشعراء.

تقع هذه القصيدة في ثمانية وسبعين بيتًا، فهو فيها طويل النفس، وقد عرض فيها بالخليفة العباسي ولوح له بعظمة الفاطميين في مصر، وكان ذلك يومئذ من المحظورات، وانظروا كيف يقول:

وطاغ يعير البغي غرب لسانه ... وليس له عن جانب الحق ذائد
شننت عليه الحق حتى رددته ... صموتًا وفي أنيابه القول راقد
يدل بغير الله عضدًا وناصرًا ... وناصرك الرحمن والمجد عاضدا
يعير رب الخير بالي عظامه ... ألا نزهت تلك العظام البوائد
ولكن رأى سب النبي غنيمة ... وما حوله إلا مريب وجاحد

ولو كان بين الفاطميين رفرت   عليه العوالي والظبا والسواعد

وفي هذه القصيدة تحدث الشريف عن سجن أبيه وعمه حديث الحكماء.
وهناك قصائد بلا تاريخ، منها قصيدة:

رأيت المنى نهزة الثائر   وسهم العلا في يد القامر

وقصيدة:

أما ذعرت بنا بقر الخدور   وغزلان المنازل والقصور

وقصيدة:

بلاء القلب ناظره   وأنجى الناس كاسره

وقصيدة:

شيمي لحاظك عنا ظبية الخمر[18]   ليس الصبا اليوم من شأني ولا وطري

وقصيدة:

لا ترقدن على الأذى   واعزم كما عزم ابن موسى

وقصيدة:

وفى بمواعيد الخليط وأخلفوا   وكم وعدوا القلب المعنَّى ولم يفوا

وقصيدة:

بيني وبين الصوارم الهمم   لا ساعد في الوغى ولا قدم

وقصيدة:

بمجال عزمي يملا الملوان وتضل فيه بوائق الأزمان

وقصيدة:

من لي برعبلة من البزل ترمي إليك معاقد الرحل[١٩]

فهذه القصائد التسع بلا تاريخ، ولكن الذي يتذكر ما شرحناه آنفًا يستطيع أن يعرف تواريخها بلا عناء، فليجعلها تلاميذنا في دار المعلمين العالية مجالًا للدرس والتحقيق.

ثم ننظر فنراه نظم ثلاث قصائد سنة ٣٧٤، الأولى قصيدة:

إذا احتبى بالعشب الوادي وانحل فيه الواكف الغادي

والثانية قصيدة:

بغير شفيع نال عفو المقادر أخو المجدلا مستنصرًا بالمعادر

والثالثة نظمها بعد أن سنحت الفرصة بالاجتماع مع أبيه عند قدومه من بلاد تدمر، كذلك يقول جامع الديوان، ولا نعرف ما هو قدوم الشريف من بلاد تدمر، ذلك القدوم الذي يسمح له بالاجتماع مع أبيه في بلاد فارس؟

ولكن لا بأس من الموافقة على أنه استطاع أن يرى أباه في ذلك العهد، فنحن في سنة ٣٧٤ وكان صمصام الدولة بدأ يشهد ضعف سلطانه في العراق. وفي هذه القصيدة يظهر شيء من البشاشة، فنرى الشريف يتغزل فيقول:

وماءٍ تشيه الريحُ كلَّ عشية كما رقم البُردَ الصبيغ يماني
مررتُ بغزلان على جنباته فأطلقن دمعي واحتبلْنَ جناني[٢٠]
وعاجلني لوم[٢١] الرفيقين في الهوى عشيةَ ما لي بالفراق يدان
يقولان أحيانًا بقلبك نشوة وما علما أن الفراق سقاني

وكم غادر البين المفرِّق من فتًى   يـمـسِّـح قـلـبًـا دائـم الـخـفـقـان
ومـا الـحـب إلا فـرقـة بـعـد ألـفـة   وإلا حـذارٌ بـعـد طـول أمـان

وفي هذه القصيدة يعرض الشريف بمن خذلوه من الأقارب، ويذكر بعض ما لاقى من الخطوب، ثم يمضي إلى مدح أبيه فيقول:

وأبيض من عُيليا مَعَدٍّ كأنما   تلاقى على عِرنينه القمران[٢٢]
إذا رمت طعنًا[٢٣] بالقريض حميته   وإن رمت طعنًا بالرماح حماني
يجود إذا ضن الجبان بنفسه   ويمضـي إذا ما زلَّتِ القدمان
بصير بتصريف الأعنة إن سرى   لـيـوم نـزال أو لـيـوم رهـان
تـرامـى بـه الأيام وهـو مصمم   كما يرتمي بالماتح الرجوان[٢٤]
إذا ما احتبى يوم الخصام كأَنَّمَا   يـحـدثـنـا عـن يـذبُـلٍ وأبـان[٢٥]
أبـا أحـمـد أنت الشـجـاع وإنمـا   نجرُّ العوالي عرضةً لطعان
ولما غوى الغاوون فيك وفُرِّجَتْ   ضلوعٌ على الغل القديم حواني
نجوت من الغماء وهي قريبة   نـجـاء الـثـريـا مـن يـد الـدبـران
وغيرك غض الذل من نجواته   وطـامـن لـلأيـام شـخـص مـهـان
وحـال الأذى بين المراد وبينه   كما حيل بين العير والنزوان
وكان كفحل البيت يطمح رأسه   فألقى على حكم الردى يجران[٢٦]

وهذا تعريض جارح برجال كان يعرفهم الشريف، ورجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء، وقهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبهم السياسية وقد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين في ذلك العهد، ولكنا خشينا أن نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، وأول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوي، وكان شخصية هائلة تمتلك جماهير الناس في الكرخ وبغداد أقوى امتلاك، وقد اعتقل مع أبي أحمد الموسوي وصودرت أملاكه فكان في خزائنه من الذهب مليون دينار، وهو أضخم مبلغ للثروة الفردية في ذلك الحين، وهذا الرجل سكت عنه الشريف الرضي حين توجع لأبيه وعمه، فهل يمكن الظن بأنه دخل في مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص:

ذلك ظن الظنون لا يقوم عليه دليل، ويكفي أن نسجل أن ذلك الرجل كان له في تلك العهود مكان مرموق، وأن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض.[٢٧]

وفي سنة ٣٧٥ نظم الشريف ثلاث قصائد، الأولى قصيدة:

يا دار ما طربت إليك النوق إلا وربعك شائق ومشوق

وهي من روائع المدائح.
والثانية قصيدة:

وقف على العبرات هذا الناظر وكفاه سقمًا أنه بك ساهر

وهي من طلائع الفرح؛ لأنه نظمها وقد توجه أبوه من فارس في صحبة شرف الدولة، وهي قصيدة جرى فيها على مذاهب الشعراء فابتدأها بالتشبيب ثم تخلص إلى مدح أبيه فقال:

أغضيت عن وجه الحبيب تكرمًا وأريته أن الجفون كواسر
هب لي وحسي نظرة أرنو بها فمقرها وجه الحسين الزاهر
فلثم أبلج إن أهل جبينه جمحت إليه خواطر ونواظر
قرب الغمام فعن قريب ينثني فيبل مربعك العريض الماطر

والثالثة قصيدة:

من الظلم أن نتعاطى الخمارا[٢٨] وقد سلبتنا الهموم العقارا

وقد نظمها حين وصل أبوه وعمه إلى شيراز، وفيها يقول في تعزيتهما عن ضياع الأملاك:

إذا سالم الدهر نفسيكما فلا حارب الدهر إلا اليسارا
أصابتكما نكبة فانجلت وعاودتما العز إلا الديارا
ودهر يرد علينا العلا ء أجدر به أن يرد الغفارا[٢٩]
ألم تريا من رمته الخطوب يمينًا تنازعه أو يسارا
لئن جلتما في مكر الزمان فبواكما من مداه العثارا

فما يقرع الدهر إلا الحليم ولا ينكث الخرق إلا الوقارا
تفرق مالكما في العدا وشخصكما واحد لا يمارى

وهناك قصيدة غير مؤرخة نظمها الشاعر، وأنفذها إلى أبيه قبل دخوله بغداد بأيام يسيرة على يد بعض أصحابه، فهو كان يعرف معنى التحية تحية الراجع إلى وطنه وهو في الطريق، كما نرسل برقيات التحية في هذه الأيام ليفرح بها القادمون وهم على متون البواخر، وهذه القصيدة ليست من الطوال، ولكنها على قصرها تصور شوقه إلى أبيه، شوق الطفل المضيع إلى الوالد العطوف، فهو يذكر كيف تركه أبوه وهو نبت ضعيف ويشير إلى ما صنعت به الأيام فيقول في آخر القصيدة:

لما ذكرتك عاد قلبي شوقه فبكين عنه مدامع الأقلام[٣٠]
خلفتني زرعًا فطلت وإنما ذاك الغرار نمى إلى الصمصام[٣١]
أكدت على الأرض من أطرافها وتدرعت بمدارع الإظلام[٣٢]
وعهدتها خضراء كيف لقيتها أبصرت فيها مسرحًا لسوامي
أشكو وأكتم بعض ما أنا واجد فأعاف أن أشكو من الإعدام[٣٣]

ثم يطلع البدر بعد طول الاحتجاب، ويرى الفتى أباه في بغداد سنة ٣٧٦ ولكن كيف رآه؟ رآه شاحب اللون، هزيل الجسم، قد نالت منه ظلمات الاعتقال، فيتمثله في حالين: حال البؤس، وحال النعيم، وتزيده أخيلة الماضي المخزن تعلقًا بذلك الشيخ الجليل الذي يعود إلى وطنه عود الجراز المفلول.

ولا يعلم إلا الله كيف خفق قلب ذلك الفتى حين رأى أباه، فقد كان لا يزال طفلًا، وكانت المعاني السود والبيض تلذع قلبه لذعًا عنيفًا، والعواطف العاصفة لا يعرفها غير الأطفال.

ولكن قصيدته في استقبال أبيه تدلنا على بعض ما جاش في صدره من المعاني، ولننظر كيف يقول:

طلوع هداه إلينا المغيب ويوم تمزق عنه الخطوب
لقيتك في صدره شاحبًا ومن حلية العربي الشحوب
إليه تمج النفوس الصدور وفيه تهني العيون القلوب

تعزيت مستأنسًا بالعباد والليث في كل أرض غريب[٣٤]
وأحرزت صبرك للنائبات وللداء يومًا يراد الطبيب
لحا الله يومًا أرانا الديا ر يندب فيها البعيد القريب
وما كان موتًا ولكنه فراق تشق عليه الجيوب
لئن كنت لم تسترب بالزمان فقد كان من فعله ما يريب
رمى بك والأمر ذاوي النبات فآل وغصن المعالي رطيب
ولما جذبت زمام الزمان أطاع ولكن عصاك الحبيب
ولما استطال عليك الزمام وذلل فيك المطي اللغوب
رجوت البعاد على أنه كفيل طلوع البدور الغروب
رحلت وفي كل جفن دم عليك وفي كل قلب وجيب
ولا نطق إلا ومن دونه عزاء يغور ودمع ربيب
وأنت تعللنا بالإياب والصبر مرتحل لا يؤوب
وسر العدا فيك نقص العقول وأعلم أن لا يسر اللبيب
أما علم الحاسد المستغر أن الزمان عليه رقيب
قدمت قدوم رقاق السحاب تخطر والربع ربع جديب
فما ضحك الدهر إلا إليـ ـك مذ بان في حاجبيه القطوب

إلى أن يقول:

لحياك مني عند اللقاء خلق عجيب وخلق أديب[٣٥]
وخلفتني غرس مستثمر فطال وأوراق ذاك القضيب
ذخرت لك الغرر السائرات يعبر عنها الفؤاد الكئيب
تصون مناقبك الشاردات أن تتخطى إليها العيوب
وإني لأرجوك في النائبات إذا جاءني الأمل المستثيب

وفي تلك السنة يظهر لون جديد في شعر الشريف: هو مدح بني بويه، وكان من قبل لا يمدح غير الخلفاء. لقد كان ذلك الفتى يبغض بني بويه بغضًا شديدًا. ولكن ذاك البغض هدأ بعد أن رأى شرف الدولة الذي أنقذ أباه من الاعتقال.

وكذلك نراه ينظم قصيدة جيدة في مدح ذلك الملك، ولكنه لا ينسى أن ينص على سبب المدح فيقول:

هذا أبي والذي أرجو النجاح به ... أدعوه منك طليق الهم والجذل
لولا ما انفسحت في العيش همته ... ولا أقر عيون الخيل والخول
حططته من ذرى صماء شاهقة ... مر الزمان عليها غير محتفل
تلعاء عالية الأرداف تحسبها ... رشاء عادية مستحصد الطول[٣٦]
تلقى ذوائبها في الجو ذاهبة ... يلفها البرق بالأطواد والقلل[٣٧]
وأنت طوقته بالمن جامعة[٣٨] ... قامت عليه مقام الحلي والحلل
أوسعته فرأى الآمال واسعة ... وكل ساكن ضيق واسع الأمل
جذبت من لهوات الموت مهجته ... وكان يطرف في الدنيا على وجل[٣٩]
وما كان حسامًا أغمدته يد ... ثم انتضته اليد الأخرى على عجل
فاقذف به ثغر الأهوال منصلتا ... واستنصر الليث إن الخيس للوعل[٤٠]
ولا تطيعن فيه قول حاسده ... إن العليل ليرمي الناس بالعلل
أولى بتكرمة من كان يحمدها ... والحمد يقطع بين الجود والبخل
كفاك منظره إيضاح مخبره ... في حمرة الخدما يغني عن الخجل
تحمل الشرف العالي وكم شرف ... غطى عليه رداء العي والخطل

أيها السادة

لقد زفت سنة ٣٧٦ أعظم بشرى إلى الشريف، إذ سمح له الدهر برؤية أبيه في بغداد، ولكن هناك بشرى ثانية، فما هي تلك البشرى؟ أهي رد الأملاك التي صودرت بعد الاعتقال؟ هيهات، فلن ترد الأملاك إلا بعد سنين، فما هي تلك البشرى إذن؟

هي موت المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة، وقد شمت الشريف في موت ذلك الوزير الذي اعتقل أباه وعبره الإدلال بالعظام النخرات، عظام أهل البيت.

وأعيذكم أن تؤاخذوا الشريف على الشماتة في ميت، فللشريف عذره وهو أنه لا يزال فتى غض تبصره الأيام بمقامات الكلام، وموقفنا في هذه المحاضرات موقف المؤرخ للأفكار الأدبية، فلا بأس من الإشارة إلى هذا الحادث الذي كنا نتمنى أن لا تزل فيه قدم الشريف.

ولكن من الذي يوجب احترام عظام ذلك الميت بعد أن أهان عظام أهل البيت؟ هي غلطة بغلطة، وجزاء سيئة سيئة مثلها، وليس الشريف من المعصومين.

وفي الحق أني أنكرت تلك الشماتة، ولو كنت رأيت الشريف الرضي لرجوته تمزيق هذه القصيدة! ومن يدري فلعلي لو كنت مكانه لوقعت في أقبح مما وقع فيه، وهل للشعراء عقول؟

ابتدأ الشريف تلك القصيدة بمدح أبيه، فلما وصل إلى التعريض بذلك الميت قال:

وجبان لويت عنه فأمسى ... وجل العين من قراع الرقاد[٤١]
مستطيرًا كأن أهداب جفنيـ ... ـه على الناظرين شوك القتاد
لا أقال الإله من خانك العهـ ... ـد وجازاك بغضة بالوداد
ظن بالعجز أن حبسك ذل ... والمواضي تصان بالإغماد
قصر الدهر من ذراه وقد كا ... ن بتلك الظبا طويل النجاد
وأذل الزمان بعدك عطفيـ ... ـه وقد كان من أعز العباد
كنت ليثًا وكان ذئبًا ولكن ... لا تلذ الأشكال بالأضداد
وتمادى بما جناه على الأيـ ... ـام حتى جنى عليه التمادي
سمحت كفه به للمنايا ... بعد أن لم يكن من بالأحواد
ظن أن المدى يطول وفي الآ ... مال ما لا يعان بالأجداد[٤٢]
هكذا تدرك النفوس من الأعـ ... ـداء برد القلوب والأكباد
كل حبس يهون عند الليالي ... بعد حبسي الأرواح في الأجساد
وتداركت ما تمنيت والأحـ ... ـشاء مزورة على الأحقاد
نلت بعضًا وسوف تدرك كلًّا ... إنما السيل بعد قطر العهاد[٤٣]

أيها السادة

في هذا البيت الأخير ترون الشريف يصرح بأن أباه لم ينل بعودته من فارس كل شيء، وهذا حق، فقد ضاعت من أبي أحمد الموسوي أشياء، ضاعت منه الأعمال الرسمية وكانت من أعظم مظاهر التشريف، وهي نقابة الطالبيين، وإمارة الحج، والنظر في المظالم، وضاعت منه الموارد الأساسية للرزق، وهي الأملاك التي صودرت وحرم منها أطفاله منذ سنين.

أما الأعمال الرسمية فلم تعد إليه بعودته إلى بغداد، وإنما طاولتها الظروف فلم تعد إلا في سنة ٣٨٠، وكان لرجوع تلك المناصب إلى أبي أحمد الموسوي نشوة طرب رقصت لها أخيلة الشعر في خواطر الشريف الرضي فاندفع يقول:

انظر إلى الأيام كيف تعود — وإلى المعالي الغر كيف تزيد
وإلى الزمان نبا وعاود عطفه — فارتاح ظمآن وأورق عود
نعم طلعن على العدو بغيظه — فتركنه حمر الجنان يميد[٤٤]
قد عاود الأيام ماء شبابها — فالعيش غض والليالي غيد
إقبال عز كالأسنة مقبل — يمضي وجد في العلاء جديد
وعلا لأبلج من ذؤابة هاشم — يثني عليه السؤدد المعقود
قد فات مطلوبًا وأدرك طالبًا — ومقارعوه على الأمور قعود
خسأت عيونهم وقد طمحت له — عدد عراض في العلا وعديد
ما صال إلا انجاب غي مظلم — واندق من عمد الضلال عمود
يأسو ويجرح فالجراحة عزمة — تصمى وآسيها الندى والجود
سطو وصفح يطرقان عدوه — أبدًا ووعد صادق ووعيد
عن أي باع في العلاء رميتم — ليثًا تقيه مقادر وجدود
طاشت سهامكم وفارق نزعه — سهم إلى قلب العدو سديد
حسدوك لما فات سعيك سعيهم — صعدًا فما نقع الغليل حسود
ورأوا بوائجها تلوح وريحها — تسري وعارضها الغزير يجود[٤٥]
عجل الزمان بها إليك وحطمت — بين الضلوع ضغائن وحقود
قد كنت أخشى أن يقول: مخبر — كادوا وما أعطوا المراد فكيدوا
أو أن يقال: أقارب نزعت بهم — ظنن فكل بالعقوق بعيد[٤٦]
سئلوا العود[٤٧] فجانبوه فعاودوا — وألان إذ ملك الزمام[٤٨] وقيدوا
لولا الألية منك أن لا تنتضي — عضبًا يقوم مقامه التفنيد[٤٩]
لسننت في الأقوام غير ملوم — ما سن يوم ابن الزبير يزيد
اليوم أصحرت الضغائن وانجلت — تلك الموارن والجاه السود[٥٠]
وتراجعوا عصبًا إليك وخلفهم — عنف السباق وللقلوب وئيد[٥١]

فاصفح فسوف ينال صفحك منهم ما لا ينال العضب وهو حديد[٥٢]

وهي قصيدة على جانب عظيم من السلاسة والقوة، وقد سكتنا عن رواية الأبيات الخاصة برجوع تلك المناصب، وأثبتنا الأبيات التي تعبر عن الثورة على الأقارب؛ لأن هذه الأبيات ستنفعنا فيما بعد، حين نبحث عن السبب في شراسته وهو يخاطب الأقرباء.

أما الأملاك التي صودرت فسيطول عليها التفجع، ولكن سيرد منها جزء في سنة ٣٨٦ وجزء في سنة ٣٩٦، ومعنى ذلك أن أبا أحمد الموسوي سيظل في انتظار أملاكه المسلوبة إلى أن تضعفه الشيخوخة، ويقضي الزمن على نور عينيه بالذهاب.

وإنما نعبر بهذه العبارة الحزينة لنعلل فرح الشريف برجوع تلك الأملاك، فقد كان يرى أباه شيخًا ضعيفًا لا يعرف السبيل إلى مسالك الرزق، ولا تستر شيخوخته إلا برجوع تلك الأملاك.

وهنا نشير إلى خطأ وقع فيه جامع الديوان، فقد ذكر أن الشريف هنا أباه برد أملاكه إليه بأسرها في سنة ٣٨٦، والصواب أن تقرن هذه العبارة بالقصيدة التي نظمها سنة ٣٩٦.

فعندنا إذن قصيدتان في التهنئة برد تلك الأملاك: الأولى عينيه والثانية دالية.

أما العينية فهي قصيدة جزلة تحدث فيها الشريف عن عزمه الوثاب، وبليته بالأعداء، ثم وجه الخطاب إلى أبية فقال:

ليهنك ما تجدده الليالي وحسبك من فراق واجتماع
وما رد الزمان عليك حفظًا من الأملاك والمال المضاع
تماري الناس قبلك وهي غصب أديوان الضياع أم الضياع[٥٣]
وعادت في يديك مروضات وكانت فقع قرقرة بقاع
ظفرت بما اشتهيت وأنت وانٍ ونال البعض غيرك وهو ساعٍ
يبشر والقلوب مفجَّعات كأنَّ بشيره في الخلق ناعٍ
وما كل المواهب بالأماني ولا كل الأحاظي بالقراع[٥٤]
لكلٍّ في بلوغ العز طبعٌ وبعض الناس مختلف الطباع

وقد ساقه المقام إلى أن يسجل مكرمة شرف الدولة فقال:

أجار أبو الفوارس منك سيفًا تحامته يمين أبي شجاع
فدًى لك من ينازعك الرزايا ويُقرِضُك الأذى صاعًا بصاع
يَعَضُّ أنامل الأسد الضواري عليك بغيظ أنياب الأفاعي
رعاك بلحظ طَرفٍ غير وانٍ وعاج عليك سمعًا غير واع
فكنت السيف أغمده جبانٌ فَسُلَّ وقد تصدَّى للمصاع[55]
ألان[1] رِدِ العلاءَ بلا رقيب وشمِّر في الأمور ولا تراع
ولا يغررك قعقعة الأعادي فذاك الصخر خَرَّ من اليفاع
ألان[1] تراجعت تلك الرعايا وجهزت الرعية للمراعي
وعاد السرب أمنع من قلوب تُقَلب بين أضلاع السباع

وأما الرائية فهي قصيدة مرقصة:

نطق اللسان عن الضمير والبشر عنوان البشير
ألآن أعفيت القلو ب عن التقلقل والنفور
وانجابت الظلماء عن وَضَح الصباح المستنير
ما طال يوم ملثم إلا استراح إلى السفور
خَبَرٌ تشبث بالمسا مِع عن فم الملك الخطير
وأَذَلَّ أعناق العِدَا ذُلَّ المطية للجرير[56]
يسمو به قول الخطيـ ـب وتستطيل يد المشير
وضمائر الأعداء تقـ ـذف بالحنين على الزفير
وسوابق العبرات تر كض في السوالف والنحور

وهي طويلة وكلها على هذا النسق المرقص.

[1] مخففة من: ألآن.

أيها السادة

إلى هنا أكتفي بترتيب الحوادث في مسايرة الشريف وهو يمدح أباه، ويكفي أن ننص على أن ما سنغفله من تهنئة أبيه بالأعياد له دلالة سياسية، فهو كان يرى أباه خليقًا بأن يهنأ بالأعياد كما يهنأ الملوك والخلفاء، وأريد التهنئة الدورية التي تصاغ في كل موسم بلا تخلف، وهي بالتأكيد شارة الرياسة وعنوان السلطان.

أترك هذا الجانب من قصائد الشريف في مدح أبيه، وهي مبثوثة في الديوان يرجع إليها منكم من يشاء.

ثم أشير إلى قصائد لها قيمة في بيان المنزلة الاجتماعية لأبي أحمد الموسوي.

ويشهد ديوان الشريف بأن الموسوي تلافى الفتنة بين السنة والشيعة في سنة ٣٨٠، فهو على ذلك كان من الزعماء المصلحين، ولم يكن من الزعماء المفسدين.

والخلاف بين السنة والشيعة قديم في العراق، وهو خلاف كان مشئومًا من جانب، وميمونًا من جانب؛ كان مشؤومًا لأنه قسم العراق إلى جيشين يقتتلان؛ وكان ميمونًا لأنه علم العراقيين الجدل وجعلهم من أعرف الأمم الإسلامية بأصول المذاهب والآراء، وربما جاز لي أن أصرح بأن هذا الخلاف كان سببًا في حياة اللغة العربية؛ لأنه أمد التصنيف والتأليف بفنون من القوة والحيوية، وعاد على الشعر والنثر بأجزل النفع، وللشر مزايا في بعض الأحيان.

ولكن هذا الخلاف كان في حاجة إلى من يرعاه ويحوله إلى جدل مقبول يشحذ به الذهن والعقل، وقد استطاع أبو أحمد الموسوي أن يقف مرة موقف المصلح فيحقن الدماء، ويغنم السلامة للإخوان المتخاصمين. وتظهر قيمة هذا الموقف النبيل إذا تذكرنا أن الخلاف بين السنة والشيعة كانت تؤرثه دسائس خارجية، وما تقول هذا رجمًا بالظن، وإنما عرفنا هذه الحقيقة بعد التعمق في دراسة الوضع السياسي للنصف الثاني من القرن الرابع، فموقف أبي أحمد الموسوي كان موقف السياسي المحنك الذي يبصر ما وراء الأكمة من المعاطب والحتوف.

وقد سجل ابنه ذلك الموقف الصالح فقال:

وخطب على الزوراء ألقى جرانه ... مديد النواحي مدلهم الجوانب
وأضرمها حمراء ينزو شرارها ... إلى جنبات الجو نزو الجنادب

سللت عليه الحزم حتى جلوته ... كما انجاب غيم العارض المتراكب
وقد علم الأعداء أنك تحته ... غلبت وما كان القضاء بغالب
وأقشعت عن بغداد يومًا دويه ... إلى الآن باق في الصبا والجنائب[٥٧]
ولولاك عُلِّي بالجماجم سورها ... وخندق فيها بالدماء الذوائب

وأنتم تلاحظون أن هذه الأبيات تمثل عطف الشريف على بغداد: فهو يكره أن تكون مسايل دماء.

والواقع أن الشريف كان قليل الرعاية للعصبية المذهبية، والظاهر أنه كان حر العقل إلى حد بعيد: فقد كان يدرس جميع المذاهب الإسلامية؛ ليمد عقله بالأنوار التي يرسلها اختلاف الفقهاء، واهتمامه بمذهب الشافعي معروف، مع أن مذهب الشافعي في ذلك العهد لم يكن له أنصار أقوياء في العراق، وإنما كان أنصاره من المصريين.

ويشهد الديوان أيضًا بأن أبا أحمد المسوي سافر إلى فارس للإصلاح بين الملكين: بهاء الدولة وصمصام الدولة، والإصلاح بين العسكرين: البغدادي والفارسي.

ومعنى ذلك أن هذا الرجل كان يرجَى لتضميد الجروح، وليس ذلك بالفضل القليل، ولا يعرف قيمة هذا الفضل إلا من يراجع ما دون التاريخ من فواجع ذلك الشقاق.

وفي هذا يقول الشريف من قصيدة نظمها في رمضان سنة ٣٨٧:

سائل عن الطود لم خفَّت قواعده ... وكان إن مال مقدار به رجحا[٥٨]
قد جربوه فما لانت شكيمته ... وحملوه فما أعيا ولا رزحا[٥٩]
رموا به الغرض الأقصى فشافهه ... مر القطامي جلي بعد ما لمحا
من العراق إلى أجبال خرمة[٦٠] ... يا بعده منبذًا عنا ومطرحا
ليس الملوم الذي شد اليدين به ... يضمم على الصفقة العظمى وقد ربحا
إن أغمدوه فلم تغمد فضائله ... ولا نأى ذكره الداني وقد نزحا

وفي سنة ٤٠٠ مات أبو أحمد الموسوي وسنه سبع وتسعون سنة، فرثاه ابنه بقصيدة بلغت تسعة وثمانين بيتًا، وهي من الطوال الجياد، نذكر منها قوله في وصفه بقوة الشجاعة ورصانة البيان:

أنعاك للخيل المغيرة شزبًا[٦١] خبط المغار بهن من لم يجزم
كالسرب أوجس نبأة من قانص فمضى يلف مؤخرًا بمقدم[٦٢]
واليوم مقذ للعيون بنقعه[٦٣] لا يهتدي فيه البنان إلى الفم
ومقاوم عرض الكلام بروده فيهن بين معضد ومسهم[٦٤]
أغضى لها المتشدقون وسلموا لهدير شقشقة الفنيق المقرم[٦٥]
بالرأي تقبله العقول ضرورة عند النوائب لا بكيف ولا لم

أيها السادة

حدثنا كم فيما سلف عن الخصومة بين الرضي والمعري، وقد جاءت الفرصة لتصحيح ذلك، والفضل في هذا التصحيح للصديق الكريم سعادة الأستاذ طه الراوي، أعزه الله ورعاه، فقد نبهنا إلى المرثية المأثورة التي بكى بها المعري أبا أحمد الموسوي، وهي تشهد بأن المعري كان على صفاء مع الرضي وأخيه المرتضى إلى سنة ٤٠٠ وهو لم يقم في بغداد بعد ذلك غير قليل، ويقول الأستاذ طه الراوي: إن من المستبعد جدًّا أن ينسى الشريف وأخوه هذه المرثية فيسيئان إلى المعري بسبب عطفه على المتنبي، وبذلك تتبدد الشبهة التي ذكرها مؤرخو الأدب واعتمد عليها سعادة الدكتور طه حسين في كتابه القيم «ذكرى أبي العلاء».[٦٦] ومطلع مرثيه المعري:

أودى فليت الحادثات كفاف[٦٧] مال المسيف وعنبر المستاف[٦٨]

وفيها يقول في الثناء على الشريفين:

أبقيت فينا كوكبين سناهما في الصبح والظلماء ليس بخاف
متأنقين وفي المكارم أرتعا متألقين بسؤدد وعفاف
قدرين في الإرداء بل مطرين في الإجداء بل قمرين في الإسداف
رزقا العلاء فأهل نجد كلما نطقا الفصاحة مثل أهل دياف[٦٩]
ساوى الرضيُّ المرتضى وتقاسما خطط العلا بتناصف وتصاف

وفي ختامها يقول:

يا لكي سرح القريض أتتكما　　منى حمولة مسنتين عجاف[٧٠]
لا تعرف الورق اللجين وإن تسل　　تخبر عن القلام والخذراف[٧١]
وأنا الذي أهدي أقل بهارة　　حسنًا لا حسن روضة مئناف[٧٢]
أوضعت في طرق التشرف ساميًا　　بكما ولم أسلك طريق العافي[٧٣]

ويحسن أن نشير إلى أن شوقي عارض هذه القصيدة وهو يرثي إسماعيل صبري — عليهما رحمة الله، وقد بلغ شوقي غاية الحكمة إذ يقول:

ما أنت يا دنيا أرؤيا نائم　　أم ليل عرس أم بساط سلاف
نعماؤك الريحان إلا أنه　　مست حواشيه نقيع زعاف

والاستطراد على ما فيه من فوائد لا يسمح في هذا الموطن بأن نوازن بين حضرية شوقي وبدوية أبي العلاء، فلنقف عند هذا الحد من الشؤون المتصلة بولد الشريف، وفيما سلف غناء أي غناء.

هوامش

(١) اعترض بعضهم على أن تجري كلمة (أسود) مجرى أفعل التفضيل، ونحن لا نلتفت إلى هذا الاعتراض؛ لأن كثيرًا من الشعراء تحللوا من بعض قيود أفعل التفضيل طلبًا للتخفيف.

(٢) عبارة ابن مسكويه في تجارب الأمم ج٣ ص٣٧.

(٣) الألوك: الرسالة، ومثلها المالكة.

(٤) الطود: الجبل. وساخ: انخسف.

(٥) باخ: برد.

(٦) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب. وخوى: سقط به.

(٧) يكرع: يعب. والنقاخ على وزن غراب: الماء البارد العذب الصافي.

(٨) العقاب بالضم طائر من الجوارح. والشغواء: المختلفة نبت الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج، وهي تطلق على العقاب، والنِّيق بالكسر أرفع موضع في الجبل. والسماخ: الارتفاع.

(٩) الكلمات هنا لم تبلغ العشر، وهي كاملة في ابن الأثير ج٩ ص٨ ومنها: «كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك؟ وهلا اتخذت دونه جنة تقيك؟ إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين».

ويقول ابن الأثير: إن عضد الدولة كان له شعر حسن، وإنه قال حين أرسل إليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر عن مساعدته بختيار ويطلب الأمان:

أأفاق حين وطنت ضيق خناقه ... يبغي الأمان وكان يبغي صارما
فلأركبن عزيمة عضدية ... ناجية تدع الأفوف رواغما

(١٠) عبارة ابن مسكويه في تجارب الأمم ج٣ ص٨١.

(١١) الضراء بالفتح: الاستخفاء.

(١٢) الأملاك: الملوك.

(١٣) اللحاء: القشر.

(١٤) من الإقطاع وهو الإعطاء. والمثقف: الرمح.

(١٥) تمنى: تتمنى بحذف إحدى التاءين للتخفيف.

(١٦) العدم بضم العين وهو الفقر.

(١٧) المعنى أن العدو يخاف سيفه. ولكنه لا يخاف لسانه؛ لأنه لا يصون لسانه عن الاغتياب.

(١٨) الخمر بالتحريك ما دارك من شجر وغيره.

(١٩) الرعبلة: الناقة الرعناء، ولا تكون كذلك إلا لفرط النشاط. والبزل جمع بازل وهو الذي بلغ تسع سنين.

(٢٠) في الديوان (اختبلن) بالخاء المعجمة وهو تحريف.

(٢١) في الديوان (يوم) والصواب ما أثبتناه.

(٢٢) العرنين بالكسر هو الأنف.

(٢٣) أحب أن أقرأ: «إذا رام طعنًا».

(٢٤) الرجوان: مثنى الرجا وهو ناحية البئر.

(٢٥) يذبل وأبان: جبلان.

(٢٦) الجران بالكسر: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

(٢٧) ظهر لنا أن الفرض صحيح، وسنثبت الشاهد الذي يؤيده في ذيل الكتاب.

(٢٨) الخمار بالضم: صداع الخمر.

(٢٩) الغفار بالضم: يراد به المال.

(٣٠) جمع الشريف بين نون النسوة وبين الفاعل، وهذا يقع أحيانًا في شعره ومنه أيضًا قوله:

فما تعني القوادم من جناح تحامل إن قعدن به الخوافي؟

(٣١) الغرار بكسر الغين حد السيف.

(٣٢) أكدت الأرض غلظت وصلبت.

(٣٣) الإعدام: الفقر.

(٣٤) الشطر الثاني يجر مجرى الأمثال.

(٣٥) الخلق الأول بفتح الخاء والثاني بضمها، يريد أن جسمه نما وعقله اكتمل وكان أبوه تركه طفلًا.

(٣٦) تلعاه: عالية، والرشاء الحبل والمستحصد المتين.

(٣٧) القلل: جمع قلة بالضم وهي القمة.

(٣٨) الجامعة: الطوق.

(٣٩) اللهوات: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق.

(٤٠) الثغر: جمع ثغرة بالضم وهي الفتحة، والمتصلت. السيف الصقيل والخيس بالكسر موضع الأسد، والوعل تيس الجبل.

(٤١) القراع بالكسر مصدر قارعه مقارعة إذا قاتله.

(٤٢) الأجداد: جمع جد بالفتح وهو الحظ.

(٤٣) العهاد جمع عهد وهو أول مطر الوسمي.

(٤٤) حمر الجنان: مكوي القلب، من قولهم: حمر الرجل إذا توقد غضبًا.

(٤٥) البوائج جمع بائجة وهي الداهية.

(٤٦) الظنن جمع ظنة بالكسر وهي التهمة.

(٤٧) العواد بالضم يراد به الصلح.

(٤٨) في الديوان (الزمان).

(٤٩) الألية: اليمين. والعضب: السيف.

(٥٠) أصحرت: انكشفت. والموارن جمع مارن وهو الأنف.

(٥١) الوئيد في الأصل هدير البعير، والمراد هنا الصوت العالي الشديد.

(٥٢) حديد: قاطع.

(٥٣) الضياع بفتح الضاد من ضاع يضيع فهو ضائع، والضياع بكسر الضاد جمع ضيعة بالفتح وهي العقار والأرض المغلة.

(٥٤) القراع: بالكسر القتال.

(٥٥) المصاع بالكسر المضاربة.

(٥٦) الجرير: الحبل تخطم به المطية.

(٥٧) الصبا بفتح الصاد، والجنائب جمع جنوب، والمراد ريح الصبا وريح الجنوب.

(٥٨) الطود، الجبل، والقواعد: الأركان.

(٥٩) رزح: ضعف وسقط، إعياء، أو هزالًا.

(٦٠) خرمة على وزن سكرة موضع في أرض فارس.

(٦١) الشزب جمع شازب وهو الضامر.

(٦٢) النبأة: الصوت الخفي، أو صوت الكلاب.

(٦٣) النقع: غبار الحرب وهو العثير أيضًا.

(٦٤) المقاوم جمع مقام. والمعضد ثوب له علم في موضع العضد. والمسهم: البرد المخطط.

(٦٥) الفتيق الفحل يكرم على أهله فلا يركب. والمقرم وصف للفحل.

(٦٦) عرضنا هذا الرأي على الدكتور طه حسين فلم يسترح إليه. وقد أعاد في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه» ما أثبته في كتابه «ذكرى أبي العلاء» مع أن رأي الأستاذ طه الراوي واضح كل الوضوح: فالحادثة إن كانت وقعت قبل موت الموسوي، فمن البعيد أن يرثيه أبو العلاء وقد أهين في داره على يد ابنه الكبير، ووقوعها بعد موته غير معقول؛ لأن رثاء أبي العلاء للموسوي يفرض على الشريفين أن يراعيا كرامة أبي العلاء، فلا يلقى الهوان وهو ضيف له عندهما عهد ... ويؤيد رأي الأستاذ طه الراوي أن تلك الحادثة لم يتحدث عنها مؤلف قبل ياقوت.

(٦٧) كفاف: اسم معدول مبني على الكسر، جعله الشاعر اسمًا لكف الأذى. أي: ليت الحادثات يكف بعضها بعضًا ويقوم خيرها بشرها «انظر شرح سقط الزند» من ٧٦ ج٢.

(٦٨) المسيف من أساف الرجل إذا ذهب ماله. والمستاف من الاستياف وهو الشم.

(٦٩) دياف بكسر الدال موضع نبط لا فصاحة فيه.

(٧٠) المسنتون الذين أصابتهم السنة، أي: الجدب، والعجاف المهازيل.

(٧١) القلام والخذارف ضربان من الحمض من نبات البادية، واللجين الورق المدقوق المخلوط بالنوى المرضوض وهو من علوفة أهل الأمصار، والمعنى أن القصيدة بدوية لا حضرية.

(٧٢) المئناف والأنف بضمتين الروضة التي لم ترع من قبل.

(٧٣) أوضعت: أسرعت، والعافي: طالب المعروف.

صلات الشريف الرضي بخلفاء بني العباس

أيها السادة

إن محاضرة الليلة أشقتني كثيرًا، ولكنها ستفصل في أعظم معضلة سياسية تحدث بها من عرضوا لترجمة الشريف: وهي تساميه لتبوء عرش الخلافة الإسلامية وأكاد أجزم بأن هذا المطمح لم يكن إلا خيال شعراء، ولم يجسمه إلا الأدباء الذين يسرهم أن يكون لهم زميل يتطلع إلى المعالي ويتسامى إلى عرش الرشيد والمأمون؛ ولذلك نرى مؤرخي الأدب يشيرون إلى هذه المسألة فرحين متهللين كأنهم ظفروا بكنز مدفون.[١]

والحق أن الظروف التي عاش فيها الشريف كانت سيئة جدًّا، ويكفي أني لا أستطيع اليوم بعد مئات السنين أن أذكر بالتفصيل ما كانت تضطرب به بغداد في ذلك العهد؛ لأن تلك السنين العجاف تركت عقابيل حمل الناس أثقالها من جيل إلى جيل.

وأنتم تعرفون أن أشهر من شجعوا الشريف على طلب الخلافة هو أبو إسحاق الصابي، ومع ذلك كان الصابي يشكو الفقر وسوء الحال فلا يملك الشريف أن يعينه بشيء؛ لأن الشريف كان أفق من الصابي وإنما كان يتجمل ويستر فقره عن الناس.

والذي يعيش في مثل تلك الحال لا يفكر جديًّا في قلب النظام السياسي، بحيث يصبح وهو السيد الذي يسيطر على الأقطار العربية والفارسية.

على أنه لا بأس من تصوير حال الخلافة في ذلك العهد، لنعرف متى بدأ الشريف يداعب تلك الأمنية، ومتى انصرف عنها انصراف اليائسين.

عاش الشريف في عهود ثلاثة من الخلفاء، هم: المطيع والطائع والقادر، وما يمكن أن نلتفت لأيامه في عهد المطيع؛ لأنه كان طفلًا لا يحسب له حساب.

ننتقل إلى عهد الطائع الذي استمر من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٣٨١ وهو عهد كانت فيه الخلافة قوة وهمية؛ لأن الديلم كانوا هم المسيطرين على العراق، وكان الخليفة صورة يجيزون بها الأحكام إذ كانت الجماهير في أعماق قلوبها تحترم الخلفاء، وكان البويهيون لا يرون بأسًا من استبقاء تلك الصورة تجنبًا لعواطف الأهواء.

والتاريخ يشهد بأن الخلفاء في القرن الرابع كانوا قد اطمأنوا إلى الحرمان من السلطة التنفيذية، حتى إمارة الحج لم يكن الخليفة يصدر بها مرسومًا إلا نص فيه على اسم الملك الذي يحكم ويسود، فقد كتب الصابي على لسان الخليفة المطيع مرسومًا بإمارة الحج جاءت فيه هذه الكلمات:

> ولما قلَّدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبيين، فبان له فيها محمود سيرتك وظهر من أفعالك ما يدل على سلامة سريرتك، رأى أمير المؤمنين أن حق العادة التي عوَّده الله فيها الصلاح، وأجرى له فيها طائر النجاح، أن يزيدك فضلًا وإحسانًا، ولا يألوك إنعامًا وامتنانًا، فأنهى معز الدولة أبو الحسين — أحسن الله حياطته — أمر رفاق الحجيج الشاخصة من العراقين، وإيثار تقليد تسييرها إلى الحرمين، والاعتماد عليك في حمايتها، وتوليك الحرب والأحداث فيها، فوافق رأي معز الدولة أبي الحسين تولَّى الله كفايته الصواب، ووقع عند أمير المؤمنين موقع القبول والإيجاب.

فالخليفة في هذا المرسوم الديني ينص على اسم الأمير البويهي؛ لأنه لم يكن يملك غير ذلك.

وهناك عبارة أصرح من هذه العبارة، وهي منشور كتب على لسان الطائع، جاء فيه أن الإمامة لا تصح ولا تسلم إلا برعاية البويهيين.

وقد أخرجت من رسائل الصابي شواهد كثيرة تؤيد ما أقول، ولكن لا موجب لسرد تلك الشواهد، فهذا أمر مفروغ منه، ومسلم به، والذي اطلع منكم على كتاب «تجارب الأمم» يرى أن القرن الرابع لم يكن إلا مسرحًا للعراك بين الفرس والترك، ولم يكن الخلفاء يذكرون إلا من باب الاستطراد، فكأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة.

ولنقل بصراحة: إن الشريف كان حريصًا على الظهور بمظهر الولاء للديلم والأتراك؛ لأنه كان يعرف أن الأمر إما أن يكون لأولئك أو هؤلاء وقد سافر مرة إلى الكوفة، فتحدث ناس أنه عزم على التوجه إلى مصر، فلما رجع إلى بغداد نفى الشبهة بقصيدة مدح فيها بني بويه وتودد إلى الأتراك، ولا يعلم إلا الله ما في تلك القصيدة من عناصر الصدق، ولكنها شاهد على ما كان يجب أن يصطنعه الرجل من السياسة وهو يعيش في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع، واسمعوا كيف يقول:

أفي كل يوم للمطامع جاذب ... يجشمني ما يعجز الأسد الوردا[2]
كأني إذا جادلت دون مطالبي ... أجادل للأيام ألسنة لدًّا[3]
أحل عقود النائبات وأنثني ... وخلفي يد للدهر تحكمها عقدا[4]
إذا ما نفذت السد من كل جانب ... رأيت أمامي دون ما أبتغي سدًّا
أترك أملاكًا رزانًا حلومهم[5] ... حلولًا على الزوراء أيمانهم تندى
كأنك تلقى منهم آجمية[6] ... مؤللة الأنياب أو قللًا صلدا[7]
ولا يأنف الجبار أن يعتفيهم[8] ... ولا الحر يأبى أن يكون لهم عبدا
إذا ما عدمنا الجود منهم لعلة ... فلا نعدم العلياء منهم ولا المجدا
نحاسن أقمار الدجى بوجوههم ... فنبهرها نورًا ونغلبها سعدا
تخالهم غيدًا إذا بذلوا الندى ... وتحسبهم جنًّا إذا ركبوا الجردا[9]

إلى أن يقول:

أآل بويه ما نرى الناس غيركم ... ولا نشتكي للخلق لولاكم فقدا
نرى منعكم جودًا ومطلكم جدًّا ... وإذلالكم عزًّا وأمراركم شهدا
وعيش الليالي عند غيركم ردى ... وبرد الأماني عند غيركم وقدا
إذا لم تكونوا نازلي الأرض لم نجد ... بها الوادي المطمور والكلأ الجعدا
وكنت أرى أني متى شئت دونكم ... وجدت مجازًا للمطالب أو معدى
فلم أر من مطلع عن بلادكم ... ولا من مراح للأماني ولا مغدى[10]
خذوا بزمامي قد رجعت إليكم ... رجوع نزيل لا يرى منكم بدًّا

أريد ذهابًا عنكم فيردني　　إليكم تجاريب الرجال ولا حمدا

ومن الواضح أن سيطرة الفاطميين على مصر لم تكن إيذاءً مباشرًا للمطيع أو الطائع، وإن كانت طعنة موجهة إلى من يسيطرون على فارس والعراق؛ ولهذا نرى لغة المشرق في ذلك العهد لا تسمي الخليفة الفاطمي «صاحب مصر» وإنما تسميه «صاحب المغرب» وهو تعبير كله إيحاء!

ونعود فنقول: إن الشريف أنس كل الأنس بالطائع، فكان يمدحه بصدق وإخلاص، ومع أن الطائع كان خليفة يستضعفه البويهيون أشد الاستضعاف، فقد رأى فيه الشريف رجلًا عربيًّا هو البقية من مجد بني العباس.

وهنا أذكر أن الأستاذ عبد الحسين الحلي أراد أن يشكك في صدق عواطف الشريف وهو يمدح الطائع، وأنا أرى غير ذلك، أرى أن الشريف كان يفهم جيدًا أنه يخاطب خليفة بالرغم من فساد الأحوال، وأرى أن مطامع الشريف في ذلك العهد كانت تقف عند استرداد أملاك أبيه التي صادرها عضد الدولة منذ سنين، فمن الإسراف في حسن الظن بعزيمة الشريف أن يقال: إنه كان يطلب الخلافة في ذلك العهد.

فإن لم يكن بد من تمجيد الشريف، فيكفي النص على أن عواطفه نحو الطائع كانت خالصة من شوائب الرياء، بخلاف ما أراد الأستاذ عبد الحسين.

ومن الواجب أن ننص على أن مدائح الشريف للطائع لم تبدأ إلا بعد أن اطمأن على خلاص أبيه من الاعتقال، وقرب رجوعه إلى بغداد، أي: بعد سنة ٣٧٣، فأقدم قصيدة مدحه بها هي الحائية التي ذم فيها أعداءه ثم تخلص إلى المدح فقال:

نعلِّل بالزلال من الغوادي　　ونتحف بالنسيم من الرياح
وحاورنا الخليفة حيث تسمو　　عرانين الرجال إلى الطماح
نوجه بالثناء له مصونًا　　ونرتع منه في مال مباح
وسيال[١١] اليدين من العطايا　　مهيب الجد مأمون المزاح
إذا ابتدر الملام ندى يديه　　مضى طلقًا على سنن المراح[١٢]
أمير المؤمنين أذال سيري　　ذرى هذي المعبدة الرزاح[١٣]
فكم خاض المطي إليك بحرًا　　يموج على الأماعز والضواحي[١٤]
وكم لك من غرام بالمعالي　　وهم في الأماني وارتياح

وأيـام تـشـن بـهـا الـمـنـايـا عوابس يطلعن من النواحي[١٥]
فلا نقل: المهيمن عنك ظلا من النعماء ليس بمستباح

وفي سنة ٣٧٦ مدح الطائع وشكره على تكرمه خصه بها وثياب وورق، فقال بعد أبيات:

وإذا أمير المؤمنين أضاف لي أملي نزلت على الجواد المفضل
بالطائع الميمون أمجج مطلبي وعلوت حتى ما يطاول معقلي
قرم إذا عرت الخطوب مراحه أدمى غواربها بها بناب أعصل[١٦]
متوغل خلف العدو وعلمه أن الجبان إذا سرى لم يوغل
وإذا تنافلت الرجال غنيمة قسم التراث لها بحد المنصل
ثبت لهجهجة الخطوب كأنما جاءت تقعقع بالشنان ليذبل[١٧]
رأي الرشيد وهمة المنصور في حسن الأمين ونعمة المتوكل
آباؤك الغر الذين إذا انتموا ذهبوا بكل تطاول وتطول
درجوا كما درج القرون وعلمهم أن سوف يخبر آخر عن أول
نسب إليك تجاذبت أشياخه طولًا من العباس غير موصل[١٨]
هذي الخلافة في يديك زمامها وسواك يخبط قعر ليل أليل
أحرزتها دون الأنام وإنما خلع العجاجة سابق لم يذهل
طلعت بوجهك غرة نبوية كالشمس تملأ ناظر المتأمل

وهي قصيدة طويلة أسلم فيها الشريف أمره للطائع فقال:

أرجوك للأمر الخطير وإنما يرجَى المعظم للعظيم المعضل
وأروم من غلواء عزك غاية قعساه تستلب النواظر من عل
كم رامها منك الجبان فراوغت شقاء يلعب شقها بالمسحل[١٩]
تدمي قلوب الحاسدين وتنثني فتردد عادية الخطوب النزل
ضاق الزمان فضاق فيه تقلبي كالماء يجمع نفسه في الجدول

هذا الحسين إلى علائك ينتمي   شرفًا وينسب مجده في المحفل

إلى آخر القصيدة، والحسين هنا هو أبوه، لا الحسين بن علي بن أبي طالب، وهذه القصيدة صريحة في أن الشريف كان يؤمن بأن الطائع أسدى إلى أبيه فنونًا من المعروف.

وكانت سنة ٣٧٧ من أعوام الخصب بين الرضي والطائع: فقد مدحه خمس مرات، منها مرتان في شهر رمضان، الأولى بقدوم الصوم، وهي قصيدة نفض الشريف بها همومه، وشكا بها دهره، إذ يقول:

بلوت وجربت الأخلاء مدة   فأكثر شيء في الصديق ملال[٢٠]
وما راقني ممن أود تملق   ولا غرني ممن أحب وصال
وما صحبك الأدنون إلا أباعد   إذا قل مال أو نبت بك حال
ومن لي بخل أرتضيه وليت لي   يمينًا يعاطيها الوفاء شمال
تميل بي الدنيا إلى كل شهوة   وأين من النجم البعيد منال
وتسلبني أيدي النوائب ثروتي   ولي من عفافي والتقنع مال
إذا عزني ماء وفي القلب غلة   رجعت وصبري للغليل بلال[٢١]
أرى كل زاد ما خلا سد جوعة   ترابًا وكل الماء عندي آل
ومثلي لا يأسى على ما يفوته   إذا كان عقبى ما ينال زوال
كأنا خلقنا عرضة لمنية   فنحن إلى داعي المنون عجال
نخف على ظهر الثرى وبطونه   علينا إذا حل الممات ثقال
وما نوب الأيام إلا أسنة   تهاوى إلى أعمارنا ونصال
وأنعم منا في الحياة بهائم   وأثبت منا في التراب جبال
أنا المرء لا عرضي قريب من العدا   ولا في للباغي علي مقال
وما العرض إلا خير عضو من الفتي   يصاب وأقوال العداة نبال
وقور فإن لم يرع حقي جاهل   سألت عن العوراء كيف تقال

وهو سيمدح الطائع بعد ذلك مدحًا طيبًا، ولكن ما رأيكم في هذه المقدمات؟ إنه يأنس بالطائع كل الأنس فيفضي إلي بذات نفسه ويشكو أمامه قسوة الفقر وخشونة الزمان.

وهو حين يصل إلى مدحه لن يقول: أعطني مالًا، وإنما سيقول: أعطني منصبًا:

أزل طمع الأعداء عني بفتكة   فلا سلم إلا أن يطول قتال
فإن نفوس الناكثين مباحة   وإن دماء الغادرين حلال
وشمر فما للسيف غيرك ناصر   ولا للعوالي أن قعدت مصال[٢٢]
ومن لي بيوم شاحب عجاجه   أنال بأطراف القنا وأنال[٢٣]
أردني مرادًا يقعد الناس دونه   ويغبطني عم عليه وخال
ولا تسمعن من حاسد ما يقوله   فأكثر أقوال العداة محال[٢٤]

إلى آخر القصيدة، وفي الشهر نفسه هنأه بالمهرجان فمدحه ومدح أصوله من بني العباس:

يلقى الخطوب ووجهه طلق   ويخوضهن وقلبه جذل
تخفي بشاشته حميته   كالسم موه طعمه العسل
من معشر كانت سيوفهم   حليًّا لمن ضربوا ومن عطلوا
بالفخر يكسون الذي سلبوا   والذكر يحيون الذي قتلوا[٢٥]
أنت الجواد إذا غلا أمل   والمستجار إذا طغى وجل

وفي هذه القصيدة يصرح بأنه ورث محبة الطائع عن أبيه إذ يقول:

إن المجرد في هواك فتى   لا اللوم يردعه ولا العذل
مثل الحسين فبين أضلعه   قلب بغيرك ما له شغل

وبعد أيام هنأه بعيد الفطر، تهنئة شاعر يعرف أنه يخاطب خليفة وهي تجمع بين العذوبة والجزالة، وقد عرض فيها بخصوم الطائع أعنف تعريض، والذي يهمنا هو الشاهد الآتي:

أعيذ مجدك أن أبقى على طمع   وأن تكون عطاياي المواعيد
وأن أعيش بعيدًا عن لقائكم   ظمآن قلب وذاك الورد مورود

ما لي أحب حبيبًا لا أشاهده ولا رجاي إلى لقياه ممدود
وأتعب القلب فيمن لا وصال له يا للرجال أقل الخرَّد الغيد[٢٦]
أكثرت شعري ولم أظفر بحاجته فسقني قبل أن تفنى الأغاريد

وبعد شهر عزاه في عمر بن إسحاق بن المقتدر وكان آخر ولد بقي من ظهر ذلك الخليفة، وهي قصيدة تكثر فيها الحكم والأمثال.

نؤمل أن نروى من العيش والردى شربٌ لأعمار الرجال أكول
وهيهات ما يغني العزيز تعزز فيبقى ولا ينجي الذليل خمول
نقول: مقيل في الكرى لجنوبنا وهل غير أحشاء القبور مقيل
دع الفكر في حب البقاء وطوله فهمك لا العمر القصير يطول
ولا ترجُ أن تعطي من العيش كثرة فكل مقام في الزمان قليل
ومن نظر الدنيا بعين حقيقة درى أن ظلًّا لم يزل سيزول
تشيع أظعان إلى غير رجعة وتبكى ديار بعدهم وطلول
إذا لم يكن عقل الفتى عون صبره فليس إلى حسن العزاء سبيل
وإن جهل الأقدار والدهر عاقل فأضيع شيء في الرجال عقول
ومن مات لم يعلم وقد عانق الثرى بكاه خليل أم سلاه خليل

وهذا البيت يشهد بأن الشريف الرضي كان يرتاب فيما يعرف الأموات من أحوال الأحياء

وفي العام نفسه عاتبه بقصيدة قوية طاب فيها التشبيب وطاب فيها العتاب وأي تشبيب أعنف من هذه الأنفاس الحرار:

خليلي هل تثني من الوجد عبرة وهل ترجع الأيام ما كان ماضيا
إذا شئت أن تسلي الحبيب فخله وراءك أيامًا وجر اللياليا
أعف وفي قلبي من الوجد لوعة وليس عفيفًا تارك الحب ساليا
إذا عطفتني للحبيب عواطف أبيت وفات الذل من كان آبيا
وغيري يستنشي الرياح صبابة وينشي على طول الغرام القوافيا

وألقى من الأحباب ما لو لقيته من الناس سلطت الظبا والعواليا
فلا تحسبوا أني رضيت بذلة ولكن حبًّا غادر القلب راضيا
رعى الله من ودعته يوم دابق[٢٧] ووليت أنهي الدمع ما كان جاريا
وأكتم أنفاسي إذا ذكرته وما كل ما تخفيه يا قلب خافيا
فعندي زفير ما ترقى من الحشا وعندي دموع ما طلعن الأماقيا
مضى ما مضى ممن كرهت فراقه وقد قل عندي الدمع إن كنت باكيا
ولا خير في الدنيا إذا كنت حاضرًا وكان الذي يغري به القلب نائيا

ولما وصل إلى عتاب الطائع مدحه أجزل المدح ثم قال:

إلى كم أمني النفس يومًا وليلة وتعلمني الأيام أن لا تلاقيا
وكم أنا موقوف على كل زفرة عليل جوى لو أن ناسًا دوائيا
أيسنح لي روضًا وأصبح عازبًا[٢٨] ويعرض لي ماء وأصبح صاديًا
وما أنا — إلا أن أراك — بقانع وإن كنت جرارًا إليَّ الأعاديا
تركت إليك الناس طرًّا وكلهم يتوق إلى قربي ويهوى مقاميا
عليك علام الله إني لفازع إليك وإن لم أعط منك مراديا

وأنتم ترون أنه يمن على الخليفة بمدحه منًّا صريحًا، ويقول: إنه يترك في سبيله أقوامًا كرام الأكف، وسنرى فيما بعد من هم أولئك الأقوام، ولكن لا بأس من التصريح بأن الرضي كان يحب أن يستأثر بمودة الطائع، فلا يرى في حضرته أحدًا من خصومه الألداء، ومن شواهد ذلك أنه عرف أن بعض خصومه ظفر بمودة الطائع، فأرسل إليه يعاتبه عتاب الأنداد فيقول:

ونمي إليَّ من العجائب أنه لعبت بعقلك حيلة الخوان
وتملكتك خديعة من قولة غرارة الأقسام والأيمان
حقًّا سمعت ورب عيني ناظر يقظ تقوم مقامها الأذنان
أين الذي أضمرته من بغضه وعقدته بالسر والإعلان
أم أين ذاك الرأي في إبعاده حنقًا وأين حمية الغضبان

سبحان خالق كل لون معجب ما فيكم من كثرة الألوان
يوم لذا، وغد لذاك، وهذه شيم مقطعة قوى الأقران
فالآن منك اليأس ينقع غلتي واليأس ينقع غلة الظمآن
فاذهب كما ذهب الغمام رجوته فطوى البروق وضن بالتهتان
لي مثل ملكك لو أطعت تقنعي وذوو العمائم من ذوي التيجان
ولعل حالي أن يصير إلى علا فالدوح منبتها من القضبان
فاحذر عواقب ما جنيت فربما رمت الجناية عرض قلب الجاني
أعطيتك الرأي الصريح وغيره تنساب رغوته بغير بيان
وعرضت نصحي والقبول إجازة فإذا أبيت لويت عنك عناني

وأنتم ترون أن هذه جرأة لو صدرت في عهد خليفة مثل الرشيد لأطاح رأس الشاعر بلا تردد، ولكن الرضي كان يثق بأن الطائع يعطف عليه، وكان يثق بأن الطائع لا يملك الأمر كله في بغداد.

وفي سنة ٣٧٨ مدح الطائع بقصيدة تفيض بالوداد، إذ يقول:

يا جميلًا جماله ملء عيني وعظيمًا أعظامه ملء قلبي
بك أبصرت كيف يصفو غديري من صروف القذى ويأسن سربي[٢٩]
أنت أفسدتني على كل مأمو ل وأعديتني على كل خطب
فإذا ما أراد قربي مليك قلت: قربي من الخليفة حسبي
عز شعري إلا عليك وما زا ل عزيزًا يأبى على كل خطب
أنت ألبستني العلا فأطلها أحسن اللبس ما يجلل عقبي[٣٠]
أنني عائد بنعماك أن أكـ ـثر قولي وأن أطول عتبي
نظرة منك ترسل الماء في عودي وتمطي[٣١] ظلي وتبت تربي
ما ترجيت غير جودك جودًا أيرجى القطار من غير سحب
لا تدعني بين المطامع واليأس ووردي[٣٢] ما بين مر وعذب

وفي سنة ٣٧٩ مدحه وعاتبه على تأخير الإذن له في لقائه بمجلس خاص، وذلك في قصيدة طويلة نشير إليها بالمطلع:

ضربن إلينا خذودًا وساما[٣٣] وقلن لنا: اليوم موتوا كراما

وفي سنة ٣٨٠ مدحه بعدة قصائد، أهمها القصيدة النونية:

الآن أعربت الظنون وعلا على الشك اليقين

وإنما كانت أهم قصائده في تلك السنة بفضل ما نظمت من أجله، فقد كان الطائع تأثر من قصيدة قال فيها الشريف:

متى أنا قائم أعلا مقام ولاقٍ نور وجهك بالسلام
ومنصرف وقد أثقلت عطفي منَ النَّعماء والمنن الجسام
ولي أمل أطلت الصبر فيه لو ان الصبر ينفع من أوامي[٣٤]
وما خِفت النوائب ترتمي بي وقد أقعَى بجامحها لجامي
أيعرقني الطوى والروض حالٍ ويغلبني الظما والبحر طام[٣٥]
ولي قربى رؤوم كنت أرجو يمينك أن تقرب لي مرامي
وباب الإذن مني كل يوم يقعقع بالقوافي والنظام
لكم أرجاء زمزم والمصلى وبطحاء المشاعر والمقام
وأنت أطول العظماء طولا وأندى في المحول من الغمام
وأبعد موطنًا من كل عار وأمنع جانبًا من كل ذام
وأجري عند مختلف العوالي وأفلج عند معترك الخصام[٣٦]
بآباء مضوا وهم عوارٍ من القول المهجن والملام
وأمَّات[٣٧] درجن على الليالي وهن أصحُّ من بيض النعام

إلى أن يقول:

ألان[٣٨] جذبت من أيدي الليالي عناني واشتملت على زمامي

فما أخشى الزمان ولو تلاقت   يداه من ورائي أو أمامي

أقول: إن الطائع رق لهذه القصيدة فأمر بأن يسير الشريف إلى داره في يوم الخميس لعشر بقين من رمضان، وجلس له جلوسًا خاصًّا، وكانت خلع السواد قد أعدت له فجلببت عليه، وزاد الخليفة في إكرامه فلم يخرج إلا وهو مثقل بالهدايا الفاخرات، وقد ظهر أثر ذلك في النونية إذ يقول:

أترى أمين الله إلا   من له البلد الأمين
لله درك حيث لا   تسطو الشمال ولا اليمين
والأمر أمرك لا فم   يوحي ولا قول يبين
لما رأيتك في مقا   م يستطار به الركين[٣٩]
ورأيت ليث الغاب معـ   ـترضًا له الدنيا عرين
أقدمت إقدام الذي   يدنو وشافعه مكين
فلذاك ما ارتعد الجنا   ن حيًا ولا عرق الجبين
وسمت بفضلك غرة   تغضي لهيبتها الجفون
وامتد من نور النبي   عليك عنوان مبين
وجمال وجهك لي بنيـ   ـل جميع ما أرجو ضمين
فأفيضت الخلع السوا   د على ترشقها العيون
شرف خصصت به وقد   درجت بغصته القرون
وخرجت أسحبها ولي   فوق العلا والنجم دون
جذلًا وللحساد من   أسف زفير أو أنين

أيها السادة

إلى هنا رأيتم صلات الشريف بالطائع، رأيتم شاعرًا يمدح وخليفة يثيب، فهل يدوم هذا النعيم؟

أخشى أن تكون مدائح الرضي بابًا يدخل منه الشر إلى قصر الطائع؛ فقد أطال في وصفه بالشجاعة والجرأة والبطولة، وأطال في وصف جوائزه وعطاياه، وكان هناك قومٌ لا يرضيهم أن يكون للخلفاء جاه أو مال.

وكذلك تطوع بعض الدَّسَّاسين وأفهم بهاء الدولة أن قصر الخليفة مملوء بالذخائر العظيمة، وزين له القبض عليه، فانخدع بهاء الدولة وتوهَّم أنه سيظفر بكنوز الأرض حين يقبض على الطائع، فأرسل إليه يسأله الإذن بالحضور في خدمته ليجدد العهد، فأذن له في ذلك، وجلس له كما جرت العادة، فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير، ولما دخل قبَّل الأرض بين يدي الخليفة وأُجلس على كرسي، ودخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبِّل يد الخليفة فجذب الطائع بحمائل سيفه وأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي لحظات معدودات أخذ ما في دار الخليفة من الذخائر، ونهب الناس بعضهم بعضًا، وكاد حبل الأمن ينقطع في بغداد.

وكان الشريف الرضي في مجلس الخليفة في تلك الساعة السوداء، فلم يدفع عنه بيد ولا لسان، وإنما لاذ بالفرار ليسلم من عدوان الباغين.

وقد كان موقفه في هذه الحادثة الشنعاء شبيهًا بموقف البحتري حين قُتِلَ المتوكل، ولكن البحتري كان أشجع وأوفى، فقد دافع عن المتوكل بيديه ثم رثاه بعد ذلك أشرف رثاء، أما الرضي فترك صاحبه لأيدي الغادرين، وكان يملك الدفاع عنه لو شاء، ثم سجل الحادث بقصيدة أطال فيها الغزل والتشبيب، كأن تلك الفاجعة لم تنسه ثورة الوجد ولوعة الحنين، ولما وصل إلى صميم الموضوع وصف نفسه بالحزم فقال:

إذا ظننا وقدرنا جرى قدر ... بنازل غير موهوم ومظنون
اعجب لمسكة نفس بعد ما رميت ... من النوائب بالأبكار والعون
ومن نجائي يوم الدار حين هوى ... غيري ولم أخل من حزم ينجيني
مرقت منها مروق النجم منكدرًا ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني
وكنت أول طلاع ثنيتها ... ومن ورائي شر غير مأمون
من بعدما كان رب الملك مبتسمًا ... إليَّ أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين

«وهذا تعريض جارح برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يثبتوا على البأساء وقهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبهم السياسية. وقد

حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين في ذلك العهد، ولكنا خشينا أن نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، وأول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوي وكان شخصية هائلة تملك جماهير الناس في الكرخ وبغداد أقوى امتلاك، وقد اعتقل مع أبي أحمد الموسوي وصودرت أملاكه فكان في خزائنه من الذهب مليون دينار. وهذا الرجل سكت الشريف عنه حين توجع لأبيه وعمه، فهل يمكن الظن بأنه دخل في مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص؟ ذلك ظن من الظنون لا يقوم عليه دليل، ويكفي أن نسجل أن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض».

وبعد الفراغ من طبع الكتاب وقفنا على نص يؤيد هذا الافتراض، ويشهد بأن أبا أحمد الموسوي وأبا الحسن العلوي كانا عدوين، فقد جاء في تجارب الأمم ج٣ ص٢٦٧ ما نصه على لسان أحد المضطهدين:

> وجاءني في أثناء ذلك الشريف أبو أحمد الموسوي، وكان يتهمني بالميل إلى الشريف أبي الحسن محمد بن عمر ويستوحش مني لأجله.

ولعلكم أيها السادة في غنى عمن يحدثكم أن بهاء الدولة أظهر أمر الخليفة القادر بالله ونادى بشعاره في أسواق بغداد، وكتب على الطائع كتابًا بالخلع وتسليم الأمر إلى القادر، شهد فيه الشهود عليه. والملك لله الواحد القهار.

ولكن ألا ترون من الظلم أن يقال: إن موقف الشريف شبيه بموقف البحتري، وإن الشريف كان يجب عليه أن يدافع عن الطائع كما دافع البحتري عن المتوكل؟

إن الشبه بين الحادثتين لا يتم إلا من الوجهة الشكلية، أما من حيث الجوهر فهو مفقود؛ لأن شخصية المتوكل غير شخصية الطائع، فقد استطاع بلباقته وبراعته أن يقنع العالم الإسلامي بأن الخلافة باقية، وأنها لا تزال تملك مصاير الأمور: فترفع من ترفع، وتخفض من تخفض، وكذلك كان الفتك به في مجلس شراب جريمة يثور عليها أضعف الجبناء.

أما الطائع فتولى الخلافة وهي كالقلب المنخوب لا تثبت أمام عاصفة ولا يحسب لها يوم الروع حساب، ومن المؤكد أن الشريف لم ير فيما صنع بهاء الدولة مع الطائع شيئًا جديدًا، فتلك الصورة المنكرة كانت لها سوابق في غاية من البشاعة والقبح، فقد صيغت على نموذج الحادث الفظيع الذي وقع للمستكفي بالله يوم دخل عز الدولة ومعه أتباعه، والمستكفي على سرير الخلافة، فقبلوا الأرض بين يديه، ثم تقدم اثنان كأنهما

يريدان تقبيل يده فمدها إليهما وهو متلطف مترفق، فجذباه وطرحاه إلى الأرض ووضعا عمامته في عنقه ثم جراه مهينًا ذليلًا ليعتقل في دار عز الدولة.

ومن هذا التماثل التام بين ما وقع للمستكفي بالله وما وقع للطائع ترون أن الشريف الرضي كان يتوقع هذه الحوادث، وترون أنه كان يعرف ما يصنع في مثل هذه المواقف ولست أستبعد أن يكون الشريف وطن نفسه على إيثار السلامة إن وقع مثل هذا الحادث؛ لأن الظروف لم تكن تسمح أبدًا بتأليف جيش يحارب الديلم ويناصر بني العباس.

والقصيدة التي أشرنا إليها منذ لحظات تشهد بذلك، فهي قصيدة رجل يكرثه التضجر والتألم ولا يهتاج للقتال؛ لأنه كان يعرف أن القتال لا يطلب منه في مثل تلك الحال.

أضيفوا إلى ذلك أنه كان جرب الحوادث وجربته الحوادث، فكان يذكر بالتأكيد أن عضد الدولة اعتقل أباه وصادر أملاكه، ثم نفاه، ومع ذلك لم تسقط السماء على الأرض، ولم يمتشق في سبيله سيف، ولم يبذل في الدفاع غير قطرات من الدمع. وما أضيع من لا يحامي عنه أنصاره بغير الدمع!

لست من القائلين: بأن الشريف لم يكن يهمه أمر الطائع: فذهني لا يسبغ هذا النوع من الدفاع عن الشريف؛ لأني أعتقد أن الشريف كان صادقًا كل الصدق في مودة الطائع، ولعله أصدق علوي مدح العباسيين وأطال عليهم الثناء.

أن الأستاذ عبد الحسين الحلي نظر إلى الشريف من وجهة مذهبيه حين حكم بأنه كان يداري الطائع، أما أنا فأنظر إلى الشريف، من وجهة إنسانية، وأعتقد أن الشريف لم يكن مداجيًا ولا مرائيًا ولا وصوليًّا في مودته للطائع، وإنما كان يراه بقية من بقايا بني العباس الذين أذاعوا معاني العظمة في الأمم الإسلامية زمنًا غير قليل، وكان يتمنى لو يعتدل الميزان فتصبح الخلافة قوة فعلية ترتفع بها العروبة وتنهار أمهامها الشعوبية.

ولست بهذا القول أعطي الشريف ما لم يكن له أهل، لا، فليس من همي أن أمنح الشريف ما لا يملك، وإنما أقول هذا القول فرارًا من ظلم الشريف فإن شعره يشهد بأنه توجع لنكبة الطائع، ويشهد بأنه تألم لنكوله عن الدفاع عنه في ذلك اليوم المشئوم.

وشاهد ذلك أيها السادة أن الشريف لم يكتف بالقصيدة التي صور بها ما وقع في ذلك اليوم، وإنما آذاه وأرمضه أن يرى الطائع مخلوعًا يعيش على هامش الحياة بعد أن كان بالأمس خليفة يبرم وينقض، ويعطي ويمنع، وكذلك رأيناه يقول:

إن كان ذاك الطود خر ... فبعدما استعلى طويلَا[٤٠]
موف على القلل الذوا ... هب في العلا عرضًا وطولَا[٤١]
قرم يسدد لحظه ... فترى القروم له مثولا[٤٢]
ويرى عزيزًا حيث حلَّ ... ولا يرى إلا ذليلَا[٤٣]
كالليث إلا أنه اتـ ... ـخذ العلا والمجد غيلَا
وعلا على الأقران لا ... مثلًا يعد ولا عديلَا[٤٤]
من معشر ركبوا العلا ... وأبوا عن الكرم النزولا
كرموا فروعًا بعدما ... طابوا وقد عجموا أصولا[٤٥]
نسب غدًا روَّاده ... يستنجبون لنا الفحولا
يا ناظر الدين الذي ... رجع الزمان به كليلا
يا صارم المجد الذي ... ملئت مضاربه فلولا
يا كوكب الأحساب أعجـ ... ـلك الدجى عنا أفولا
يا غارب النعم العظام ... غدوت معمودًا جزيلًا[٤٦]
يا مصعب العلياء قا ... دتك العلا نقضًا ذلولا[٤٧]
لهفي على ماضٍ قضى ... أن لا ترى منه بديلا
وزوال ملك لم يكن ... يومًا يقدر أن يزولا
ومنازل سطر الزما ... ن على معالمها الحؤولا
من بعدما كانت على ... الأيام مرباة زلولا[٤٨]
والأسد ترتكز القنا ... فيها وترتبط الخيولا
من يسبغ النعم الجسا ... م ويصطفي المجد الجزيلا
من ينتج الآمال يو ... م تعود باللبان حولا[٤٩]
من يورد السمر الطوا ... ل ويُطعم البيض النُّصولا
من يزجر الدهر الغشو ... م ويكشف الخطب الجليلا
وتراه يمنع دوننا ... وادي النوائب أن يسيلا[٥٠]

عــقَّــاد ألــويــة الــمــلــو ك على العلا جيلًا فجيلا
هـذا وكـم حـرب تـبـزُّ الأ سد سطوتها الغليلا
صـمـاء تـخـرس آلـهـا إلا قـراعًـا أو صـهـيـلا
والـخـيـل عـابـسـة تـجـر مـن الـعـجـاج بـهـا ذيـولا
اجـتـاب عـارضـهـا وقـد رحـل الـمـنـون بـه هـمـولا
كـالـثـائـر الـضـرغـام وإن لـبـس الـوغـى دقَّ الـرعـيـلا
صـانـعـت يـوم فـراقـه قـلـبًا قـد اعـتـنـق الـغـلـيـلا
ظـعـن الـغـنـي غـنـى وحـوَّ ل رحـلـه إلا قـلـيـلا
إن عـاد يـومًـا عـاد وجـ ـه الدهر مقتبلًا جميلا
ولـئـن مـضـى طـوع الـمـنـو ن مـؤمـمًـا تـلـك الـسـبـيـلا
فـلـقـد تـخـلـف مـجـدُه عـبـئًـا عـلـى الـدنـيـا ثـقـيـلا
واسـتـذرت الأيـام مـن نـفـحـاتـه ظـلًّا ظـلـيـلا

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لتروا كيف كان وفاء الشريف، فمثل هذه القصيدة لا ينظمها رجل متظرِّف ولا متكلف، وإنما ينظمها رجل محزون وقد عالجنا الشعر سنين، فرأيناه لا يسلم زمامه لغير الأوفياء، والشريف في هذه القصيدة وفيٌّ أمين.

وأرجو أن تتذكروا أن هذه القصيدة نظمت في شعبان من سنة ٣٨١ أي: في خلال الأيام العصيبة التي اقترف فيها بهاء الدولة ما اقترف، فهي من أظهر الشواهد على جسارة الشريف.

وفي سنة ٣٩٣ مات الطائع بعد أن عاش مخلوعًا أكثر من عشر سنين وهو في رعاية القادر، وهي رعاية وقعت فيها أعاجيب أشارت إلى بعضها كتب التاريخ فهل تغافل عنه الشريف؟ هيهات، فقد رثاه بقصيدتين هما شاهد على ما كان يملك من الشرف والنبل. وفي الأولى يقول:

إن لـلـطـائـع عـنـدي مـنـة وحمى قد بلها لي ببلالي
ليس ينسيها وإن طال المدى مـر أيـام عـلـيـهـا ولـيـالـي

فاتني منك انتصار بيميني　　فتلافيت انتصارًا بمقالي

وهذه الأبيات تشهد بأن الشريف كان يتألم لنكوله عن نصرة الطائع يوم الدار، يوم هجم عليه بهاء الدولة وأنصاره المجرمون.

وتلك قصيدة طويلة يراها القارئ في الديوان، أما القصيدة الثانية فمطلعها:

ما بعد يومك ما يسلو به السالي　　ومثل يومك لم يخطر على بالي

والمهم أن نسجل أن الشريف ظل يتوجع لنكبة الطائع مدة طويلة، فرثاه بعد ذلك خفية بقصيدة نتخير منها هذه الآيات:

ومؤمر نزلوا به في سوقة　　لا شكله فيهم ولا قرناؤه
قد كان يفرق ظله أقرانه　　ويغض دون جلاله أكفاؤه
ومحجب ضربت عليه مهابة　　يعشى[51] العيون بهاؤه وضياؤه
نادته من خلف الحجاب منية　　أمم فكان جوابها حوباؤه[52]
شقت إليه سيوفه ورماحه　　وأميط عنه عبيده وإماؤه
لم يغنه من كان ود لو أنه　　قبل المنون من المنون فداؤه
حرم عليه الذل إلا أنه　　أبدًا ليشهد بالجلال بناؤه
أقنى الحياء تجملًا لو أنه　　يبقى مع الدمع اللجوج حياؤه
فاذهب فلا بقي الزمان وقد هوى　　بك صرفه وقضى عليك قضاؤه

ومن كل ما سلف ترون أن الشريف لم يكن مرائيًا في حب الطائع، وأنه ندم على أن لم يدفع عنه بيمينه، وأنه ظل وفيًّا له بعد الخلع وبعد الممات. والظاهر أن الطائع كان أحسن إلى الشريف وإلى أبيه، والإحسان يحفظه كرام الرجال وكان الشريف من الأكرمين.

قد تسألون: وماذا صنع الشريف بعد خلع الطائع؟

ونجيب بأنه صنع ما يصنع السياسيون، وهل للسياسيين قلوب؟

لقد استقبل الخليفة الجديد بقصيدة شهد فيها أنه جدد شرف الخلافة العباسية، وجعله موطدًا للبناء الذي وضع قواعده أبو العباس السفاح، واستباح لنفسه أن يخاطب القادر فيقول:

مجد، أمير المؤمنين، أعدته ... غضًّا كنور المورق المياس
بعثت في قلب الخلافة فرحة ... دخلت على الخلفاء في الأرماس
ومكيدة أشلى عليك نيوبها ... غضبان للقربى القريبة ناس
فغرت إليك ففتها وتراجعت ... ففرته بالأنياب والأضراس

ثم مدحه بقصيدة «لمن الحدوج تهزهن الأينق».
وهي القصيدة التي ختمها بقوله:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا تتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدًا كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل عنها وأنت مطوق

فقال له القادر: على رغم أنف الشريف!

وكانت هذه العبارة فيما يظهر أصل الفرقة بين الرجلين، فانصرف الشريف عن مدح القادر وأسقطه من حسابه، ثم مضى يمدح الوزراء والملوك؛ ولذلك حديث طويل يضيق عنه الوقت في هذا المساء.

هوامش

(١) قد عرضنا لهذه القضية في الجزء الثاني من هذا الكتاب حين تكلمنا عن صداقته للصاني، فارجع إليها هناك لتعرف كيف نشأت فكرة الخلافة في نفس الشريف.

(٢) الورد بفتح الواد من صفات الأسد، وهي صفة لونية، والورد من الخيل ما كان بين الكميت والاشقر.

(٣) لد بضم اللام جمع ألد، واللدد بالفتح هو العنف في الخصومة.

(٤) تحكمها: من الإحكام مصدر أحكم وهو شدة الربط.

(٥) الأملاك: الملوك، والرزان جمع رزين.

(٦) الأجمية: الأسود نسبة إلى الأجام. مؤللة: محددة، والقلل: جمع قلة بالضم وهي الصخرة العالية، والصلد، بالضم جمع صلداء وهي الصخرة الصلبة الملساء.

(٧) يعتفيهم: يطلب جودهم.

(٨) الجرد جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر.

(٩) الكلا الجعد: العشب الندي.

(١٠) يشير هذا البيت إلى أن الشريف كان يرى آل بوبه ملوك العراق، والسياسة في ذلك الوقت لم تكن تسمح بأن يراهم دخلاء.

(١١) الواو حرف جر شبيه بالزائد: واو رب، وسيال مبتدأ مجرور لفظًا مرفوع محلًّا، وخبر المبتدأ هو الجملة الشرطية في البيت الثاني، وهي في الظاهر صفة ولكنها في الواقع خبرية؛ لأن الشاعر أراد النص على أن ذلك الكريم لا يصده عن الكرم ملام.

(١٢) المراح بالكسر هو الاسم من مرح يمرح.

(١٣) الرزاح: البعيد الأطراف.

(١٤) الأماعز جمع أمعز، من المعز بالتحريك وهو الصلابة، فيقال: مكان أمعز وأرض معزاء.

(١٥) تشن: تصب، ومنها شن الغارة.

(١٦) الأعصل: الناب الأعوج، وفي الديوان «أعضل» بالضاد المعجمة وهو تحريف.

(١٧) الهجهجة: الصياح ويذبل اسم جبل.

(١٨) الطول على وزن عنب هو الحبل، وقد مر في قصيدة سالفة بمعنى طاقات الحبل.

(١٩) المسحل على وزن منبر: المنحت أو المبرد.

(٢٠) أكثر أبيات هذه القصيدة يجري مجرى الأمثال.

(٢١) الغلة بالضم الظمأ الشديد. والبلال بالكسر هو الري.

(٢٢) المصال. بفتح الميم وهو مصدر من صال يصول.

(٢٣) أنال وأنال: الأول بالبناء للفاعل والثاني بالبناء للمفعول.

(٢٤) المحال بالكسر هو الكذب والدهاء.

(٢٥) هذا البيت غاية في المداح.

(٢٦) الخرد جميع خرود وخريدة، وهي البكر لم تمس أو الخفرة الطويلة. السكوت الخافضة الصوت، والغيد جمع غيداء وهي المتثنية لينًا أو هي الطويلة العنق.

(٢٧) دابق: قرية في حلب، وردت مرات في كلام الشعراء، من ذلك قول عيسى بن سعدان:

ناجوك من أقصى الحجاز وليتهم ناجوك ما بين الأحص ودابق
أمفارقي حلب وطيب نسيمها يهنيكم أن الرقاد مفارقي
والله ما خفق النسيم بأرضكم إلا طربت من النسيم الخافق
وإذا الجنوب تخطرت أنفاسها من سفح جوشن كنت أول ناشق

(٢٨) العازب: البعيد عن المرعى.
(٢٩) الشرب بالكسر هو القطيع من الظباء والنساء، وهو أيضًا الطريق والبال والنفس والقلب.
(٣٠) العقب على وزن كتف هو مؤخر القدم، وسكنت القاف للوزن ويجلله يغطيه.
(٣١) تمطي: تطيل.
(٣٢) الورد بالكسر الماء المورود.
(٣٣) وسام جمع وسيم والوسامة هي الجَمال.
(٣٤) الأوام بالضم الظمأ الشديد.
(٣٥) الطوى هو الجوع، ويعرقه يذهب لحمه.
(٣٦) أفلج صفة الفلج بالتحريك وهو النصر.
(٣٧) أمات لغة في أمهات.
(٣٨) مخففة من (الآن).
(٣٩) الركين: القوي القلب.
(٤٠) الطود: الجبل، وخر سقط.
(٤١) القلل جمع قلة وهي القمة.
(٤٢) القرم بالفتح الفحل.
(٤٣) يرى الأولى بالبناء للمفعول وكذلك الثانية، والمعنى أنه على عظمته متواضع.
(٤٤) المعنى أنه علا على أمثاله فلا شبيه ولا مثيل.
(٤٥) العجم هو الاختبار، والأصل فيه أن يعض الرجل القناة ليعرف صلاحيتها لعمل الرماح.

(٤٦) الغارب هو الكامل، والمعمود المجروح، والجزيل هو البعير الذي يقطع القتب غاربه.

(٤٧) المصعب: الفحل، والنقض بالكسر المهزول، والذلول: الطيع.

(٤٨) المرباة: المكان المرتفع، والزلول التي يزل ويسقط من يعلوها.

(٤٩) حول جمع حائل وهي الناقة لم تلقح.

(٥٠) في هذا البيت خيال طريف.

(٥١) في الديوان (يغشى) بالغين المعجمة وهو تحريف.

(٥٢) أمم بالتحريك: قريب، والحوباء: بقية النفس.

صلات الشريف الرضي بالوزراء والأمراء والملوك

أيها السادة

حدثناكم عن صلات الشريف بالخلفاء، وفي هذه الليلة نحدثكم عن صلاته بالوزراء والأمراء والملوك. وكنت أستطيع إغفال هذا البحث، أو الاكتفاء بكلمتين موجزتين تفصحان عن جوهر تلك الصلات، ولكني راعيت الأدب معكم فآثرت الاستقصاء.

والواقع أن مدائح الشريف ليست كسائر المدائح؛ لأنه لم يكن يتكسب بشعره على نحو ما كان يفعل بعض الشعراء الذين يفدون من بلاد بعيدة ليبيعوا أشعارهم في بغداد، وإنما كانت مدائحه شاهدًا على اشتباكه في المعارك السياسية التي كانت تثور في فارس وفي العراق، فالشريف الرضي شاعر سياسي، أعني أن أشعاره كانت وسيلة إلى أغراضه السياسية، أو عنوان على متابعته لتقلب الأحوال السياسية، فهو شاعر «متحرك» كما يعبر أهل بغداد في هذه الأيام.

ويجب النص أيضًا على أن ممدوحيه لم يكونوا من الأغبياء، فأكثرهم كان يتذوق البلاغة العربية، وأكثرهم كانوا من الفتيان البهاليل الذين يهيمون بكرائم المعاني، فليس من المستبعد أن يكون الشريف أنس بأرواحهم وأذواقهم، فطاب له أن يخصهم بالقصائد الجياد.

والمهم عندي أن تعرفوا أن حرص الشريف على الاتصال بالوزراء والملوك لم يكن حرصًا على منفعة رخصية تقوم بالدراهم والدنانير، وإنما كان حرصًا على منفعة عالية، هي أن يكون رجلًا له شأن في تصريف المعضلات السياسية، وقد تم له من ذلك بعض

ما أراد، فاستطاع أن يكون صلة الوصل بين الحجاز والعراق وبين فارس والعراق، وبين الشام والعراق

وإليكم أسوق بعض الأمثال:

كانت إمارة الحج إلى أبي أحمد الموسوي ثم إلى ابنه الشريف الرضي، فهل تظنون أن هذا المنصب كان يضاف إلى هذين الرجلين بفضل الوراثة؟ قد يكون ذلك، ولكني أرجو أن تصدقوني إذا قلت: إن هذا المنصب كان يشترط فيمن يتولاه أن يكون على صلات بالقبائل العربية التي كانت تسد المنافذ إلى البيت الحرام. والتاريخ يشهد بأن أهل العراق وأهل فارس وأهل خراسان انصرفوا عن الحج أعوامًا كثيرة بسبب الخوف من أشواك الطريق، وكان يتفق في أحيان كثيرة أن تنهب قوافل الحجيج، وأن يعود الحجاج إلى بلادهم منهوبين ومجروحين، ولا يكفي أن يقال: إن الموسوي كان من الفرسان، وإن ابنه الرضي كان من الفرسان، وإنما يجب أن نفهم أن هذين الرجلين كانا يعرفان قيمة الصداقة في العلائق «الدبلوماسية» فكانا يتصلان اتصالًا وديًّا بأكثر القبائل، وينالان بالسلطة الروحية ما تعجز السيوف.

وقد رأيتم فيما سلف أن الموسوي كان يذهب إلى فارس للسفارة بين الشعبين؛ وليقيم قواعد الصلح بين الجيش البغدادي والجيش الفارسي، وهذا يشهد بأن تسوية الشؤون المعقدة بين فارس والعراق كانت توجب أن يكون في العراقيين رجال يؤتمنون على الأرواح، ويهمهم أن يسود الصفاء بين أمم تفرقها العنصرية ويجمع بينها الدين.

وكانت أشعار الشريف نوعًا من الدعاية للعراق في زمن لم تكن فيه جرائد ولا مجلات: فكان يوزع مدائحه ذات اليمين وذات الشمال على من يتوسم فيهم القدرة على إنصاف العراق، وكان أبوه من قبل يصنع الصنيع نفسه بالوسائل الأدبية والدينية، وذلك أسلوب من التلطف لا يبرع فيه إلا الأقلون أترونني أفصحت عما أريد؟ أنا أريد أن أقرر أن الشريف كان في مدائحه للخلفاء والوزراء والملوك رجلًا سياسيًّا، والسياسة لا تنافي الصدق في جميع الأحوال فهو كان يصادق ويعادي في سبيل وطنه الذي جار عليه الزمان في تلك العهود.

وكان يحاول أن يغنم لوطنه أصدقاء بين أولئك الذين حولوا منادح العراق إلى معسكرات.

وقد حملته هذه الرغبة على أن يفكر تفكيرًا جديًّا في مصاهرة أبي علي وزير بهاء الدولة، وكان بهاء الدولة كما سترون قطب الأقطاب في ذلك الزمان. وهذه المصاهرة لم

تكن إلا وسيلة سياسية، فقد كان يدرك جيدًا أن الوزراء في ذلك العهد كان إليهم زمام الملوك؛ لأنهم كانوا يصلون إلى الوزارة بأموالهم وعصبياتهم، وكان اليهم الأمر المطلق في أكثر الشؤون.

وعقلية الشريف كانت عقلية سياسية: فهو يسترخص كل شيء في سبيل المجد، ويستبيح اشتراء المناصب، وقد اتفق مرة أن يهجم قوم في حضرته على رجل أسرف في البذل لينال الوزارة على البديهة:

اشتر العز بما بيـ   ـع فما العز بغال
بالقصار الصفر إن شئـ   ـت أو السمر الطوال
ليس بالمغبون عقلًا   من شرى عزًّا بمال
إنما يدخر المـا   ل لحاجات الرجال
والفتى من جعل الأمـ   ـوال أثمان المعالي

وما نريد أن نغض من شاعرنا، وإنما نريد أن نصوره على ما كان عليه من أخلاق، وليس يؤذيه أن نستبيح من التعبير ما استباح.

ثم أقول مرة ثانية: إنه كان يريد أن يتزوج زواجًا سياسيًّا، والزواج السياسي معروف من قديم الأزمان، وقد أباحه الرسول ﷺ فدخل في مصاهرات كثيرة لتصل روحه إلى أشتات القبائل العربية، وما على الشريف من لوم في أن يسك ذلك المسلك المقبول؛ ليكون صلة الوصل بين فارس والعراق.

ولكنه — وا أسفاه — خاب في مسعاه!

وقد سجل خيبته الأليمة بقصيدتين: الأولى بائية، والثانية دالية.

وكان يجب أن نقف طويلًا في تشريح هاتين القصيدتين، ولكن أين الوقت؟ فيكفي أن نذكر أن الشريف شعر بصدمة موجعة حين ضاعت تلك الفرصة الذهبية، وكان للرجل وهو من شعراء الوجدان أن يتألم لضياع البخت من فتاة نشأت في النعيم. والحسن المنعم له مذاق خاص. ولكنه وقف حسرته على ضياع المطمع السياسي فقال في مطلع البائية:

أماني نفس ما تناخ ركابها   وغيبة حظ لا يرجى إيابها

ووفد هموم ما أقمت ببلدة … وهن معي إلا وضاقت رحابها
وآمال دهر إن حسبت نجاحها … تراجع منقوضًا عليَّ حسابها

ثم قال:

ألا أبلغا عني الموفق قولة … وظني أن الطول منه جوابها[١]
أترضى بأن أرمي إليك بهمتي … فأحجب عن لقيا علا أنت بابها
وأظمأ إلى در الأماني فتنثني … بأخلافها عني ومنك مصابها[٢]
وليس من الإنصاف أن حلقت بكم … قوادم عز طاح في الجو قابها[٣]
وأصبحت محصوص الجناح مهضمًا … عليَّ غواشي ذلة وثيابها[٤]
تعد الأعادي لي مرامي قذافها … وتنبحني أني مررت كلابها
لقد كنت أرجو أن تكونوا ذرائعي … إلى غيركم حيث العلا واكتسابها[٥]
فهذي المعالي الآن طواعي لأمركم … وفي يدكم أرسانها ورقابها[٦]
إذا لم أرد[٧] في عزكم طلب العلا … ففي عز من يجدي عليَّ طلابها

وهذه الأبيات صريحة في أنه لا يبكي ضياع الحظ من فتاة جميلة كان يشتهي أن تكون أنس حياته، وإنما هو يبكي فرصة سياسية ضاعت بضياع تلك المصاهرة المشتهاة.

وفي القصيدة الثانية يقول:

لك الله ما الآمال إلا ركائب … وأنت لها هاد وحاد وقائد
أبى لك إلا الفضل نفس كريمة … ورأي إلى فعل الجميل معاود
وطود من العلياء مدت سموكه … فطالت ذراه واطمأن القواعد
وإني لأرجو من علائك دولة … تذلل لي فيها الرقاب العواند
ويومًا يظل لخافقين بمزنة … رذاذ غواديها الرؤوس الشوارد[٨]
لأعقد مجدًا يعجز الناس حله … وتنحل من هام الأعادي معاقد
فمن ذا يراميني ولي منك جنة[٩] … ومن ذا يدانيني ولي منك عاضد
علي رداء من جمالك واسع … وعندي عز من جلالك خالد

فلا تتركني عرضة لمضاغن يطارد في أضغانه وأطارد
ولا صدود منك هانت عظائم تشق على غيري وذلت شدائد
ولكنك المرء الذي تحت سخطه أسود ترامى بالردى وأساود[١٠]

وهذا المطمح هو من شواهد الفحولة في الشريف، الفحولة الحسية والفحولة المعنوية، وكان شاعرنا يشتهي أن يحكم ويستطيل، وشهوة التحكم والسيطرة من أشرف عيوب الرجال.

أيها السادة

ما أحب أن أضجركم فأطوف بكم على جميع ما دونت من صلات الشريف بالوزراء والملوك، ويكفي أن تتضح الفكرة في أذهانكم؛ لترجعوا إلى أصولها في ديوانه حين تشاءون.

ولكن لا بد من الوقوف عند مسألتين مهمتين: الأولى: صلات الشريف بالحمدانيين، والثانية: صلاته ببهاء الدولة الذي كان في زمانه ملك الملوك.

أما صلاته بالحمدانيين فلها أصول سياسية يعرفها المطلعون على التاريخ، وربما جاز أن تحكم بأن هواه معهم يرجع أيضًا إلى أصول وجدانية، فقد كان يعطف على إحدى نسائهم، أو كانت إحدى نسائهم تعطف عليه. وقد مرت لذلك إشارة لا نعود إليها في هذا المساء. والرجل قد يعطف على أمة بأسرها من أجل امرأة يهواها أو تهواه.

وعواطف الشريف نحو الحمدانيين تظهر في مراثيه لمن عرف من رجالهم، كأن يقول:

وسرب بنو حمدان كانوا حماته رعت فيه ذؤبان الليالي العوئث
فأين كفاة القطر في كل أزمة وأين الملاجي منهم والمغاوث؟
وأين الجياد المعجلات إلى الوغى إذا غام بالنقع الملا المتواعث؟[١١]
إذا ما دعا الدعوان للبأس والندى فلا الجود منزور ولا الغوث رائث[١٢]
يرف على ناديهم الحلم والحجا إذا ما لغا لاغ من القوم رافث[١٣]
من المطعمين المجد بالبيض والقنا ملاء المقاري والعريب غوارث[١٤]
إذا طرحوا عماتهم وضحت لهم مفارق لم يعصب بها العار لائث[١٥]

وقد تفجرت عواطف الشريف نحو الحمدانيين وهو يرثي أبا طاهر بن ناصر الدولة، ويظهر أن صداقته لذلك الأمير بلغت من نفسه كل مبلغ، فقد رثاه أصدق رثاء، وتفجع عليه أوجع تفجع، حتى وقع لقوم من عقيل أن يغضبوا وأن يرد عليهم الشريف فيقول:

ألام أبـي رثـيـت زافـرة[١٦] كانوا نجوم الفخار أو لمعه
إن لا تكن ذي الأصول تجمعنا يومًا فإن القلوب مجتمعه
كم رحم بالعقوق نقطعها ورحم الود غير منقطعه[١٧]

وللشريف في ذلك الأمير مرثيتان، الأولى دالية:

تفور بنا المنون وتستبد ويأخذنا الزمان ولا يرد
وانظر ماضيًا في عقب ماضٍ لقد أيقنت أن الأمر جد

ثم يخاطب المبكي فيقول:

أإبراهيم أما دمع عيني عليك فما يعد ولا يحد
يغصص بالأوائل منه طرف ويدمي بالأواخر منه خد
بكيتك للوداد ورب باك عليك من الأقارب لا يود
وإن بكاء من تبكيه قربي لدون بكاء من يبكيه ود[١٨]

ثم يقول في تحقير من قتلوه:

قتيل فله ناب كهام وكان العضب ضواه الفرند
وذل بذل قاتله فأضحى لقاتله به عز ومجد[١٩]
فيا أسد يصول عليه ذئب ويا مولى يطول عليه عبد

والقصيدة كلها على هذا النسق الطريف.

أما القصيدة الثانية فهي أعجوبة في الجودة والرصانة والخيال، وسنعود إلى درسها حين نتكلم عن المرائي في السلسلة الثانية من هذه المحاضرات.

قلت: إني لن أطيل الحديث عن صلات الشريف بالوزراء والأمراء، وإني سأنتقل من كلامه عن الحمدانيين إلى وفائه لبهاء الدولة، ولكن لا بد من تذكير القارئ بأن هناك

شخصيات سياسية عرضنا لها في مواطن مختلفة من هذه المحاضرات، أمثال شرف الدولة وعبد العزيز بن يوسف والصاحب بن عباد.

وقبل أن نواجه الحديث عن بهاء الدولة نذكر أن الشريف كان له ذوق لطيف في التفرقة بين مقامات الخلفاء ومقامات الملوك، فهو كان ينشد الخلفاء شعره بنفسه، أما الملوك فكان يكتفي بإرسال القصائد إليهم وقط فطن بعض الدساسين إلى هذه التفرقة الذوقية، فاغتابوه عند بهاء الدولة واتهموه بالتكبر والازدهاء.

فلما بلغته الدسيسة كتب إلى بهاء الدولة يقول:

جناني شجاع إن مدحت وإنما … لساني إن سيم النشيد جبان
وما ضر قوالًا أطاع جنانه … إذا خانه عند الملوك لسان
ورب حيي في السلام وقلبه … وقاح إذا لف الجياد طعان[1]
ورب وقاح الوجه يحمل كفه … أنامل لم يعرق بهن عنان[1]
وفخر الفتى بالقول لا بنشيده … ويروي فلان مرة وفلان

وللشريف في بهاء الدولة مدائح كثيرة جدًّا.

فمن هو بهاء الدولة؟ أكان يستحق أن ينفق الرضي في سبيله كل تلك الثروة من الشعر الجيد؟

نظلم الأدب والتاريخ ونظلم صديقنا الشريف إذا تركنا القارئ يفهم أن بهاء الدولة، لم يكن إلا طاغية يجيد ثل العروش كالذي صنع مع الطائع.

كان بهاء الدولة مع غطرسته شخصية فارسية مصقولة الحواشي، وكان يتذوق الأدب الرفيع، وكانت له أخلاق.

إي والله، كانت له أخلاق!

والشاهد الآتي يفصح عما نريده:

كان لشرف الدولة خادم اسمه نحرير، وكان وفيًّا لسيده أصدق الوفاء، وكان بهاء الدولة يسمع بوفائه فيشتد شوقه إليه، فلما توفي شرف الدولة وتولى الأمر بهاء الدولة

[1] في هذين البيتين يفرق الشاعر بين الوقاحة في القلب والوقاحة في الوجه، والوقاحة هنا معناها الشجاعة، فهي في هذا المقام كلمة ثناء.

هم الملك الجديد أن يجتذب نحريرًا إليه؛ ليجري في خدمته على ما كان يجري عليه في خدمة أخيه.

ولكن نحريرًا امتنع، وتظاهر بلبس الصوف، ليفهم الناس أنه طلق دنياه.[٢٠]

قال الراوي: كنت قائمًا بين يدي بهاء الدولة وهو يخاطب نحريرًا بقوله: لا تزهد في مع رغبتي فيك، فأنا أولى بك على ما كنت عليه من قبل ونحرير يقبل الأرض، ويستعفي إلى أن انتهى بهاء الدولة إلى أن قال له باللغة الفارسية وقد دمعت عيناه: افعل لله! فأقام نحرير على أمر واحد في اللجاج الذي لا يقابل الملوك بمثله وانصرف من بين يديه.[٢١]

ثم زين السفهاء لبهاء الدولة أن يأذن بالقبض على نحرير.

قال الراوي: وبقي أبو الحسن محمد بن عمر ونحرير، فقال له محمد بن عمر: يا هذا، قد أسرفت في الدالة[٢٢] ومن أنت وما قدرك حتى تمتنع من خدمة هذا الملك العظيم — وأغلظ[٢٣] له في القول ونحرير مطرق — فلما زاد الأمر عليه رفع رأسه وقال له: أيها الشريف! أين كان هذا القول منك في أيام مولاي وأنت ترى أفضل آمالك إذا ابتسمت في وجهك؟ فأما الآن وأنا على هذه الحال فاستعمال ما أنت مستعمله لؤم قدرة، وسوء ملكة، وكيف ألام على ترك الدنيا بعد ملك ابتاعني بألف درهم ثم رفعني إلى أن كنت تخدمني ولا أخدمك، وتحتاج إلي ولا أحتاج إليك.[٢٤]

وما نريد أن نأتي على بقية القصة، فليس يسر القارئ أن يعلم ما صنعت الدسائس التي انتهت بقتل نحرير، فقد يكون في ذلك ما يحقر الجنس الذي اشترك في تكونيه آدم وزوجته حواء!

وأريد أن أقول: أيها السادة إن بهاء الدولة كان رجلًا له قلب؛ وذلك مما يعطف عليه شاعر مثل الشريف، وهو قد استطاع أن يثبت قواعد الملك في العراق والموصل وخوزستان وشيراز وكرمان، واستطاع أن يطمئن على بغداد فيتركها ويقيم في خوزستان، ويولي عليها حاكمًا يسميه عميد العراق.

ومعنى ذلك أن العراق شهد في عهده أطياف الرخاء.

قلت: إن بهاء الدولة كان يتذوق الأدب الرفيع، وشاهد ذلك أن الشريف كان يداعبه بالشعر فيرسل إليه القصائد الوحشية والقصائد الإنسية.

كان يخاطبه بالشعر الوحشي فيقول:

رأى على الغور وميضًا فاشتاق ... ما أجلب البرق لماء الآماق
ما للوميض والفؤاد الخفاق ... قد ذاق من بين الخليط ما ذاق
داء غرام ما له من إفراق ... قد كل آسية وقد مل الراق
لآل ليلي في الفؤاد أعلاق ... تزيد من حيث تقضي الأشواق

إلى آخر القصيدة وهي طويلة.
وكان يخاطبه بالشعر الإنسي فيقول:

خل دمعي وطريقه ... أحرام أن أريقه؟
كم خليط بان عني ... ما قضى الدمع حقوقه
يا شقيقي والقنا يغـ ... ـضب في العدل شقيقه
عاصيًا ناصحه الأقـ ... ـرب ودًّا ورفيقه
من لبرق هب وهنًا ... من أبانين وسوقه[٢٥]
من شريقي الحمى ... ينشد نجدًا وعقيقه
من غمام كالمتالي ... ينقل الليل وسوقه[٢٦]
لاح فاقتاد فؤادًا ... عازب اللب مشوقه
طال ذكر النفس أروا ... ح زرود وبروقه
وعقابيل غرام ... يذكر القلب حقوقه
وخيال دلس القلـ ... ـب على العين طروقه
كذب تحسبه الصب ... من الشوق حقيقه
أنعمي يا سرحة الحي ... وإن كنت سحيقه[٢٧]
أتمنى لك أن تبـ ... ـقي على النأي وريقه
ثمر حرم واشيـ ... ـك علينا أن نذوقه

وهذا نسيب مرقص.

ثم يمدح بهاء الدولة فيقول:

يا قوام الدين والفا   رج للدين مضيقه
أنت راعيه وها   ديه إذا ضل طريقه
من رجال ركبوا الـ   ـمجد فما ذموا عنيقه[٢٨]
معشر كانوا قبيل   العز قدمًا وفريقه
وملوك في ثراهم   ضرب المجد عروقه
ومغاوير الحفيظا   ت وفرسان الحقيقه
حسب يحسب من   فيه وأعراق عريقه
من ترى يدفع رو   قيه ومن يطلع نيقه[٢٩]
لهم الأيدي الطوا   ل الطول والبيض الزليقه[٣٠]
ومواريث مقاري الليـ   ـل والنار العتيقة
بوجوه واضحات   في دجى الأزل طليقه[٣١]
وأكف منفقات   في الندى الغمر عريقه
وبأخلاق رقاق   دون أعراض صفيقه[٣٢]
تخذوا المجد أبًا ما   استحسنوا قط عقوقه
إن فيهم مولد الملك   ومن قبل علوقه[٣٣]
ناشئًا تسلمه الأم   إلى الظئر الشقيقه
هم رموا عني جليل الـ   ـخطب يدمي ودقيقه
طردوا الأيام عن ور   د دمي طرد الوسيقه[٣٤]
أطلقوني من إسار الـ   ـدهر إطلاق الربيقه[٣٥]

إلى أن يقول:

عشت تستدرك فينا   خطل الدهر وموقه[٣٦]
واثقًا بالدهر تعطي   من رزاياه وثيقه
كلما عفت صبوح الـ   ـعمرعوطيت غبوقه
مطلع الشارق إن غا   ب رجا الناس شروقه

آمن المرتع ترعى　　روضة العز أنيقة
إن يكن عيدًا فأيا　　مك أعياد الخليقة
إنها أنوار أحـ　　ـداق ونوار حديقه[٣٧]
أن نعلق الأعادي　　أسكت الذل نعيقه
لفظ الملك شجاه　　واساغ اليوم ريقه

وهذا الشاهد المطول لا يهمنا لذاته، كما تظنون، وإنما يهمنا لدلالته على أريحية الشريف وهو يمدح بهاء الدولة، وهذه الأريحية تحتاج إلى قليل من البيان:

إن الشريف ظل موصول الأواصر بمودة بهاء الدولة نحو عشرين سنة، وهي مودة كان لها أثر كبير في شاعرة الشريف؛ لأنها أفسحت أمامه المجال للتطريب والتغريد، وراضته على الطواف حول كرائم المعاني، فقد كان الشريف يحب أن يمدح الرجال، لا للتكسب ولا للتزلف ولكن للمعنى الذي شرحناه في الطبعة الثانية من كتاب «البدائع» وهو معنى دقيق لم يتنبه إليه أحد من الذين أرخوا الأدب العربي، فالمدائح كانت سجلًّا لما يفهم الشعراء من مكارم الأخلاق، وكان الشريف في جدود هذا الفرض يسيره أن يتكلم عن الشمائل والخصال التي ترفع أقدار الرجال.

فمدائح الشريف صور لما كان يؤمن به من الحقائق الأخلاقية، وشاهد على أنه كان في أعماق قلبه يود التخلق بما اصطفاه لمدوحيه من أخلاق.

وهذه القصيدة فيها إشارة إلى ماضي الفرس، حتى النار، وهي في شعره نار عتيقة أي: كريمة، والعتق هو الكرم في الخيل وفي الصهباء.

وأريد أن أقول: إن ثناء الشريف على ماضي الفرس كان شواهد تلطفه مع بهاء الدولة؛ لأن الشريف له قصائد في تفضيل العرب على الفرس، وبعبارة أدق تفضيل مجد الإسلام على مجد الفرس، كالقصيدة التي قالها حين اجتاز بالمدائن وشهد إيوان كسرى سنة ٣٩٧.

قربوهن ليبعدن المغارا　　ويبدلن بدار الهون دارا

وكان يتفق له أن يتغنى بمجد العرب وما صنعوا في قهر الفرس وهو يمدح بهاء الدولة، فما تعليل ذلك؟

أغلب الظن أن الفرس لم يكن من همهم أن يقاوموا مجد العرب في الحدود التي رسمتها الشعوبية؛ لأن الفرس أسلموا وتعصبوا أشد التعصب للغة العربية، وكان إسلامهم واستعرابهم من أهم الأمجاد في حياة العروبة والإسلام.

وأغلب الظن أيضًا أن الشعوبية لم تكن نزعة إجماعية في حياة الفرس، وإنما هي مناوشات أدبية أثارها الأدباء، وهم مصدر الشرفي بعض الأحيان!

أقول هذا لأفهم وتفهموا كيف جاز للشريف أن يذكر انتصار العرب على الفرس في قصيدة يمدح بها بهاء الدولة، فينص على أن عارض الحرب يوم ذي وقار:

رحض الأغلف في تياره ورد العلج وما كاد يرد[٣٨]
يصطلي نار طعان مضة أوقدت فيها نزار بن معسد

والحقيقة أن الفرس في مؤلفاتهم وأشعارهم كانوا من نماذج القومية العربية الإسلامية، فلم يكن يجرحهم أن يقول شاعر: إن الإسلام انتصر عليهم؛ لأنهم رحبوا بالإسلام منذ عرفوه، وكانت بلادهم من الحصون التي اعتزت بها لغة القرآن.

وإنما نوهت بهذه القصيدة لأشرح كيف كان الشريف يتردد بين الإشارة بمجد العرب ومجد الفرس، وكيف جاز له أن يدور حول هذه المعاني بلا تهيب ولا إشفاق.

وما يجوز لنا أيها السادة أن نزن التاريخ بموازين الحوادث في هذه الأيام، فالأمم الإسلامية في هذا العصر يستقل بعضها عن بعض، بحيث يظن الغافل أنها كانت كذلك في الأيام الخالية، وما كانت كذلك، وإنما كان يتنقل المؤمن من أرض إلى أرض فلا يفهم أنه انتقل من وطن إلى وطن، وإنما كان يشعر بأنه يسير تحت راية الإسلام، ولم تكن ياء النسب إلا علامة تمييز لا علامة تفريق.

أيها السادة

كانت مدائح الشريف لبهاء الدولة فرصة عظيمة لجموح الخيال، ففي تلك المدائح لفتات ذوقية وروحية وخلقية.

والذين اهتموا بغراميات الشريف وقفوا عند الحجازيات، وفاتهم أن الشريف كانت له في مدائحه وثبات غرامية، كأن يقول:

من رأى البرق بغورق السند　　في أديم الليل يفري ويقد
حيرة المصباح تزهوه الصبا　　خلل الظماء يخبو ويقد[٣٩]
كلما أنجد علوي السنا　　قام بالقلب اشتياق وقعد
كم أضاء البرق لي من معهد　　ذاب دمع العين فيه وجمد
ومغان أنبت الحسن بها　　هيفًا ترعاه عيني وغيد
كلما عاود قلبي ذكرها　　لعب الدمع بجفني وجد
إن ريم السرب أدنى لي الجوى　　ونأى بالصبر عني والجلد
بندى غضين غصن ونقًا　　وجنى عذبين شهد وبرد

وكأن يقول:

ذكرت على بعدها من منالي　　منازل بين قبا والمطال
ومبنى قباب بني عامر　　على الغور أطنابهن العوالي
عقائل علمهن العفاف　　وصل المطال ومطل الوصال
مرابع يشكو بهن الجراح　　أسود الشرى من ظباء الرمال
مضاحكهن عقود العقود　　وأجيادهن لآلي اللآلي
أبعد الأسى عاد عيد الغرام　　وقرف من الشوق بعد اندمال[٤٠]
هوى بين مقتص إثر الغزال　　ولي ومنتص جيد الغزال[٤١]
وما طلب البذل من باخل　　بميسوره غير داء عضال
وما زال يلوي ديون الهوى　　ويؤيسنا من قليل النوال
إلى أن قنعنا بزور المزار　　بعد النوى وخيال الخيال[٤٢]

وكأن يقول:

زار والركب حرام　　أوداع أم سلام
طارقًا والبدر لا　　يحفزه إلا الظلام

بين جمع والمصلى ريم سراب لا يرام
وحلول ما قرى نا زلهم إلا الغرام[٤٣]
بدلوا الدور فلما نزلوا القلب أقاموا
يا خليلي اسقياني زمن الوجد سقام
وصفا لي قلعة الركـ ـب وللليل مقام[٤٤]
من ألالٍ حفز والعيـ ـس كما ريع النعام[٤٥]
فزفير ونشيج وعجيج وبغام
ومنى أين منًى مـ ـني لقد شط المرام
هل على جمع نزول وعلى الخيف خيام
يا غزال الجزع لو كا ن على الجزع لمام
أحسد الطوق على جيـ ـدك والطوق لزام
وأعض الكف إن نا ل ثناياك البشام[٤٦]
وأغار اليوم إن مر على فيك اللثام
أنا عرضت فؤادي أول الحرب كلام
أن جعلت القلب مرمى كثرت فيه السهام
من يداوي داء أحشا ئك والداء عقام[٤٧]

وأنا أكتفي بهذه الشواهد الثلاثة لأريكم أن مدائح الشريف في بهاء الدولة تجمع أطايب من المعاني الذوقية. والقطعة الأخيرة من الشعر النفيس، وعهدي بالأستاذ محمد الههياوي يرحل من «حدائق القبة» إلى القاهرة؛ ليسمعها من الأستاذ أبي بكر المنفلوطي، كأن الشريف هو وحده الذي يحسن أن يقول:

زار والركب حرام أوداع أم سلام

أما المعاني الروحية فكثيرة، يمثلها تلطفه مع بهاء الدولة إذ يقول:

لا ضحا ظلكم يومًا ولا مطل الإقبال منكم ما وعد
وتفارطتم على رفه السرى مورد النعماء والعيش الرغد[٤٨]

وإذ يقول:

سيبلو منك هذا الصوم خرقًا   رحيب الباع فضفاض الرداء[٤٩]
تصوم فلا تصوم عن العطايا   وعن بذل الرغائب والحياء

وإذ يقول:

لا زعزعتك الخطوب يا جبل   وبالعدا حل لا بك العلل
قد يوعك الليث لا لذلته   على الليالي ويسلم الوعل[٥٠]
لا طرق الداء من بصحته   يصح منا الرجاء والأمل
حاشاك عن عارض تراع به   ذاك فتور النعيم والكسل
النجم يخفي وأنت متضح   والشمس تخبو وأنت مشتعل
ما صرف الدهر عنك أسهمه   فكل جرح يصيبنا جلل[٥١]
باق تخطاك كل نائبة   إلى العدا والنوازل العضل
فما يقول الأعداء لا بلغوا السؤ   ل ولا أدركوا الذي أملوا
بنا الأذى لا بكم إذا نزل الخطب   طروقًا وصمم الأجل
ودمتم للعلا وعيشكم   غض وراووق عزكم خضل
لا عجب أن نقيكم حذرًا   نحن جفون وأنتم مقل

وإذا يقول في تعزيته عن إحدى بناته وهي التي عقد عليها للخليفة القادر بالله:

لهان الغمد ما بقي الحسام   وبعض النقص آونة تمام
إذا سلك العلا سلمت قواه   فلا جزع إذا انتقص النظام
وأهون بالمناكب يوم يبقى   لنا الرأس المقدم والسنام
وما شكوى المناهل حين تمسي   مغيظة إذا بقي الغمام
وهل هو غير فذ أخلفته   لنا العلياء والنعم التوام
وما شرر تطاوح عن زناد   بمفتقد إذا بقي الضرام
أفق يا دهر من أمسيت تحدو   وقد منع الخزامة والزمام
قدعت مبرز الحلبات يغدو   جموحًا لا ينهنهه اللجام[٥٢]

ولودًا مثل ما خالست منه وأنت بمثله أبدًا عقام[٥٣]

أما اللفتات الخلقية فكثيرة جدًّا، كأن يقول:

كان قضاء الإله مكتوبًا لولاك كان العزاء مغلوبًا
ما بقيت كفك الصناع لنا فكل كسر يكون مرءوبًا[٥٤]
ما احتسب المرء قديهون وما أوجع ما لا يكون محسوبًا
نهضًا بها صابرًا فأنت لها والثقل لا يعجز المصاعيبا
فقد أرتك الأسى وإن قدمت عن يوسف كيف صبر يعقوبا[٥٥]

وما نقصر المعاني الخلقية على الشعر الذي يجري مجرى الأمثال، وإنما هي تشمل كل ما أشاد فيه بالشمائل والخصال، ومن الواضح أن هذا الحكم ينساق على جميع المدائح في الشعر العربي، ولكن لا مفر من الاعتراف بأن الشريف كان ينوه بخلائق الرجال وهو يحسها أقوى إحساس.

أما بعد فليس من همنا أن نستقصي ما قال الشريف في بهاء الدولة، فذلك بحث يطول، ويكفي أن تكونوا عرفتم أن الشريف عاش مدة وهو في حركة عقلية وذوقية ومعاشية بفضل ذلك الملك، وتشهد قصائد الديوان بأن بهاء الدولة أغدق عليه نعم التشريف والتبجيل، وأنه كان يعتمد عليه في كثير من الشؤون.

وفي جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ مات بهاء الدولة فرثاه الشريف بهذه القصيدة الباكية:

دع الذميل إلى الغايات والرتكا ماذا الطلاب أترجو بعدها دركا[٥٦]
ما لي أكلفها التهجير[٥٧] دائبة على الدجى وقوام الدين قد هلكا
حل الغروض فلا دار ملائمة ولا مزور إذا لاقيته ضحكا[٥٨]
اليوم صرحت الجلى وقد تركت بين الرجاء وبين اليأس معتركا[٥٩]
رزيئة لم تدع شمسًا ولا قمرًا ولا غمامًا ولا نجمًا ولا فلكا
لو كان يقبل من مفقودها عوض لأنفق المجد فيها كل ما ملكا
قد أدهش الملك قبل اليوم من حذر وإنما اليوم أذرى دمعه وبكى

أمسى بها عاطلًا من بعد حليته وهادمًا من بناء المجد ما سمكا[٦٠]
من للجياد مراعيها شكائمها يحملن شوك القنا اللذاع والشككا[٦١]
يطابها تحت أطراف القنا زلقًا من الدماء ومن هام العدا نبكا[٦٢]
من للظبا يختلي زرع الرقاب بها حكم القصاقص لا عقل لما سفكا[٦٣]
من للقنا جعلت أيدي فوارسه من القلوب لها الأطواق والمسكا[٦٤]
من للأسود نهاها عن مطاعمها فكم وردن فريسًا بعدما انتهكا
من للخطوب ينجي من مخالبها وينزع الظفر منها كل ما سدكا[٦٥]
من معشر أخذوا الفضلى فما تركوا منها لمن يطلب العلياء متركا
قدوا من البيض خلقًا والحيا خلقًا عيصًا ألف بعيص المجد فاشتبكا[٦٦]
لو أنهم طبعوا لم ترض أوجههم دراري الليل لو كانت لها سلكا
هم أبدعوا المجد لا أن كان أولهم رأى من الجد فعلًا قبله فحكى
الراكبين ظهورًا قلما ركبت والمالكين عنانًا قلما ملكا
يا صفقة من بياع كلها غرر من ضامن للعلا من بعدها الدركا[٦٧]
خلالها كل ذئب مع أكيلته من واقع طار أو من عاجز فتكا
الموت أخبث من أن يرتضي أبدًا لا سوقة بدلًا منه ولا ملكا
لا تتبعوا في المساعي غير أخمصه فأخصر الطرق في العلياء ما سلكا
ما مثل قبرك يستسقى الغمام له وكيف يسقي القطار النازل الفلكا
لا يبعد الله أقوامًا رزئتهم لو ثلموا من جنوب الطود لانهتكا[٦٨]
فقدتهم مثل فقد العين ناظرها يبكي عليها بها يا طول ذاك بكا
إذا رجا القلب أن ينسيه غصته ما يحدث الدهر أدمى قرحه ونكا
إن يأخذ الموت منا من نضن به فما نبالي بمن بقَّى ومن تركا
إني أرى القلب ينزو لادكارهم نزو القطاطة مدوا فوقها الشركا[٦٩]
لا تبصر الدهر بعد اليوم مبتسمًا إن الليالي أنست بعده الضحكا

وكذلك كان بهاء الدولة آخر من اعتز الشريف بمدحه من بين الملوك، وربما كان صادقًا فيما ادعاه من ذهاب الضحك بذهاب ذلك الفقيد، فإن الشريف لم يعمر من بعده طويلًا.

هوامش

(١) الطول بالفتح هو الجود.

(٢) الأخلاف: الأثداء، والمصاب بفتح الميم مصدر الصوب أي: الأنصباب.

(٣) القاب: الفرخ، وهو أيضًا ما بين المقبض والسية من القوس.

(٤) الجناح المحصوص هو الذي تساقط ريشه، ويقال كذلك: رأس محصوص.

(٥) الذرائع جمع ذريعة وهي الوسيلة.

(٦) الأرسان جمع رسن بالتحريك وهو الحبل وما كان من زمام على أنف.

(٧) من ورد يرد.

(٨) الغوادي جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوة أو مطرة الغداة، والرذاذ على وزن سحاب هو المطر الخفيف، وهذا البيت من وثبات الخيال.

(٩) الجنة بالضم هي الوقاية.

(١٠) الأساود جمع أسود وهي الحية الهائلة.

(١١) المتواعث الكثير التراب، والملا: الصحراء.

(١٢) منزور قليل، والرائث: البطيء.

(١٣) الرافث الذي ينطق بالفحش.

(١٤) المقاري في الأصل رؤوس الاكام وهي هنا الجفان، والغوارث الجياع ويقال للجائع: غرثان.

(١٥) العمات جمع عمة بالكسر لغة في العمامة، وهي مستعملة في مصر.

(١٦) الزافرة: الجماعة.

(١٧) هذا بيت نفيس.

(١٨) أرجو القارئ أن يتأمل في عذوبة هذه الأبيات.

(١٩) وهذا أيضًا بيت نفيس.

(٢٠) هذا شاهد جديد على أن التصوف مشتق من الصوف، وهو يؤيد ما قلنا به في كتاب «التصرف الإسلامي».

(٢١) تجارب الأمم ج٣ ص١٥٤ طبع مصر بعناية مرجليوث.

(٢٢) في تجارب الأمم (الدولة) وهو تحريف.

(٢٣) في طبعة مرجليوت (فأغلظ) وما أثبتناه أصح.

(٢٤) ص١٥٥–١٥٦.

(٢٥) أبانين مثنى أبان. وهما جبلان يقال لأحدهما: أبان الأبيض وللثاني أبان الأسود، وانظر بقية الفروض في معجم البلدان. وسوقة بضم أوله موضع بنواحي اليمامة. وقيل: ماء وجبل لباهلة.

(٢٦) المثالي الابل، والوسوق جمع وسوق وهو الحمل.

(٢٧) سحيقة: بعيدة.

(٢٨) العنيق: السير.

(٢٩) الروقان مثنى روق وهو القرن. والنيق بالكسر أرفع موضع في الجبل.

(٣٠) البيض الزليقة: السيوف الماضية.

(٣١) الأزل بفتح فسكون هو الضيق والشدة.

(٣٢) المراد من صفاقة الأعراض قوتها وصلابتها.

(٣٣) العلوق على وزن صبور: المرضع.

(٣٤) الوسيقة من الإبل كالرفقة من الناس.

(٣٥) الربيقة البهيمة المربوطة في الربقة.

(٣٦) الموق بالضم هو الحمق في غباوة، ويقال: حمق مائق.

(٣٧) النوار بضم النون هو الزهر.

(٣٨) الرحض: الغسل، والعلج: الرجل من كفار العجم.

(٣٩) يقد: مضارع وقد.

(٤٠) القرف قشر الجرح.

(٤١) منتص الجيد: مرتفع العنق.

(٤٢) الزور بالفتح هو الزائر، والمراد يزور المزار طيف الزيارة.

(٤٣) الحلول: المقيمون.

(٤٤) القلعة بضم القاف الارتحال. والليل مقام: إشارة إلى الرحيل في ظلام الليل.

(٤٥) ألال على وزن سحاب: اسم جبل بعرفات، قال ياقوت: وأما اشتقاقه فقيل: إنه سمي ألالا؛ لأن الحجيج إذا رأوه ألوا: أي: اجتهدوا. وقد ذكره الشريف في قصيدة أخرى فقال:

فأقسم بالوقوف على ألال ... ومن شهد الجمار ومن رماها

لأنت النفس خالصة وإن لم   تكونيها فأنت إذن مناها

(٤٦) البشام على وزن سحاب شجر يؤخذ منه المسواك.

(٤٧) داء عقام بالفتح والضم، والضم أفصح: لا يبرأ منه.

(٤٨) تفارطتم: تقاسمتم.

(٤٩) الخرق بالكسر الظريف في سخاوة والفتى الحسن الكريم الخليقة.

(٥٠) الوعل: تيس الجبل.

(٥١) الجلل بالتحريك معناه هنا الهين. و(ما) ليست نافية وإنما هي ظرفية،.

(٥٢) القدع: الكبح.

(٥٣) العقام والعقيم من العقم وهو انقطاع النسل.

(٥٤) الكف الصناع: الماهرة في الصنع، وليست من الصنيع بمعنى الإحسان كما في هامش طبعة بيروت.

(٥٥) الأسى بضم الهمزة جمع أسوة وهي القدرة في العزاء.

(٥٦) الذميل والرتك من ضروب السير.

(٥٧) التهجير: السير في وقت التهجير.

(٥٨) الغروض جمع غرض وهو المرحل كالحزام للسرج.

(٥٩) الجلي: الأمر العظيم.

(٦٠) سمك البناء: ارتفع.

(٦١) الشكك: جمع شكة بالكسر وهي السلاح.

(٦٢) النبك: جمع نبكة بالتحريك وتسكن وهي أكمة محدودة الرأس.

(٦٣) الاختلاء: القلع، والقصاقص: الأسد. والعقل: الدية.

(٦٤) المسك: جمع مسكة بالضم وهي ما يمسك به.

(٦٥) سدك: ثبت ولزم.

(٦٦) العيص بالكسر الشجر الكثير الملتف.

(٦٧) الغرر بالتحزير هو المعرض للضياع.

(٦٨) هذا المعنى نفيس جدًّا.

(٦٩) القطاطة هي القطاة.

العلا والمعالي في قصائد الشريف

أيها السادة

أريناكم فيما سلف صورًا كثيرة من صلة الشريف بعصره وصلاته بمن عرف فيه من علماء وشعراء وأمراء وخلفاء وملوك، وأريناكم كيف عرف النعيم والبؤس والضحك والبكاء.

والآن نحدثكم عن غرامه بالمجد، وهيامه بالعلياء، وفنائه في التخلق بأخلاق الأبطال:

والشريف في هذه الناحية هو صورة الشاعر الحق؛ لأن الشاعر الحق لا يخلو قلبه أبدًا من التسامي إلى كرائم المقاصد وشرائف الغايات، وهو قد يلهو وقد يلعب، ولكنه يظل مشغول القلب بما يتسامى إليه، وتدور خواطره حول أمانيه في كل وقت، وإن ظنه الناس من اللاهين.

وما رأيتم من لهو الشريف وما سترون، لم يكن لهو خصيان، وإنما كان لهو فحول، فهو لم يكن في غرامياته من الشعراء الضعفاء الذين يستريحون إلى البكار والأنين، وإنما كان شاعرًا فحلًا يرى الحسن لم يخلق إلا لغرامه الجموح، وسترون فيما بعد أنه تزوج وأنجب، ولم يترك الدنيا إلا وهو ملء العيون والقلوب.

أيها السادة

نحن مقبلون على مصافحة الجبل الأشم، نحن مقبلون على مواجهة الفارس الذي بذ جميع الفرسان حين قال:

نبهتهم مثل عوالي الرماح … إلى الوغي قبل نموم الصباح
فوارس نالوا المنى بالقنا … وصافحوا أغراضهم[1] بالصفاح
لغارة سامع أنبائها … يغص منها بالزلال القراح
ليس على مضرمها سبة … ولا على المجلب منها جناح[2]
دونكم فابتدروا غنمها … دمى مباحات ومال مباح[3]
فإننا في أرض أعدائنا … لا نطأ العذراء إلا سفاح[4]
يا نفس من هم إلى همة … فليس من عبء الأذى ستراح
قد آن للقلب الذي كده … طوال مناجاة المني أن يراح
لا بد أن أركبها صعبة … وقاحة تحت غلام وتاح[5]
يجهدها أو ينثني بالردى … دون الذي قدر أو بالنجاح
الراح والراحة ذل الفتى … والعز في شرب ضريب اللقاح[6]
في حيث لا حكم لغير القنا … ولا مطاع غير داعي الكفاح
وأشعث المفرق ذي همة … طوحه الهم بعيدًا فطاح
لما رأى الصبر مضرًّا به … راح ومن لا يطق الذل راح
دفعًا بصدر السيف لما رأى … أن لا يرد الضم دفعًا براح
متى أرى الزوراء مرتجة … تمطر بالبيض الظبا أو تراح
يصيح فيها الموت عن ألسن … من العوالي والمواضي فصاح
بكل روعاء عظينية[7] … يحثها أروع شاكي السلاح
كأنما ينظر من ظلها … نعامة زيافة بالجناح
متى أرى الأرض وقد زلزلت … بعارض أغبر دامي النواح[8]
متى أرى الناس وقد صبحوا … أوائل اليوم بطعن صراح
يلتفت الهارب في عطفه … مروعًا يرقب وقع الجراح
متى أرى البيض وقد أمطرت … سيل دم يغلب سيل البطاح
متى أرى البيضة.[9] مصدوعة … عن كل نشوان طويل المراح
مضمخ الجيد نؤوم الضحى … كأنه العذراء ذات الوشاح
إذا رداح الروع عنت له … فر إلى الكعاب الرداح[10]
قوم رضوا بالعجز واستبدلوا … بالسيف يدمي غربه كأس راح[11]

تـوارثـوا الـمـلـك ولـو أنـجـبـوا لـورثـوه عـن طـعـان الـرمـاح
غـطـى رداء الـعـز عـوراتـهـم فافتضحوا بالذل أي افتضاح
إنـي والـشـاتـم عـرضـي كـمـن روع آسـاد الـشـرى بـالـنـبـاح
يطلب شأوي وهو مستيقن أن عناني في يمين الجماح
فـارم بـعـيـنـيـك مـلـيًّـا تـرى وقع غباري في عيون الطلاح
وأرق على ظلعك هيهات أن يـزعـزع الـطـود بـمـر الـريـاح
لا هـم قـلـبـي بـركـوب الـعـلا يـومًـا ولا بـل يـدي بـالـسـمـاح
إن لـم أنـلـهـا بـاشـتـراط كـمـا شئت على بيض الظبا واقتراح
يطمح من لا مجد يسمو به إنـي إذًا أعـذر عـنـد الـطـمـاح
وخـطـة يـضـحـك مـنـهـا الـردى عسراء تبري القوم بري القداح
صـبـرت نـفـسـي عند أهـوالـهـا وقـلـت مـن هـبـوتـهـا: لا بـراح
إمـا فـتـى نـال الـعـلا فـاشـتـفـى أو بـطـل ذاق الـردى فـاسـتـراح

ماذا ترون، أيها السادة؟ حدثوني ماذا ترون؟

هل رأيتم في الشعر كله قصيدًا يشبه هذا القصيد؟

إن باب الحماسة في ديوان الحماسة لو وضع كله في الميزان لشالت كفته ورجحت كفة هذه القصيدة، ولكن أين من يفهم المعاني؟

إن هذا القصيد خليق بأن يكون «نشيد الفتوة العربية» وأهل لأن يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية، فهو جذوة من الفتوة، وقبس من الرجولة، وشهاب من العزم المصمم الذي يطيح المصاعب والأهوال.

أرأيتم:

نبهتهم مثل عوالي الرماح إلى الوغى قبل نموم الصباح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الفتك، صورة القائد الذي يختال بما يصنع وهو ينبه جنوده إلى الحرب قبل أن تظهر تباشير الصباح!

أرأيتم كيف وصف جنوده بأنهم مثل عوالي الرماح!

انظروا هذه الصورة ثم تذكروا ما يقابلها من الصور، فهناك شعراء ينبهون رفاقهم أيضًا، ولكنهم لا ينبهون إلى الاصطباح بالحرب، وإنما ينبهونهم إلى الاصطباح بالصهباء.

أرأيتم كيف ينبه الجنود:

لغارة سامع أنبائها　　　يغص منها بالزلال القراح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الحرب التي تغص سامح أخبارها بالماء القراح فكيف ترونها تصنع بمن يصطلي لظاها؟

أرأيتم كيف يشوق جنوده إلى الحرب فيقول:

دونكم فابتدروا غنمها　　　دمًى مباحات ومال مباح

فهو يطمعهم فيما سينالون من الأموال ومن النساء، وهي مطامع حسية كانت على الدهر من أعظم مغانم الحروب.

أرأيتم كيف يحدد مقامه ومقام جنوده من الحقائق الأخلاقية فيقول:

فإننا في أرض أعدائنا　　　لا نطأ العذراء إلا سفاح

وهذه الأخلاق تبدو في بشاعة الوحشية، ولكن للشاعر عذرًا وأنتم يلومون، فهو يسجل أخلاق الجنود المغاوير، والجنود المغاوير لا يعرفون المصقول من آداب الناس، فالجندية هي في ذاتها وحشية، وهل اشتقت الفروسية إلا من الافتراس؟

ثم يقول:

يا نفس من هم إلى همة　　　فليس من عبء الأذى مستراح
قد آن للقلب الذي كده　　　طول مناجاة المنى أن يراح

فيصور لكم قلق الرجل الطماح الذي تغرقه مطامحه في بحر من الهموم فلا يرى نجاته في غير القتال.

ثم يقول:

لا بد أن أركبها صعبة　　　وقاحة تحت غلام وقاح
يجهدها أو ينثني بالردى　　　دون الذي قدر أو بالنجاح

والغلام في هذا الشعر هو الفتى، والشاعر لا يرى لنفسه غير غايتين: النصر أو الموت، وهو معنى سيكرره في آخر القصيدة إذ يقول:

إما فتى نال العلا فاشتفى　　　أو بطل ذاق الردى فاستراح

وهو بهذا سبق الفرنسيين إلى هذه الحكمة العالية، سبقهم بمئات السنين إلى الحكمة المسطورة على محراب البانتيون في باريس: Vainore ou mourir.

ولم يكن الشريف أول من قال هذا المعنى بين شعراء العرب، ولكنه أورده موردًا قويًّا جدًّا بحيث لا يكون من المغالاة أن نعده من معانيه المبتكرات:

ثم يقول:

الـراح والـراحـة ذل الـفـتـى　　　والعز في شرب ضريب اللقاح
في حيث لا حكم لغير القنا　　　ولا مطاع غير داعي الكفاح

فنفهم عن طريقة أعظم معضلة في تربية الأبدان والنفوس، وهل نسيتم أن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم ليتربوا في البادية؟ هنا نفهم السر: فاللغويون يظنون أن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على فصاحة الأعراب، وهذا له وجه، وإنما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية لينشأوا على الصراحة والصرامة والطغيان. فالحكم في البوادي لا يكون لغير السيف والرمح، وعيش البادية مران عنيف على الخشونة والصلابة والفتك.

وقد سمعتم ألف مرة أن الترف هو داء الأمم، داؤها العقام الذي يعز منه الشفاء، وإنما كان الترف داء الأمم؛ لأنه يجردها من الخشونة التي لا يمكن بغيرها صراع ولا قتال.

إن ربيب البادية هو وحده الذي يقدر على منازلة الطبيعة في رعودها وبروقها وجحيمها، أما ربيب الحواضر فهو كما قال توفيق البكري: «غادة ينقصها الحجاب، ينظر إلى المرآة ولا ينظر في كتاب» أو كما قال الشريف:

مضمخ الجيد نؤوم الضحى　　　كأنه العذراء ذات الوشاح

إذا رداح الروع عنت له   فر إلى ضم الكعاب الرداح

وأنتم ترون أن الأمم التي ليست عندها بادية، تخلق لنفسها بادية، وهل كان نظام الكشافة إلا رجوعًا إلى النظام البدوي الذي مكن أسلافنا من أن يكونوا أشجارًا قوية تقاوم الزعازع في مختلف البقاع والأجواء.

إنما كان الترف داء الأمم؛ لأنه يورث اللين، والشاب اللين لا يصلح لقتال ولا صراع.

ويصور الفتى الصوال فيقول:

وأشعث المفرق ذي همة   طوحه الهم بعيدًا فطاح
لما رأى الصبر مضرًّا به   راح ومن لا يطق الذل راح
دفعًا بصدر السيف لما رأى   أن لا يرد الضيم دفعًا براح

فالفتى عنده هو الأشعث المفرق، أما صاحب المفرق المعطر فليس من الفتيان، الفتيان المغاوير الذين يأبون الضيم ويقارعون الخطوب. وأنتم قد ترون في دنياكم فتيانًا من أبناء الزمان يضيعون في تزيين مفارقهم ما يضيعون، وهم فتيان لهم شأن في التمدن الحديث، وإليهم مصاير الأمور في أكثر الأحيان ولكنهم سيظلون حيث وقفتهم نفوسهم الصغيرة، فلا يعرفون دفع الضيم بالسيف حين لا يغني دفعه بالراح، فهم كما قال الشريف:

قوم رضوا بالعجز واستبدلوا   بالسيف يدمَى غربه كأس راح
توارثوا الملك ولو أنجبوا   لورَّثوه عن طعان الرماح

وللشريف في هذه القصيدة إشارات لا تخفى عليكم، فقد وجَّه إلى خصومه كلمات أشد من وقع النبل، وحق لمثله أن يقول:

يطمح من لا مجدَ يسمو به   إني إذًا أُعذَر عند الطِّماح

– صدقت، أيها البطل، صدقت!

ويتوثب الفارس إلى الفتك فيقول:

وإن قعودي أرقب اليوم أو غدًا   لعجز فما الإبطاء بالنهضان
سأترك في سمع الزمان دَوِيَّهَا   بقرعي ضراب صادق وطعان
وأخصف أخفاقًا بوقع حوافر   إلى غاية تقضي منًى وأماني
فإن أسرِ فالعلياء همي وإن أُقِمْ   فإني على بكر المكارم باني
وإن أمض أترك كل حيٍّ من العدا   يقول: ألا لله نفس فلان

فهذا الفارس ينكر الترقب، ويراه من العجز، ويشوقه أن يتأثر المتنبي الذي كان يرى المجد في الفتك والطعان، ويؤمن بأنه الفائز في كل حال، فهو إن نهض فإلى الحرب، وإن قعد فلبناء المجد، ويشعر بأن أعداءه سيترحمون عليه يوم يموت.

والأبيات الآتية قالها الشاعر في مطلع صباه، والظاهر أنه كان مفطورًا على الفتوة منذ الحداثة، وإلَّا فكيف صح له أن يقول وهو في سن المراهقين:

ستعلمون ما يكون مني   إن مد من ضبعيَّ طول سني
أأَدَعُ الدنيا ولم تدَعْني   يلعب بي عناؤها المعنِّي
ناطحة بالجم هام القرن   نطاح روق الجازئ الأغن[١٢]
وسعت أيامي ولم تسعني   أفضل عنها وتضيق عني
لم أنا مثل القاطن المبن[١٣]   أسحب بردي ضرع وأفن[١٤]
ولي مضاء قط لم يخنني   ضمير قلبي وضمير جفني[١٥]
أحصل من عزمي على التمني   وليتني أفعل أو لو أني
راضٍ بما يضوي الفتى ويضني   أسس آبائي وسوف أبني
قد عز أصلي ويعز غصني   غنيت بالمجد ولم أستغن
إن الغنى مجلبة للضن   وللقعود والرضا بالوهن
الفقر ينئي والثراء يدني   والحرص يشقي والقنوع يغني
إن كنت غير قارح فإني   أبذ جري القارح المسن[١٦]
جننت بأسًا والشجاع جنى   آثار طعن الدهر في مجني
تشهد لي أن الزمان قرني   سوف ترى غبارها كالدجن

قساطلًا مثل غوادي المزن ... تجري بضرب صادق وطعن[١٧]
جري عزالي[١٨] المطر المستن ... إن غبت يومًا عنك فاطلبني
بين المواضي والقنا تجدني ... أمام جيش كجنوب الرعن[١٩]
جون الذرا أقود مرجحن ... أنفض عني نقعه بردني[٢٠]
لتعرفني ولتعرفني ... أيام أفني بالقنا وأغني
أفر عين الفاقر[٢١] المرن ... عساي أنفي الضيم أو لعني
كم صبر خافي الشخص مستجن ... منطمر من الأذى في سجن
مرتهن بهمة تعني ... يا ليتها بنهضة فدتني
من قبل أن يغلق يومًا رهني[٢٢] ... متى تراني والجواد خدني
والنصل عيني والسنان أذني ... وأمي الدرع ولم تلدني
أجر فضل ذيلها الرفن[٢٣] ... ما احتبس الرزق فساء ظني
ولا قرعت من قنوط سني ... يا أيها المغرور لا تهجني
وعذ بإغضائي واستغذني ... واحذر عداء قاطع في ضمني
ينطق عني بلسان ضغني ... نبهت يقظان قليل الأمن
مخرق الثوب بطعن اللدن[٢٤] ... يا دهر سيفي معقلي وحصني
والخوف يغري طلبي فخفني ... يا ليت مقدورك لم يؤمني[٢٥]
جنيت من قبل وسوف أجني ... أثنى يدي والعزم أن أثني

فما رأيكم في هذا الطفل الذي أنضجه العزم وسقته نفسه ذوب الحديد المتوقد؟ ما رأيكم في الطفل الوادع الذي يصرخ فيقول:

ستعلون ما يكون مني ... إن مد في ضبعي طول سني

ما رأيكم في الطفل الذي يبدأ بمحاسبة نفسه فيقول:

أأدع الدنيا ولم تدعني ... يلعب في عناؤها المعني

ما رأيكم في الطفل الذي يرى نفسه قرين الزمان:

إن كنت غير قارح فإني — أبذ جري القارح المسن
جننت باسًا والشجاع جنى — آثار طعن الدهر في مجني
تشهد لي أن الزمان قرني — سوف ترى غبارها كالدجن

ما رأيكم في الذي يتشوف إلى مصيره في الفتوة فيقول:

متى تراني والجواد خدني
والنصل عيني والسنان أذني
وأمي الدرع ولم تلدني

إن هذه القصيدة من أنفس ما قال الفتيان، فليحفظها وليتأدب بها كرام الفتيان.

وصح لهذا الفارس وهو في السادسة عشرة أن يقول:

أمن شوق تعانقني الأماني — وعن ود يخادعني زماني
وما أهوى مصافحة الغواني — إذا اشتغلت بناني بالعنان
عدمت الدهر كيف يصون وجهًا — يعرض للضراب وللطعان
تعرفني بأنفسها الليالي — وآنف أن أعرفها مكاني
أنا ابن مفرج الغمرات سودًا — تلاقي تحتها حلق البطان[٢٦]
وجدي خابط البيداء حتى — تبدى الماء من ثغب الرعان[٢٧]
قضى وجياده حول المعالي — ووفد ضيوفه حول الجفان
تكفنه ظبا البيض المواضي — ويغسله دم السمر اللدان
نشرت على الزمان وشاح عز — ترنح دونه المقل الرواني
خفيري في الظلام اقب نهد — يساعدني على ذم الزمان[٢٨]
جواد ترعد الأبصار فيه — إذا هزأت برجليه اليدان
كأني منه في جاري غدير — ألاعب عن عناني غصن بان
حبي الطرف إلا من مكر — يبين من خلائقه الحسان

إذا استطلعته من سجف بيت ظننت بأنه بعض الغواني
سأطلع من ثنايا الدهر عزمًا يسيل بهمة الحرب العوان
ولا أنسى المسير إلى المعالي ولو نسيته أخفاف الحواني[٢٩]
وكنا لا يروعنا زمان بما يعدي البعاد على التداني
ونأنف أن تشبهنا الليالي بشمس أو سنا قمر هجان[٣٠]
فها أنا والحبيب نود أنا تدانينا ونحن الفرقدان
وليل أدهم قلق النواصي جعلت بياض غرته سناني
وصبح تطلع الآجال فيه وناظر شمسه في النقع عاني[٣١]
عقدت ذوائب الأبطال منه بأطراف المثقفة الدواني

الأغرب والأعجب أن تعلموا أن هذا الشعر هو مطلع قصيدة في المدح، وهي تجربة طريفة فقد كان الشعراء يبدأون قصائد المدح بالنسيب، وكثر منهم ذلك حتى صح للمتنبي أن ينقدهم فيقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فتى قد قال شعرًا متيم

والمهم أن تعرفوا ما في هذه القصيدة من الشاعرية، المهم أن تعرفوا أن ذلك الفتى كان يشعر بأنه أعلا من الأماني والزمان فيقول:

أمن شوق تعانقني الأماني وعن ود يخادعني زماني

وأي شاعرية أمجد وأعظم من شاعرية من يتمدح بأن جده كفنته السيوف وغسلته الرماح:

قضى وجياده حول العوالي ووفد ضيوفه حول الجفان
تكفنه ظبا البيض المواضي ويغسله دم السمر اللدان

وهل رأيتم أحلا وأعذب من شاعرية الفارس الذي يتغزل في جواده فيقول:

خفيري في الظلام أقب نهد   يساعدني على ذم الزمان
جواد ترعد الأبصار فيه   إذا هزأت برجليه اليدان
كأني منه في جاري غدير   ألاعب من عناني غصن بان
حبي الطرف إلا من مكر   يبين من خلائقه الحسان
إذا استطلعته من سجف بيت   ظننت بأنه بعض الغواني

ذلكم هو الفارس، وتلكم هي الفروسية، والذي يقول هذا الشعر فتى كان يرشح نفسه لإمارة الحج، ومنصب القضاء، ونقابة الأشراف، وكذلك كان أسلافنا فتيانًا يستهويهم جمال الخيل وميادين القتال.

وقد ظن جامع الديوان أن الشريف وصف الأسد، وما وصف الشريف الأسد بلى، وصف الشريف الأسد؛ لأنه وصف نفسه فقال:

سيرعب القوم مني سطو ذي لبد   له بعثر أعراس وولدان[٣٢]
لا يطعم الطعم إلا من فريسته   إن يعدم القرن يومًا فهو طيان[٣٣]
ماشي الرفاق يراعي أين مسقطهم   والسمع منتصب والقلب يقظان
يستعجل الليلة القمراء أوبتها   إذا بنو الليل من طول السرى لانوا
حتى إذا عرسوا في حيث تفرشهم   نمارق الرمل أنقاء وكثبان
دنا كما اعتس ذو طمرين لمظه   من فضله الزاد بالبيداء ركبان[٣٤]
ثم استقرت به نفس مشيعة   لها من القدر المجلوب معوان
فعاث ما عاث واستبلى عقيرته   يجرها مطعم للصيد جذلان
قرن إذا طلب الأوتار عن عرض   لم تفد منه دماء القوم ألبان
وغلمة أخذوا للروع أهبته   لف البطون على الأعواد خمصان[٣٥]
طارت بأشباحهم جرد مسومة   كأنما خطفت بالقوم عقبان
من كل أعنق ملطوم بغرته   كأنه من تمام الخلق بنيان[٣٦]
يمد للجرس مثل الآستين إذا   خان التوجس أبصار وآذان[٣٧]

فاستمسكوا بنواصيها وقد سقطت   من غائر الجري ألباب وأرسان
كعمت فاغرة الثغر المخوف بهم   يهفو بأيمانهم نبع ومران[٣٨]
كأن غر المعالي في بيوتهم   بيض عقائل يحميهن غيران
إلى كم الرحم البلهاء شاكية   لها من النعي إعوال وإرنان
حيرى يضلونها ما بيننا ولها   منا على عدواء الداء نشدان
النجر متفق والرأي مختلف   فالدار واحدة والدين أديان[٣٩]
وثم أوعية الإحسان مكفأة   فوارغ ووعاء الشر ملآن
إنا نجرهم[٤٠] أعراضنا طمعًا   في أن يعودوا إلى البقيا كما كانوا
أنَّى يتاه بكم في كل مظلمة   وللرشاد أمارات وعنوان
ميلوا إلى السلم إن السلم واسعة   واستوضحوا الحق إن الحق عريان
يا راكبًا ذرعت ثوب الظلام به   هوجاء مائلة الضبعين مذعان
أبلغ على النأي قومي إن حللت بهم   أني عميد بما يلقون أسوان
يا قوم إن طويل الحلم مفسدة   وربما ضر إبقاء وإحسان
مالي أرى حوضكم تعفو نصائبه   وذود كم ليلة الأوراد ظمآن[٤١]
مدفعين عن الأحواض من ضرع   ينضو بهامكم ظلم وعدوان[٤٢]
لا يرهب المرء منكم عند حفظته   ولا يراقب يومًا وهو غضبان[٤٣]
إن الأولى لا يعز الجار بينهم   ولا تهان عواليهم لذلان[٤٤]
كم اصطبار على ضيم ومنقصة   وكم على الذل إقرار وإذعان
وفيكم الحامل الهمهام مسرحه   داج ومن حلق الماذي أبدان[٤٥]
والخيل مخطفة الأوساط ضامرة   كأنهن على الأطواد ذؤبان
الله الله أن يبتز أمركم   راعٍ رعيته المعزي والضان
ثوروا لها ولتهن فيها نفوسكم   إنَّ المناقب للأرواح أثمان
فمن إباء الأذى حلت جماجمها   على مناصلها عبس وذبيان
وعن سيوف إباء الضيم حين سطوا   مضى بغصته الجعدي مروان
فإن تنالوا[٤٦] فقد طالت رماحكم   وإن تنالوا[٤٧] فللأقران أقران

ذلك وصف الأسد كما تصوره جامع الديوان، فماذا ترون في هذا القصيد؟

إن الشاعر هنا قوي الروح جدًّا، ولا يمكن إدراك قوة الروح هذا في القصيد إلا بقراءته مرتين أو مرات، وهو شبه نفسه بالأسد وساقه ذلك إلى وصف الأسد، ولكن أي وصف؟ إنه وقف عند المعاني النفيسة التي تصور ما في الأسد من عزة وكبرياء.

ثم تحدث عن رفاقه في الحرب أجمل حديث فجعل المعالي في بيوتهم بيضًا عقائل تحميها الغيرة ويحرسها الإباء.

ثم التفت إلى قومه فعنفهم على التنابذ والتقاطع، وعجب من أن يتفق الأصل ويختلف الرأي، وجزع من تعدد الأديان مع وحدة الوطن.

ثم استصرخهم إلى حماية الحوض، وذكرهم بالذين نثروا جماجمهم على المناصل في سبيل الحفاظ.

والقصيدة جيدة جدًّا، ومن العجب أن يسكت عنها نقاد المعاني.

وللشريف قصائد طوال قصرها على همومه في المعالي، منها الميمة:

أرى نفسي تتوق إلى النجوم سأحملها على الخطر العظيم

وفيها يقول:

ولي أمل كصدر الرمح ماضٍ سوى أن الليالي من خصومي
ويمنعني المدام طروق همي فما يحظى بها إلا نديمي
وما أوفت على العشرين سني وقد أوفى على الدنيا عزيمي[٤٨]

وله فيها نفثات موجعات:

أرى الأيام عادية علينا ببيض من نوائبها وشيم[٤٩]
يضل نفوسنا داء عقام فيسلمنا إلى أرض عقيم
ونتبع بالدموع وأي دمع يجير ولو أقام على السجوم
ويفردنا الزمان بلا قريب يذم من الزمان ولا حميم[٥٠]
ونلقى قبل لقيان المنايا رماح الداء تطعن في الجسوم[٥١]

وفيها يقول:

ألا مـن مـبلـغ الأحـيـاء أنـي ... قطعت قرائن الزمن القديم
وأنـي قـد أبـيـت مـقـام رحـلـي ... بوادي الرمث أو جبل الغميم
وعن قرب سيشغلني زماني ... برعي الناس من رعي القروم[٥٢]
ومـا لـي من لقـاء الموت بد ... فمـا لـي لا أشد لـه حزيمي[٥٣]
سـألـتـمـس الـعـلا إمـا بـعـرب ... يـروون الـلـهـاذم أو بـروم

وهذا كلام نفيس جدًّا، وهو قوي الدلالة على خطر ما كان يصطرع في تلك النفس من آمال.

وله ميمية أخرى منها هذه الأبيات:

وما ابن غيل تذيع الموت طلعته ... إذا تطلع غضبانًا من الأجم[٥٤]
يجلو دجى شدقه عن صبح عاصلة ... مطرورة كشبا المطرورة الخذم[٥٥]
يومًا بأقدم مني في ململمة[٥٦] ... شعواء تعزف بالعقبان والرخم

وله ثالثة جمع فيها بين الفخر والنسيب فقال:

ألا خـبـر عـن جـانـب الـغـور وارد ... تـرامـى بـه أيـدي الـمـطـي الـرواسـم
وإنــي لأرجــو خــطــوة لــوذغــيــة ... تـجـيـب بـنـا داعـي الـعـلا والـمـكـارم
نداوي بها من زفرة الشوق أنفسًا ... تـطـلـع مـا بـيـن الـلـهـى والـحـيـازم
وإني على ما يوجب الدهر للفتى ... ولـو سـامـه حـمـل الأمـور الـعـظـائـم
مـقـيـم بـأطـراف الـثـنـايـا صـبـابـة ... أسـائـل عـن أظـعـانـكـم كـل قـادم
وأرقـب خـفـاق الـنـسـيـم إذا حـدا ... من الغرب أعناق الرياح الهواجم
بنات السرى هذا الذي كان قلبه ... يـسـومـك أن تـصـلـي بـنـار الـعـزائـم
ومـن كـل وضـاح الـحـسـام مـشـمـرًا ... إذا شـحـبـت فـيـنـا وجـوه الـمـظـالـم
يـمـسـح أضـغـان الـعـدو وإنـمـا ... يـقـبـل ثـغـرًا مـن ثـغـور الأراقـم
إذا شـهـد الـحـرب الـعـوان تـدافـعـت ... صدور المواضي في الطلى والجماجم
وعـفـر فـرسـان الـعـدا ودمـاؤهـم ... جـوامـد مـا بـيـن الـلـحـى والـعـمـائـم

حدا فقده كل العيون إلى البكا — فقطع أرسان الموع السواجم
وما خطرت منه على المجد زلة — فيقرع في آثارها سن نادم
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة — ألاطم أعناق الربا بالمناسم
وهل تقذف البيداء رحلي إليكم — تنفس عن ليلي أنوف المخارم
ولا بد أن ألقى العدا في حميلة — من الخيل تولي بالقنا والصوارم

والجمع بين الفخر والنسيب كثير في شعر الشريف، وهو شاهد على اشتباك النوازع في تلك الروح، فذلك قلب يجمع بين العنف واللطف، والقسوة واللين، هو قلب عامر النواحي، فيه حنان الأطفال، وصيال الأبطال، يرق فتحسبه نسيمًا، ويقسو فتحسبه جحيمًا، وانظروا كيف يقول وهو يجمع بين الفخر والنسيب:

يا دار ما طربت إليك النوق — إلا وربعك شائق ومشوق
جاءتك تمرح في الأزمة والبرى — والزجر ورد والسياط عليق
ونحن ما جد المسير كأنما — كل البلاد محجر وعقيق
دار تملكها الفراق فرقها — بالمحل من أسر الغمام طليق
شرقت بأدمعها المطي كأنما — فيها حنين اليعملات شهيق
الآن أقبل بي الوقار عن الصبا — فغضضت طرفي والظباء تروق
ولو أنني لم أعط مجدي حقه — أنكرت طعم العز حين أذوق
رمت المعالي فامتنعن ولم يزل — أبدًا يمانع عاشقًا معشوق
وصبرت حتى نلتهن ولم أقل — ضجرًا: أدواء الفارك[٥٧] التطليق
ما كنت أول من جثا بقميصه — عبق الفخار وجيبه مخروق
كثرت أماني الرجال ولم تزل — متوسعات والزمان يضيق
من كل جسم تقتضيه حفرة — فكأنه من طينها مخلوق

والقصيدة طويلة جدًّا، ويكفي أن ننبه إلى بعض المحاسن فيما أنشدناه، والشاعر في هذا النسيب يجعل المطي باكيات، والشعراء يتصورون المطي باكيات، ولكنها في هذه المرة تبكي لبكاء الشاعر فهي لا تحن إلى العطن الذي ستعود إليه، وإنما تبكي على الديار التي يفارقها صاحبها الأمين.

ويصور الشاعر ما يقع من النزاع بين العقل والهوى فيقول:

الآن أقبل بي الوقار عن الصبا　　فغضضت طرفي والظباء تروق

ثم ينص على أن العز لا طعم له إلا إن ناله الرجل عن طريق الكفاح فيقول:

ولو أنني لم أعط مجدي حقه　　أنكرت طعم العز حين أذوق

ويرى المعالي معشوقات فيقول:

رقت المعالي فامتنعن ولم يزل　　أبدًا يمانع عاشقًا معشوق

وقد صدق: فالعزائم كالقلوب لها صبوات، والمعالي أحق بالعشق من الملاح ويتأثر الخلق النبي خلق الفتيان الذين يتمدحون بالقميص الممزق، فيقول:

ما كنت أول من جثا بقميصه　　عبق الفخار وجيبه مخروق

وعبق الفخار أشرف من عبق الطيب، وإن غضب الشبان الظرفاء. والنص على الخشونة والتشعث في شجعان الفتيان قديم في الشعر العربي فما ابتكره الشريف، ولكن إلحاحه في توكيد هذا المعنى له دلالة قوية عند من يعقلون، وأنظروا أيضًا كيف يقول:

وعدت يا دهر شيئًا بت أرقبه　　وما أرى منك إلا وعد عرقوب
وحاجة أتقاضاها وتمطلني　　كأنها حاجة في نفس يعقوب
لأتعبن على البيداء زاحلة　　والليل بالريح خفاق الجلابيب
في فتية هجر والأوطان واصطنعوا　　أيدي المطايا بإدلاج وتأويب[٥٨]
من كل أشعث ملتاث اللثام له　　لحظ تكرره أجفان مذءوب
يوسد الرحل خدًّا ما توسده　　قبل المطالب غير الحسن والطيب

وهو في هذه المرة يجعل جنود شبانًا نشأوا في النعيم، ثم قهرهم حب المعالي على فراق النعيم، وهذا أبلغ في تصوير المجد.

ويصور قلق الفتي الصوال فيقول:

سئمت زمانًا تنتحيني صروفه   وثوب الأفاعي أو دبيب العقارب
مقام الفتى عجز على ما يضيمه   وذل الجريء القلب إحدى العجائب
سأركبها بزلاء إما لمادح   يعدد أفعالي وإما لنادب[٥٩]
إذا قل عزم المرء قل انتصاره   وأقلع عنه الضيم دامي المخالب
وما بلغ المرمى البعيد سوى امرئ   يروح ويغدو عرضة للجواذب
وما جر ذلًّا مثل نفس جزوعة   ولا عاق عزمًا مثل خوف العواقب
ألا ليت شعري هل تسالمني النوى   وتخبو همومي من قراع المصائب
إلى كم أذود العين أن يستفزها   وميض الأماني والظنون الكواذب
حسدت على أني قنعت فكيف بي   إذا ما رمى عزمي مجال الكواكب
وما زال للإنسان حاسد نعمة   على ظاهر منها قليل وغائب
وأبقت لي الأيام حزمًا وفطنة   ووفرن جأشي بالأمور الغرائب
توزع لحمي في عواجم جمة   وبان على جنبي وسم التجارب

وفي هذه القصيدة يبدو الشريف هادئ النفس، ولكنه هدوء من يزعجه الهدوء، وكيف يهدأ من يتصور الحوادث وهي تدب دبيب العقارب، أو تثب وثوب الأفاعي؟

وهو يرى مقام الفتى على الذل عجزًا قبيحًا، ويرى ذل القلب الجريء إحدى الأعاجيب. وانظروا الصورة الشعرية التي يمثلها الشطر الثاني من هذا البيت:

إذا قل عزم المرء قل انتصاره   وأقلع عنه الضيم دامي المخالب

وهو يرى الذل من ثمار الجزع، ويرى خوف العواقب داء يقتل عزائم الرجال.

وهناك دالية نرى تنبيهكم إليها من أوجب الفروض، وهي مما جمع فيه بين الفخر والنسيب:

لأي حبيب يحسن الرأي والود   وأكثر هذا الناس ليس له عهد
أكل قريب لي بعيد بوده   وكل صديق بين أضلعه حقد

ولـلـه قـلـب لا يـبـل غـلـيـلـه　　وصال ولا يلهيه عن خله وعد
يكلفني أن أطلب العز بالمنى　　وأين العلا إن لم يساعدني الجد
أحـن ومـا أهـواه رمـح وصـارم　　وسابغة زعف وذو ميعَة نهد[٦٠]
فيا لي من قلب معنًّى به الحشا　　ويا لي من دمع قريح به الخد
أريـد مـن الأيـام كـل عـظـيـمـة　　ومـا بـيـن أضـلاعـي أسـدٌ ورد
وليس فتى من عاق عن حمل سيفه　　إسارٌ وحلاه عن الطلب القد[٦١]
إذا كان لا يمضي الحسام بنفسه　　فللضارب الماضي بقائمه الحد
وما العيش إلا أن تصاحب فتية　　طواعن لا يعنيهم النحس والسعد[٦٢]
إذا طربوا يومًا إلى العز شمَّروا　　وإن ندبوا يومًا إلى غارة جدوا
وكم لي في يوم الثوية رقدة　　يضاجعني فيها المهنَّد والغمد
ولو شاء رمحي سدَّ كل ثنيةٍ　　تطالعني فيها المغاوير والجُرد
نصلنا على الأكوار من عجز ليلة　　ترامى بنا في صدرها الغَور والوهد
طردنا إليها خُفَّ كل نجيبة　　عليها غلام لا يمارسه الوجد
ودسنا بأيدي العيس ليلًا كأنما　　تشابه في ظلمائه الشيب والمرد
ألا ليت شعري هل تبلِّغني المنى　　وتلقي بيَ الأعداء أحصنة جرد
يعيد عليها الطعن كل ابن همة　　كأن دم الأعداء في فمه شهد
يضارب حتى ما لصارمه قُوًى　　ويطعن حتى ما لذابله جهد[٦٣]
إذا عربي لم يكن مثل سيفه　　مضاء على الأعداء أنكره الجد

والقصيدة طويلة، وفي هذه النفثات كفاية.

والشاعر يذكر أن قلبه يكلفه طلب العز بالأماني، ثم يثور على هذا المطلب؛ لأنه يعرف أن المعالي لا تنال بالأماني، وإنما تنال بالجهاد.

ويرى أن الحسام إن لم يمض بنفسه فليس له حد، وإنما الحد للضارب الماضي. وهذا معنى نفيس. وإليكم بيت القصيد:

إذا عربي لم يكن مثل سيفه　　مضاء على الأعداء أنكره الجد

وانظروا روعة الفخر في هذه الأبيات:

شبابي إن تكن أحسنت يومًا   فقد ظلم المشيب وقد أساء
ويا معطي النعيم بلا حساب   أتاني من يقتر لي العطاء
متاع أسلفتناه الليالي   وأعجلنا فأسرعنا الأداء
سأمضي للمتى لا عيب فيها   وإن لم أستفد إلا عناء
وأطلب غاية إن طوحت بي   أصابت بي الحمام أو العلاء
أنا ابن السابقين إلى المعالي   إذا الأمد البعيد ثنى البطاء
إذا ركبوا تضايقت الفيافي   وعطل بعض جمعهم الفضاء
نماني من أباة الضيم نام   أفاض عليَّ تلك الكبرياء
شأونا الناس أخلاقًا لدانا   وأيمانًا رطابًا واعتلاه
ونحن النازلون بكل ثغر   نريق على جوانبه الدماء
ونحن الخائضون لكل هول   إذا دب الجبان به الضراء[٦٤]
ونحن اللابسون لكل مجد   إذا شئنا أدراعًا وارتداء
أقمنا بالتجارب كل أمر   أبى إلا اعوجاجًا والتواء
تجر إلى العداة سلاف جيش   كعرض الليل يتبع اللواء
نطيل به صدى الجرد المذاكي   إلا أن نورد الأسل الظماء[٦٥]

أقف عند هذا الحد. أيها السادة، فما يتسع وقتي للنص على جميع المواطن التي تحدث فيها الشريف عن العلا والمعالي، وهي محفوظة في مذكراتي، وأنا أضن بها على تلاميذي؛ لأني أحب لتلاميذي أن يرجعوا بأنفسهم إلى ديوان الشريف وأن يرفعوا ما أقام أستاذهم من قواعد البناء.

أحب لتلاميذي أن يحفظوا جميع ما قال الشريف في العلا والمعالي، فتلك بوارق من الروحانية تحيي ميت العزائم، وتقيم ما صدعته أجيال البؤس من النخوة العربية.

أحب أن يرجع تلاميذي فيفتشوا على ما أغفلت من القصائد، أحب لهم أن يطيلوا صحبة هذا الروح المتوقد الذي أقام الشرائع لعزائم الفتيان.

وأنتهز هذه الفرصة، أيها السادة، فأعتب على القدماء من مؤرخي الأدب العربي، فقد رأيت أن هذا الشاعر لم يفتنهم إلا بقصائد الحجازيات ولو أن الله كان هداهم فالتفتوا

إلى أشعاره في المعالي، كما التفت أبو تمام إلى أشعار العرب في المعالي لأخرجوا من ديوان الشريف مجموعة نفيسة تنفع أجزل النفع في توجيه الشبان إلى التخلق بأخلاق الأبطال.

اسمحوا لي أيها السادة أن أبتكر عبارة جديدة هي عبارة «معالي الشريف»، فهي عندي أفحل وأصدق من «حجازيات الشريف»، وهي أعظم من «زهديات أبي العتاهية» و«تشبيهات ابن المعتز» و«مدائح البحتري» و«خمريات أبي نواس».

إن «معالي الشريف» قصائد مقدودة من الفتوة، ومنحوتة من العزيمة والنظر فيها يعود على الروح بأقباس الفحولة والبطولة، ويدخل على الدم جبروت النار والحديد.

هوامش

(١) في الديوان «أعراضهم» والصفاح: السيوف.

(٢) المجلب في هذا البيت هو الذي يكثر الصياح من الفزع. والمراد وصف هذه الحرب بالقسوة والعنف، بحيث لا يكون على الهارب منها جناح.

(٣) الدمى جمع دمية بالضم والمراد بها المرأة الجميلة. وهي في الأصل صورة توضع في المحراب.

(٤) هذا البيت قوي جدًّا.

(٥) الغلام هو الفتى في شعر الشريف، والوقاحة هي الشجاعة.

(٦) الضريب: اللبن، واللقاح: النوق، والمفرد لقوح على وزن صبور.

(٧) العظينية: المنتفخة البطن من أكل العظون وهو شجر (أحمد عباس الأزهري).

(٨) النواح: هي النواحي، أعلت بحذف الياء.

(٩) البيضة هنا ما يلبس من الحديد.

(١٠) الرداح على وزن سحاب هي الكتيبة الثقيلة الجرارة، وهي أيضًا الثقيلة الأوراك وبهذا يفهم البيت.

(١١) الغرب بالفتح حد السيف.

(١٢) الجم جمع أجم وهو الرجل بلا رمح والكبش بلا قرن، والقرن بالكسر هو كفؤك في الشجاعة، والروق بالفتح القرن، والجازئ الأغن كناية عن الظبي.

(١٣) يقال: بن يبن وابن يبن إذا أقام، فالمبن هو المقيم.

(١٤) الضرع بالتحريك هو الذل، والأفن ضعف العقل.

(١٥) ضمير الجفن هو العين وقد يراد به السيف.

(١٦) القارح من ذوي الحافر بمنزلة البازل من الابل.

(١٧) القساطل جمع قسطل أو قسطال وهو الغبار.

(١٨) العزالي جمع عزلاء وهي في الأصل مصب الماء من الراوية.

(١٩) الرعن بالفتح أنف يتقدم الجبل.

(٢٠) الأقود: المستطيل، والمرجحن: المرتفع والنقع: الغبار، والردن: الكم.

(٢١) في الديوان (الفاقد) والفاقر أظهر في المعنى، وهو الذي يكسر الفقار. والمرن: المصوت ويقال أيضًا: قوس مرتان و(لعني) لغة في (لعلي).

(٢٢) قال الفيروزأبادي: غلق الرهن كفرح استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط، قلت: وهذه العبارة هنا كناية عن الموت.

(٢٣) الرفن: الطويل.

(٢٤) اللدن: الرماح.

(٢٥) لم يؤمني: يصبني.

(٢٦) البطان على وزن كتاب: حزام القتب.

(٢٧) الرعان جمع رعن وهو أنف الجبل أو الجبل الطويل، والثغب بالتحريك هو الغدير.

(٢٨) الأقب: الضامر. والنهد: الفرس الحسن الجميل.

(٢٩) المراد بالحواني الإبل، والشاعر يتمثلها دائبة الحركة.

(٣٠) الهجان على وزن كتاب: الخالص البياض.

(٣١) المعاني هو الأسير.

(٣٢) عثر بفتح العين وفتح الثاء مشددة اسم مأسدة.

(٣٣) طيان: جائع، وهو من الطوى.

(٣٤) عس واعتس: طاف بالليل، والتلمظ تتبع اللماظة بالضم وهي بقية الطعام.

(٣٥) خمصان: ضامرون.

(٣٦) الأعنق: القوي العنق، وملطوم بغرته: كناية عن البياض.

(٣٧) الجرس: الصوت أو خفي الصوت، والآستان مثنى آسة، واحد الاس وهو يصف الجواد بدقة السمع.

(٣٨) كعمت بهم الثغر المخوف: سددته بهم. والكعم في الأصل شد فم البعير لئلا يعض. والنبع والمران من الأشجار التي تتخذ منها الرماح.

(٣٩) النجر بالفتح هو الأصل.

(٤٠) نجرهم أعراضنا: نطعمهم أعراضنا: كناية عن الصفح.

(٤١) النصائب: حجارة تنصب حول الحوض ويسد ما بينها من الخصاص بالمدر المعجون، والأذواد جمع ذود بالفتح وهو جماعة الإبل.

(٤٢) الضرع بالتحريك هو الذل.

(٤٣) الحفظة بالكسر هي الحمية والغضب. ومثلها الحفيظة.

(٤٤) ذلان بالضم ذليل.

(٤٥) الهمهام: الأسد، والماذي: كل سلاح من الحديد.

(٤٦) بالبناء للفاعل.

(٤٧) بالبناء للمفعول.

(٤٨) في الديوان (غريمي) وهو تحريف. والعزيم مذكر العزيمة.

(٤٩) الشيم جمع شيماء وهو السوداء.

(٥٠) يذم من أذم إذا رفع أسباب الذم واللوم.

(٥١) ستذكر في «بكاء الشباب» بالجزء الثاني أن الشريف كان يشكو علة خفية يكتمها عن الناس. وهذا البيت من شواهد ذلك.

(٥٢) القروم: الفحول، بمعناها الأصلي، والمعنى أنه سينتقل من رعاية الإبل إلى رعاية الناس.

(٥٣) الحزيم على وزن أمير هو الصدر.

(٥٤) الغيل: هو الشجر الكثير الملتف وهو الأجمة.

(٥٥) العاصل والعاصلة: السهم الشديد، والمراد الناب. والمطرورة: المحددة، والخذم القاطعة.

(٥٦) الململمة هي الحرب.

(٥٧) الفارك: المرأة تبغض الرجل.

(٥٨) التأريب: الرجوع، والإدلاج: السرى بالليل.

(٥٩) البزلاء: الناقة القوية.

(٦٠) الزعف هي الدروع الواسعة المحكمة.

(٦١) حلَاه مخفف من حلَّاه بمعنى منعه، والقد: القيد.

(٦٢) طواعن جمع طاعن، وجمع فاعل على فواعل للعاقل قليل، ولكن له شواهد كثيرة في شعر الشريف.

(٦٣) الصارم: السيف. والذابل: الرمح.
(٦٤) دب الضراء: مشى في خفية.
(٦٥) المذاكي من الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.

الشريف كاتبًا ومؤلفًا

في الرابع عشر من صفر سنة ١٣٥٧ فرغت من كتاب «عبقرية الشريف الرضي» وأنا اليوم في السابع والعشرين من المحرم سنة ١٣٥٩، وقد لا أفرغ من هذه الحواشي إلا في الرابع عشر من صفر؛ لأني موزع الوقت والجهد بين أسفار وشواغل لا تمنحني من هدوء البال ما أريد.

فاين كنت من صحبة الشريف قبل فراق عامين؟

كنت أنهيت القول في حياته الشعرية، ولم يبق إلا أن أتحدث عن مكانته في الكتابة والتأليف، فما الذي جد بعد ذلك الفراق؟

ظهرت فصول عن الشريف الرضي في مجلة «الغري» كتبها سماحة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، وهو من أكابر أهل العلم بالنجف، ولكن تلك الفصول لم تحملني على أن أرجع إلى كتابي بشيء من التغيير أو التعديل؛ لأن طريقتي في البحث تختلف عن طريقته كل الاختلاف؛ ولأني أحرص دائمًا على تجنب الطريق المسلوك عساني أوفق إلى رأي طريف.

وقد تلطف السيد آل كاشف الغطاء فأشار إلى اسمي مرة بالتصريح ومرة بالتلميح، في موطن أوجبت فيها الأمانة العلمية أن يستأنس بكلامي فعليه مني أجزل الثناء.

والآن أرجع إلى الشريف الكاتب والمؤلف بعد أن استجمعت عامين فأقول:

لم يصح عندي أن الشريف كان من كتاب الرسائل القصار أو الطوال، وإن كنت احتفظت بالآثار التي نقلتها مجلة «العرفان» عن كتاب الدرجات الرفيعة، في أعيان الشيعة للسيد علي خان الشيرازي.[١]

وتعليل ذلك سهل فالشريف غلبت عليه النزعة الشعرية في كل ما يتصل بنقد المجتمع أو الإفصاح عن الوجدان.

والثروة التي أثرت عنه في التأليف لا تنفي ما أقول؛ لأن تأليف الكتب غير إنشاء الرسائل، فالمؤلف يتخذ أسلوبًا في التعبير يغاير أسلوب النثر الفني، وقد يبعد عنه أشد البعد في كثير من الأحايين. الشريف كاتب بلا جدال ولكن طريقته في التعبير طريقة علمية لا فنية، وإن غلبت عليها الصنعة في بعض الأحوال.

والمهم هو النص على أن الشريف شاعر أولًا وقبل كل شيء، فحياته الشعرية هي ثروته الباقية على الزمان، وإن كان من أعاظم الباحثين في الحدود التي تسمح لرجل مثله بأن يكون من أقطاب الحياة الفكرية والعلمية في عصر «إخوان الصفاء».

ومعاذ الأدب أن أستخف بآثار الشريف في ميادين الفكر والعقل: فقد بلغ الغاية في كتاب «المجازات النبوية» وكتاب «حقائق التأويل» ولو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أماثل العلماء، ولكن عبقريته الشعرية جنت عليه فخف ميزانه في الحياة العلمية بالقياس إلى بعض معاصريه، ومنهم أخوه الذي أتى بالأعاجيب في الفقه والتوحيد.

ولو أن الرضي وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين، ولكنه شغل الناس بشعره الفائق فظنوه وسطًا بين الباحثين، وهو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق.

وهنا تسنح الفرصة لتسجيل خصيصة من خصائص الشريف: فأشعاره لا تشهد بأنه من المشتغلين بالعلوم اللغوية والشعرية؛ لأنها في الأغلب خالية من السمات الاصطلاحية؛ ولأنها أدب صرف لا يعرف البهرج والتزويق إلا في الحدود المقبولة من الصناعة الشعرية، ولو قيل: إن الشريف شاعر بدوي ينطق بالفطرة والسليقة، وأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب لجاز ذلك في أذهان من يجهلون مكانته في التاريخ.

الشريف شاعر بدوي منقطع عن الحياة العلمية أشد الانقطاع وهو في هذه الناحية ظاهر كل الظهور، بحيث يظن أنه لم يعرف من حياة العلم ما عرف بشار وأبو نواس وابن الرومي والمتنبي، الشريف في شعره بعيد كل البعد من أساليب العلماء من نحاة ولغويين وفقهاء، هو شاعر بدوي لا تظهر عليه سيما الحضارة إلا في ترف العقل والذوق، وهو في شعره أقل حضارة من عمر بن أبي ربيعة ومن الكميت ومن جميل، مع أنه نشأ في بغداد وعرف المترفين من أهل فارس وأهل العراق، الشريف في شعره نموذج للسليقة البدوية التي لم تعرف من الحضارة غير أطياف ولم تسمع بقعقعة النحاة واللغويين في بغداد.

فإذا انتقلنا إلى نثر الشريف رأينا شخصية جديدة، رأينا عالمًا يشهد نثره العلمي بأنه من أقطاب الأدباء، رأينا رجلًا يكتب في العلوم اللغوية والشرعية بأسلوب مضمخ بعطر الأدب الرفيع.

وكذلك نعرف أن للشريف شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف:

شخصية الشاعر المطبوع، وشخصية العالم الأديب.

فكيف اتفق لصديقنا الشريف أن يكون كذلك!

أغلب الظن أن الرجل كان يعمد إلى الابتكار والابتداع: كان يرى شعراء عصره قد غلبت عليهم المظاهر الحضرية فآثر التفرد بالشمائل البدوية، فهو بالشعر بدوي وهو في العلم أديب. وتلك خصيصة نادرة في ذلك الزمان.

وتظهر هذه الخصيصة إذا وازنا بينه وبين أخيه، وقد نشأ في بيت واحد وتلقيا العلم في الحداثة على رجل واحد هو الشيخ المفيد، فأخوه المرتضى يكتب كما يكتب العلماء، ويشعر كما يشعر العلماء، ونفسيته نفسية عالم لا نفسية أديب، حتى قيل: إن المرتضى كان يحرص على منافع دنياه حرص الفقهاء، أما الرضي فكان رجلًا سمحًا يجود بما يملك، ويرى الكرامة أثمن ما يحفظ الأحرار من ذخائر الوجود.

شخصية الشريف شخصية معقدة عند من يجهل، ولكنها في غاية البساطة والوضوح عند من يعرف، هو رجل يحب التفرد بكرائم المعاني، فهو يشتهي أن يكون شاعرًا لا كالشعراء، وأن يكون عالمًا لا كالعلماء وقد وصل إلى ما يريد.

ولو اتسع المجال لدرس خصائص الشريف لوصلنا إلى طرائف: فأنا أعتقد أن لغة الشريف في شعره تجمع النوادر من الألفاظ البدوية، وأن لغة الشريف في نثره تجمع الأطايب من المصطلحات العلمية.

ومن المحتمل أن لا تكون حياة العلم عرفت باحثًا أمضى قلمًا من الشريف قبل ذلك العهد، وقد قوي عندي الظن بأنه مهد السبيل لعبد القاهر الجرجاني، فعبد القاهر عندي تلميذ الشريف في الميادين البيانية، وليس كتاب «دلائل الإعجاز» إلا خطوة ثانية بعد كتاب «المجازات النبوية»، وإن كان الجرجاني أقدر من الرضي على الإفاضة والاستقصاء.

قد أقول: إن البويطي في «الأم» هو أول عالم شرح دقائق الفقه بأسلوب أدبي، وإن سيبويه في «الكتاب» هو أول نحوي شرح تكوين الجمل بعبارة أدبية، ولكني مع ذلك مقهور على الاعتراف بأن الشريف تفرد من بين سائر الباحثين بأسلوب يجمع بين الرقة والجزالة في شرح أغراض القرآن والحديث.

فكيف اتفق ذلك للشريف؟

أعتقد أن مرجع ذلك إلى أخلاقه الشخصية:

فالشريف كان رجلًا صريحًا في جميع ما يتناول من الشؤون، وأظهر صفة من صفات الشريف هي بغض النفاق، ألم يتخذ الحج موسم صيد وهو نائب عن خليفة المسلمين؟

كان الشريف يرى أن التعبير الصريح عن أوطار القلوب لا يقع إلا من أشراف الرجال، وبهذا الرأي صح له أن يعبر عن أحلام هواه بقصائد خالية من شوائب الزور والرياء.

وقد انساق هذا الطبع السمح إلى حياته العلمية، فعبر عن أغراضه في اللغة والفقه والتوحيد بعبارات هي أساس وأرشق من تبختر الجدول الرقراق.

وهنالك خصيصة ظاهرة من خصائص الشريف، هي اندماجه اندماجًا كليًّا في الجو الذي يعيش فيه: فهو في الشعر يخيل إليك أنه لا يحلق في غير الأجواء الشعرية، ويكاد من يطلع على ديوانه يؤمن إيمانًا جازمًا بأنه لم يعرف التعبير عن أغراضه بغير القوافي، ومثله في ذلك مثل ابن الرومي وقد قيل: إن الشعر كان أقل أدواته، وهو قول لا نصدقه إلا بعناء؛ لأن شاعرية ابن الرومي أدت إلينا محصولًا يمنع من الاطمئنان إلى أنه كان يعبر عن أغراضه بغير القوافي، وقد قرأنا مرة أن البحتري كان من المؤلفين فلم نصدق؛ لأن البحتري فيما نرى لا تجود فطرته بغير الغناء.

وقد اتفق لأبي تمام أن يكون مؤلفًا، ولكن كيف؟ غلب عليه التصنيف في اختيار الأشعار، وهو فن ينساق مع ذوق الشاعر كل الإنسياق.

يمكن للشاعر أن يكون مؤلفًا، كما يمكن للمؤلف أن يكون شاعرًا، ولكن الذي وقع للشريف عجب من العجب، فمؤلفاته تشهد بأنه أديب، ولكنها توهمك أنه لم يكن شاعرًا تعد جياد أبياته بالألوف.

ما الذي نراه حين نقرأ مؤلفات الشريف؟

نجد رجلًا يحيل على مباحثه الماضية بأسلوب يشعرنا بأنه قضى دهره وهو مشغول بالتأليف، نجد رجلًا يحدثنا عن مؤلفاته بلغت العشرات في موضوعات مختلفات، وتشهد قوة تعبيره، وغزارة علمه بأن «المؤلف» هو الشخصية الأصيلة التي تحتل صدر ذلك الباحث الجليل.

ومؤلفات الشريف تقنعنا بأنه لم يعرف غير الحياة العلمية، ولم يعان شواغل السياسة والشعر والحب، ولو أن ديوان الشريف كان ضاع، وبقيت مؤلفاته لما صدق أحد أنه كان من أعلام الشعراء، فضلًا عن التصديق بأنه أشعر قريش.

يضاف إلى ذلك أن الشريف المؤلف كان واسع الأفق: فهو يكتب في الفقه والتوحيد والنحو والبيان، وله إشارات إلى مؤلفات الأكابر تدل على أنه من المطلعين على ذخائر العلوم الأدبية والشرعية، وله توجيهات لكلام من سبقوه، توجيهات تشهد بأنه تناول حياة التأليف بالنقد والتمحيص والتهذيب.

الشريف العالم شخصية هائلة جدًّا، وهي تنسيك مواهبه الأدبية والسياسية والوجدانية، وتفرض عليك الإيمان بأنه لم يجد غير ذلك الفن من فنون التفكير الحصيف.

فكيف اتفق له ذلك؟

لا تنس أنه كان إمامًا من أئمة الدين وأن شهرته بالشعر والحب كانت تؤرقه من وقت إلى وقت؛ لأنها كانت دعامة يعتمد عليها أعداؤه في الغض من مكانته الدينية، مساهم يهونون من شأنه فيقصونه عن مناصب التشريف باسم الدين.

فهل نستطيع أن نقول: إن الشريف كان يتعمد الكتابة في الشؤون اللغوية والعلمية؛ ليصد عن مجده الأدبي والسياسي عدوان خصامه ومنافسيه.

لذلك شواهد في العصر الحديث، فقد كان شاع أن الشيخ محمد عبده رجل أديب لا يصل ذهنه إلى قرارة العلوم الأزهرية، فحمله ذلك على الدفاع عن سمعته العلمية، فألف في شؤون دقيقة لا يحسنها إلا الأزهريون المتفوقون.

وكان شاع أن الشيخ محمد المراغي رجل بعد عهد بالعلوم الأزهرية فصد كيد خصومه بدروس ألقاها في علم الأصول.

لم يبق عندي شك في أن الشريف كان يفهم جيدًا أنه معرض للأكاذيب والأراجيف؛ بسبب إيغاله في شعاب الصبابة والوجد، وبسبب حيرته في بيداء الحياة السياسية، فلم يكن له بد من تمزيق الحبائل التي ينصبها أعداؤه وحاسدوه، وكذلك أقبل على التألف بعزائم الفحول؛ ليقيم الأدلة والبراهين على أنه أهل للتشريف باسم العلم والدين.

فما الذي وصل إليه؟

ما زال الرجل يبدئ ويعيد حتى أتى بالغرائب والعجائب في ميادين الفكر والعقل، وحتى صح القول: بأنه تفرد بآراء لم يهتد إلى مثلها الإسلاف.

وهنا تظهر خصيصة جديدة من خصائص الشريف، هي خصيصة العالم المزود بأدوات الأدب، والأدب هو ديوان العرب، وهو التعبير الصادق عن ذوقهم الأصيل.

ولو بقيت آثار الشريف في التأليف لجاز القول: بأنه طراز فريد بين أقطاب المؤلفين، ولكانت له منزلة تعز على من رامها وتطول.

على أن الآثار الباقية لهذا الباحث المبتكر لم تخيب ظنون محبيه، فهي تدل على القيمة الأصيلة لمواهبه العقلية، وهي تعرب عن قدرته على التصرف في علوم القدماء.

وليست أولئك الخصائص هي كل ميزات الشريف المؤلف، فهنالك خصيصة أعظم وأروع، وهي طغيان العقلية العلمية على النزعة المذهبية.

كان الشريف شيعيًّا، والشيعة فيما يظهر كانت لهم آراء خاصة في فهم أغراض القرآن والحديث، والشريف نفسه لم يحفظ القرآن إلا في سن الثلاثين مع أنه نشأ في بيت من بيوتات الدين، وتلك ظاهرة قد توهم أن حفظ القرآن لم يكن عند جماعته فرضًا على المشتغلين بالشؤون الدينية، ومن أجل ذلك كثرت القالة حول أولئك القوم، واحتاجوا إلى الدفاع عن أنفسهم من هذا الجانب الدقيق.

وحين زرت السيد آل كاشف الغطاء بالنجف رأيت أمامه نسخة من المصحف الشريف، فحدق في وجهي وقال: اشهد أنك رأيت المصحف في يدي وقد زرتني على غير ميعاد!

وإنما احتاج الرجل إلى هذه العبارة؛ لأن في الشيعة فرقة لا تهتم كثيرًا بالمصحف الشريف، وهي فرقة لا يرضى عنها جمهور الشيعة في العراق.

والمهم هو النص على أن الشريف كان شيعيًّا سليمًا، أعني أنه كان مسلمًا صحيح العقيدة، والتشيع في جوهره لا ينافي الدين إلا حين يوكل أمره إلى الجهلاء من أهل الانحراف.

ولا يحتاج الشريف إلى من يشهد له بصحة الدين، وهو من عظماء المؤمنين وإنما انساق القول إلى فضل هذا الرجل في حماية البيئات الشيعية من ضلالات الذين كفروا باسم التشيع، وهو فضل عظيم.

مثل الشريف بين أهل التشيع كمثل الجاحظ بين أهل الاعتزال، فالجاحظ لا يدرك مراميه غير الخواص، وكذلك الشريف لا يدرك مراميه غير الخواص.

وأقول: إن اهتمام الشريف بشرح خصائص البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية هو دحض للمفتريات التي وجهت إلى التشيع، والتي ادعت أن الشيعة لا يهتمون بالقرآن والحديث.

ومن هنا نفهم أن الشريف المؤلس كان معلمًا عظيمًا، وكان من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية، وهو بالتكريم خليق.

النفحات السارية في مؤلفات الشريف هي أنفاس المؤمن الحق، المؤمن الخالص من شوائب الابتداع والتجديف.[٢]

يؤيد هذا ما أثر عن الشريف من الاهتمام بدرس مذهب الشافعي وهو مذهب سني أصيل، ولا يقال: إن مرجع ذلك إلى عذوبة لسان الشافعي فيما يتصل بأهل البيت؛ لأن تعظيم أهل البيت مما يرعاه السنيون كما يرعون كرامة سائر أهل العلم والدين.

وإمارة الحج التي وكلت إلى الشريف وإلى أبيه من قبل تشهد بأن التشيع لم يكن ينظر إليه بعين الغضب والمقت، فقد كان مذهب أهل السنة هو السائد يومئذ في العراق، ولم يكن السنيون يرون ما يمنع من أن تكون إمارة الحج لرجل شيعي في مثل فضل الشريف.

فما معنى ذلك؟

معناه أن الغلو في التحاقد بين المذاهب الإسلامية لم يكن يقع إلا من أهل الغفلة والحمق، أما أهل اليقظة والعقل فكانوا يعرفون أن الاختلاف في الفروع لا يضير مع الاتفاق في الأصول، وكذلك اشترك عقلاء السنة في الالتفاف حول راية القرآن والحديث، ولن تمر أعوام طوال قبل أن تسود الألفة بين سائر المذاهب الإسلامية، ويحل الوفاق مكان الشقاق.

ومهما يكن من شيء فالخلاف بين السنة والشيعة هو جزء من ماضينا، وهو خلاف كان له فضل عظيم في يقظة العقول والآراء، فواجبنا اليوم هو الدعوة إلى التآخي الصحيح بحيث يمكن نسيان ما وقع في ماضينا من صراع ونضال.

والعبرة من هذا الكلام: هي إبراز شهامة الشريف، الشريف الشيعي الذي عاش في عصور لا تخلو من ظلمات، واستطاع مع ذلك أن يكون مثلًا في السماحة المذهبية، وأن يظفر بعطف من ترجموا له من أهل السنة، وأهل السنة رجال ينصبون الموازين لأقدار الرجال.

وهنا ملاحظة تستحق التسجيل.

لما دخلت العراق وجدت قومًا من أهل العلم يحقدون عليَّ أشنع الحقد بسبب كتاب «الأخلاق عند الغزالي» ثم هالني أن أعرف أن السيد هبة الدين الشهرستاني من أولئك الحاقدين وهو شيعي لا سني، فكيف يتعصب الغزالي وهو خصمه في المذهب؟

تعصب الشهرستاني للغزالي لمعنى نبيل هو الغضب للنيل من إمام جليل مثل الغزالي، وكذلك تكون شمائل العلماء.

ورأيت هناك باحثًا يعطف عليَّ لاهتمامي بدرس أشعار الشريف وهو الأستاذ عباس العزاوي فقدرت أنه شيعي، ثم عرفت أخيرًا أنه سني، وكذلك يكون الصدق في فهم المعاني.

ورأيت الأستاذ طه الراوي يحفظ ديوان الشريف عن ظهر قلب فحسبت ذلك برًّا بالعصبية المذهبية، ثم عرفت أنه سني لا شيعيٌّ، وطه الراوي من أعيان الفضل والعلم والذوق في بغداد.

صديقنا الشريف هو الذي سن شريعة التسامح بين المذاهب والآراء، وفضله على الشيعة عظيم؛ لأنه خلق لهم صداقات في البيئات السنية وحفظ لهم مكانة عالية في العراق بفضل جهاده في الأدب والدين.

ونحن في مصر لا نحس الخلافات المذهبية، ويؤذينا أن نعرف أن إخواننا في الدين يثور بينهم الخلاف من حين إلى حين، فهل أرجو التقرب إلى الله بتهوين شأن تلك الخلافات! وهل أستطيع الترحم على الشريف؛ لأنه منحني الفرصة لهذه الكلمات التي أردت بها التقريب بين القلوب.

الله يشهد أني أكتب هذا وأنا متوجع، فما يرضيني أن يقال: إن في المسلمين أقوامًا يخاف بعضهم بأس بعض.

الخلاف جميل على شرط أن لا يصل إلى القلوب.

الخلاف نعمة ربانية إذا وقف عند اصطراع العقول، فإن جاوز ذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

الشقاقات المذهبية لم يعرفها الشرق والغرب إلا في عصور الظلمات، ونحن في عصر النور، فإن لم يكن بد من الخلاف فلنختلف في أساليب الخلاص من أقفاص الظلم والاضطهاد، والقراء يعرفون ما أعني ومن أعني.

يرحم الله الشريف فقد داس الشهوات المذهبية بقدميه فظفر بالإعزاز والتبجيل من الجميع.

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

أيراني القارئ حددت خصائص الشريف كاتبًا ومؤلفًا؟

لقد وضعت الأساس لمن يهمه أن يستقصي أحوال الشريف في الكتابة والتأليف، ولم يبق إلا أن أقدم بعض الشواهد التي تعين مذاهبه في التعبير، فما هي تلك المذاهب!

أنا أعتمد في تحديد مذاهبه الإنشائية على كتابين اثنين: المجازات النبوية، وحقائق التأويل.

أما كتاب «المجازات النبوية» فقد طبع أولًا في بغداد طبعًا ممسوخًا تأذى به روح المؤلف، ثم طبع أخيرًا في القاهرة بعناية الاستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية، وقد تأنقت مكتبة مصطفى الحلبي بإخراجه في حلة رقيقة الحواشي.

وأما كتاب «حقائق التأويل» فقد طبع بالنجف وأخرجه «منتدى النشر» في رونق جميل.

ما هي تلك المذاهب الإنشائية؟

نلمح — أولًا — أن الشريف الكاتب قصير النفس، فهو لا يطنب إلا في قليل من الأحايين.

ونلاحظ — ثانيًا — أن الشريف الكاتب قليل الفضول فهو لا يتكلم إلا بميزان.

ونرى — ثالثًا — أن الشريف المؤلف قليل الاستطراد، وهذا يشهد بأن النزعة الفنية أغلب عليه من النزعة العلمية؛ لأن العلماء الذين سبقوه كانوا يتخذون الاستطراد وسيلة إلى عرض ما تقضي به المناسبة من المعارف الأدبية واللغوية والشرعية.

ونشهد — رابعًا — أن الحرفيات قد تسيطر عليه، فقد همَّه أن يسجل أن قول الرسول في أحد: «هذا جبل يحبنا ونحبه» محمول على المجاز؛ لأن الجبل على الحقيقة لا يحب ولا يحب.

وهذا خطأ من الشريف ساقه إليه خضوعه للحرفيات في بعض الأحوال فالرسول في رأيي أراد الحقيقة لا المجاز، وسر ذلك لا يدركه غير من يطمئن إلى فكرة «وحدة الوجود».

ونسجل — خامسًا — أن الشريف يحرص بعض الحرص على السجع والازدواج؛ ولذلك شواهد مبثوثة في المجازات النبوية وحقائق التأويل يدركها المطالع بدون عناء.

ونقرر — سادسًا — أنه قد ينسى الزخرف نسيانًا تامًّا في بعض المواضع فيصبح أسلوبه وهو مثل أعلى في سماحة التعبير، كأن يقول في تلخيص ما قاله علي بن عيسى النحوي في أحوال كان:

> «قال لي في القراءة عليه: إن لكان أربعة مواضع: أحدها أن تكون مستقلة بالفاعل غير مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان الأمر، أي: حدث ووقع. والثاني: أن تكون ممنوعة من الحدث مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان زيد منطلقًا ويكون عمرو شاخصًا. والثالث: أن تكون زائدة، مثل قولهم: زيد — كان — منطلق وما — كان — أحسن زيدًا، أي: ما أحسن زيدًا، كقول الشاعر: «وجيران لنا كانوا كرام» إذا لم تجعل «لنا» الخبر وجعلته صفة جيران كأنك قلت: «وجيران لنا كرام كانوا» والرابع: أن تكون كصار، تقول: كان زيد منطلقًا، أي: صارت حاله هذه تزيد هو الآن كذا لا فيما مضى، وأنشد قول الشاعر:
>
> بـفـيـفـاء قـفـر والـمـطـي كـأنـهـا ... قطارًا لحزن قد كانت فراخًا بيوضها
>
> يريد صارت فراخًا. قلت: أنا والصحيح في رواية هذا البيت «قد صارت فراخًا بيوضها» وإنما غير ليوافق الاستشهاد؛ فلأجل ذلك ضعف هذا القسم من بين أقسام كان».[٣]

فهذا كلام تقريري يقوم على أساس الدقة والجلاء، ثم ختمه بلفتة نقدية تؤرخ عبث النحاة برواية الشعر ليوافق الاستشهاد!

وهذه اللمحة تبيح لنا أن نسجل — سابعًا — أن الشريف في مؤلفاته كثير الاهتمام بشرح الدقائق النحوية، والنحو كان في تلك العهود ميدانًا لسباق الفرائح الجياد.

أما بعد فتلك حالة الشريف الكاتب والمؤلف، وهي تجلوه في صورة تضيف إلى حياته الشعرية ألوانًا من الظلال، وهي تؤكد ما قلناه من أنه شاعر مثقف يرى الوجود في ظواهره وخوافيه بعين الناقد البصير الذي لا يشغله التأمل في جمال الوجود عن النظر في فهم الرجال لحقائق الوجود.

الشريف عجيب حقًّا، فهو تارة يحدثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان باب كذا من أبواب النحو وأن شيخه قال له كيت وكيت، وتارة يحدثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان ناب كذا من أبواب الفقه وأن شيخه قال له زيت وزيت، وحينًا يذكر أنه اختلف في فهم آية أو حديث، وأنه اعترض بكيت فأجيب بزيت، وأحيانًا يتحدث عن مصاولاته مع اللغويين وما تقل عنهم من توجيه كلام الأعراب.

وفي هذا الجو المشبع بأقباس المجادلات النحوية والفقهية والأدبية واللغوية لا ترى الشريف إلا شيخًا يجادل أهل العلم والأدب والدين في مساجد بغداد، وهو في زي المجاورين الذين شر فهم الله بالانقطاع إلى البحث والتنقيب في مخلفات القدماء.

ثم تلتفت فتسمع أنه كان فارسًا لا يشق له غبار.

ثم تنظر فتعرف أنه كان من أقطاب السياسة ومن أهل البصر بتدبير المكايد في ظلام الليل.

ثم يصل إلى علمك أنه كان عاشقًا يحس بالجمال بأروع مما أحس عمر وكثير وجميل.

ثم تسمع أنه صال وجال في أشهر الأقطار الإسلامية بالشرق.

ثم تعلم أنه كان مدير مدرسة، وأنه مع ذلك تعقب أخبار الماجنين والعابثين.

ثم تعرف أنه كان رب بيت وله أهل وأبناء.

فما معنى هذا التعقيد الغريب؟

معناه أن الشريف الرضي كان منوع المواهب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فلا يعجب الكسالى المتزمتون من ظفره بحسن السمعة في جميع ما اخترق من الميادين، ولا يستكثروا عليه أن يكون من أفاضل المؤلفين! وأكابر المربين وأشاوس الفرسان، وأماجد العشاق، وأماثل العارفين الواصلين، ولو عرف قبره على التحقيق لكان مثابة لطلاب الخيرات والبركات، رحمة الله وطيب مثواه، وجعلنا من أصدقائه الأوفياء!!

هوامش

(١) قيل: إن المراسلات بينه وبين الصابي بلغت ثلاثة مجلدات، ولكنا نعرف مكان تلك الرسائل حتى نحكم له أو عليه.

(٢) في كتاب (التصوف الإسلامي) تفاصيل وافية عن أصل فكرة التشيع وعماعرض لها في ميادين الأدب والأخلاق، وعن صلتها بالسياسة الإسلامية وكذلك تحدثنا عنها بالتفصيل في كتاب (المدائح النبوية)، فليرجع القارئ إلى هذين الكتابين إن كان يهمه الاستقصاء.

(٣) انظر إلى حقائق التأويل ص٢٢١ و٢٢٢.

نهج البلاغة والشريف

بقلم زكي مبارك

مصر الجديدة في الثامن من صفر سنة ١٣٥٩

خلف الشريف فيما خلف كتابًا نفيسًا هو «نهج البلاغة» وهو مجموعة كبيرة من الخطب والرسائل والوصايا والحكم والمواعظ المنسوبة إلى أمير المؤمنين.[١]

وما أحب أن أعيد ما قلته عن أمير المؤمنين في كتاب «المدائح النبوية»، ولا ما قلته عن نهج البلاغة في كتاب «النثر الفني» أو كتاب «وحي بغداد».

وإنما يهمني أن أنشئ فصلًا جديدًا عن نهج البلاغة أحدد به موقع ذلك الكتاب من الأدب العربي، وأكمل به المباحث التي تعرضتُ لها من قبل، وأنا بعيد كل البعد من التحيُّز لذلك الكتاب أو التحامل عليه.

لقد ثارت الشكوك حول نسبة محصول نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين، وهذه الشكوك مما يشرِّف ماضينا؛ لأنها فرع من التحقيق العلمي الذي تفوق فيه أسلافنا أشد التفوق، وما يجوز القول: بأن تلك الشكوك قامت جميعًا على أساس النزعات المذهبية، فقد كان في أسلافنا رجال لا يهمهم غير الحق ولا يستهويهم غير الصدق، ولا يرضيهم أن يُزَوَّرَ التاريخ.

وقد حدثنا ابن أبي الحديد عن ألوان تلك الشكوك، وهي تلخَّص في أن كثيرًا من أرباب الهوى يقولون: إن كثيرًا من نهج البلاغة كلامٌ مُحْدَث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره.

ونحن نعتب على ابن أبي الحديد بعض العتب، فإن عبارة «أرباب الهوى» لا تخلو من جفاء، وفيها غض من أقدار الباحثين الذين أرادوا أن يمسُّوا نهج البلاغة بالوضع والتزييف.

والحق أن الأدب العربي تعرض إلى شبهات كثيرة من هذا اللون: فقد كان للأحزاب السياسية والدينية دخل في تلوين الآثار الأدبية، وقد حدَّثَنَا بعض المؤرخين عن أشعار أضيفت إلى كثير من القبائل الجاهلية، ألم ينص صاحب الأغاني على أن يزيد بن المفرغ هو الذي صنع الأشعار المنسوبة إلى القبائل اليمنية؟!

ونزاع المذاهب لم يكن أقل من نزاع القبائل، فقد وصل الخصام بين الأمويين والعلويين إلى أقصى حدود القسوة والعنف، ومن المستبعد أن يكون أنصار العلويين قد تفردوا بالتجمُّل، وإيثار الصدق في محاربة أعدائهم من الأمويين.

وهل يجوز أن يلتزم العلويون الصمت وهم يرون طلائع الشر تفاجئهم من كل باب؟

لا يقول بذلك إلا من يجهل كيف تأرثت نار العداوة بين الحزبين لذلك العهد، العداوة التي قضت بأن يأمر بنو أمية بسبِّ عليٍّ فوق المنابر، وبأن ينهوا الناس عن تسمية أبنائهم باسمه، وهذا الحمق السياسي غير مستغرب: فقد رأينا له شبيهًا في زماننا يوم أمرت إحدى الوزارات المصرية بأن لا يُذكر اسم سعد زغلول في الجرائد!

فالذي يتَّهم الشيعة بأنهم أنطقوا عليًّا بأقوال لم يقلها ليؤيدوا قضيتهم المذهبية لا يبعد في حكمه عن الروح، الذي كان سرى في الخصومات السياسية لتلك العهود.

ولهذا الرأي شاهد من التاريخ: فقد أسرف الشيعة في تحقير يزيد حتى صار مثلًا في الرقاعة والسخف، ومع ذلك رأينا من يرفع يزيد إلى صفوف العظماء، كالذي صنع مؤلف «نجباء الأبناء»، فهو يرد قالة بقالة، ليرفع عن يزيد إصر الأراجيف.

وعلى ذلك لا يستغرب في شرعة العقل أن تكون مناقب الأمويين والعلويين مدخولة في كثير من الشؤون، وفقًا لما اصطلح عليه العرف السياسي من تحقير الأعداء وتعظيم الأصدقاء.

والعرف السياسي خلقه أسلافنا، أو لسكوا فيه مسالك اليونان والرومان، وهو عرف يقضي بأن لا ترى في صديقك غير الحسن، ولا ترى في عدوك غير القبيح.

والأدب العربي مدين للإفك السياسي أكبر الدين، فبفضل ذلك الإفك خلقت محامد ومثالب هي صور روائع من الشمائل الإنسانية، ولو خلا أدبنا من ذلك الافتعال الجميل أو البغيض لصار مثلًا في العجف والهزال.

وأقول بصراحة: إن التزيد على أمير المؤمنين أمر واقع، وهذا التزيد يشرف من اقترفوه؛ لأنه يشهد بأنهم كانوا رجالًا أقوياء يعرفون كيف يتسلحون للحرب السياسية، وهي حرب لا ينهزم فيها غير من يتورعون عن الابتداع والافتعال.

وسيأتي يوم تعرف فيه أقدار الكتاب البارعين الذين أمدوا الحرب السياسية بوقود من سحر الفصاحة والبيان، والذين أذاعوا في محصول الأدب العربي روح القوة والنضال.

التزيد على أمير المؤمنين أمر واقع، والتنصُّل منه جهل، ولكن المشكلة هي وضع «نهج البلاغة» في موضعه الصحيح.

عندنا في هذا المقام مشكلتان:

الأولى: عبقرية علي بن أبي طالب، عبقريته الخطابية والإنشائية.

والثانية: ضمير الشريف الرضي.

والمشكلة الأولى تحدثتُ عنها في كتاب «النثر الفني» فقد كان معروفًا أن ابن أبي طالب له مجموعة من الخطب، مجموعة تحدث عنها الجاحظ في مطلع القرن الثالث، وهل يعقل أن تضيع آثار ابن أبي طالب ضياعًا مطلقًا وكان في زمانه وبشهادة خصومه من أفصح الخطباء.

كان علي خطيبًا مفوَّهًا، وكان كاتبًا فصيحًا.

فأين ذهبت آثاره في الخطابة والإنشاء؟

وهل يعقل أن تضع آثاره وحوله أشياع يحفظون كلَّ ما ينسب إليه؟

هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الأموي، وينسوا آثار خطيب قُتِلَ بسببه ألوفٌ وألوف من أبطال الحروب؟

ومن الذي يتصور أن الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى واليهود، وتنسى خطب الرجل الذي غُسِّل بدمه في يوم من أيام الفتن العمياء؟

وإذا جاز أن يحفظ الناس ما دسه المغرضون على أمير المؤمنين، فكيف يجوز أن ينسوا ما نُسِبَ إليه على وجه صحيح؟

وأين العقل الذي يقبل القول: بأن عليًّا لم يَحْيَ بيانُه إلا في الآثار المفتريات؟

أين ونحن نجزم بأن في الشيعة أنفسهم رجالًا من العرب الصرحاء الذين يؤذيهم الكذب والافتعال.

وهل كان الشيعة إلا قومًا تستهويهم السياسة حينًا، ويأسرهم الصدق في أحايين.

لا مفرَّ من الاعتراف بأن «نهج البلاغة» له أصل، وإلا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ.

أما ضمير الشريف الرضي فهو عندي فوق الشبهات، وهو قد خدع التشيع بالصدق لا بالافتراء، فإن كان جمع آثار علي بن أبي طالب خدمة سياسية لمذهب التشيع فهو ذلك، ولكنها خدمة أديت بأسلوب مقبول هو إبراز آثار أمير المؤمنين، ولا يعاب على الرجل أن يخدم مذهبه السياسي بجميع الوسائل والأساليب ما دام في حدود العقل والذوق.

فإن قيل: إن النقد الصحيح يشهد بأن في مجموعة «نهج البلاغة» أشياء يبعد صدورها من علي بن أبي طالب بسبب الغلو في العصبية، أو بسبب ضعف الديباجة، أو بسبب التكلف الذي خلت منه لغة الصدر الأول، بسبب الكلمات الاصطلاحية التي لم تشيع في ذلك العهد، إن قيل ذلك فنحن نجيب بأن إصر تلك الأشياء لا يقع على عاتق الشريف، وإنما يقع على عواتق من سبقوه من الذين طاب لهم أن ينطقوا أمير المؤمنين بأقوال رأوها تؤيد مذهبهم بعض التأييد.

أنا لا أقول: بأن مجموعة «نهج البلاغة» صحيحة النسب إلى أمير المؤمنين في كل ما اشتملت عليه، ففيها فقرات وفصول ينكرها الناقد الحصيف.

ولكني أقول: بأن آثار علي بن أبي طالب تعرضت لمثل ما تعرضت له سائر الآثار الأدبية والسياسية والدينية، ثم أجزم بأن ما فات الشريف من التحقيق لم يقع عن عمد، وإنما وقع عن جهل بما تعرضت له تلك الآثار من الوضع والافتراء.

وهذا الحكم القاسي لا يطوق به عنق الشريف إلا إن ثبت أن مجموعة «نهج البلاغة»، لم تعرض بعد وفاته للزيادات والإضافات التي توجبها النزعة المذهبية في عصور وصل فيها الكفاح السياسي إلى أبعد حدود القسوة والعنف، فإن ثبت بعد البحث أنها سلمت من الزيادات، فهي شاهد على أن الشريف كان يعوزه التدقيق في بعض الأحايين.

إما اتهامه بالكذب على أمير المؤمنين في سبيل النزعة المذهبية فهو اتهام مردود، ولا يقبله إلا من يجهل أخلاق الشريف.

ومهما تكن حال «نهج البلاغة» فهو وثيقة أدبية وتاريخية وسياسية قليلة الأمثال، هو إن صح صورة من صور النضال السياسي في مطلع العصر الأموي، وإن لم يصح

فهو أيضًا صورة لذلك النضال حسبما فهمت الأجيال التي سبقت مولد الشريف، وهو كذلك ثروة أدبية ولغوية تورخ اللغة في ذلك العهد، أو تورخ ما فهم الناس إنها كانت عليه في ذلك العهد، وهو أيضًا يصور ما فهم العرب من أصول السياسة والمعاش وتدبير الملك في أعقاب عصر النبوة، أو ما تمثلوه بعد ذلك من تلك الأصول.

هو في جميع الاحتمالات خدمة أداها الشريف إلى اللغة والأدب والسياسة والأخلاق.

وإني لأعتقد أن النظر في كتاب نهج البلاغة يورث الرجولة والشهامة وعظمة النفس؛ لأنه فيض من روح قهار واجه المصاعب بعزائم الأسود.

وهناك خدمة ثانية أداها كتاب نهج البلاغة للغة العربية، فقد كان فرصة ثمينة لحركة الأفهام والعقول.

ألا تعرفون شرح ابن أبي الحديد؟

إن ذلك الشرح هو من ذخائر اللغة العربية: ففيه فوائد أدبية ولغوية وتاريخية وفقهية لا يستهين بها إلا الغافلون عما في ماضينا الأدبي والعلمي من أطايب وفرائد وآيات.

فإن ذكرتم أن نهج البلاغة شرح نحو أربعين مرة، وإن ذكرتم أن فيه فصولًا ترجمت إلى بعض اللغات الشرقية والغربية، وإن ذكرتم أنه فتح أمام النقد أبوابًا ومذاهب، وإن ذكرتم أن له فضلًا على أكثر الفصحاء من الخطباء، وإن ذكرتم أنه أشهر مجموعة وأكبر مجموعة حفظت منسوبة إلى عصر الخلفاء، وإن ذكرتم أن له شرق وغرب ولم تخل منه مكتبة عربية أو أعجمية من المكتبات التي تستوفي أصول المراجع، وإن ذكرتم أن مفنديه لم ينكروا قيمته الأدبية ...

إن ذكرتم كل هذه الخصائص عرفتم أن الشريف خدم الأدب واللغة والأخلاق بجمع أصول ذلك الكتاب الفريد، وصدق أبو فراس حين قال:

ومن شرفي أن لا يزال يعيبني حسود على الأمر الذي هو عائب

هوامش

(١) أمير المؤمنين هو اللقب الاصطلاحي لعلي بن أبي طالب، فإن رأى القارئ هذا اللقب في كتاب قديم من غير نص على اسم الملقب به، فليعرف أن المراد هو علي بن أبي طالب، وإذا رأيت بين الأسماء اسم عبد الأمير فاعرف أن المراد عبد علي بن أبي طالب.

الأصدقاء والأعداء في حياة الشريف الرضي

أيها السادة

رأيتم فيما سلف أن الشريف الرضي كان يهجم على أقربائه في بعض الأحيان، وعرفتم تفسير هذه الظاهرة النفسية، فقد كان الشريف رجلًا موصول الأواصر بالحياة الاجتماعية والسياسية، كان رجل فعل Homme d’action وكانت هذه الصفة تمنحه الفرص الثمينة لامتحان الرجال.

ولكن هل معنى ذلك أنه لم يكن يعرف المودة والقرابة إلا لغايات نفعية؟

لا، ولكن معناه أنه كان ينتظر من الصديق والقريب أن يكون ساعده الأيمن في جميع الأحوال، وقد كانت المكاره لا تغزوه إلا من الثغور الساسية والاجتماعية، فكان من المعقول أن تكون المناصرة في حروب المجتمع هي أساس ما يرجوه من الأقارب والأصدقاء.

ويمكن الحكم بأن الشريف تفرد من بين الشعراء بالإسراف في الكلام عن العدو والصديق، كما تفرد بالإكثار من شرح العواطف البنوية، وهذه نوازع يرجع بعضها إلى بعض، وإن اختلفت أصولها في مشاعر الوجدان.

وإلحاح الشريف في الكلام عن العداوة والصداقة يشعرنا بأنه كان في نفسه أعنف عدو، وأكرم صديق.

وأشعاره تحدثنا بأنه كان يعرف في نفسه طهارة القلب، وعذوبة الروح، وإنه ليخاطب أحد أصدقائه فيقول:

سألقاك بالعهد عند المشيب ... وها أنا في حلية الأمرد
وإني إذا لم أجد ناصرًا ... وجدتك أنصر لي من يدي
خذ الوقت واعلم بأن اللبيـ ... ـب يأخذ من يومه للغد
فما ينفع المرء بعد المنو ... ن قول النوادب لا تبعد[1]
على أنني تحفة للصديق ... يروح بنجواي أو يغتدي
وإني ليأنس بي الزائرو ... ن أنس النواظر بالإثمد[2]
تغمض لي أعين الحاسديـ ... ـن كالشمس في ناظر الأرمد
فلا دخل البعد ما بيننا ... ولا فكّ منّا يدًا عن يد
وطول أيامنا بالمقا ... م في ظل عيش رقيق ندي

وهذه القطعة صريحة بأنه كان يعرف في نفسه بشاشة القلب وبهجة الروح.
وهذا الشعور هو الذي كان يدفعه إلى التألم لغربة قلبه بين القلوب كأن يقول:

كفى حزنًا أني صديق وصادق ... وما لي من بين الأنام صديق
فكيف أريغ الأبعدين لخلة ... وهذا قريب غادر وشقيق

وكان يتلهف إلى الصديق المنشود فيقول:

من لي بغرة صاحب ... لا يستطيل عليه عاب[3]
ما حارب الأيام إلا ... كان لي وله الغلاب
هيهات أطلب ما يطو ... ل به بعاد واقتراب
قلّ الصحاب فإن ظفر ... ت بنعمة كثر الصحاب
من لي به سمحًا إذا ... صفرت من القوم الوطاب[4]
من لي به يا دهر والـ ... أيام كالحة غضاب[5]

وهذه من نفثات القلوب الظماء إلى الموارد الود الرفيق.

وكان الشريف يطرب لاجتماع إخوانه عنده، ويرى أنسه بلقائهم من فرص العيش، وكان يرى إدارة الأحاديث شبيهة بإدارة الكؤوس، كأن يقول وقد اجتمع في بيته خمسة من الأصفياء:

نظمنا نظام العقد ودًّا وألفة ... وكان لنا البتيّ سلك نظام
أخي وابن عمي وابن حمد فإنه ... تباريح قلبي خاليًا وغرامي
وسادسنا الأزدي ما شئت من أب ... جواد ومن جد أغرّ همام
أحاديث تستدعي الوقور إلى الصبا ... وتكسو حليم القومِ ثوبَ عرام
فنضحي لها طربى بغير ترنّم ... ونمسي لها سكرى بغير مدام[6]
تعالوا نُول اللائمين تصاممًا ... ونعص على الأيام كل ملام
ونغتنم الأوقات إن بقاءها ... كمرّ غمام أو كحلم منام
من الله أستبقي صفاء يضمنا ... وطاعة أيام ودار مقام
وأستصرف الأعداء عنا فإننا ... مذ اليوم أغراض لكل مرام

وكان الشريف يعرف جيدًا كيف يحفظ عهد الصديق، وكان له أصدقاء يواسونه أيام البؤس، وفي أحدهم يقول:

يا ذاكر النعماء إن نسيت ... ومجدد المعروف إن درسا
ومنبه الآمال إن رقدت ... بالطول لا أغفي ولا نعسا
نصل إذا وقفت النصول مضى ... جبل إذا اضطرب الجبال رسا
لله بحرٌ ما هتفت به ... حتى استهلّ عليَّ وانبجسا[7]
أجمعت جمته ففاض بها ... يطأ الربا ويبلل اليبسا[8]
زخرت غواربه إليّ ولم ... يقل الرجاء لعلما وعسى[9]
وأغر مختلس مكارمه ... إن الكريم يرى الندى خلسا
غرس الصنائع ثم عاد به ... عود الندى فسقى الذي غرسا

وله عبارات جيدة في تصوير الوداد، كأن يقول:

لقد حل ودك من مهجتي　　بحيث يقيل الأسى والأسا[١٠]

وكأن يقول:

فلقد حللت من الفؤاد محلة　　في حيث ليس من الورى لك جار
فلئن وفيت فما الوفاء ببدعة　　إن الوفاء لذي الصفاء شعار
ولئن غدرت ولا عجيب إنه　　بعض الزمان ببعضه غدار
نفسي فداء الغادرين تباعدوا　　أو قاربوا أو أنصفوا أو جاروا

وقد أهدى إليه أحد أصدقائه رداء فلم يقبله، فعتب عليه ذلك الصديق فكتب إليه الشريف:

عقيد العلا لا زلت تستعبد العلا　　وتعتق منها رق كل أسير[١١]
لئن خف من ضافي ردائك عاتقي　　فودك يخطو في رداء قتيري[١٢]
ستعلم أن الثوب يدثر رسمه　　ورسم الهوى في القلب غير دثور[١٣]
فلا تشمتن الحاسدين فسرهم　　يشف لظني من وراء أمور

وقد يشتاق الشريف إلى إخوانه عند البعد، ويحن إليهم أرقّ الحنين، ويظهر أن بغداد على خشونتها في ذلك العهد لم تبخل عليه كل البخل، فكان له فيها إخوان أوفياء، وإلا فكيف صحّ له أن يقول:

أخلائي ببغداد　　جنى دونكم الرمل
وحالت دون لقياكم　　زحاليق النقا الزل[١٤]
لقد كنت شديد الضن　　أن ينقطع الحبل
وأن ينصدع الشعـ　　ـب الذي لوئم والشمل[١٥]
ولكني رعيت الأر　　ض ما طاب لي البقل
وعجلت النَّوى لما　　فشا اللأواء والأزل[١٦]

ندامـاي عـلـى الـهـمّ — سقـى عـهـدكـم الـوبـل
وحـيـاكـم بـريـاه — جديد النور مخضل[١٧]
تـذكـرتـكـم والـدمــ — ــع لا وبـل ولا طـل
فـمـا أخـلـفـكـم جـار — من الـمـاقـيـن مـنـهـل
وفـي الأيـام مـا يـسـلـى — ولكن أين من يسلو[١٨]

أيها السادة

ذلكم إحساس الشريف بقيمة الصداقة والأخوة، ولكن هل هذا كل ما يملك ذلك القلب الطروب؟ هيهات، ففي قلب الشريف بقايا من العاصف، الشوق إلى الأصدقاء الأصفياء، وهو شوق لا نعرفه في هذه الأيام؛ لأننا نعيش في زمن عابس متجهم، لا نكاد نرى فيه الناس حتى نتخير الأصدقاء، في قلب الشريف بقايا من الحنان لا يعرفها غير ذلك القلب، وأمثال ذلك القلب، إن كان له أمثال.

هل سمعتم بأخبار أبي الحسن البتي؟ إنه كاتب من كبار الكتاب الذين أنجبهم العراق في القرن الرابع، وقد نزلت مودته إلى الأعماق من قلب الشريف الرضي، وحسبكم أن تعرفوا أن آخر شعر نظمه الشريف الرضي هو أبياته في رثاء ذلك الصديق، وأكاد أجزم بأن موت أبي الحسن البتي هو السبب في موت الشريف الرضي، يشهد ذلك قوله في ذلك الرثاء:

مـا لـلـهـمـوم كـأنـهـا — نـار عـلـى قـلـبـي تـشـب
والـدمـع لا يـرقـى لـه — غرب كأن العين غرب[١٩]
لـوداع إخـوان الـشـبـا — ب مضت مطاياهم تخب
فارقتهم والعين عين بعـ — ـدهـم والـقـلـب قـلـب[٢٠]
مـا كـنـت أحـسـب أنـنـي — جلد على الأرزاء صعب
أو أنني أبقى وظهري بعـ — ـد أقـرانـي أجـبّ[٢١]
لا الـوجـد مـنـقـطـع الـوقـو — د ولا مـزار الـدار غـب[٢٢]

ما أخطأتك النائبات إذا أصابت من تحب

وقد صحت فراسة الشريف، فإن النائبات لم تخطئه حين أصابت من يحب، فمات بعد موت ذلك الصديق المحبوب بأشهر معدودات، وغربة القلوب تقتل الرجال.

فإن سألتم: وأين شعره في التشوق إلى ذلك الصديق؟ فإنا نقدم إليكم البائية النفيسة التي نعرف بها كيف تسري المودة في القلب مسرى السحر في العيون، وتجول في شعاب الروح كما يجول الصبا في قدود الملاح، وتدخل على أصحاب الأذواق دخول البشري بالأمن بعد الخوف، وأنس اللقاء بعد وحشة الفراق، وتصافح الأنفس مصافحة الأماني العذاب، وتعاقر أفواه المنشدين فتذكرهم معاقرة الرضاب، قصيدة لا يقولها غير الشريف الرضي، ولا يقدر قيمتها غير أرباب القلوب.

هات يا أبا الحسن ما قلت في أبي الحسن، فقد اشتقنا إليه وإليك:

أبا حسن أتحسب أن شوقي يقلُّ على معارضة الخطوب
وأنك في اللقاء تهيج وجدي وأمنحك السلوّ على المغيب
وكيف وأنت مجتمع الأماني ومجنى العيش ذي الورق الرطيب
يهشّ لكم على العرفان قلبي هشاشته إلى الزور الغريب[٢٣]
وألفظ غيركم ويسوغ عندي ودادكم مع الماء الشروب
ويسلس في أكفكم زمامي ويعسو عند غيركم قضيبي[٢٤]
ولي شوق إليك أعلّ قلبي وما لي غير قربك من طبيب
أغار عليك من خلوات غيري كما غار المحب على الحبيب
وما أحظى إذا ما غبت عني بحسن للزمان ولا بطيب
أشاق إذا ذكرتك من بعيد وأطرب إن رأيتك من قريب
كأنك قدمة الأمل المرجى عليّ وطلعة الفرج القريب
إذا بشرت عنك بقرب دار نزا قلبي إليك من الوجيب[٢٥]
مراح الركب بشر بعد خمس ببارقة تصوب على قليب[٢٦]
أسالم حين أبصرك الليالي وأصفح للزمان عن الذنوب
وأنسى كل ما جنت الرزايا علي من الفوادح والندوب[٢٧]
تميل بي الشكول إليك حتى أميل إلى المقارب والنسيب[٢٨]

وتقرب في قبيل الفضل مني   على بعد القبائل والشعوب
أكاد أريب فيك إذا التقينا   من الأنفاس والنظر المريب
وأين وجدت من قبلي شبابًا   يحنّ من الغرام على مشيب
إذا قرب المزار فأنت مني   مكان الروح من عقد الكروب
وإن بعد اللقاء على اشتياقي   ترامقنا بألحاظ القلوب[٢٩]

وهذا القلب الألوف كان يحمل الشريف الرضي على انتهاب أيام التلاقي؛ خوفًا من عدوان الزمان، وإنا لنراه يتعجل لقاء بعض إخوانه فيقول:

أأخيّ ما اتسع الزما   ن على جماعتنا وضاقا
ألا ليعقبنا اجتما   عًا بالنوائب وافتراقا
سابق فليس تنال أغرا   ض المنى إلا سباقا
من قبل أن ترد الخطو   ب على مودتنا طراقا[٣٠]
فأزيد بعدًا من لقا   ئك كلما ازددت اشتياقا
وأراك تمنحني الصدو   د وبعد لم أنو انطلاقا
إن كان ذا خوف الفرا   ق فقد تعجلت الفراقا

وهذا القلب الألوف هو الذي كان يوقفه موقف الصابر المتخشع، وهو يعاني تقلبات القلوب، وإلا فكيف جاز لمثله على إبائه أن يقول:

عذيري ممن ذم عهدي وقد نبا   مرارًا وقلبي وادع لا يذمه
تجرّم لما لم يجد لي زلة   وأقصدني باللوم والجرم جرمه[٣١]
تعمدت بعدي عنه من غير سلوة   ليعلمني يوم النوى كيف طعمه
وأجممته لا عن غناء وإنما   لأشربه في حر خطب أجمه[٣٢]
وإني وإن والى على القلب حربه   لمنتظر أن يعقب الحرب سلمه
ولا تيأسن من عفو حرّ فإنما   تحلمه باق إذا ضاع حلمه
أأطمع أن أنساك يومًا وإنما   هواك ضجيع القلب مني وحلمه
يقرّ بعيني منظر أنت قيده   ويعتاق قلبي مطلب أنت غنمه

وللشريف أشعار كثيرة في الصفح عن ذنوب الأصدقاء، ولكن الدهر كان يبتليه أحيانًا بإخوان لا تغفر لهم ذنوب، إخوان يميلون عليه مع الزمان فيسقونه كأس العلقم والصاب، فنراه يتوجع بمثل هذا الشعر الحزين:

أمسى عليّ مع الزمان أخ ... قد كنت آمل يومه لغد
من كان أحنى عند نائبة ... من والدي وأبر من ولدي
لم يثمر الظن الجميل به ... فقدي من الظن الجميل قدي[٣٣]
لو كان ما بيني وبينكم ... بيني وبين الذئب والأسد
لأويت من هذا إلى حرم ... ولجأت من هذا على عضد
ولأصبحا في الروع من عددي ... كرمًا وفي اللأواء من عددي
ولمانعا عني إذا جعلت ... نوب الزمان تهيض من جلدي[٣٤]
أو كان ما قدمت من مقة ... سببًا إلى البغضاء لم يزد[٣٥]
بل لو قذفت بمدحتي لكم ... في البحر ذي الأمواج والزبد
لرمى إليَّ أشف جوهرة ... وسقى بأعذب مائه بلدي
فلأجعلن عقوبتي أبدًا ... أن لا أمد يدي إلى أحد
فتكون أول زلة سبقت ... مني وآخرها إلى الأبد

وهذه الزفرة تنقلنا إلى أشعاره في الثورة على الغادرين، فنراه أحيانًا يقف موقف اليائس من صحة الود فيقول:

تجاذبني يد الأيام نفسي ... ويوشك أن يكون لها الغلاب
وتغدر بي الأقارب والأداني ... فلا عجب إذا غدر الصحاب

أو يقول:

لأي حبيب يحسن الرأي والود ... وأكثر هذا الناس ليس له عهد
أكل قريب لي بعيد بودِّه ... وكل صديق بين أضلعه حقد؟

أو يقول:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها لعظيم ما ألقى من الخلَّان
وإذا أمنت من الزمان فلا تكُن إلا على حذر من الإخوان
كم من أخٍ تدعوه عند مُلِمَّةٍ فيكون أعظم من يد الحدثان

وكان للشريف أصدقاء تعوزهم شجاعة الرجال؛ فيسمحون لزوارهم باغتيابه، وكانت الأخوة توجب أن يدفعوا عنه أوضار الاغتياب، وقد وجه الكلام إلى أحد هؤلاء فقال:

ما رقع الواشون فيَّ ولفَّقوا قل لي فإما حاسد أو مشفق[٣٦]
في كل يوم ظهر داري مغرب لكلامهم وجبين دارك مشرق
وإلى متى عودي على أيديهم ملقى ينيب دائمًا ويحرِّق[٣٧]
كم يسبك الذهب المصفى مرة قد لاح جوهره وبان الرونق
يحلو لهم عرضي فيسترطونه ويصل عرضهم الذليل فيبصق[٣٨]
نفضوا عيوبهم عليّ وإنما وجدوا مصحافي الأديم فمزقوا[٣٩]
من لي بمن إن بان عيب خليله غطاه من شانيه أو من يصدق
وإذا الحليم رمى بسرِّ صديقه عمدًا فأولى بالوداد الأحمق
جار الزمان فلا جواد يُرْتَجَى للنائبات ولا صديق يشفق
وطغى عليّ فكل رحب ضيق إن جُلْتُ فيه وكل حبل يخنق[٤٠]

والشريف الذي يجيد حوك العتاب كان في بعض أحواله يكره العتاب، أعني أنه كان ينكر على إخوانه أن يعاتبوه، وهذا وجه آخر من صور النفس، كأن الشريف كان يرى نفسه فوق العتاب، أو كأنه كان يرى أن مثله لا يحتاج في رعاية الود إلى عتاب، ولكن الحالة التي سنشير إليها يختلط فيها العتب بالوعيد، وهي تشرح أصول العداوات التي عاناها الشريف، والظاهر أنه كان كأكثر الناس يبغض من حيث كان يحب، فأكثر أعدائه هم في الأصل أصدقاء قدماء، ولا يُبتلى الرجل بمحنة أشق من معاداة إنسان كان يراه قبلًا بعين الصديق.

وشواهد هذه الحالة النفسية كثيرة في شعر الشريف، ولكنا نكتفي بالقطعة الآتية:

نهنه عتابك إلا إن هفا جرم | بعض العتاب على الإخلاص متهم
ما لي أقول فلا تصغي بسامعة | تصامم بك عن ذا القول أم صمم
رفقًا بأنفك لا تشمخ على مضر | وانظر بعينك من زموا ومن خطموا[41]
فلست أول من راقت له حلل | ولست أول من راحت له نعم
من أضمر الصدّ عمن ليس يضمره | بغيًا مشى في نواحي سره الندم
من أنهضته لقطع الود غدرته | كان المذمم منه الكف والقدم
من ساء ظنًّا بمن يهواه فارقه | وحرضته على إبعاده التهم
متى تجهم غدرًا سر عهدكم | فإن عهدي على غدر بكم حرم

أيها السادة

لقد ساقنا الكلام إلى ضجر الشريف الرضي من الناس، فلنتذكر أن هذا الرجل عانى في دهره أشق العداوات، وابتلته الحوادث بضروب من لؤم الخلائق، ولكنه تماسك وقارع خصومه قراع الفحول، وكان مع ذلك يعود إلى نفسه فيدرسها من حين إلى حين فيرى نفسه أعدى الأعداء، فهو بذلك من أحكم الناس إذ يقول:

أروم انتصافي من رجال أباعد | ونفسي أعدى لي من الناس أجمعَا
إذا لم تكن نفس الفتى من صديقه | فلا يحدثن في خلة الدهر مطمعَا[42]

ولو أنه ألح في ترديد هذا المعنى لكان له مكان بين أساتذة الأخلاق، ولكن يكفي أنه تنبَّه إلى هذا المعنى، فهو كان يدرك بوحي الفطرة أننا نؤذي أنفسنا قبل أن يؤذينا الناس، وأن الشرَّ لا يسقط علينا سقوط المطر من السماء، وإنما نستدعي الشر عامدين بما نسرفُ في مكايدة الأنداد والنظراء، هو كان يفهم أنه يتطلع إلى انتهاب ما في أيدي الناس من المناصب العالية، كان يفهم أنه يحاول أمورًا لو طاعت له لتبدلت في الجو السياسي والاجتماعي رسوم وشئون، كان يفهم أن أعلام الناس في عصره ليسوا أغبياء إلى الحد الذي يسمح بأن يجهلوا ما ينطوي عليه مثل صدره من غرض مبيت، وسر مكنون.

والثورة على العيش الضيق، وعلى حياة الخمول هي بداية الحرب بيننا وبين المجتمع، فمن شاء أن يعيش في سلام مطلق، فليكتفِ بأكل العشب في البيداء، ثم ليحترس أيضًا؛ ففي البيداء خلائق تغار على ما فيها من مساقط الغيث، ومنابت الأعشاب.

وكذلك نرى الشريف يتنبه إلى أسباب العداوة بينه وبين الناس، ونراه يداري الأعداء؛ خوفًا من عواقب اللجاجة في تهييج الضغائن والحقود، وهو الذي يقول:

تجاف عن الأعداء بقيًا فربما ... كفيت ولم تعقر بناب ولا ظفر[٤٣]
ولا تبر منهم كل عود تخافه ... فإن الأعادي ينبتون مع الدهر
إذا شئت أن تبقى خليًا من العدى ... فعش عيش خال من علاء ومن وفر
إذا أنت أفنيت العرانين والذرى ... رمتك الليالي عن يد الخامل الغمر[٤٤]
وهبك اتقيت السهم من حيث يتقي ... فمن ليدٍ ترميك من حيث لا تدري

فهو بهذه الأبيات يقرر أن سبب العداوة هو بسطة الجاه، والمال، ويشير بمداراة الأعداء؛ لأن العداوة كالنار قد تخمد بعض الخمود إن سكتت عنها الريح، أو تناستها أفواه النافخين، ويذكر أن الذي ينتصر على الأقوياء من الأعداء قد ترميه الليالي بأيدي الضعفاء. ولو كنا نعرف مصادر المخاوف في كل وقت لدفعناها، ولكن المخاوف تخفي مصادرها في كثير من الأحايين، فمن الحزم ألا نعرض أنفسنا للعداوات، وهي أسباب المعاطب والحتوف.

وفي هذه القطعة إشارة إلى معان كثيرة، وليت الشريف احتفل بهذه المعاني، كما يتفق له ذلك في كثير من الأغراض، ولكن هذه الإشارة تفهمنا أنه كان يخاف الضعفاء أكثر مما يخاف الأقوياء؛ لأن الأقوياء شرهم هين؛ إذ كانوا يحاربون بأسلحة الرجال، أما الضعفاء فشرهم أخطر وأفظع؛ إذ كانوا يدبون بالموشايات والنمائم كما تدب العقارب في حلك الظلام، والعدو الضعيف مخلوق خطر؛ لأن الضعف علمه الدهاء، وبصره بأساليب الختل والخداع، وكان من السهل أن يعمد الأعداء الضعفاء إلى تهوين قدر الشريف في أنفس أهل العراق. ومثل الشريف كان يعتمد في حياته السياسية على قوتين: القوة الذاتية، وحسن السمعة بين الناس.

وأعيذكم أن تظنوا أني أتكلف هذا الافتراض، ففي ديوان الشريف شواهد نعرف بها أنه كان مبتلى بأقوام يقرضون عرضه في الخفاء، وإلا فكيف نفسر سكوته عن وصف الخمر مع أن وصفها كان من المذاهب التي سنها شعراء العراق، وكان الشاعر العراقي

يصف الخمر وإن لم تمسسها شفتاه، والشريف وصف الخمر فعلًا، ولكنه ينص في صلب الديوان على أنه سئل وصفها فأجاب.

ولا تنسوا أن الشريف غلبت عليه الصفة الأدبية — بالرغم من منزلته العلمية التي قضت بأن يكون له مدرسة فيها طلاب يتلقون دروسه في الصباح والمساء — والصفة الأدبية حين تغلب على رجل تعرّض سمعته لسيئات الظنون، فقد كان شاع في البيئات العراقية أن الأدباء والشعراء قوم لا يهمهم غير الهيام بأودية الشياطين.

ولم يكن يسر الشريف الرضي أن يقال: إنه يتخلق بأخلاق الشعراء؛ لأنه كان يرشح نفسه لمناصب دينية لا يصلح لها إلا المعروفون بطهارة السر والعلانية، والمشهورون بالتقى والعفاف، وحسبكم أن تذكروا أنه كان يرشح نفسه لنقابة الأشراف، وإمارة الحج، وتولي القضاء، وهي مناصب شائكة، توجب على من يسمو إليها أن يتخوف عواقب الأقاويل والأراجيف.

قد تسألون: وهل كان الشريف يكتم هذه المعاني؟

ونجيب بأنه: كان يصرح بها في بعض الأحيان، كأن يقول:

وإني إذا أبدى العدو سفاهة ... حبست عن العوراء فضل لسانيا[٤٥]
وكنت إذا التاث الصديق قطعته ... وإن كان يومًا رائحًا كنت غاديًا[٤٦]

وكأن يقول:

وإن مقام مثلي في الأعادي ... مقام البدر تنبحه الكلاب
رموني بالعيوب ملفقات ... وقد علموا بأني لا أعاب
وأني لا تدنسني المخازي ... وأني لا يروعني السباب
ولما لم يلاقوا فيّ عيبًا ... كسوني من عيوبهم وعابوا

وكأن يقول:

وجاهل نال من عرضي بلا سبب ... أمسكت عنه بلا عي ولا حصر
حمته عني المخازي أن أعاقبه ... كذاك تحمي لحوم الذود بالدبر[٤٧]

وكان الشريف قد امتحن بجماعة من أقربائه يناصبونه العداء، ونحن نعرف أسباب تلك العداوة، فقد كانت هناك مناصب موقوفة على الأشراف، وكانت الحرب على تلك المناصب لا تنفك مسعرة الضريم، والهجوم على الأخوة وبني الأعمام باب معروف في الشعر العربي، ولا يكاد يخلو منه ديوان، فالشريف الرضي لا يبتدع هذا الفن، ولكنه مع ذلك لا يفتعل هذا الفن، ولا يقف فيه موقف المحاكين لعواطف القدماء، وإنما يعبر عن عواطف ذاتية أنبتها في صدره عنف الأهل، ولؤم الزمان، ولولا ذلك ما صحّ له أن يقول:

إذا أشر القريب عليك فاقطع   بحدّ السيف قربى الأقرباء[٤٨]
وكن إن عقّك القرباء ممن   يميل على الأخوة للإخاء
فرب أخ خليق بالتقالي   ومغترب جدير بالصفاء

وأن يقول:

وقل لبني عمنا الواجدين   بني عمنا بعض هذا الغضب[٤٩]
أما آن للراقد المستمر   في ظلم الغي أن يستهب
سرحتم سفاهتكم في العقوق   ولم تحفلوا الحلم لما غرب[٥٠]
ولما أرنتم إران الجموح   وماج بكم حبلكم واضطرب[٥١]
أقمنا أنابيبكم بالثقاف   وداوي الهناء مطال الجرب[٥٢]
ويا ربما عاد سوء العقاب   على المذنبين بحسن الأدب

وأن يقول:

ومولى يعاطيني الكئوس تجملا   وقد ودّ لو أن العقار نجيع[٥٣]
خبأت له ما بين جنبيّ فتكة   دهته ويوم الغادرين شنيع

وأن يقول:

غمست يديّ في أمر فمن لي؟   وأين؟ بنزع كفي وانكفافي
كفاني أنني حرب لقومي   وذلك لي من الضراء كاف

حطمت صعادهم حتى استقاموا مجاوزة بهم حد الثقاف[٥٤]
فصرت لذمهم غرضًا رجيمًا يراموني بمثل حصا القذاف[٥٥]
وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائليهم بالعفاف
ولو أني أطعت الرشد يومًا لأبدلت التحامل بالتجافي
وأغضيت اللواحظ عن ذنوب وموضعها لعيني غير خاف
ولكن الحمية فيّ تأبى قراري للرجال على التكافي
وأنظر سبة وعظيم عار رضاي من المنازع بالكفاف
ولو أني رميت أصاب سهمي ولكني أنقب عن شغافي[٥٦]
فما سهمي السديد من النوابي ولا باعي الطويل من الضعاف
ولي أنف كأنف الليث يأبى شميمي للمذلة واستيافي[٥٧]
وقد عرف العدا وبلوا قديمًا خطاي إلى المنايا وازدلافي
لي العزم الذي قد جربوه يقدّ مضارب البيض الخفاف
أقلوا لا أبا لكم وخلوا مطاعنة الأسنة بالأشافي[٥٨]
فقد مدت غيابات المخازي على عرصاتكم مدّ الطراف[٥٩]
صفوت لكم فرنقتم غديري وأي مضاغن رجع المصافي
ويوشك أن تقام على التقالي أنابيب رجعن إلى التصافي
مضى زمن التمازج والتدافي وذا زمن التزايل والتنافي
لئن أعلى بناءكم اصطناعي فسوف يثل عرشكم انحرافي
أداوي داءهم فيزيد خبثًا وليس لداء ذي البغضاء شاف
حنوت عليهم ولرب حان على جان وإن بعد التلافي
فما قلبي وإن جهلوا بقاس ولا حلمي وإن قطعوا بهاف
فما تغني القوادم من جناح تحامل إن قعدن به الخوافي
وعندي للزمان مسوّمات من الأشعار تخترق الفيافي
بوارد للغليل كأن قلبي يعب بهن في برد النطاف
أسر بهن أقوامًا وأرمي أُقَيْوَامًا بثالثة الأثافي[٦٠]

ويهمني أن أوجه أنظاركم إلى قوله في هذا القصيد:

وأكذب بالتصون مدعيهم　　　وألجم قائليهم بالعفاف

فهو يؤيد ما افترضناه من قبل، ويبين لكم أن الشريف كان يعرف أن هناك جماعة من الأنذال يسوئون سمعته، ويذيعون عنه الأباطيل؛ ليغضوا من قدره بين الناس، فيخلو لهم الجوُّ إذ يقضي عليه التجريح الآثم بالخروج من الميدان.

أيها السادة

في ديوان الشريف أشعار كثيرة عن الأقارب والأصدقاء الذين يعرفون الرجل في أيام النعماء، وينكرونه في أيام البأساء، وهي أشعار جيدة، ولكنها في مراميها لا تعدُّ من المبتكرات؛ لأنها مما تعاورته سهام الشعراء في القديم والحديث.

فلنترك هذه الناحية ونقف لحظة عند الأزمة التي وقعت بين الرضي وأخيه المرتضى.

لا تحدثنا كتب التراجم عن أسباب الجفوة التي وقعت بين ذينك الأخوين، ولكننا نعرف أنهما لم يكونا مؤتلفين كل الائتلاف؛ لأن مذاهبهما في الحياة كانت مختلفة بعض الاختلاف، ويمكن الحكم بأن الرضي كان جمهوره من أهل الأدب، وأن المرتضى كان جمهوره من أهل العلم، وهنا تظهر أسباب المنافسة بين الأخوين، فالرضي الشاعر كان عالمًا جليلًا، والمرتضى العالم كان شاعرًا مجيدًا، ولا ندري متى يأتي الزمن الذي يسمح بأن نحدد خصائص هذين الأخوين، ونبين ما يشتركان فيه، وما يتفرد به كل منهما تفرُّدًا لا يتطرق إليه الخلاف.

ولكن لا مندوحة من تقرير الواقع المؤلم، وهو أن ذينك الأخوين عرفا كدر الأخوة بعد الصفاء، وإن جهلنا حقائق الأسباب، ولكن أي كدر؟ تصوروا حال الشريف الرضي الذي مدح أخاه بكثير من القصائد الجياد، وامتزج بحياته البيتية امتزاج الماء بالصهباء، تصوروا حاله وهو يسمع أن أخاه يمسه بقوارص الاغتياب.

وهل في الدنيا وجه أقبح من وجه الأخ الذي يغتاب أخاه؟ إنها بلية دميمة لا يضنُّ بها الدهر الغادر على كرام الرجال، وقد شرب الرضي كؤوس العلقم من يد الزمان، ورأى من البلايا ما أنطقه بالشعر، وهو في العشر من سنيه، ورماه بالشيب وهو في سن العشرين، ولكن هل تجور الدنيا إلى هذا الحدِّ فيرى أخاه الشقيق وهو يمضغ عرضه

بلا تورع ولا استحياء؟ هل تفسد الدنيا هذا الفساد فنرى المرتضى والرضي يتباغضان ويتحاقدان بعد أن جمعتهما الأيام تحت جناحي أم رءوم تروضهما على المودة والعطف، وهي ترى الدنيا في وجهيهما حين زج زوجها في غياهب الاعتقال؟

ما هي الأخيلة التي طافت برأس الشريف وهو يعادي أخاه؟ إن الجبال أخفّ وزنًا من الهموم التي تساور الشاعر حين يبغض من يحب، والسمُّ أحلى مذاقًا من ورود الشاعر بحر القطيعة — قطيعة الأخ المحبوب — فماذا صنع صديقنا الشريف الرضي في تلك الأيام السود؟ ما الذي عاناه وهو يستعد لذلك النضال المشئوم؟ وما هو الغمُّ الذي سيطر عليه حتى استباح لنفسه أن يهجم على أخيه، وهو يعلم أن ذلك الأخ هو كل ما بقي له من الثروة الروحية في زمن كان يزخر بالمهالك والخطوب!

ولا تنسوا أيها السادة أننا نتحدث عن شاعر كان يعيش في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع، وهو من أقسى العصور التي عانتها بغداد؛ لأنها لم تكن تختار ملوكها، ولا وزراءها في ذلك العهد، وإنما كانت تفرض عليها الملوك وفقًا لعدوان المطامع بين الديلم والأتراك، ولم يبق لأهل بغداد من أسباب الجاه إلا ما توارثوه من المناصب بفضل التقاليد، وكان من أهم ما توارثوه مناصب القضاء، وكانت هذه المناصب مما يملك الفقهاء البغداديون، والسنيون والشيعيون، فلم يكن بدّ من أن يتعاطفوا، وتشيع بينهم القالة الحسنة، والصيت الجميل.

فإذا نقل الواشون إلى الرضى أن أخاه المرتضى يسلقه في غيبته بلسان حديد، فإنما يصورون له مجدًا يتقلص، وملكًا يضيع.

وماذا يبقى للرضي إن ضاعت منه مودة ذلك الشقيق؟

هو مع الملوك في حرب، ومع الخلفاء في حرب، ومع المنافسين في نضال، والعراق على اتساع حواضره وبواديه يضيق عن تأسيس الثروة والمجد من جديد؛ لأن الثورات لم تترك فيه مجالًا لأيدي الفلاحين فضلًا عن الشعراء والعلماء.

اعذروني أيها السادة إذا وقفت عند هذه المعضلة النفسية، فأنا أحب أن أعتذر عن الشريف الرضي، أحب أن أقول: إنه لم يهجم على أخيه إلا بعد أن ضاقت في وجهه مسالك الصفح الجميل، وكان في مقدوري أن أحكم بأن أهل العراق قوم تغلب عليهم دقة الإحساس، فهم يغضبون لأول بادرة، ولا يفكرون في العواقب عند الصيال، ولكن ماضي العراق يشهد بأن أهله كانوا من أقدر الناس على تحليل العواطف، والأحاسيس، ومؤلفات فلاسفته تنطق بأنهم كانوا من أشوق الناس إلى درس أصول الحب والبغض، فمن العسير أن نصدق أن الرضي هجم على أخيه إلا بعد أن طفح الكيل، وعزّ الوفاق.

ولكن ما بالنا نشغل أنفسنا بهذه الدقائق النفسية؟ يكفي أن نعرف أن الرضي عرف في حياته لونًا أسود هو الاضطغان على الأخ الشقيق، وأنه لم يرد ذلك المورد إلا وهو آسف محزون، وقد نظم في ذلك قصيدة ضادية هي أعظم ما نظم في قافية الضاد. وقد تأثر بها الضادية التي اختارها أبو تمام في الحماسة، فجاءت ضاديته أبلغ وأروع، والشعراء يعدي بعضهم بعضًا بالعواطف والأحاسيس، ولننظر كيف يقول:

رضيت من الأحباب دون الذي يرضى
ودانيت من تقضي الديون ولا يقضي
وقد أنهرت فيّ الليالي جراحها
مرارًا وأنضاني من الهمّ ما ينضي[٦١]
طوى الدهر أسباب الهوى عن جوانحي
وحل الصبا عقد الرحائل عن نقضي[٦٢]
ولم يبق لي في الأعين النجل طربة
ولا أرب عند الشباب الذي يمضي
ضحا اليوم عن ظل الشبيبة مفرقي
وأبدل مسودّ العذار بمبيض[٦٣]
أتاني وممطول من النأي بيننا
قوارص تنبو بالجفون عن الغمض[٦٤]
ومولى ورى قلبي بلذعة ميسم
من الكلم العوراء مضا على مض[٦٥]
فعذرًا لأعدائي إذا كان أقربي
يشذب من عودي ويعرق من نحضي[٦٦]
إذا ما رمى عرضي القريب بسهمه
عذرت بعيد القوم إما رمى عرضي
ألم يأته أني تفردت بعده
روابي للعلياء جاش لها نهضي
وأني جعلت الأنف من كل حاسد
قبالي وخدي كل مضطغن أرضي[٦٧]

وكم من مقام دون مجدك قمته
على زلق بين النوائب أو دحض[٦٨]
وقارعت من أعياك قبل قراعه
فدامجني بعد التشارر والبغض[٦٩]
لقد أمست الأرحام منا على شفا
فأخلق بمشف لا يعلل أن يقضي[٧٠]
رأيت مخيلات العقوق مليحة
فلا تجعلن برق الأذى صادق الومض[٧١]
ولا تشمتن من ودّ لو أننا معًا
شجيجان تلطينا الجنادل بالأرض[٧٢]
إذا كنت أغضي والقوادع جمة
فمثلك أولى أن يرم وأن يغضي[٧٣]
على غصص لو كن في القدر لم ينر
وفي العود لم يورق وفي السهم لم يمض
رزئتك حيًّا بالقطيعة والقلى
وبعض الرزايا قبل يوم الفتى المقضي
أناديك فارجع من قريب فإنني
إذا ضاق بي ذرعي مضيت كما تمضي[٧٤]
لقد كان في حكم الوشائج لو رأى
عن المجد بطئي أن يبالغ في حضي[٧٥]
فكيف ولم تحرج مناديح همتي
ولا ذمت العلياء بسطي ولا قبضي[٧٦]
إذا هو أغضى ناظري على القذى
وكان لمثلي مسخطًا فلمن يرضي
خليلي ما عودي لأول غامز
ولا زبد وطني للمقيم على مخضي[٧٧]
فقل للعدا عضوا الأخامص إنكم
تعرقتم الأيدي عليّ من العض[٧٨]

هم نقضوا ما قد بنى أولوهم
وشدنا وهيهات البناء من النقض
أفي كل يوم يصبغ العار منهم
رداء امرئ والعار باق على الرحض[٧٩]
يريدون أن يخفوا النواقر بيننا
وقد صاحت الأضغان في الحدق المرض[٨٠]
ذكرت حفاظي والحفيظة في الحشا
لها نغضان العرق يحفز بالنبض
دعوتكم قبل التي لا شوى لها[٨١]
وقلت لكم فيئوا إلى الخلق المرضي
ردوني نميرًا قبل أن أحمل القذى
فلا تردوا إلا على الثمد البرض[٨٢]
ولسوا جميمي قبل أن يمنع الحمى
إبائي أو يوبي على رعيكم حمضي[٨٣]
ومن قبل أن يسدي المعادون بيننا
برود الخنا ما شئت في الطول والعرض[٨٤]
ولا تركبوا سيساء دامية القرا
بلا حقب تطوي البلاد ولا غرض[٨٥]
تقوا عار حرب لا يعود مثيرها
وإن غلب الأقران إلا على رمض[٨٦]
ولا تولجوا زور العقوق بيوتكم
أناشدكم بالله في الحسب المحض
أراها بعين الظن حمراء جهمة
ستجري إلى عار العواقب أو تفضي
تهضمني من لا يكون لغيره
من الناس إطراقي على الهون أو غضي
أفوق نبل القول بيني وبينه
فيؤلمني من قبل نزعي بها عرضي[٨٧]

وأرجع لم أولغ لساني في دمي
ولم أدم أعضائي بنهش ولا عضّ
إذا اضطرمت ما بين جنبي غضبة
وكاد فمي يمضي من القول ما يمضي
شفعت على نفسي بنفسي فكفكفت
من الغيظ واستعطفت بعضي على بعضي

ولم تطل الجفوة بين الأخوين فكتب المرتضى إلى أخيه الرضي قصيدة جيدة نتخير منها الأبيات الآتية:

تكشف ظل العتب عن غرة العهد
وأعدى اقتراب الوصل منا على البعد
تجنبني من لست عن بعض هجره
صفوحًا ولا في قسوة عنه بالجلد
نضته يد الأعتاب عما سخطته
كما ينتضي العضب الجراز من الغمد[88]
وكنت على ما جرّه الهجر ممسكًا
بحبل وفاء غير منفصم العقد
أمين نواحي السر لم تسر غدرة
ببالي ولم أحلف بداعية الصد
تلين على مسّ الإخاء مضاربي
وإن كنت في الأقوام مستخشن الجد[89]
ولما استمر البين في عدوائه
تغول عفوي أو ترقى إلى جهدي[90]
أصاحب حسن الظن والشك مقبل
بوجهي إلى حيث استمرت عرى الود[91]
إذا اتسعت في خطة الصد فكرتي
تجللني هم يضيق به جلدي
وإن ناكرتني خلة من خلاله
تعرض قلبي يفتديها من الحقد[92]
يخال رجال ما رأوا لضلالة
ولن تستشف الشمس بالأعين الرمد
إذا تركت يمنى يديك تعلقي
فيا ليت شعري من تمسك من بعدي
إيابًا فلم تشرف على غاية النوى
ولم تنأكل النأي عن سنن القصد
ولو لم يلاق الزند قدحًا بمثلِهِ[93]
لما انبعثت شهب الشرار من الزند
هلم نعد صفو الوداد كما بدا
إعادة من لم يلف عن ذاك من بد
ونغتنم الأيام فهي طوائشٌ
تواتي بلا قصدٍ وتأبى بلا عَمْدِ
ومثلُك أهدَى أن يقاد إلى الهدى
وأرشد أن ينحاز من جهة الرشد

وقد انعطف الرضي حين وصلت إليه هذه القصيدة، وجنح إلى السلم، فأرسل إلى أخيه قصيدة طويلة نكتفي منها بالقطعة الآتية:

وأعظم ما لاقيت شجوًا ولوعة — عتاب أخ فلّ الزمان به حدي
أقيك الردى ما كان ما كان عن قلى — ولكن هنات كِدن يلعبن بالجد[٩٤]
ولا تحسبن العتب جازت كلومه[٩٥] — إلى القلب إلا بعد ما حزّ في الجلد
منحتك ما عندي من الصدّ معلنًا — وعقد ضميري أن أدوم على الودّ
وقد كنت أبغي رتبة بعد رتبة — فآنف لي من أن أفوز بها وحدي
حفاظًا على القربى الرءوم وغيرة — على الحسب الداني وبقيًا على المجد
حسدت عليك الأجنبين محبة — ونافست فيك الأبعدين على الود
وقد كان لذع فاتقيت شباته — بقلب على الضراء كالحجر الصلد[٩٦]
تجلدت حتى لم تجد فيّ مغمزًا — وعدت كما عاد الجراز إلى الغمد
وها أنا عريان الجنان من التي — تسوء ومنفوض الضلوع من الوجد
أقلب عينًا في الإخاء صحيحة — إذا ارتمت الأعداء بالأعين الرمد
وإني مذ عاد التودد بيننا — تجلى الدجى عن ناظري ووری زندي
وعاد زماني بعدما غاض حسنه — أنيقًا كبرد العصب أو زمن الورد[٩٧]
وكنت سليب الكفّ من كل ثروة — فأصبحت من نيل الأماني على وعد
وفارقت ضيق الصدر عنك إلى الرضا — كما نشط المأسور من حلق القدّ
وقد ضمني محض الصفاء وصدقه — إليك كما ضمت ذراع إلى عضد

أيها السادة

لقد كان الرضي شاعرًا يرضى ويغضب، ويخشن ويلين، كان يأسره الشوق إلى الصديق فيقول:

لقاؤك جرَّ عليَّ الفراقا — وما زادني القرب إلا اشتياقا
جلوت علي هديَّ الوداد — فأسلفتها بالقبول الصداقا[٩٨]
وأسرفت بالبشر حتى ظننـ — ـت أنك أضجعت فيه النفاقا

وحاشاك من تهمة في المغيب فكيف حضور يضم الرفاقا
وكان الزعيم بهذا الإخا ء يومًا حسوناه كأسًا دهاقًا
نحرنا الدنان على صدره فلله أي دماء أراقا
شرقنا بلذاته والسرور يلوي إزازًا ويرخي نطاقا
سقى الله دهرًا حبانًا الودا د مبتدهًا فشكرنا العراقا
وما زلت أعجب من حفظه لنا القرب حتى نسينا الفراقا
أتقتص من جسدي بالبعاد وما زود الباع منك العناقا

وكان يغضب على المغتابين فيقول:

وغرّ آكل بالغيب لحمي وإن لأكله داء عياء
يسيء القول إما غبت عنه ويحسن لي التجمل واللقاء
عبأت له وسوف يعبُّ فيها من الضرّاء آنية ملاء

وكان يوازن بين عداوة الأقارب وعداوة الأباعد فيقول:

للذل بين الأقربين مضاضة والذل ما بين الأباعد أروح
وإذا رمتك من الرجال قوارص فسهام ذي القربى القريبة أجرح

وكان يتشبث بأبناء عمه فيقول:

إذا لم يكن لي ناصر من عشيرتي فلي من يد المولى وإن ذلَّ ناصر[٩٩]
وإني وإن قلُّوا لمستمسك بهم وقد تمسك الساق المهيض الجبائر[١٠٠]

أو يقول:

لويت إلى ودّ العشيرة جانبي على عظم داء بيننا متفاقم
ونمت عن الأضغان حتى تلاحمت جوائف هاتيك الندوب القدائم[١٠١]
وقلمت أظفاري وكنت أعدها لتمزيق قربى بيننا والمحارم
وروّحت حلمي بعدما عزبت به ذنوب بني عمي عزوب السوائم

وأوطأت أقوال الوشاة أخاصمي   وقد كان سمعي مدرجًا للنمائم

أو يمن عليهم بالحلم فيقول:

بني عمي وعزَّ على يميني   من الضراء ما لقيت شمالي
أعود على عقوقكم بحلمي   إذا خطر العقوق لكم ببالي
أروني من يقوم لكم مقامي   أروني من يقول لكم مقالي
ومن يحمي الحريم من الأعادي   ومن يشفي من الداء العضال
يشابح دونكم يوم المنايا   ويرمي عنكم يوم النضال[١٠٢]
ورب قوارص نكتت جناني[١٠٣]   أشدُّ عليَّ من صرد النبال[١٠٤]
صبرت لها ولم أردد مقالًا   فكان جزاء قائلها فعالي

أو يهددهم فيقول:

هبوا أصولكم أصلي على مضض   ما تصنعون بأخلاق تنافيني
كم الهوان كأني بينكم جمل   في كل يوم قطيع الذل يحدوني
لا تأمنن عدوًا لأن جانبه   خشونة الصل عقبى ذلك اللين
واحذر شرارة من أطفأت جمرته   فالثار غضّ وإن بقي إلى حين
إني تهيب بي البقيا وأتبعها   فكم أباقي بها من لا يباقيني
توقعوها فقد شبت بوارقها   بعارض كضريم الليل مدخون
إذا غدا الأفق الغربيّ مختمرًا   من الغبار فظنوا بي وظنوني

أو يصارحهم بالقطيعة فيقول:

قد يقدع المرء وإن كان ابن عم   ويقطع العضو الكريم للألم

أو يعلن اليأس من الناس جميعًا فيقول:

أكرّ طرفي فلا أرى أحدًا   إلا مغيظًا عليّ مضطغنًا
ينبض لي من لسانه أبدًا   نصال ذم تمزق الجننا

أيها السادة

تلكم صور نفسية تمر بخواطر الشعراء، ولها في الشعر القديم والحديث أمثال، ولكن الشريف تفرد بقصيدة يتيمة لم يقل مثلها أحد من القدماء والمحدثين، فكان أوحد الناس في الدعوة إلى استبقاء الصديق، إذ يقول:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه ... أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظاهرًا متبلجًا ... وأدمج دوني باطنًا أن متجهما
فأبدى كروض الحزن رقّت فروعه ... وأضمر كالليل الخداريّ مظلما[١٠٥]
ولو أنني كشفته عن ضميره ... أقمت على ما بيننا اليوم مأتما
فلا باسطًا بالسوء إن نالني يدًا ... ولا فاغرًا بالذم إن رابني فما
كعضو رمت فيه الليالي بقادح[١٠٦] ... ومن حمل العضو الأليم تألما
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه ... أقول عسى ضنًّا به ولعلما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ... ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكفّ مض تركها بعد دائها ... وإن قطعت شانت ذراعًا ومعصما
أراك على قلبي وإن كنت عاصيًا ... أعزّ من القلب المطيع وأكرما
حملتك حمل العين لجّ بها القذى ... فلا تنجلي يومًا ولا تبلغ العمى
دع المرء مطويًّا على ما ذممته ... ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته ... على مضض لم تبق لحمًا ولا دما
ومن لم يوطن للصغير من الأذى ... تعرض أن يلقى أجلّ وأعظما[١٠٧]

هوامش

(١) من البعد، وهو هنا الهلاك.
(٢) الإثمد بكسر الهمزة: هو الكحل.
(٣) العاب: لغة في العيب.
(٤) صفرت: خلت، والوطاب: الأوعية.
(٥) كالحة: عابسة.
(٦) طربى: جمع طربان وهو كالطروب.

(٧) ابنجس الماء: سال وتدفق.

(٨) الجمة بضم الجيم: معظم الماء، والربا: جمع ربوة، وهي المكان المرتفع.

(٩) غوارب الماء: أعالي موجه.

(١٠) الأسى بفتح الهمزة: الحزن، والأسا: جمع أسوة بضم الهمزة، وهي العزاء، ويقيل: ينزل ويحل.

(١١) العقيد والمعاقد: هو المعاهد، أي الذي يعهد الشيء ويلزمه، فيقال: عقيد الكرم، وعقيد العلا، أي الذي يلزم هذه الخلال.

(١٢) الضافي: الطويل، والقتير: الشيب.

(١٣) يدثر: يبلى.

(١٤) في بعض نسخ الديوان (القنا)، وفي بعضها (اللقا)، وقد آثرنا كلمة (النقا)، والزل بالضم المكان يزل فيه، يريد وعورة الطريق.

(١٥) الشعب بالفتح: معناه هنا الجمع.

(١٦) اللأواء: الشدة، والأزل: الضيق.

(١٧) النور بفتح النون: هو النوار بضمها، وهو الزهر أو الأبيض منه، والمخضل: المندى.

(١٨) في الديوان (مايسلو) وهو تحريف.

(١٩) الغرب: عرق في العين يسيل منه الدمع، والغرب أيضًا: الدلو العظيمة، وفي البيت جناس.

(٢٠) العين: هي الباصرة، وهي أيضًا الينبوع، والقلب: الفؤاد، وهو أيضًا اسم ماء، وبمراعاة الجناس يفهم البيت.

(٢١) من الجبب بالتحريك، وهو قطع السنام.

(٢٢) المزار الغب هو القريب.

(٢٣) الزور بفتح الزاي: الزائر.

(٢٤) يعسو: من قولهم: عسا النبات إذا يبس.

(٢٥) نزا القلب: وثب، والوجيب: الخفوق.

(٢٦) المراح بكسر الميم: هو النشاط والتبختر، والقليب: البئر، والمعنى: أنه يفرح حين يبشر بقرب صديقه، كما يفرح الركب الظامئ حين يبشر بقرب الماء بعد أن يطول ظمأه خمسة أيام، وهو خيال بدوي.

(٢٧) الندوب: جمع ندب بفتح النون وهو الجرح.

(٢٨) في الديوان (الشكوك) وهو تحريف، والشكول: الأمثال، قال المتنبي: ليالي بعد الظاعنين شكول ... وقد وردت صوابًا في الدالية التي رثى بها الصابي (فقدت ملاءمة الشكول بفقده).

(٢٩) في مثل هذا المعنى يقول التوحيدي: إذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة وإذا تصامتنا تناجينا بلسان الثثقة. انظر ص١٤٢ من الجزء الثاني من كتاب (النثر الفني).

(٣٠) الطراق بالكسر: التتابع.

(٣١) تجرم: تجني.

(٣٢) أجمعته: تركته يجم ويغزر، أصل العبارة في الماء، ثم نقلت إلى الود والمعروف.

(٣٣) قدي: حسبي، وكفى.

(٣٤) تهيض: تكسر وتجرح.

(٣٥) المقة بكسر الميم: الحب، وهي من ومق.

(٣٦) الإشفاق هنا هو الجبن.

(٣٧) ينيب: يعض بالأنياب.

(٣٨) يسترطونه: يبتلعونه، وسرطه كذلك، ويصل: ينتن، يقال: صل وأصل، والمعنى: إن لحمي طاب فأكلوه، وأنتنت لحومهم فبصقها الناس.

(٣٩) الأديم: الجلد، ولا يمزق إلا الجلد الصحيح.

(٤٠) في الديوان «قلت فيه»، والأصوب ما أثبتناه.

(٤١) زم الأنف وخطمه: ضرب عليه الزمام والخطام، يصف مصر بقوة البأس.

(٤٢) الخلة بضم الخاء: الصداقة المتينة.

(٤٣) البقيا: بمعنى الاستبقاء، وهو هنا صيانة النفس.

(٤٤) العرانين: جمع عرنين بالكسر وهو الأنف، أو ما هو صلب من عظمه، والعرانين هنا الأشراف، والذرى: جمع ذروة وهي أعلا الشيء، والغمر: من لم يجرب الأمور.

(٤٥) العوراء: الكلمة الفاحشة.

(٤٦) التاث الصديق: تغير رده.

(٤٧) الذود: جماعة الإبل، والدبر بالتحريك قرحة تصيب الدواب.

(٤٨) أشر هنا معناها: حقد.

(٤٩) الوجد هنا معناه: الحقد.

(٥٠) غرب: غاب.

(٥١) الإران: فورة النشاط.

(٥٢) الأنابيب: جمع أنبوب بضم الهمزة، وهو كعب الرمح، والثقاف: تسوية الرماح. والهناء على وزن كتاب هو القطران، وبه يداوي جرب الإبل.

(٥٣) النجيع: الدم المائل إلى السواد، أو هو دم الجوف.

(٥٤) الصعاد: جمع صعدة وهي الفتاة المستوية تنبت كذلك.

(٥٥) حصا القذاف — على وزن كتاب — ما يرمي بالمنجنيق. ويرامونني: حذفت إحدى النونين للتخفيف، وهذا كثير جدًّا في أشعار الشريف كأن يقول:

لو ينصفوني الهوى ما كان عندهم   يرد القلوب وعندي الشوق والأرق

وكأن يقول:

سيذكروني إن نبا جانب   من العدا وانحل عقد الزمان

(٥٦) الشغاف على وزن سحاب: غلاف القلب.

(٥٧) الاستياف والسوف: الشم.

(٥٨) الأشافي: جمع الإشفى بكسر الهمزة، وهو المثقب يخرز به.

(٥٩) الطراف — على وزن كتاب — بيت من أدم.

(٦٠) المراد بثالثة الأثافي: الداهية، وثالثة الأثافي هي في الأصل الجبل، وذلك أنهم كانوا إذا لم يجدوا ثالثة الأثافي أسندوا القدر إلى الجبل، والأثفية بالضم والكسر: الحجر توضع عليه القدر.

(٦١) أنهر الجرح: وسعه. وأنضاه: أهزله وأضناه.

(٦٢) النقض بالكسر: المهزول من السير.

(٦٣) ضحا: برز للشمس، والمفرق بفتح الراء وكسرها: وسط الرأس، وهو الذي يفرق منه الشر.

(٦٤) القوارص: الكلمات الجافية.

(٦٥) المولى: القريب. وروى القلب: كواه. والميسم: ما يكوى به.

(٦٦) يشذب: يقطع، والنحض: اللحم.

(٦٧) القبال: على وزن كتاب هو من النعل زمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها.

(٦٨) الدحض: قريب من معناه في الزلق.

(٦٩) دامجه هنا معناه: صالحه، والتشاور فك إدغامها للوزن، وهذا يقع كثيرًا جدًّا في شعر الشريف. وفي نسخة الديوان «التشاور» وهو تحريف.

(٧٠) الشفا حرف كل شيء. يريد الأرحام أصبحت على شفا الهاوية والمشفى المشرف على الهلاك، ويعلل: يعالج. ويقضي: يموت.

(٧١) المخيلات: جمع مخيلة وهي من أخيلت السماء إذا تهيأت للمطر، والمليحة من ألاح البرق إذا أومض.

(٧٢) الشجيجان: مثنى شجيج وهو المجروح. وفي الديوان «شحيحان» بحاءين مهملتين وهو تحريف.

(٧٣) يرم: يسكت.

(٧٤) هذا بيت القصيد.

(٧٥) الوشائج: جمع وشيجة وهي هنا رباط القرابة.

(٧٦) تحرج: تضيق. وفي الديوان «تخرج» بالخاء المعجمة وهو تحريف، والمناديح: المسالك.

(٧٧) الغامز: الذي يختبر العود، والوطب: سقاء اللبن وهو من جلد، والمخض: أخذ الزبد من اللبن.

(٧٨) الأخامص جمع الأخمص وهو من باطن القدم ما لا يصيب الأرض، والتعرق: أكل اللحم.

(٧٩) الرحض: الغسل.

(٨٠) النواقر: جمع ناقرة وهي الداهية، والمراد بها الحقد.

(٨١) قبل التي لا شوى لها: أي قبل الضربة القاضية.

(٨٢) النمير: الماء الصافي. الثمد: بسكون الميم ويحرك بقية الماء، والبرض: القليل.

(٨٣) اللمس الأكل واللحس ونتف الدابة الكلأ بمقدم فمها، والجميم: النبت الكثير، أو الناهض المنتشر، يوبي: يفسد. والحمض ما ملح وأمر من النبات، وهو للإبل كالفاكهة للإنسان.

(٨٤) يسدي: من السدى وهو ما مد من الثوب.

(٨٥) السيساء بالكسر: حارك الفرس وظهر الحمار. القرا: الظهر، والحقب بالتحريك: الحزام أو حبل يشد به الرحل، والغرض للرحل كالحزام للسرج.

(٨٦) تقوا: اتقوا، والرمض: شدة وقع الشمس على الرمل.

(٨٧) فوق النبل: رماه مسددًا.

(٨٨) الأعتاب: الترضية.

(٨٩) في الديوان «مستحسن» بالسين والحاء المهملتين وهو تحريف.

(٩٠) العدواء: بضم العين وفتح الدال: الشدة، وهي في الأصل الأرض الصلبة.

(٩١) استمرت: قويت، وفي الأصل «استترت» وهو تحريف، وقد تكلف شارح الطبعة البيروتية، والصواب ما أثبتناه.

(٩٢) الخلة بالفتح: الخصلة.

(٩٣) في الديوان: ولم لا يلاق القدح زندًا بمثله. وهو شطر محرف.

(٩٤) في الديوان «بالجلد» وهو تحريف.

(٩٥) الكلوم: جمع كلم بالفتح وهو الجرح.

(٩٦) الشاة: إبرة العقرب، وحدّ كل شيء.

(٩٧) العصب: ضرب من البرود.

(٩٨) الهديُّ على وزن غنيٍّ: العروس.

(٩٩) المولى: ابن العم.

(١٠٠) الجبائر: جمع جبيرة وهي العيدان التي تجبرها العظام.

(١٠١) الجوائف: جمع جائفة وهي طعنة تبلغ الجوف.

(١٠٢) يشابح: يقاتل.

(١٠٣) النكت: الضرب.

(١٠٤) الصرد: وقع النبال، وهو أيضًا مسمار في السنان يشك به الرمح.

(١٠٥) الخداري بالضم: المظلم.

(١٠٦) القادح: أكال يقع في الشجر والأسنان, والصدع في العود.

(١٠٧) في الطبعة الثانية من كتاب «الموازنة بين الشعراء» بيان للأصول التي أخذ منها الشريف الرضي هذا المعنى الجميل، فليرجع إليه القارئ إن شاء.

أسرار العلائق بين الرضي والصابي

أيها السادة

رأيتم في المحاضرة الماضية ألوانًا من تأثير الصداقة والعداوة في حياة الشريف الرضي، وشهدتم أنَّنا وقفنا وقفة قصيرة عند صلته بصديقه أبي الحسن البتي وخصومته مع أخيه الشريف المرتضى، وتذكرون أنه أشار إلى صديق اسمه ابن حمد، إذ قال في الحديث عمن اجتمعوا عنده في مجلس أنس:

أخي وابن عمي وابن حمد فإنه　　　تباريح قلبي خاليًا وغرامي

فلنقل اليوم إن ابن حمد هذا كانت له مكانة في أواخر القرن الرابع، وقد رافق الرضي في طريق الحج سنة ٣٩٤، وفيه يقول:

وكنت إذا ضاقت مناديح خطة　　　دعوت ابن حمد دعوة فأجابها
أخ لي إن أعيت عليَّ مطالبي　　　رمى لي أغراض المنى فأصابها
إذا استبهمت علياء لا يهتدى لها　　　قرعت به دون الأخلاء بابها
به خفّ عني ثقل فادحة النوى　　　وحبب عندي نأيها واغترابها
ثمانون من ليل التمام نجوبها　　　رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها

وهناك صديق آخر يسمى ابن ليلى كان له في نفس الرضي أثر بليغ، وسنعرض له في غير هذا الحديث.

والمهم في هذه الليلة أن نشرح أسرار العلائق بين الرضي والصابي فنقول:

كانت صلة الصابي بأسرة الشريف الرضي قديمة العهد، وكان الرضي وهو طفل يسمع أن في دنيا الأدب والسياسة رجلًا كريم الشمائل اسمه أبو إسحاق الصابي، وكان يسمع أنه من أصدقاء أبيه الأصفياء.

وما نعرف بالضبط متى ابتدأت صداقة الصابي لأبي أحمد الموسوي والد الشريف، ولكنا نستطيع أن نؤكد أن شواهدها القوية ظهرت سنة ٣٥٤ قبل أن يولد الشريف بأكثر من أربع سنين.

وتلك الشواهد القوية هي العواطف التي ظهرت في كتابة التقليد، وهو المنشور الذي كتبه الصابي عن الخليفة المطيع لله بتقليد أبي أحمد الموسوي نقابة الطالبيين.

وإليكم فقرات من ذلك المنشور لتعرفوا جوهر تلكم العواطف:

> أما بعد، فإن أمير المؤمنين لما يعرفه من تيقظك، وحزمك، وتحفظك يرى أن ينوط بك من سني الأعمال ما يستمتع فيه بكفايتك، ويستثمر معه المخيلة في دينك وأمانتك، ويفرع بك من أعلا المراتب ما يضاهي رأيه في أمثالك من أعيان دولته، وذوي التحقق بدعوته، والاعتصام بحبله؛ جريًا من أمير المؤمنين على شاكلته في الارتياد لمواقع معروفه، وتخير من يؤهله لتكريمه وتشريفه؛ حتى يلبس إنعامه من يستحق التفضل عليه، ويحمد منّته من بين أثر التوفيق في الإحسان إليه؛ ولذلك رأى أمير المؤمنين أن يقلدك النقابة على الطالبيين أجمعين، من كان في مدينة السلام، وفي غيرها من النواحي والأمصار ثقة بأنك تقع من النهوض بالأعباء بحيث تحقق ظن أمير المؤمنين فيك، وتظهر من الكفاية والغناء ما يكون لمزيدك من النعمة مقتضيًا، ولمضاعفة الإحسان إليك ممتريًا. واعلم أن أمير المؤمنين قد فضلك على أهل بيتك طرًا، ورفعك فوقهم جمعًا، فجعلك واحدهم بعد أن كنت واحدًا منهم، واختصك دونهم بعد مساواتك لهم، فسِرْ في تطبيقهم سيرته، واسلك في ترتيبهم طريقته، وأوصهم بحسن التأمل لآثار الجماعة، وكفّهم عما تنكر بالهيبة والطاعة، وإنما جعلك أمير المؤمنين أمينه فيهم، وعينه عليهم، لما ضن بهم عن الزلل، وصانهم عن الغيّ والخطل، واستهدِ الله أولًا وآخرًا يهدك، واستكفه باطنًا وظاهرًا يكفك، واستمد منه العون يمددك، واشكر نعمه يزدك.

هذه فقرات تخيرناها من التقليد الذي كتبه الصابي إلى أبي أحمد الموسوي عن الخليفة المطيع، ومن هذه الفقرات ترون روح الحب الذي كان يكنه الصابي للموسوي والد الشريف.

قد تقولون: هذا كلام أذيع باسم الخليفة، فهو يصور عواطف الخليفة لا عواطف الصابي.

ونجيب بأنه كان مفهومًا أن الكُتاب يسألون عما يكتبون؛ لأن الخلفاء والملوك والرؤساء لم يكونوا يملون الرسائل، وإنما كانوا يوصون بشرح الغرض، فكانت للكتاب فرص يعلنون بها ما يضمرون.

والتاريخ يحدثنا أن الخليفة المنصور حقد على ابن المقفع للأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي، فقد جاء فيه:

> ومتى غدر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته.

وكان يستطيع المنصور أن يفترض أن ابن المقفع لم يكتب غير ما أملى عليه، ولكنه كان يعرف أن الكُتاب يتصرفون فيما يعهد إليهم من ضروب الإنشاء، وكان جزاء ابن المقفع أن يقتل ويحرق ويذري رماده في الهواء.

والصابي نفسه أخذت عليه عبارة كتبها عن الخليفة الطائع في شأن بختيار وهي:

> وقد جدد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق، والمعالي السوامق، التي تلزم كل دان وقاص، وعام وخاص، أن يعرف له حق ما كرم به منها، ويتزحزح عن رتبة المماثلة فيها.

فقد غضب عضد الدولة من هذه الكلمة، وعدها تعريضًا به، فلما أمكنته الفرصة نكل بالصابي أشنع تنكيل.

ونحن في هذه الأيام نسمع الردَّ على خطاب العرش، فهل تظنون أن النواب يجادلون جلالة الملك؟ لا، وإنما يجادلون رئيس الوزراء؛ لأن المفهوم في عرف الحياة الدستورية أن خطاب العرش من وضع رئيس الوزراء، أو هو خطاب اشترك في تدوين أصوله جميع الوزراء.

كذلك كان يسأل الكتاب الذين ينشئون الرسائل بأسماء الخلفاء والملوك.

وإنما سقنا هذه الشواهد لنؤكد أن الثناء على أبي أحمد الموسوي في الخطاب الذي كتبه الصابي باسم الخليفة المطيع يدل على المودة المتينة التي كانت بين ذينك الرجلين، وهي مودة سمع بأخبارها الشريف وهو طفل، ثم جاءت الحوادث فزادتها توكيدًا إلى توكيد.

ولكن ما هي تلك الحوادث؟

حدثناكم من قبل عن الخصومة بين بختيار وعضد الدولة، وقلنا: إنها انتهت بانحدار بختيار، وسيطرة عضد الدولة على العراق.

فلنذكر أن عضد الدولة حين انتصر أخذ يصفي حسابه مع خصومه القدماء، فنظر فرأى الصابي، وكان شيخًا له بين الكتاب مكان مرموق، ففكر في أمره غير قليل، ثم هداه الرأي إلى استخدام الصابي في تأليف كتاب يسجل به مفاخر الدولة الديلمية، ويشرح ما قامت به من الحروب والفتوحات، ورآها الصابي فرصة يستلين بها عضد الدولة، وينجي بها رأسه من السيف، وأخذ في التأليف، ولكن بعض الأصدقاء دخل عليه وهو مشغول بالتسويد والتبييض، فسأله عما يعمل، فأجاب وقد خانه الحظ: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها!

ومضى ذلك الصديق الخؤون، فنقل العبارة إلى عضد الدولة، فثارت أحقاد ذلك الطاغية، وأمر بأن يلقى الصابي تحت أرجل الفيلة ليقتل أشنع قتل، ولكن لطف الله بالصابي شيخ الكتاب، فقد كان في حضرة عضد الدولة جماعة يرون له الأستاذية عليهم، منهم: نصر بن هارون، والمطهر بن عبد الله، وعبد العزيز بن يوسف، فأكبوا على الأرض يقبلونها بين يدي عضد الدولة، ويستشفعون إليه في أمره، ويتلطفون في استيهاب دمه، إلى أن أمر باستحيائه مع القبض عليه، واستئصال ما يملك من عقار وأموال.[١]

وهنا تذكرون أن عضد الدولة الذي نكب الصابي هو نفسه عضد الدولة الذي أودع أبا أحمد الموسوي غياهب الاعتقال.

فإن ذكرتم ذلك فهمتم، ولا ريب أن الاشتراك في مصدر النكبة سيدخل ألوانًا جديدة في نفس الطفل الذي اسمه الشريف الرضي، وفهمتم أن ذلك الطفل سيجعل نكبة الصابي بابًا من التلوم على عضد الدولة الذي يضطهد أقطاب الرجال.

اعتقل الصابي سنة ٣٦٧، ولكن عضد الدولة سيموت، وسيتولى ابنه صمصام الدولة، ويفرج عن الصابي في سنة ٣٧١، فليكن هذا التاريخ هو بداية الصلة الوثيقة بين أبي إسحاق الصابي والشريف الرضي، ولنعط الشعر فرصة يصور فيها ذلك الوداد.

أيها السادة

كان الصابي — كما تعلمون — من أعلام الكتاب، وقد بسطت القول عنه من هذه الناحية في الجزء الثاني من كتاب النثر الفني، وكان مع ذلك من أفراد الشعراء، وهو الذي يقول:

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى   بجارية أمسى بها القلب يلهج
إذا امتزجت أنفاسًا بالتزامنا   توهمت أن الروح بالروح تمزج
كأني وقد قبلتها بعد هجعة   ووجدي ما بين الجوانح يلعج[٢]
أضفت إلى النفس التي بين أضلعي   بأنفاسها نفسًا إلى الصدر تولج
فإن قيل لي: اختر أيما شئت منهما   فإني إلى النفس الجديدة أحوج

فيمكن القول بأن المودة بينه وبين الشريف نشأت من التوافق في المذاهب الأدبية، وذلك من أمتن الأسباب في الجمع بين قلوب الرجال، ولكن يظهر أن التوافق الأدبي لم يكن كل شيء، فقد كان الرجلان من جيلين مختلفين، والألفة الذوقية توجب تقارب السن في أغلب الأحوال، وكان هذان الرجلان متباعدين في السن حين جمع بينهما الصفاء، فقد كان الشريف في مطلع العقد الثاني من عمره، وكان الصابي في أواخر العقد الثامن، وشعر الصابي نفسه يشهد بأنه كان يعظم الشريف قبل أوان التعظيم، أي إنه كان يراه طفلًا لولا الفراسة التي توحي بأن سيكون هذا الطفل من عظماء الرجال، إذ يقول:

أبا حسن لي في الرجال فراسة   تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتني عنك أنك ماجد   سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه   وقلت: أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها   إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذكر بشارتي   وأوجب بها حقًا عليك محققا
وكن لي في الأولاد والأهل حافظًا   إذا ما اطمأن الجنب في موضع النقا

وهذه الأبيات تعطينا مفتاح السر لتلك العلائق، فما هي البشارة التي يسجلها الصابي ليستقضي «حلاوتها» في مستقبل الزمان؟

لننتظر قليلًا حتى نسمع جواب الشريف:

سننت لهذا الرمح غربًا مذلقا[٣] وأجريت في ذا الهندواني رونقا
وسوّمت ذا الطرف الجواد وإنما شرعت له مهجًا فخب وأعنقا[٤]
لئن برقت مني مخايل عارض لعينيك تقضي أن يجود ويغدقا[٥]
فليس بساق قبل ربعك مربعًا وليس براق قبل جودك مرتقى
وإن صدقت منه الليالي مخيلة تكن بجديد الماء أول من سقى
ويغدو لمن يروي جنابك مرويًّا زلالا وللأعداء دونك مصقعا
وإن تر ليثًا لائذًا لفريسة يراصد غرات المقادير مطرقا
فما ذاك إلا أن يوفر طعمها عليك إذا جلى عليك وحققا
وإن يرق يومًا في المعالي فإنه سما ليوقي وطء رجلك مزلقا
وإن يسع في الأمر العظيم فإنما سعى لك في ذاك الطريق مطرّقا[٦]
وإن يصب السهم الذي راش نصله فما كان إلا في هواك مفوّقا[٧]
وإن ينهض الغرس الذي هو غارس يكن لك مجنى في الخطوب ومعلقا
لتجنيه دون الناس ما كان مثمرًا وتلبس ظلًّا منه ما كان مورقا
فنم وادعًا واستسقني فستنتضي حسامًا إذا ما مرّ بالعظم طبقا

إلى أن يقول:

فإن راشني دهري أكن لك بازيا يسرّك محصورًا ويرضيك مطلقًا
أشاطرك العزّ الذي أستفيده بصفقة راض أن غنيت وأملقا
فتذهب بالشطر الذي كله غنى وأذهب بالشطر الذي كله شقا
وتأخذ منه ما أنام وما حلا وآخذ منه ما أمر وأرقا
فغيري إما طار غادر صحبه دوين المعالي واقعين وحلقا
فإن تسلف التبجيل قبل أوانه أعضك به وجهًا من الودّ مونقًا
وإن تعطني الإعظام قولًا فإنني سأعطيك فعلًا منه أذكى وأعبقا[٨]

ومن هنا نفهم — أيها السادة — سر العلائق بين ذينك الرجلين، نفهم أن الصابي كان يزين للشريف أن يطلب الخلافة الإسلامية، وهذا التزيين هو وحده كاف لأن يجعل

الصابي أعز الناس على الشريف، فقد كان الشريف في بداية شبابه، والشبان يحبون من يثق بكفايتهم الذاتية، ويرشحهم لجلائل الأعمال.

وهذه — أيها السادة — ظاهرة نفسية يدركها من يدرس نفوس الشبان، فهم يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد في يوم وليلة، ويبحثون عمن يزكيهم ويؤيدهم، ويدعي لهم التفوق، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى شيخًا جليلًا يتنبأ له بمستقبل جليل؛ فأحبه كل الحب، ومال إليه كل الميل.

والقصيدة التي سقناها من شعر الشريف تشهد بأنه انخدع كل الانخداع، فأخذ يتصور الأيام التي يقسم فيها الحظوظ والأرزاق، ويؤكد للصابي أنه سيجعله في مأمن من خطوب الزمان.

وقد ثارت الحمية في ذلك الغصن الأملود، واستكثر أن تعوقه غضاضة السن عما يريد، فاندفع يقول:

فإن قعدت بي السن يومًا فإنه ... سينهض بي مجدي إليها محققا
فو الله لا كذّبت ظنك أنه ... لعار إذا ما عاد ظنك مخفقا
فإن الذي ظن الظنون صوادقًا ... نظير الذي قوى الظنون وحققا

على أن الشريف لم يكن بالغافل إذ صدق فراسة الصابي، فهما أديبان، والأدباء قد يطمئن بعضهم إلى بعض، وكان الشريف يعرف أن الصابي له علاقات متينة بكثير من الرؤساء والوزراء، ولا سيما الصاحب ابن عباد، وكان مفهومًا في تلك العهود أن الخلافة العباسية على شفا الهاوية، وأن الأمر لملوك بني بويه، والاتفاق مع أولئك الملوك ليس بالأمر المستحيل.

وكذلك تطور الحب بين الشريف وبين الصابي، فبعد أن كان الشريف يميل إلى الصابي؛ لأنه من أصدقاء أبيه القدماء، ولأنه من خصوم عضد الدولة، ولأنه يعجب بشعره وهو طفل، أصبح يحبه صار من دعاته الأوفياء، ولأنه سيصير في المستقبل من صنائعه يوم يصبح أمير المؤمنين.

تلكم — أيها السادة — أسرار العلائق بين ذينك الرجلين، ولكنها إلى الآن علائق نفعية، فلننظر كيف تطورت مرة خامسة فأصبحت مودة وثيقة تساور لفائف القلوب.

أيها السادة

لا تسألوا عن الصابي الذي كان يشجع الشريف على مطامعه السياسية، فتلك شؤون كان الرجلان يروضانها في الخفاء، وقد مرت أعوام وأعوام وبغداد بين مدٍّ وجزر، وأرض العراق معسكرات يتداولها المحاربون بين يوم ويوم، فكان لا بدّ من التربص لتحقيق ذلك الأمل الخطير، وهو لن يحقق برسالة يكتبها الصابي، أو قصيدة ينظمها الشريف، وإنما يحقق يوم تتم السيطرة لرجل واحد من البويهيين يسهل معه الاتفاق، ولكن متى يأتي ذلك اليوم؟

إن انتظاره سيطول!

وفي انتظار اليوم الموعود يمضي الصديقان فيتساقيان كأس الوداد، والظاهر أن نفس الشريف كان طال عهدها بالنفرة من الناس، فما كاد يعرف الصابي حتى أقبل على محبته بقلب ملهوف.

ويظهر أيضًا أن نفس الصابي كانت ملّت الاتصال برجال السياسة الذين أزعجوا شبابه وكهولته بالتلون والتقلب، فما كاد يتصل بالشريف حتى رأى فيه نفسًا روحانية قد تستطيع تجديد نوره، وهو يجنح راغمًا إلى الغروب.

وهنا نذكر أن شيخوخة الصابي اعتمدت على دعامتين من أكرم دعائم العطف: الدعامة الأولى: هي مودة الصاحب ابن عباد، الرجل النبيل الذي ظلمناه بعض الظلم في كتاب النثر الفني، فقد كان ابن عباد يتلطف في برّ الصابي؛ فيرسل إليه الهدايا المستورة مع الحجاج، والدعامة الثانية: مودة الشريف الرضي، الفتى الفقير الذي يملك من صفاء الروح ما يؤنس الصابي فيرده إلى مرح الشباب.

ولكن حظّ الصديقين كان يختلف أشد الاختلاف، فكل شمس تطلع تمد الشريف بقبس من الفتوة، وكل شمس تغرب تذكر الصابي بما ينتظر من الأفول.

وسياق الحوادث يشهد بأن ذلك الشيخ الذاوي هو الذي كان يجب عليه أن يتكلف المشقة ليزور ذلك الفتى الفينان، وقد تكلف ذلك الشيخ ما تكلف إلى أن أعجزه المرض عن عبور دجلة، فكتب إلى صديقه الفتى يقول:

أقعدتنا زمانة وزمان[٩] جائر عن قضاء حقّ الشريف
ولئن ثقلا عن الخدمة الخط و لعن خاطر إليها خفيف

فاقتصرنا فيما نؤدي من الفر ض[10] على الكتب والرسول الحصيف
والفتى ذو الشباب يبسط في التقـ ـصير عذر الشيخ العليل الضعيف

وقد أجاب الشريف على هذه الأبيات بقصيدة طويلة ابتدأها بجيد النسيب إذ يقول:

كم ذميل إليكم ووجيف[11] وصدود عنا لكم وصدوف
وغرام بكم لو أن غرامًا جر نفعًا للواجد المشغوف

فلما وصل إلى خطاب الصابي تلطف، فأشار إلى أنه نصيره على الزمان، وشبه وجهه بالدينار، وكلامه بالنصول، ثم قال:

إن شكواك للزمان مبين لي عن[12] قدر عقله المضعوف
قدمت غيرك الجدود وأخر ت ولكن أناف غير منيف[13]
قصف الدهر فيك رمحًا من الكيـ ـد وحامي عن المعيب المؤوف[14]
إن حرمت الرزق الذي نال منه فدواء العييّ داء الحصيف
عمل فاضح وأجمل من بعـ ـض الولايات عطلة المصروف
فاصطبر للخطوب ربَّ اصطبار شق فجرًا من ليلهن المخوف
كم تحملتها بظهر من الصبـ ـر فخفت والعبء غير خفيف
لم تغب عن سواد عيني وإن غبـ ـت معنى نوائب وصروف
قرّ عينًا بطارقات الشكايا ما تجافت مطرقات الحتوف

ومن هذه الأبيات نفهم أن الصابي كان يشكو علتين: علة الشيخوخة، وعلة الفقر الديقوع.

ثم اشتدت العلة بالصابي فكان لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا وهو محمول، فكتب إلى رفيقه الفتى:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة[15] لها أرجل يسعى بها رجلان
وما كنت من فرسانها غير أنها وفّت لي لما خانت القدمان
نزلت إليها عن سراة حصان بحكم مشيبي أو فراش حصان[16]

فقد حملت مني ابن تسعين سالكًا سبيلًا عليها يسلك الثقلان
كما حمل المهد الصبيّ وقبلها ذعرت ليوث الغيل بالنزوان
ولي بعدها أخرى تسمى جنازة جنيبة يوم للمنية داني
تسير على أقدام أربعة إلى ديار البلى معدودهن ثمان
وإني على عيث[١٧] الردى في جوانبي وما كف من خطوي وبطش بناني
لأعلم أني ميت عاق دفنه ذماء قليل في غد هو فان[١٨]
وإن فمًا للأرض غرثان حائمًا[١٩] يراصد من أكلي حضور أوان
به شره عم الورى بفجائع تركن فلانًا ثاكلًا لفلان

وهي قصيدة مزعجة يضيق المقام عن سرد ما تشير إليه من الفجائع الإنسانية، والمهم أن نشير إلى أن الصابي كشف في هذه القصيدة عن نفسه؛ فرأيناه يرى الشريف الرضي هو الذخيرة التي يتركها لأبنائه يوم يموت، وهذا أجمل ما يمدح به صديقنا الشريف طيب الله ثراه.

وقد انزعج الرضي لهذه القصيدة الباكية، وأجابه بقصيدة طويلة نختار منها هذه الأبيات الحسان:

وما زل منك الرأي والحزم والحجا فناسي إذا ما زلت القدمان
ولو أن لي يومًا على الدهر إمرة وكانت لي العدوى على الحدثان
خلعت على عطفيك برد شبيبتي جوادًا بعمري واقتبال زماني
وحملت ثقل الشيب عنك مفارقي وإن فل من غربي وغض عناني
ونابت طويلًا عنك في كل عارض بخط وخطو أخمصي وبناني
على أنه ما انفل من كان دونه حميم يرامي عن يد ولسان
وإنك ما استرعيت مني سوى فتى ضموم على رعي الأمانة حان
حفيظ إذا ما ضيع المرء قومه وفيّ إذا ما خون العضدان
من الله أستهدي بقاءك أن ترى محلًا لأسباب العلا بمكان
وأسأله أن لا تزال مخلدًا بملقى سماع بيننا وعيان
إذا ما رعاك الله يومًا فقد قضى مآرب قلبي كلها ورعاني

ثم لزم الصابي منزله وهو راغم بحكم الضعف والوهن، فكان آخر ما قال من الشعر قصيدة أرسلها إلى الشريف قبل أن يموت باثني عشر يومًا، وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بالأبيات الآتية:

أقيك الردى ليس القلى عنك مقعدي ولكن دهاني بالزمانة ذا الزمن
وغادرني خلف المضاجع راهنًا على خلة في الحال والنفس والبدن
فإن تنأ منك الدار فالذكر ما نأى وإن بان مني الشخص فالفكر لم يبن
وإن طال عهد الالتقاء فدونه عهود عليها من رعايتنا جنن[٢٠]

وقد أجاب الشريف بقصيدة أطول وأمتع، نكتفي منها بالقطعة الآتية:

من مبلغ لي أبا إسحاق مالكة عن حنو قلب سليم السر والعلن[٢١]
جرى الوداد له مني وإن بعدت منا العلائق مجرى الماء في الغصن
لقد توامق قلبانا كأنهما تراضعا بدم الأحشاء لا اللبن
مسود قصب الأقلام نال بها نيل المحمر أطراف القنا اللدن
إن لم تكن تورد الأرماح موردها فما عدلت إلى الأقلام عن جبن
والطاعن الطعنة النجلاء عن جلد كالقائل القولة الغراء عن لسن[٢٢]
حار المجارون إذ جاروك في طلق وأجفلوا عن طريق السابق الأرن[٢٣]
ضلوا وراءك حتى قال قائلهم ماذا الضلال وذا يجري على السنن
ما قدر فضلك ما أصبحت ترزقه ليس الحظوظ على الأقدار والمهن
قد كنت قبلك من دهري على حنق فزاد ما بك من غيظي على الزمن
كم راشنا وبرانا غير مكترث بما نعالج بري القدح بالسفن[٢٤]
إن يدن قوم إلى داري فألقهم وتنأ عني فأنت الروح في البدن
فالمرء يسرح في الآفاق مضطربًا ونفسه أبدًا تهفو إلى وطن
والبعد عنك بلاني باستكانهم[٢٥] إن الغريب لمضطر إلى السكن
أنت الكرى مؤنسًا طرفي وبعضهم مثل القذى مانع عيني من الوسن[٢٦]
كم من قريب يرى أني كلفت به يمسي شجاي وتضحى دونه شجني
أشتاقكم ودواعي الشوق تنهضني إليكم وعوادي الدهر تقعدني

وأعرض الود أحيانًا فيؤنسني وأذكر البعد أطوارًا فيوحشني
هذا ودجلة ما بيني وبينكم وجانب العبر غير الجانب الخشن[٢٧]

وكانت هذه القصيدة آخر ما مر بسمع الصابي من الطيبات، فقد مات بعد قراءتها بأيام.

وقد رأيتم أن هذين الصديقين كانا يتقارضان الشكاية، فإن تجمل الصابي شكا عنه الشريف، وإن شكا الصابي واساه الشريف، وما ندري كيف استطاع الشريف أن يسكت على قول الصابي في وصف الزمان.

وغادرني خلف المضاجع راهنًا على خلة في الحال والنفس والبدن

ولكني أرجوكم أن تتذكروا أن الرضي كان فقيرًا، وأن أملاك أبيه ظلت محجوبة عنه إلى ذلك الحين.

لم يبق — أيها السادة — إلا أن نحدثكم عما صنع الشريف بعد موت الصابي، وكل أديب يعرف أن الشريف رثى الصابي بقصيدة جيدة بلغت اثنين وثمانين بيتًا، وكل الذين ترجموا للصابي أو الرضي تحدثوا عن تلك المرثية الهائلة، وكان وجه الغرابة أن يبكي شاعر من عترة الرسول رجلًا من الصابئين، وقد فصلت ذلك في كتاب النثر الفني فلا أعود إليه الآن، ولكن الذي يجهله أكثر الأدباء أن الشريف لم يَرْثِ الصابي مرة واحدة، فقد ظل يتفجع عليه إلى آخر حياته، ورثاه بعد أن طال العهد بموته بقصيدتين هما آيتان من آيات الوفاء.

وأعيذكم أن تجهلوا هذا الجانب من نفس الشريف، فالشعراء في الأغلب يرثون أصدقاءهم يوم الموت، ثم يتناسونهم فينسونهم بعد حين، والوفاء في الدنيا قليل.

وتذكروا أن الصابي لم تكن له عصبية حتى نتهم الشريف بأنه يبحث عن أنصار وأشياع، هيهات، فقد كان الصابئون أقلية لا يحسب لها حساب، وكان محرمًا عليهم أن يتساموا إلى مراتب الوزراء.

ونحن في الواقع نثق ثقة مطلقة بأمانة الشريف، ولكن البحث النفسي يوجب أن نعرض هذا الجانب، والمؤرخون لذلك العهد نظروا إلى مرثية الشريف نظرة استغراب، وهذا يؤكد أن الشريف لم يرع في مرثيته غير معاني الوداد.

ويزيد في قيمة تلك المرثية أن الصابي لم يمت إلا وهو في فقر مدقع، ولم ير الموت إلا بعد أن تقطعت عنه أسباب المجد، وأقبلت الدنيا على خصومه الألداء.

فالشريف في رثاء الصابي رجل مفرد بين الرجال، وموقفه أقوى من موقف البحتري في رثاء المتوكل؛ لأن البحتري شهد فاجعة أليمة تنطق الجماد، أما الصابي فيرثي صديقًا عديم الحول، وقد بلغ أرذل العمر، ولم يمت إلا في الحادية والتسعين، وهو على دين «منبوذ» تنكره الدولة، وينكره الناس.

وقد تقولون: إن الشريف لم يكن يملك غير ذلك، وقد عرف الناس ما بينه وبين الصابي.

ونعترف بأن هذا النوع من الوفاء هو لون من الأثرة الذاتية، ولكن هذه الأثرة في ذاتها جوهر نبيل، وشرف البواعث مما تنصب له الموازين.

وكيف يتهم في صدقه من يقول:

أرأيت من حملوا على الأعواد	أرأيت كيف خبا ضياء النادي
جبل هوى لو خر في البحر أغتدي	من وقعه متتابع الأزباد
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى	أن الثرى يعلو على الأطواد
بعدًا ليومك في الزمان فإنه	أقذى العيون وفتّ في الأعضاد
لا ينفد الدمع الذي يبكي به	إن القلوب له من الأمداد
كيف انمحى ذاك الجناب وعطلت	تلك الفجاج وضلّ ذاك الهادي
طاحت بتلك المكرمات طوائح	وعدت على ذاك الجواد عوادي[28]
قالوا أطاع وقيد في شطن الردى[29]	أيدي المنون ملكت أي قياد
من مصعب لو لم يقده إلهه[30]	بقضائه ما كان بالمنقاد
... ...	... ...
أعزز عليّ بأن يفارق ناظري	لمعان ذاك الكوكب الوقاد
أعزز عليّ بأن أراك بمنزل	متشابه الأمجاد والأوغاد
... ...	... ...
عمري لقد أغمدت منك مهندًا	في الترب كان ممزق الأغماد
قد كنت أهوى أن أشاطرك الردى	لكن أراد الله غير مرادي
ولقد كبا طرف الرقاد بناظري	أسفًا عليك فلا لعًا لرقاد[31]
ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيًا	أني ومثلك معوز الميلاد
إن الدموع عليك غير بخيلة	والقلب بالسلوان غير جواد

سودت ما بين الفضاء وناظري   وغسلت من عيني كل سواد

ري الخدود من المدامع شاهد   أن القلوب من الغليل صواد

ما كنت أخشى أن تضن بلفظة   لتقوم بعدك لي مقام الزاد

ماذا الذي منع الفنيق هديره[٣٢]   من بعد صولته على الأذواد[٣٣]

ماذا الذي حبس الجواد عن المدى   من بعد سبقته إلى الآماد

ماذا الذي فجع الهمام بوثبة   وعدا على دمه وكان العادي

لقضى لسانك مذ ذوت ثمراته   أن لا دوام لنضرة الأعواد[٣٤]

بقيت أعيجاز يضل تبيعها   ومضت هواد للرجال هواد[٣٥]

يا ليت أني ما اقتنيتك صاحبًا   كم قنية جلبت أسى لفؤادي

برد القلوب لمن تحب بقاءه   مما يجرّ حرارة الأكباد

ويقول من لم يدر كنهك أنهم   نقصوا به عددًا من الأعداد

هيهات أدرج بين برديك الردى   رجل الرجال وأوحد الآحاد

لا تطلبي يا نفس خلًّا بعده   فلمثله أعيا على المرتاد[٣٦]

فقدت ملاءمة الشكوك بفقده   وبقيت بين تباين الأضداد

ما مطعم الدنيا بحلو بعده   أبدًا ولا ماء الحيا ببراد[٣٧]

الفضل ناسب بيننا إن لم يكن   شرفي مناسبه ولا ميلادي[٣٨]

إن لم تكن من أسرتي وعشيرتي   فلأنت أعلقهم يدًا بودادي

إن لم يكن وافي الأصول فقد وفى   شرف الجدود بسؤدد الأجداد[٣٩]

لا در دري إن مطلتك ذمة   في باطن متغيب أو باد

إن الوفاء كما اقترحت فلو تكن   حيًّا إذن ما كنت بالمزداد

ليس التنافث بيننا بمعاود   أبدًا وليس زماننا بمعاد[٤٠]

ضاقت عليّ الأرض بعدك كلها   وتركت أضيقها عليّ بلادي

لك في الحشا قبر وإن لم تأوه   ومن الدموع روائح وغواد

سلوا من الأبرار جسمك وانثنى   جسمي يسلّ عليك في الأبراد

فاذهب كما ذهب الربيع وأثره   باق بكل خمائل ونجاد

لا تبعدنّ وأين قربك بعدها   إن المنايا غاية الأبعاد

صفح الثرى عن حر وجهك أنه   مغرى بطي محاسن الأمجاد

وتماسكت تلك البنان فطالما   عبث البلى بأنامل الأجواد

وسقاك فضلك أنه أروى حيا ... من رائح متعرس أو غاد[41]
جدث على أن لا نبات بأرضه ... وقفت عليه مطالب الرواد

وقد اجتاز الشريف على قبر الصابي بعد موته بأعوام، فهاجته الذكرى فقال:

أيعلم قبر بالجنينة أننا ... أقمنا به ننعي الندى والمعاليا[42]
مررنا به فاستشرفتنا رسومه ... كما استشرف الروض الظباء الجوازيا
وما لاح ذاك الترب حتى تحلبت ... من الدمع أوشال ملأن الأماقيا[43]
نزلنا إليه عن ظهور جيادنا ... نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا
ولما تجاهشنا البكاء ولم نطق ... عن الوجد إقلاعًا عذرنا البواكيا
أقول لركب رائحين تعرّجوا ... أريكم به فرعًا من المجد ذاويا
ألموا عليه عاقرين فإننا ... إذا لم نجد عقرًا عقرنا القوافيا
ولو أنصفوا شقوا عليه ضمائرًا ... وجزوا رقابًا بالظبا لا نواصيا
وقفنا فأرخصنا الدموع وربما ... تكون على سوم الغرام غواليا
ألا أيها القبر الذي ضم لحده ... قضيبًا على هام النوائب ماضيا[44]
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا ... هلالًا على ضوء المطالع باقيا
وتلك البنان المورقات من الندى ... نواضب ماء أم بواق كما هيا
وما كنت آبى طول لبث بقبره ... لو أني إذا استعديته كان عاديا[45]
... ...
خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه ... وأصبح تعروه النوائب واديا
أراحت علينا ثلة الوجد ترتعي ... ضمائرنا أيامها واللياليا[46]
رضيت بحكم الدهر فيك ضرورة ... ومن ذا الذي يغدو بما ساء راضيا
وطاوعت من رام انتزاعك من يدي ... ولو أجد الأعوان أصبحت عاصيا
وطامنت كيما يعبر الخطب جانبي ... فألقى على ظهري وجرّ زماميا
رثيتك كي أسلوك فازددت لوعة ... لأن المراثي لا تسدّ المرازيا
وأعلم أن ليس البكاء بنافع ... عليك ولكني أمني الأمانيا

وفي سنة ٣٩٣ أي بعد موت الصابي بنحو تسع سنين مر الشريف على قبره فقال:

لولا يذم الركب عندك موقفي حييت قبرك يا أبا إسحاق
كيف اشتياقك مذ نأيت إلى أخ قلق الضمير إليك بالأشواق
هل تذكر الزمن الأنيق وعيشنا يحلو على متأمل ومذاق
وليالي الصبوات وهي قصائر خطف الوميض بعارض مبراق
لا بدّ للقرناء[٤٧] أن يتزايلوا يومًا بغدر قلي وعذر فراق
أمضي وتعطفني إليك نوازع بتنفس كتنفس العشاق
وأذود عن عيني الدموع ولو خلت لجرت عليك بوابل غيداق[٤٨]
ولو أن في طرفي قذاة من ثرى وأراك ما قذيتها من ماقي[٤٩]
إن تمض فالمجد المرجب خالد[٥٠] أو تفن فالكلم العظام بواقي

إلى آخر القصيدة.

وكنت أشرت في كتاب النثر الفني إلى أن رسائل الصابي لا تصلح لغير أهل عصره؛ فهي غير خليقة بالبقاء. وفاتني أن أقول: إن الشريف كتب اسم الصابي على جبهة الزمان بأصباغ لا تجففها شمس، ولا يمحوها هواء.

هوامش

(١) راجع يتيمة الدهر ج٢ ص٢٧.

(٢) يلعج: يتوقد، ومنه لاعج الحب، ولواعج الشوق.

(٣) الغرب: الحد، والمذلق: المحدد.

(٤) الطرف بالكسر: الحصان، والخبب والعنق: من أنواع السير السريع.

(٥) العارض: السحاب.

(٦) المطرق: ممهد الطريق.

(٧) مفوق: مسدد.

(٨) في هذه القصيدة كثير من القعقعة، ولكن عذر الشريف أنه قالها في بداية حياته الشعرية.

(٩) الزمانة: المرض المزمن.

(١٠) في الديوان «العرض» بالعين المهملة، وهو تحريف.

(١١) الذميل والوجيف: من ضروب السير.

(١٢) في الديوان «على».

(١٣) أناف: رفع.

(١٤) المؤوف: الذي لحقته آفة.

(١٥) المحفة بالكسر: مركب كالهودج إلا أنها لا تقبب.

(١٦) الحصان بالكسر: الجواد، وبالفتح: المرأة العفيفة، والسراة: الظهر.

(١٧) في اليتيمة «غيث» بالغين المعجمة، وهو تحريف.

(١٨) الذماء بالفتح: بقية النفس.

(١٩) غرثان: جائع.

(٢٠) جمع جنة بالضم، وهي الوقاية.

(٢١) الحنو بالكسر والفتح: كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الحجاج والضلع.

(٢٢) يريد أن المجاهد بالقلم واللسان كالمجاهد بالرمح والسيف.

(٢٣) الأرن: الجموح.

(٢٤) القدح بالكسر: السهم قبل أن يراش وينصل، والسفن بالتحريك: كل ما ينحت به الشيء.

(٢٥) الاستكان: افتعال من السكن.

(٢٦) الوسن: النوم.

(٢٧) العبر بالكسر وبفتح: الشاطئ.

(٢٨) في الديوان (أعادي) وما أثبتناه أنسب.

(٢٩) الشطن بالتحريك: الحبل الطويل.

(٣٠) المصعب: الفحل.

(٣١) لا لعًا له: عبارة قديمة تفيد الذم.

(٣٢) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب.

(٣٣) جمع ذود وهي جماعة الإبل، وهي كلمة تكثر في أشعار الشريف لكثرة ما يصطنع من الأخيلة البدوية.

(٣٤) اللام في كلمة «لقضى» مفتوحة، وهي لتوكيد المعنى.

(٣٥) أعيجاز مصغير أعجاز، وجمع القلة يصغر على لفظه، والتبيع: التابع، والهوادي: جمع الهادي وهو العنق، وفي البيت جناس.

(٣٦) اللام في كلمة «فلمثله» تنطق بالفتح، وهي أيضًا لتوكيد المعنى.

(٣٧) الحيا: المطر، والبراد: البارد.

(٣٨) هذا المعنى ورد في أشعار كثيرة قبل الرضي، وقد حللناه في كتاب النثر الفني ج٢ ص١٧ و١٨.

(٣٩) الجدود: الحظوظ المكسوبة، يريد أنه عصامي بنى مجده بيديه.

(٤٠) التنافث: التناجي.

(٤١) المتعرس: الذي ينزل بالليل.

(٤٢) الجنينة: مقبرة كانت في بغداد.

(٤٣) الأوشال: جمع وشل بالتحريك، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة.

(٤٤) القضيب هنا: السيف.

(٤٥) استعديته: استنصرته.

(٤٦) الثلة بالضم: الجماعة الكثيرة من الغنم، وفي البيت تخييل.

(٤٧) في الديوان «القرباء» بالباء، وهو تحريف.

(٤٨) غيداق: كثير الانسكاب.

(٤٩) هذا بيت نفيس، ومعناه: أن القذى لو دخل عينه وكان ترابًا من قبر الصابي لما رضي أن يخرج ذلك القذى من عينة.

(٥٠) المرجب: المعظم.

غرائب الوفاء عند الشريف الرضي

أيها السادة

أشرنا قبلًا إلى رجل من أصدقاء الشريف يقال له ابن ليلى، وهو رجل لم تتحدث عنه كتب التاريخ، وإنما نعرف أن اسمه عمرو؛ لقول الشريف وهو يرثيه:

وأين كفارس الفرسان عمرو إذا رزء من الحدثان فاجا

ونعرف أن كنيته أبو العوام من قول الشريف:

أين أبو العوّام للعواصي يروضها والخيل والدلاص[1]

والمفهوم أن ابن ليلى كان رجلًا عربيًّا من سادة البوادي، والمظنون أنه كان داعية للشريف، وتشهد أشعار الرضي أن بني تميم هم الذين قتلوا ذلك الصديق.

تلك هي ترجمة ابن ليلى، فهل كان يستحق أن يبكيه الشريف بأربع قصائد، وأن يجعله في قصيدة خامسة مثلًا أعلى لأشراف الرجال.

أن ابن ليلى رجل صغير القدر عند من تستهويهم عنعنات التواريخ، فلو كان لهذا الرجل شأن لأفاض في أخباره المؤرخون، ولكنا نرى أن ابن ليلى رجلًا عظيمًا جدًّا؛ لأنه ذكر بالحمد والثناء في أثر أعظم من كتب التواريخ وهو ديوان الشريف.

والحقّ أن شخصية ابن ليلى تعطينا صورة من صور الرضي، أو هي تدلنا على بعض مذاهبه في الحياة، ومن الواجب أن ننص بصراحة على صفة أساسية من صفات الشريف هي الفروسية، فقد كان الشريف الرضي فارسًا، وكان أبوه فارسًا، وكان أقطاب

أسرته من الفرسان، وأبطال الفروسية لهم شمائل تقترب من شمائل الأعراب، فليس من المستغرب أن يكون للشريف صديق بدوي يحبه أصدق الحب، ويبكيه حين يموت بالقصائد الباقيات.

أضيفوا إلى هذا أن الشريف كان ورث عن أبيه صداقات كثيرة، صداقات بدوية أسسها في غدوه ورواحه بين العراق والحجاز، وكان الشريف وأبوه قد عرفا أقطاب البوادي، وشياطين الصحراء، وهما يحجان، وقد حجا مرات كثيرة بفضل المنصب الموروث، منصب إمارة الحج، ومن هنا جاز أن يقال أن ابن ليلى كان داعية الشريف، فليس من المستبعد أن يكون الشريف فكر في تكوين عصبية عربية يناهض بها خلافة بني العباس حين تسمح الظروف، وكان ابن ليلى من الذين اصطفاهم لتحقيق ذلك الغرض المرموق، ولكن ستظل هذه القضية ظنونًا في ظنون إلى أن يظهر ما يحققها من شواهد التاريخ.

والمهم أن نقرر أن الشريف تفجع على ابن ليلى أعظم تفجع، وشهدت أشعاره بأنه كان يرى ذلك الرجل من كرام الأصفياء، والواقع أن البوادي فيها كنوز من الشهامة، والفتوة، والمروءة، وهي عالم مجهول، ولكنه موجود، وكان من حظّ الشريف أن يعرف ما في ذلك العالم من شمائل وخصال.

لا نعرف بالضبط متى مات ابن ليلى، ولكن الأرجح عندنا أن أقدم قصائد الشريف في رثائه هي القصيدة التي نظمها في مطلع سنة ٣٩٣، والظاهر أن ابن ليلى قتل في ذلك الحين، فإن الشريف يقول:

تعيف[٢] الطير فأنبأنه	أن ابن ليلى علقته علوق[٣]
وأن سجلًا من دم آمن	أفرغه الطعن بوادي العتيق

وهي قصيدة بدوية النسج تشهد بأن الشريف أراد أن يلائم بين سمات المبكي، وبين سمات الأسلوب، وفيها يقول:

بعدًا لأرماح تميم لقد	هددن عاديّ بناء عتيق
قرعن في أصل كريم الثرى	وجلن في فرع عزيز العروق
حدوا له من حيث لا يتقي	عيرًا من الطعن ملاء الوسوق[٤]
ما كان بالراجع عن نهجه	لو وقف السيف له في المضيق

وفيها توجع الشريف أعنف توجع إذا يقول:

كان هوى للنفس لو أنني   في حلق القدو أنت الطليق[٥]
ما كنت بالهائب طرق الردى   ما سلم العضب وأنت الرفيق[٦]
ما أنا باللاقي بذات النقا   خيل وغى مشعلة بالعنيق[٧]
ماطلها الماء فلما سلت   عن الروي ماطلها بالعليق
ولّى ابن ليلى عارضًا رمحه   يحدو بخفان جمالًا ونوق[٨]
يأبى إذا الضيم غدا مضغة   سلسالة سائغة في الحلوق
يروح من يرجو له غرة   قد خضخض السجل بجال عميق[٩]
استبدل الحي بعقبانه[١٠]   أغربة بعدك حمق العنيق
خاطرت الشول بأذنابها[١١]   لما انطوى قرقار ذاك الفنيق[١٢]
ما الحيُّ بالضاحك عن مثله   ولا وجوه الحي مذ غاب روق[١٣]
لا أغفلت قبرك حنانة[١٤]   خرقاء بالقطر صناع البروق
ولا أغب الأرض تمسي بها   ظل صفيق ونسيم رقيق

وهناك قصيدة أخرى سلكت هذا المسلك الوعر، أرق ما فيها قوله:

يا قبر بين القور والدعاص[١٥]   ضمَّ على لؤلؤة الغواص
قاد ابن ليلى قائد المعتاص   كان سياغي فغدا اغتصاصي
ما أثقل اليأس على الحراص   هل لجروح الدهر من قصاص
قد ينزل العالي من الصياصي[١٦]   وقد يطيع الرأس وهو عاصي

ولكن الشريف سيترك هذه الوعورة، ويبكي ابن ليلى بالشعر السمح كأن يقول:

أداري المقلتين عن ابن ليلى   ويأبى دمعها إلا لجاجا
لها ثبط على الأيام باق[١٧]   تجيش به معينًا أو أجاجا
كأن بها ركية[١٨] مستميح[١٩]   يخضخضها بكورًا وأدلاجا
أذود النفس عنه وذاك منها   عنان ما ملكت له معاجا
كأن العين بعد اليوم جرح   إذا طبوا له غلب العلاجا

تجم على القذى وتفيض دمعًا مطال الداء وادع ثم هاجا
وأين كفارس الفرسان عمرو إذا رزء من الحدثان فاجا
بحق كان أولهم ولوجًا على هول وآخرهم خراجا
إذا رسبت حصاة القلب منه طفا قلب الجبان به انزعاجا

وهو يحدثنا أن ذلك الرجل كانت إليه قيادة العرب إذ يقول:

فمن يزع العريب[٢٠] إذا تناغت ويضرب بين غاربها سياجا
ويذكرها الحلوم على تناس وقد بلغت حفائظها الهياجا
يحاججها[٢١] عن الأرحام حتى يقر القوم أن له الحجاجا

ثم يختم القصيدة بأقباس الالتياع فيقول:

أقاض حق قبرك ذو غرام أعاج الركب عن طرب وعاجا
يريق عليك ماء القلب صرفًا وماء العين يجعله مزاجا
ولو بلغ المُنى إنسان عيني خلا منها وأسكنك الحجاجا[٢٢]

وما زال الشريف يبدئ ويعيد في التفجع على ابن ليلى حتى ذهب الحزن به كل مذهب، فخلد ذكره بقصيدة قليلة الأمثال، إذ يقول:

لعمر الطير يوم ثوى ابن ليلى لقد عكفت على لحم كريم
وإن قنا العدا ليردن منه دمًا لم يجر في عرق لئيم
كأن الرمح يصدر منه عدوًا عن الأجمي ذي اللبد الكليم[٢٣]
وأقسم إن ثوبك يا ابن ليلى لمجموع على عرض سليم
رزئتك كالوذيلة لم تمتع بها بعد الوجود يد العديم[٢٤]
تنام وتترك الأضغان يقظى خماشات الذوابل في تميم[٢٥]
إذا نزعوا الملابس أذكرتهم ذحول يديه آثار الكلوم
ومن مطل الديون أعد صبرًا على عنت المطالب والغريم
تداعت لي بمصرعه الليالي وأوعبت النوائب في أديمي

وتقترع القوارع في جناني ... قراع النبل في الغرض الرجيم[٢٦]
أأجزع أن حطمن حجاز أنفي ... وهن يقصن أعناق القروم[٢٧]
وما لي لا أراع وقد رمتني ... يد الجلى بقارعة التميمي
أحنُّ إليه واللقيا ضمار[٢٨] ... حنين العود للوطن القديم[٢٩]
وأنشده وأعلم أين أمسي ... مطالا للبلابل والهموم
كأدماء القرا نشدت طلاها[٣٠] ... وما وجدان جازية بغوم[٣١]
تطيع اليأس ثم تعود وجدًا ... إليه بالمقصة والشميم[٣٢]
يعارضني بذكرك كل شيء ... عداد الداء غبّ على السليم[٣٣]
أجدك هل ترى بعد ابن ليلى ... طعانًا بين رامة والغميم
أأرجو للحواضن كابن ليلى؟ ... أحلت إذن على بطن عقيم

وكان الشريف يذكر ابن ليلى كلما ضجر في أسفاره، فكأنه كان يراه ملك البيداء.

أيها السادة

ليس الذي يهمني في هذا المقام هو النص على وفاء الشريف، وإنما الذي يهمني هو تعليل ذلك الوفاء، فالشاعرية التي كانت تتفجر في صدر الشريف هي التي جعلت الدنيا أمام عينيه منادح للأطراب والأشجان، فإذا كان من الشعراء من يتكلف أسباب الحنين فيتفجع لغروب الشمس، أو يتوجع لسقوط الأوراق في الخريف، فإن الرضي يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب، ولا تغيض.

والحزن أيها السادة طيف أسود، ولكنه محبوب، والشعراء هم الذين جعلوا وصف الحزن من الشرائع الإنسانية، والحزن لا يكون دائمًا صفة سلبية كما يتوهم بعض الناس، فهو حين يسمو يكون دليلًا على عافية القلب، وسلامة الروح، ولا يحزن حق الحزن إلا الأصحاء.

إن الحزن العنيف هو الشاهد على قوة شعورنا بما نفقد، وهو الدليل على أننا نحاول العظائم، فنطلب الخلود لكل ما تصطفي أرواحنا في عالم المحسوس والمعقول.

وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة، ثم يلوذ بالصمت، لا، وإنما كان يصل أحبابه بالذكرى والحنين؛ فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس، فطريق الحج على طوله في تلك العهود كان يمثل للشريف أممًا كثيرة من عوالم الأحياء والأموات، ولعل ظهور

الخيل لم تعرف فتى أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء، والفرح والترح يفيضان من ينبوع واحد، لو تعلمون.

ومن عجائب ما وقفت عليه أن الناس كانوا يسألون الشريف أن يبكي موتاهم فيجيب، والشجي يبعث الشجي، والدنيا عند الحزين كلها قبر مالك.[٣٤]

أليس من العجيب أن يسأل الشريف بكاء ميت لا يعنيه فيقول:

ألا مخبر فيما يقول جلية يزيل بها الشك المريب يقين
أسائله عن غائب كيف حاله ومن نزل الغبراء كيف يكون
وما كنت أخشى من زماني أنني أرق على ضرائه وألين
إلى أن رماني بالتي لا شوى لها فأعقب من بعد الرنين أنين
وإن أحق المجهشين بعترة[٣٥] ووجد قرين بان عنه قرين
وما تنفع المرء الشمال وحيدة إذا فارقتها بالمنون يمين
تجرم عام لم أنل منك نظرة وحان ولم يقدر لقاؤك حين[٣٦]
أمر بقبر قد طواك جديده فأبلس حتى ما أكاد أبين[٣٧]
وتنفضُّ بالوجد الأليم أضالع وترفضُّ بالدمع الغزير شؤون

ومعاذ الأدب أن يكون الشريف في هذه القصيدة كالنائحة المستأجَرة، وهل كانت النائحة المستأجرة تعني حقًّا من دعيت للبكاء عليه؟ إنها تبكي ودائعها في التراب، فهي نائحة ثكلى مفطورة الفؤاد.

ويظهر جانب المروءة من وفاء الشريف حين نتذكر بعض المواقف التي تجلَّت فيها شجاعته، فقد اتفق لرجل من عظماء بغداد أن يتألب الجمهور عليه لبعض الأسباب، وكان لذلك الرجل كثير من الأصدقاء والأشياع، فلما مات خاف أصدقاؤه وأشياعه عواقب التفجع عليه، فلم يمشِ في جنازته غير ثلاثة منهم الشريف، وفي هذا الحادث البشع يقول:

لعمري لقد ماطلت لو دفع الردى مطال وقد عاتبت لو سمع الدهر
أفي كل يوم أنت غادٍ مشيع حبيبًا إلى دار يقال لها القبر
لئن كان لي في كل ما أنا تارك وراء الثرى أجر لقد عظم الأجر

سقيت أبا بكر على البعد والنوى ... ولا بل هام الشامتين بك القطر
أخي ما أقل التابعيك إلى الثرى ... وإخوانك الأدنون من قبلها كثر
لقد كانت النكراء منك خليقة ... ولا عرف حتى يتقي قبله النكر
ألا إنما الماضون منا هم الألى ... أراحوا وحطوا والبواقي هم السفر
تتبعه أبصارنا وهو ذاهب ... كما مال قرن الشمس أو وجب البدر[٣٨]
عليك سلام الله فات بك الردى ... ولم يبق عين للقاء ولا أثر

ومن هذا الباب جزع الشريف على أصدقاء لم ترفعهم مواهبهم، ولا مقاماتهم لمرتبة النص على أسمائهم في الديوان، وهم ناس كانوا في صدر الشريف معارف، وكانوا في زمانهم نكرات، وهؤلاء الأصدقاء المجهولون لا يعرف أقدارهم غير الشعراء، وهل من العدل أن يغلق باب الصداقة فلا يفتح إلا لمن ظفروا بالشهرة وبعد الصيت؟ أليس من حق الشاعر أن يقول: إن أخلص من ودعوني يوم الفراق هو كلبي؟!

وما هذه الغطرسة التي نعتصم بها فلا نهب معاني المودة لغير المشهورين؟ وهل كان المشهورون أصدق من نعرف حتى نقف عليهم لواعج الشوق والحنين؟

كم رجل حرمته الطبيعة أسباب التفوق في الميادين المعاشية والأدبية والسياسية، ثم وهبته قلبًا يشعر، ولسانًا لا يبين!

كم رجل خامل الذكر صغير الشأن يقبل عليك بنفس تواقة، وقلب حنان!

كم امرأة أمية لا تعرف غير شؤون البيت، ثم تمد زوجها بأرواح من القوة والفتوة لا تقدر على مثلها المتخرجات في السوربون!

إن الصداقة لها منابع غير منابع العرفان، والرجل العالم لا يصادق إلا حين يرجع إلى الفطرة الأولى، فطرة الإنسان الحساس.

فلا تلوموا الشريف إن رأيتموه يرثي ناسًا لم يسمح مقامه الاجتماعي بذكر أسمائهم في الديوان، فتلك وثبة فطرية لا تصدر إلا عن كرام الرجال.

وإن وقفات كهذه لأشرف من وقفاته وهو يرثي رجلًا من بني أمية، أو رجلًا من بني العباس؛ لأن في بكاء العادلين من الخصوم لونًا من الأثرة، وحب الإعلان، أما بكاء المغمورين المجهولين فهو فيض من الطبع الصادق، والإحساس الأمين.

ومثل الشريف في هذا الباب مثل الفنان الذي ينحت التماثيل، فهو دائمًا يوهم الجمهور أنه يضع تمثالًا لامرأة مجهولة، أو رجل مجهول، هو يخدع الناس حين

يوهمهم أنه لا يهتم بغير تمثيل المعاني، ولو أبيح له أن يفصح لقال إنه لا ينظر إلى النموذج، وإنما يستوحي صورة هي بعض ما في ضميره من دفائن الكنوز.

وقد اهتديت إلى هذا المعنى لطول ما عاشرت المثالين، فقد صحبت المسيو بلانشو وهو يضع تمثال العارية، وصح عندي أن في التمثال شمائل لم تكن في النموذج، فأدركت أن المثال يستعين النموذج على تذكر ما كان فتن به في عالم العيان.

فالشريف يجسم معناني الأخوة وهو يبكي أصدقاءه المجهولين، وهو أيضًا يشرع للناس مذاهب الوفاء، وللشعر في صدر ذلك الرجل جوهر لا يملك مثله إلا من اصطفاهم الله للتعبير عن حقائق الوجود.

أيها السادة

إنكم في غنى عن التذكير بما في آداب المجتمع من أوهام وأغاليط، فلا تضق صدوركم حين يطوي الشريف أسماء فريق من الذين سكب على قبورهم شآبيب الدمع السخين، وإنما أرجوكم أن تتمثلوا ديوان شعره شبيهًا بمصانع الرسامين والنحاتين في القديم والحديث، فليس يعلم إلا الله من الذين يعنيهم فنان مثل أحمد راسم، أو فنان مثل محمود سعيد، كما لا يعلم إلا الله من الذين كان يعنيهم البحتري وهو يفتتح قصائد المديح بالنسيب.

إن قلب الشاعر كالغابة الشجراء، لا يعرف مجاهلها غير الأيقاظ من الأدلاء، وقد دللتكم على قلب الشاعر الذي اسمه الشريف؛ لأنه أقدم صديق عرفته في بغداد، وإني لأرجو أن يعذرني حين يراني نممت عليه، فما أذكر أننا تعاهدنا على كتمان هذه الأحاسيس.

وإليكم شواهد من شعره في بكاء المغمورين، قال من قصيدة:

ما لي أودع كل يوم ظاعنًا	لو كنت آمل للوداع لقاء
وأروح أذكر ما أكون لعهده	فكأنني استودعته الأحشاء
فرغت يدي منه وقد رجعت به	أيدي النوائب والخطوب ملاء
أحبابي الأدنين كم ألقى بكم	داء يمض فلا أداوي الداء
أحيا إخاءكم الممات وغيركم	جربتهم فثكلتهم أحياء
إلا يكن جسدي أصيب فإنني	فرقته فدفنته أعضاء

وقال من قصيدة ثانية:

أقول وقد قالوا مضى لسبيله ... مضى غير رعديد الجنان ولا نكس[٣٩]
كأن حداد الليل زاد سواده ... عليك ورد الضوء من مطلع الشمس
أرى كل رزء دون رزئك قدره ... فليس يلاقيني ليومك ما ينسى

وقال من قصيدة ثالثة، وهي في رجل كانت له شخصية، ولا نعرف السبب في طيّ اسمه عن الناس:

ما بعد يومك ما يسلو به السالي ... ومثل يومك لم يخطر على بالي
وكيف يسلو فؤاد هاض جانبه ... قوارع من جوى هم وبلبال
يا قلب صبرًا فإن الصبر منزلة ... بعد الغلوّ إليها يرجع الغالي
نقص الجديدين من عمري يزيد على ... ما ينقصان على الأيام من حالي
مضى الذي كنت في الأيام آمله ... من الرجال فيا بعدًا لآمالي
قد كان شغلي من الدنيا فمذ فرغت ... منه يدي زاد طول الوجد أشغالي
تركته لذيول الريح مدرجة ... ورحت أسحب عنه فضل أذيالي
ما بالي اليوم لم ألحق به كمدًا ... أو أنزع الصبر والسلوان من بالي

أيها السادة

هناك جانب من غرائب الوفاء عند الشريف هو بكاء النساء، وهذا أغرب الجوانب، وهو يحتاج إلى تأمل ودرس، ولا نعرف بالضبط كيف نشأ هذا عند الشريف، فقد كان من المألوف في التقاليد العربية أن لا يبكي من النساء غير المعشوقات، وبكاء الأمهات والحلائل باب من النبل، ولكنه في شعر العرب قليل، فقد لا يساوي واحدًا من خمسين إذا أحصينا ما قيل في الرثاء، فكيف اتفق للشريف الرضي أن يكثر من تعزية الناس في أمهاتهم، وبناتهم، وأخواتهم؟

إن هذه الظاهرة ليس لها عندي غير تعليل واحد، هو أن الشريف الرضي كان (ابن أمه) كما يعبر المصريون حين يداعبون من يغضبون لأمهاتهم من الأطفال.

ونحن نعرف أن أيام البؤس في حياة الشريف مضت وهو في رعاية أمه الرءوم التي باعت أملاكها، وحليها لتقيه، وتقي أخاه ذل العوز والاحتياج.

والأم الرءوم لم تجد من يؤرخ فضلها في اللغة العربية، ويندر بين كتاب العرب من يقول: حدثتني أمي، وأنبأتني أختي، وأخبرتني حليلتي، وإن كان في شعرائهم من يقبل النعال في أقدام الملاح!

وما أريد أن أطيل القول فيما أثر عن العرب والهنود من بغض البنات فذلك معروف، وإنما أريد أن أقف عند هذه النزعة النبيلة من نزعات الشريف، وأنا أجزم بأنه كان يرى المرأة في صورة أمه، تلك الأم التي وقته مكاره الحياة في السنين العجاف يوم أودع أبوه غياهب الاعتقال.

والحق أن اللغة العربية كانت تحتاج إلى من يمجدون الأمهات، والأخوات، والبنات على نحو ما وقع في اللغات الأجنبية، فإن المرأة عناصر من العطف والتضحية لا يدركها إلا ذوو الألباب، وصاحبنا الشريف قد وفق في هذه الناحية كل التوفيق.

ورثاء الشريف لأمه يشهد بأنه كان يفهم قيمة هذا المذهب النبيل، فهو يجعل موتها بابًا لشماتة الأعداء؛ إذ يقول:

كم عبرة موهتها بأناملي … وسترتها متجملًا بردائي
أبدي التجلد للعدوّ ولو درى … بتململي لقد اشتفى أعدائي

والتصريح بأن موت الأم باب إلى الشماتة هو أعظم تمجيد لكرائم النساء.
وهو يصرح بأن أمه كانت تقيه النوائب، وتنفق عليه وتواسيه، فيقول:

فبأي كف أستجنّ وأتقي … صرف النوائب أم بأي دعاء
ومن المموّل لي إذا ضاقت يدي[٤٠] … ومن المعلل لي من الأدواء[٤١]
ومن الذي إن ساورتني نكبة … كان الموقى لي من الأسواء[٤٢]
رزءان يزدادان طول تجدد … أبد الزمان فناؤها وبقائي
قد كنت آمل أن يكون أمامها … يومي وتشفق أن تكون ورائي

إلى أن يقول:

لو كان يبلغك الصفيح رسائلي[٤٣] أو كان يسمع التراب ندائي
لسمعت طول تأوهي وتفجعي وعلمت حسن رعايتي ووفائي
كان ارتكاضي في حشاك مسببًا ركض الغليل عليك في أحشائي

وهذا البيت يتضمن صورة حسية لا يصرح بها إلا شاعر يفهم الحقائق، فهو يرى حياته في بطن أمه دينًا واجب الأداء.

وكذلك صح لهذا الشاعر الإنساني أن يعزي بعض الناس في بنت ماتت بعد بنت، فيقول من قصيد طويل:

هذا العزاء وإن تحزن فلا عجب إن البكاء بقدر الحادث الجلل[٤٤]

ولكن ما بالنا نحصر أسباب هذه العاطفة فيما تلقاه الشريف عن أمه الرءوم؟ ما الذي يمنع من افتراض أن تكون هذه المعاني أوحيت إليه من التعرف إلى كرائم النساء؟ ما الذي يمنع من التصريح بأن أشراف الرجال لا تخلو حيواتهم من مودات شريفة نبيلة يضمرونها لبعض العقائل المصونات؟ ما الذي يمنع من القول بأن في بنات الأعمام والأخوال ظلالًا من العطف نلوذ بها في هجير الحياة؟ بل ما الذي يمنع من القول بأن في بعض الأجنبيات نفحات من الرفق نتنسم بها أرواح الفردوس؟

وهل قضى علينا سوء الطالع أن لا تكون صلاتنا بالنساء إلا شبهات تحوطها شبهات؟

إن تلك المعاني السود لا ينبغي أن تطيف بأخيلة الكرام من الرجال، فللرجل النبيل كل الحق في أن يشغل قلبه وذهنه بشواغل المودة الصادقة لمن يعرف من أشراف النساء، وهذا باب من أنس الضمائر والقلوب عرفه الناس من قديم الزمان وإن جبنوا عن التصريح به فيما يكتبون وما ينظمون.

وصديقنا الشريف الرضي كان يفهم هذه المعاني، وأكاد أجزم بأنه كان يضمر الإعزاز لكثير من عقائل الكرخ وبغداد، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إنه كان يصادق كثيرًا من نساء البيداء، فإن لم تصدقوا ذلك فحدثوني كيف صحّ له أن يقول في رثاء سيدة غيبها التراب:

على أي غرس آمن الدهر بعدما رمى قادح الأيام في الغصن الرطب
ذوى قبل أن تذوى الغصون وعهده قريب بأيام الربيلة والخصب[٤٥]
كفى أسفًا للقلب ما عشت أنني بكفي على عيني حثوت من الترب
جرت خطرة منها وفي القلب عطشة رفعت لها رأسي عن البارد العذب
وقلت لجفني ردّ دمعًا على دم وللقلب عالج قرح ندب على ندب
ومما يطيب النفس بعدك أنني على قرب[٤٦] من ماء وردك أو قرب
ألا لا جوى مسّ الفؤاد كذا الجوى ولا ذنب عندي للزمان كذا الذنب
خلا منك طرفي وامتلا منك خاطري كأنك من عيني نقلت إلى قلبي

إي والله، كذلك تسجل مودات الكرائم من النساء، ولو أفنينا الأعمار في تخليد مآثر الحرائر، وفضلهن على أرباب العقول لما بلغنا بعض ما نريد.

أيها السادة

إن المقام يضيق عن شرح ما عند الشريف من غرائب الوفاء، ويكفي في ختام هذه المحاضرة أن نشير إلى ما في شعره من رقة الحنين؛ فهو الذي يقول في رثاء بعض الأصدقاء:

أمسى كأن من القنا بأضالعي قرعًا ووخزا
يا ثانيًا للنفس بل يا ثالث العينين عزّا
عضو عثث فيه المنيـ ـة ما أجلّ وما أعزا[٤٧]

وهو الذي يقول:

مصابك لم يدع قلبًا ضنينًا بغلته ولا عينًا جمادا[٤٨]
كأن الناس بعدك في ظلام أو الأيام ألبست الحدادا
وكنت أفدت خلته ولكن أفادني الزمان وما أفادا[٤٩]
فإن لم أبكه قربي تلاقت مغارسها بكيت له ودادا

وهو الذي يقول في التوجع على من فقد من الأهل:

قف موقف الشك لا يأس ولا طمع ... وغالط العيش لا صبر ولا جزع
وخادع القلب لا يود الغليل به ... إن كان قلب على الماضين ينخدع
سائل بصحبي أنى وجهة سلكوا ... عنا وأي الثنايا بعدنا طلعوا[٥٠]
غابوا فغاب عن الدنيا وساكنها ... مرأى أنيق عن الدنيا ومستمع
أبكيهم ويد الأيام دائبة ... تدوف لي فضلة الكأس التي جرعوا[٥١]
لا أمتري أنني مجر إلى أمد ... جروا إليه قبيل اليوم أو نزعوا
أعتادهم لا أرجي أن يعود لهم ... إليّ ماض ولا لي فيهم طمع
فما توهج أحشائي على نفر ... كانوا عواري[٥٢] للأيام فارتجعوا
ذوائب من لباب المجد ما فجعوا ... بمثل أنفسهم يومًا ولا فجعوا
... ...
هل تعلمون على نأي الديار بكم ... أن الضمير إليكم شيق ولع[٥٣]
لكم على الدهر من أكبادنا شعل ... من الغليل ومن آماقنا دفع
لواعج أفصحت عنها الدموع وقد ... كادت تجمجمها الأحشاء والضلع
أنزفت دمعي حتى ما تركت له ... غربًا يفيض على رزء إذا يقع[٥٤]
ثم اضطررت إلى صبري فعذت به ... وأعرب الصبر لما أعجم الجزع

ومن هذه الشواهد ترون أنه كان يخاطب الأحباب الذاهبين، كما يخاطب الأحباب الغائبين، وذلك فيض من قوة الإحساس.

هوامش

(١) دلاص على وزن كتاب: درع ملساء.

(٢) تعيف الطير وعافها: زجرها، وهو أن يعتبر بأسمائها ومساقطها، وأنوائها فيتسعد أو يتشاءم.

(٣) العلوق بفتح العين وضم اللام: المنية.

(٤) الوسوق: جمع وسق وهو ستون صاعًا، أو حمل بعير.

(٥) القد بالكسر: القيد.

(٦) العضب: السيف.

(٧) العنيق على وزن أمير: شدة الجري.

(٨) خفان: اسم موضع.

(٩) الجال: البئر.

(١٠) جمع عُقاب بالضم.

(١١) الشول بالفتح: النوق تشول بذنبها للقاح.

(١٢) القرقار: الهدير، والفنيق: الفحل.

(١٣) روق بضم الراء: حسان.

(١٤) الحنانة: السحابة الماطرة.

(١٥) القور بضم القاف: جمع القارة وهي الجبيل المنقطع عن الجبال، أو الصخرة العظيمة، أو الأرض ذات الحجارة السود، والدعاص: جمع دعص بالكسر، وهو قطعة من الرمل.

(١٦) الصياصي: جمع الصيصة بالكسر وهي الحصن.

(١٧) الثبط: هو من قولهم: أثبطه المرض: لم يكد يفارقه.

(١٨) الركية: البئر.

(١٩) المستميح: الذي يستخرج الماء، وفي الديوان «مستميت».

(٢٠) العريب: مصغر عرب.

(٢١) يحاججها: يحاجها، بفك الإدغام وهو الأصل، وهو يكثر في شعر الشريف.

(٢٢) الحجاج بالفتح وبكسر: عظم ينبت عليه الحاجب.

(٢٣) الأجمي: ساكن الأجم وهو الليث، واللبد: جمع لبدة وهو شعر كاهل الأسد، والكليم: الجريح.

(٢٤) الوذيلة: على وزن سفينة المرآة والقطعة المجلوة من الفضة.

(٢٥) الخماشات: جمع خماشة بالضم، وهو ما ليس له أرش معلوم من الجراحات.

(٢٦) تقترع: تقتتل، والغرض الرجيم الهدف المنصوب.

(٢٧) يقصن: من الوقص وهو الكسر.

(٢٨) الضمار على وزن كتاب: هو ما لا يرجى رجوعه من المال.

(٢٩) العود بفتح العين: الجمل.

(٣٠) القرا: الظهر، والأدماء: في لونها أدمة، وهي في الظباء لون مشرب بياضًا.

(٣١) الجازية: الظبية يجزيها العشب، والبغوم: الرخيمة الصوت.

(٣٢) المقصة: من قص الأثر إذا تتبعه، والشميم: شم الأرض لتعرف الطريق الذي مشى فيه المفقود.

(٣٣) العداد بالكسر: اهتياج وجع اللديغ بعد سنة والسليم الملدوغ، سمي بذلك تفاؤلًا، وغب الداء: تحرك وهاج.

(٣٤) إشارة إلى أبيات متمم بن نويرة.

(٣٥) في الديوان (لعبرة).

(٣٦) تجرم: مضى.

(٣٧) أبلس يبلس: سكت على ما في نفسه.

(٣٨) وجب البدر: غاب.

(٣٩) النكس بالكسر: المقصر عن غاية الكرم، والجمع أنكاس.

(٤٠) الممول واهب المال.

(٤١) الأدواء جمع داء.

(٤٢) الأسواء جمع سوء وهو الردى.

(٤٣) الصفيح هنا هو القبر وجمعه صفائح.

(٤٤) الجلل: العظيم، وهو أيضًا الحقير، فهو من الأضداد.

(٤٥) الربيلة على وزن سفينة: السمن والنعمة، والمراد بها وفرة الشجر.

(٤٦) القرب بالتحريك: سير الليل لورد الغد، أو ألا يكون بينك وبين الماء إلا ليلة.

(٤٧) عثت: عاثت، من العيث وهو الإفساد.

(٤٨) الغلة بالضم: هي الظمأ الشديد، والمراد بها اللوعة.

(٤٩) أفدت: استفدت.

(٥٠) الثنايا: جمع ثنية وهي الطريق في الجبل.

(٥١) داف الشراب: مزجه بشيء.

(٥٢) في الديوان (عوادي) وهو تحريف.

(٥٣) شيق: مشتاق.

(٥٤) الغرب بالفتح: عرق في العين يسقي ولا ينقطع.

غراميات الشريف الرضي

أيها السادة

لقد شاع في المشارق والمغارب أن الشريف الرضي كان من المغرمين، فقد كان القدماء يضربون الأمثال بقصائده الحجازيات، فيقولون ما معناه: لا تصقل نفس المتأدب إلا إن حفظ هاشميات الكميت، وخمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية، وتشبيهات ابن المعتز، ومدائح البحتري، وحجازيات الشريف الرضي.[1]

فالشريف كان معروفًا عند القدماء بصدق اللوعة والصبابة، وكانت أشعاره في الحب كؤوسًا يعاقرها المتيمون.

ولكن مرت أجيال وأجيال والناس منصرفون عن ذلك الجانب المشرق من شعر الشريف؛ لأن الحياة الإسلامية قد شابها أقذاء التَّزمت والجمود، ولم يبق من رجال الدين من تؤثر عنه أطايب الفكاهة والظرف، أو تُرْوى عنه غرائب الأحاديث.

وإني لأشعر بالتهيب وأنا أشرح هذا الجانب من عبقرية الشريف الرضي، ولكن يشجعني أني أتكلم في بغداد التي وسع صدرها مئات المذاهب والآراء في الدين والاجتماع.

وأكاد أجزم بأن الشريف الرضي لو عاش في غير العراق لما استطاع أن يجمع بين الأدب والدين؛ لأن الجماهير الإسلامية في غير العراق لم تكن تسمح لرجل من أساتذة العلوم الدينية أن يطيل القول في فتنة الخدود وسحر العيون.

وليس معنى هذا أن العراق خلا خلوًّا تامًّا من التنكر لأخلاق الظرفاء من رجال الدين، لا، ولكنه كان أرق وأظرف من مصر التي لم يعرف علماؤها غير فناء الأعمار في التدريس والتأليف، والتي تسقط فيها هيبة العالم إن اتهمه حاسدوه بأنه أديب يحفظ بعض ما قيل في وصف الملاح.

كان الشريف الرضي يحب ويعشق، وقد اتسع عصره وبلده لسماع ما قال في الحب والعشق، ولكنه مع ذلك حبس عواطفه في قفص من حديد؛ لأن المجتمع العراقي على تسامحه لم يكن يبيح لمثله غير التجمل والتوفر والاستحياء، فكان الشريف يسقي منابت الظرف من مزاجه الرقيق بقراءة ما ينظم معاصروه من أشعار المجون، وهل نسيتم ما أشرنا إليه من اهتمامه بدراسة أشعار ابن حجاج؟

لقد فطر الشريف الرضي على رقة الإحساس، ولكنه منذ نشأته كان مسئولًا عن رعاية التقاليد، وهذا السجن الاجتماعي هو الذي أخرج من وجدانه ذلك الشاعر المجيد؛ لأن المشاعر لا ترهف إلا بقوة الاعتلاج، فلو كان الشريف رجلًا مطلق الحرية في تصرفاته الشخصية لكان من الممكن أن يصير ماجنًا يشبه الألوف ممن تنسموا أرواح دجلة والفرات، ولكن قسوة المجتمع صهرته صهرًا عنيفًا فأخرجت منه وترًا حنانًا يشدو فيجيد.

كان الشريف يستطيع أن يملأ الدنيا بالكلام عن التنسك والتقشف والزهد، وكان يستطيع أن يكون إمامًا منقطع النظير في علوم اللغة والدين، وكان يستطيع أن يكون رجلًا تقبل يمناه لالتماس البركات، ولكنه لو عقّ فطرته لكان شيخًا تافهًا كألوف المشايخ الذين سمح الدهر المخبول بأن يكونوا من أساتذة الأزهر الشريف، فلم يبق إلا أن يتسامح مع فطرته بعض التسامح فيعلن بعض ما في صدره من الغرام المدفون، ولكن كيف يعلن ذلك؟ سيظل الرجل في حرب بين المجد والحب: هو في نفسه صالح لأن يكون من أقطاب الدولة، ولكن ما هذه النوازع الدقاق التي تنزل به إلى الهوان في الحياة الغرامية؟ أيصح أن يصبح الفارس المغوار أسيرًا لعينين كحيلتين يشيع فيهما سحر النعاس؟ أيمكن أن يكون المحارب الصوّال فريسة للنحور العاجية التي تعجز عن حمل العقود؟ ما هذه الصلات الطبيعية التي تجمع بين الأضداد فتقرن القلب القاسي بالقلب الرقيق؟ ما هذه الغرائب التي تقضي بألا يتم العشق بين رجل وامرأة مختلفين في العرض والطول على نحو ما كنا نرى في شوارع باريس؟ إن الطبيعة تنتقم من الأوضاع والتقاليد، ولكنّ أكثر الناس لا يفقهون!

إن الشريف قد تزدهيه الكبرياء فيقول:

تضاجعني الحسناء والسيف دونها   ضجيعان لي والسيف أدناهما مني
إذا دنت البيضاء مني لحاجة   أبى الأبيض الماضي فأبعدها عني[٢]

وإن نام لي في الجفن إنسان ناظر　　تيقظ عني ناظر لي في الجفن[٣]
أغرت فتاة الحيّ مما ألفته　　أغلغله دون الشعار من الضن
وقالت هبوه ليلة الخوف ضمه　　فما عذره في ضمه ليلة الأمن

وهذه قطعة نفيسة من حيث المعنى والخيال، فهل كانت من نفحات الصدق؟ أستبعد ذلك، فالرجل لا يضاجع السيف في ليلة الوصل إلا وهو متكلف، ولا سيما إن صرح بأنه في أمان.

إنما الصدق أن يفصح عن ذات نفسه، فيصرح بأنه يلقى الجمال بوجه متجهم، وقلب رقيق، فيقول:

ومقبل كفي وددت لو أنه　　أوما إلى شفتيّ بالتقبيل
جاذبته فضل العتاب وبيننا　　كبر الملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما　　عقد الجمال بقرطق محلول[٤]
جذلان ينفض من فروج قميصه　　أعطاف غصن البانة المطلول
من لي به والدار غير بعيدة　　من داره والمال غير قليل

وهذه قطعة شرحنا ما تومئ إليه من الأسرار النفسية في كتاب (مدامع العشاق) منذ سنين، وهي شاهد على النزاع بين العقل والهوى، والهدى والضلال، إن صحّ أن الصدق في التعبير عن خوالج القلب إثم وإسراف.

الحق أن الشريف كان صورة للنزاع بين العقل والقلب، العقل الذي يوجب أن يكون الرجل من عبيد المجتمع ليسود المجتمع، والقلب الذي يوجب أن يكون الرجل عند وحي الفطرة والإحساس، وقد صدق في التعبير عن هذه المعضلة النفسية حين قال:

ولقد أطلت إلى سلوك شقتي　　وجعلت هجرك والتجنب زادي
أهون بما حملتنيه من الضنى　　لو أن طيفك كان من عوّادي
لا يبعدن قلبي الذي خلفته　　وقفًا على الاتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وساده　　لم يدر كيف نبا عليّ وسادي
لولا هواك لما ذللت وإنما　　عزي يعيرني بذل فؤادي

العز يعير بذل الفؤاد؟؟

تلكم هي القصة الموجزة لحياة الشريف، فهو في نزاع دائم بين عزة الجاه، وذلة القلب، فإن لم يكف هذان الشاهدان فانظروا كيف يقول:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ... ألم الجوى من قلبي المصدوع
هيهات لا تتكلفن لي الهوى ... فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحبائل طامعًا ... فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب غلتي ... أسفًا على ذاك اللمى الممنوع[٥]
قلبي وطرفي منك هذا في حمى ... قيظ وهذا في رياض ربيع[٦]
كم ليلة جرّعته في طولها ... غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجى ما بيننا ... حتى أضاء بثغره ودموعي
تفلى أنامله التراب تعللا ... وأناملي في سني المقروع
قمر إذا استخجلته بعتابه ... لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السرار وقفتما ... لعجبتما من عزّه وخضوعي[٧]
أهون عليك إذا امتلأت من الكرى ... أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله ... لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وهذه أشعار من فيض القلب، والشريف في هذه الأشعار ليس هو ذلك الشيخ الجليل الذي أنشأ مدرسة سماها (دار العلم)، وأقام فيها مكتبة يتزوَّد منها طلاب اللغة والدين، وإنما هو إنسان يرى الدنيا بأعين الشعراء الذين يدركون أسرار الوجود.

أيها السادة

إن النص على هذا المعنى ضروري في هذا البحث، فالشريف الرضي في غرامياته ليس من تلاميذ بغداد، وإنما هو من تلاميذ البيداء، وآية ذلك أن الأنفاس البغدادية لا نحسها عنده إلا في النادر القليل، فهو بعيد كل البعد عن أنفاس الشعراء الذين تمتعت آذانهم وعيونهم بضجيج بغداد، ومواكب بغداد، وتعليل هذا سهل؛ فقد كان رجلًا يفهم أن المفروض عليه ألا يعرف بغير التقى والعفاف، ولم تكن دنيا الناس في ذلك العهد تسمح لرجل مثله أن يخاطر بمركزه الأدبي والديني في سبيل الوجد والصبابة، وإنما كان يقهر على ذلك قهرًا بما يتوقد في صدره من الغرام المشبوب، وهو نفسه قد شعر بهذا الحرج حين قال في دفع من اتهموه بالخروج على أدب الأتقياء:

وأكذب بالتصون مدعيهم وألجم قائليهم بالعفاف

وأريد أن أقول بصراحة: إن الشريف الرضي كان يحاول التخلص من مذاهب البغداديين في التشبيب؛ لأن أكثر الشعراء في تلك الأيام كانوا أسرفوا في العبث والمجون، وكان يرى من موجبات الكرامة أن يترفع في نسيبه عما ألف أولئك الشعراء من التبذل والإسفاف، وقد أوغل في التحفظ حتى كاد يهجر الشعر الرقيق، فلم يتفق له إلا في الندرة أن يقول:

يا مقلقي قلقي عليـ ـك أظنه ذنبي إليكا
أنت الشقيق فلو جنيـ ـت لما أخذت على يديكا
أمسيت ثالث ناظريّ فكيف أقذى ناظريكا
وكفاك أني لست أعـ ـقد خنصري إلا عليكا

أو يقول:

يا ليلة كرم الزما ن بها لو أن الليل باقي
كان اتفاق بيننا جار على غير اتفاق
واستروح المهجور من زفرات همّ واشتياق
فاقتص للحقب الموا ضي بل تزود للبواقي[8]
حتى إذا نسمت ريا ح الصبح تؤذن بالفراق
برد السوار لها فأحـ ـميت القلائد بالعناق

أو يقول:

كم مقام خضنا حشاه إلى اللهـ ـو جميعًا والليل ملقى الرواق
ومزجنا خمر الرضا بين في الرشـ ـف برغم المدام تحت العناق
قم نبادر مرمى الزمان ببين فسهام الخطوب في الأفواق[9]
واغتنمها قبل الفراق فما تعـ ـلم يومًا متى يكون التلاقي

نحن غصنان ضمنًا عاطف الو   جد جميعًا في الحب ضم النطاق

والأبيات الأخيرة من قصيدة طويلة نص الديوان على أنها في معنى سئل القول فيه، فكأنه يتهيب الحديث عن ليالي الوصل، ومن الشعراء من تحبسهم تقاليد المجتمع فلا يتحدثون عن أهواء النفس إلا بطريق التلميح.

صدقوني أيها السادة إذا حدثتكم أني تعبت في البحث عن صور بغداد في غراميات الشريف الرضي، فلم أجد غير أطياف، كأن يقول:

أنا الفداء لظبي ما اعترضت له   إلا وهتك شوقًا لي أستره
لاحظته والنوى تدمي ملاحظه[10]   بعارض من رشاش الدمع يمطره
ما انفك من نفس للوجد يكتمه   تحت الضلوع ومن دمع يوفره
أهوى إليّ يدًا عقد العناق بها   والبين يعذله والحب يعذره
وقال تذكر هذا بعد فرقتنا   فقلت ما كنت أنساه فأذكره

فهذه قطعة تذكر بابن المعتز، أشعر خلفاء بغداد.

والحق أيها السادة أن الشريف الرضي لم يكن يتكلم اللغة البغدادية إلا حين يأسره الغضب أو الحزن.

كأن يقول:

مواقد نيرانهم قرة[11]   وسربال طاهيهم أبيض
إذا حركوا للمساعي أبوا   وإن أنزلوا دار ضيم رضوا

وكأن يقول في وصف مغن دميم:

تقذى بمنظره العيون إذا بدا   وتقيء عند غنائه الأسماع
أبذاك نستشفي ومن نغماته   تتولد الآلام والأوجاع
أم كيف يطربنا غناء مشوّه   أبدًا نهال بوجهه ونراع
نزوي الوجوه تفاديًا من صوته   حتى كأن سماعه إسماع[12]

وكأن يقول:

أيا للمجد من قوم لئام ... ألا حر على عرض يغار
فأشجعهم إذا فزعوا جبان ... وأذكاهم إذا نطقوا حمار
لبونكم تدر لأبعديكم[13] ... وعندي الذين منها والنفار[14]
لغيري ضوء ناركم وعندي ... دواخنها السواطع والأوار[15]

وكأن يقول في التحزن للأموات:

رجعت في إثرهم برغمي ... بعد نزاع إلى نزوع[16]
أبقى الجوى جرحة بقلبي ... ما عشت مكتومة النجيع
كم غابن الموت عن كريم ... وقارع الخطب عن قريع[17]
بانوا فلم أنتزح عليهم ... دمعي ولم أستذب ضلوعي
وأسفح الدمع للأعادي ... إني إذن فارغ الدموع

قلت: إن الشريف لم يكن تلميذ بغداد، وإنما كان تلميذ البيداء، ولكن هذا القول لا يخلو من اعتساف، فقد كانت للشريف لفتات إلى معالم العراق، كأن يصرخ:

أقول وقد جاز الرفاق بذي النقا ... ودون المطايا مربخ وزرود[18]
أتطلب يا قلبي العراق من الحمى ... ليهنك من مرمى عليك بعيد
وإن حديث النفس بالشيء دونه ... رمال النقا من عالج لشديد[19]
ترى اليوم في بغداد أندية الهوى ... لها مبدئ من بعدنا ومعيد
فمن واصف شوقًا ومن مشتك حشا ... رمته المرامي أعين وخدود
تلفتّ حتى لم يبن من بلادكم ... دخان ولا من نارهن وقود
وإن التفات القلب من بعد طرفه ... طوال الليالي نحوكم ليزيد
ولما تدانى البين قال لي الهوى ... رويدًا وقال القلب أين تريد
أتطمع أن تسلى[20] على البعد والنوى ... وأنت على قرب المزار عميد[21]
ولو قال لي الغادون ما أنت مشته ... غداة جزعنا الرمل قلت أعود[22]

أأصبر والوعساء بيني وبينكم وأعلام خبت إنني لجليد[٢٣]

فهذه القطعة تمثل أصدق الشوق إلى العراق، وتشهد بأنه كان مشغول القلب بأحبابه في العراق.

وهو أيضًا الذي يقول:

دعوا لي أطباء العراق لينظروا سقامي، وما يغني الأطباء في الحب؟
أشاروا بريح المندل اللدن والشذا وردّ ذماء النفس بالبارد العذب[٢٤]
يطيلون جس النابضين ضلالة ولو علموا جسوا النوابض من قلبي

والذي يقول:

ألا إن ليلي بالعراق كأنه طليح تجافاه الرجال ظليع[٢٥]
مقيم يعاطيني الهموم وناظري معني بأعجاز النجوم ولوع

والذي يقول:

سقى الله دهرًا حبانا الودا د مبتدهًا فشكرنا العراقا

والذي يقول في رجوعه من الحج يتشوف إلى قباب بغداد:

عسى الله أن يأوي لشعث[٢٦] تناهبوا هباب المطايا نصها وانجذابها[٢٧]
وجاسوا بأيديها على علل السرى حرار أماعيز الطريق ولابها[٢٨]
فيرمي بها بغداد كل مكبر إذا ما رأى جدرانها وقبابها
فكم دعوة أرسلتها عند كربة إليه فكان الطول منه جوابها[٢٩]

فالشريف لم يكن ينكر بغداد ولا العراق، ولكنه مع ذلك لم يكن مقصور الهوى على بغداد والعراق، فقد كانت له صبابات بالبيداء، صبابات غنمها، واكتوى بنارها في طريقه إلى الحج، وهو حج مرات، ورأى الظباء الحوالي، والعواطل بالبيداء، وربما كان الحج هو السبب الأول في تفتح عبقرية الشريف، فقد كانت تمرّ أشهر وهو يراود الخيال فوق ظهر جمل، أو سراة جواد، ونحن نعرف فضل هذه الأسفار على الشعراء،

فالشعر يحتاج إلى غناء، وهو لا يتيسر في كل وقت لمن يعيشون في الحواضر فوق مهاوي المشكلات السياسية، والمعضلات الاجتماعية، وإنما يحتاج الشعر إلى فراغ من هموم العقل ليستطيع الشاعر أن يعاقر الغناء، وكذلك يمكن القول بأن الشريف لم يدرك كيف يكون اعتلاج الشوق إلا وهو يسامر الخيال في الصحراء، وقد نظر فرأى ثروة الأدب العربي لم تتكون إلا من أصول الأخيلة البدوية، أخيلة الأعراب الذين اتسع وقتهم للغناء، فمضى يتحدث عن مواطن، ومعالم، ومنازل لا يمكن أن تتسع لها جميعًا مسالك الطريق إلى الحجاز، وبذلك تحول الحبّ في قلبه إلى معركة وجدانية لا تعرف الرسوم والحدود، وإنما تتميز بما ترى القلوب من أشواظ وأقباس.

وكان للشريف في ذلك المذهب نجاة من فضول الباغين والعادين، فهو يحنّ إلى ديار لا يراها البغداديون إلا إذا استنجدوا طيف الخيال، وهو يذكر أسماء كان لها في أذهان الناس صور قدسية؛ لأن الشعراء الأوائل كانوا خلعوا عليها ألوانًا من السحر الحلال.

كان طريق الحج فرصة للتعرف إلى طوائف من الحسن المكنون، وكان موسم الحج فرصة للتعرف إلى ألوان من الجمال تفرقت في بلاد الله، ثم التقت في ساحات الحجيج، فكان صاحبنا يطالع كتاب الحسن بعناية وإمعان، وكان كتاب الحسن في موسم الحج مختلف السطور والخطوط، فكانت فيه سطور شامية، وسطور مصرية وتركية، وسطور مغربية وأندلسية، وكانت فيه كلمات بالحروف اليمنية، والجاوية، والهندية، وكان الشريف من أقدر الناس على فهم الرموز من خطوط الجمال.

وهنا يبدأ الخطر على ذلك القلب الحساس.

من هنا نعرف كيف كان الشريف كثير الأسى والحنين، فالذي يشهد مواكب الحسن من مختلف الشعوب في موسم لا يدوم غير أسابيع لا يستطيع تزويد العين والقلب بغير الحسرات، وهل تسمح طبيعة المجتمع لأمير الحج أن يقضي ليلة فاجرة أو عفيفة مع امرأة حسناء؟ وكيف وهو مقتول الوقت بشرح آداب السعي، والرمي، والطواف؟

الواقع أن تلك المآزق هي التي أوقدت صدر الشريف، فقد كان حاله شبيهًا بحال من يقضي أسبوعين يزور فيهما المعرض الدولي في باريس، فيرى من غرائب الجمال ما يعشي الأبصار والقلوب، ثم يعود وهو آثم الضمير، طاهر الثياب.

إن اللغة العربية لا تعرف من الذين سجلوا مواسم الحج بقوة وعنف غير شاعرين: الأول: صديقنا عمر بن أبي ربيعة، عطر الحب ذكراه! والثاني: أستاذنا الشريف الرضي، نضر الله مثواه!

أما عمر بن أبي ربيعة فقد كان مطمئن البال؛ لأنه كان حجازيًّا يشاهد من مواسم الحج ما يشاء، ولأنه كان خلع العذار فلم يعد يبالي أين يقع هواه، ولأنه كان اشتهر بالحب حتى كان ظريفات النساء لا يرين تمام الحج إلا بمشاهدة وجهه الجميل.

أما الشريف الرضي فإنسان آخر، هو رجل يجيء إلى الحج نائبًا عن خليفة المسلمين، هو رجل مسئول لا يليق به اللهو ولا المزاح، ومعه من أهل العراق رجال لا تخفى عليهم مآثم العيون، ولعل فيهم من ينافسه أو يعاديه، فهو ينظر إلى الجمال المنثور فوق بساط الحج بقلب فاتك، وطرف عفيف، وقد يتفق أحيانًا أن تعفّ العيون، وتفتك القلوب!!

أيها السادة

لا تحسبوني أتفلسف على حساب الشريف، فقد قضيت سنين وأنا أحاول فهم هذه الدقائق الوجدانية، وأكاد أجزم بأن الشريف لم يكن يعرف السكون ولو نزل إلى مغارات الكهوف؛ لأن لذكريات العيون والنحور والخدود ضجيجًا يوقظ الأموات، ويصم الأحياء، وهو قد رأى من الوجوه الوسيمة، وسمع من الأصوات الرخيمة، ما يسوق العقلاء إلى حظيرة المجانين.

وهل كان يمكن أن تتوفر تلك الثروة الشعرية لرجل يلهو ويلعب؟

هل كان يمكن أن يشهد الشريف غرائب صنع الله في مواكب الحجيج وهو في عنفوان الشباب، ثم لا يحفظ في لوحة الذكريات ألف سورة من سور الصباحة والجمال؟

معاذ الهوى والأدب أن يكون الشريف الرضي عابثًا في الغرام، وهل في الغرام عبث؟ وهل كان اللعب بالحب إلا كاللعب بالجمر المتوهج؟ إن العبث بالحب ممكن، ولكنه مستحيل على رجل يعيش بالبيداء، أو يمرّ بالبيداء، فلأهل البيداء، ومن يجاور البيداء عيون أسحر وأفتك من عيون الظباء، وإني لأعجب كيف يعيش إنسان في العراق، ثم لا يعشق وهو يرى عيون المها في كل مكان، وفي كل حين؟

ولكن الشريف صعب عليه أن يجعل العراق مرجع هواه؛ لأن سياسة المجتمع كانت ترفض ذلك، ولأن الرجل كان في ذاته شعوبي الهوى، فكان في صدره سهام من مصر، والشام، والحجاز، واليمن، والمغرب، والهند، وفارس، والعراق، كان صورة للفؤاد الممزق الذي تعاورته سهام العيون.

أيها السادة

لا تلوموني في هذا اللف والدوران، فأنا أحاول أمرًا يصعب إليه الوصول، أحاول التصريح بأن الأسماء التي وردت في شعر الشريف لم تكن لها في ذهنه مسميات، أريد أن أصرح بأنه كان يسلك المذاهب الرمزية حين قال:

ولم نر كالعيون ظبا سيوف   أرقن دمًا وما رمن الجفونا
عوائد من تذكر آل ليلى   كأن لها على قلبي ديونا

فآل ليلى لم يكونوا بالفعل آل ليلى، ولعلهم كانوا آل جميلة، أو آل ظمياء! و(ذو الأثل) في قوله:

تذكرت أيامًا بذي الأثل بعدما   تقضى أواني في الصبا وأوانها
يطيب أنفاس الرياح ترابها   ويخضلّ من دمع النسائم بانها

لم يكن بالفعل ذا الأثل، ولعله كان محلة من محلات بغداد، وكذلك يمكن القول في (أراك الحمى):

يا أراك الحمى تراني أراكا   أي قلب جنى عليه جناكا
أعطش الله كل فرع بنعما   ن من الماطر الروي وسقاكا
أي نور لناظريّ إذا ما   مرّ يوم وناظري لا يراكا
لا يرى السوء من رآك مدى الدهـ   ـر وحيًّا الإله من حياكا
ورعى كل ناشق لك دلتـ   ـه صبا طلة على رياكا

أو ما تحدث به عن رامة إذ يقول:

وحبست في طفل العشية نفحة   حبست برامة صحبتي وركابي[٣٠]
متلملمين على الرحال كأنما   مروا ببعض منازل الأحباب
في ساعة لما التفت إلى الصبا   بعدت مسافته على الطلاب
وتأرجت منها زلازل ريطتي[٣١]   حتى تعارف طيبها أصحابي

فكأنما استعبقت فارة تاجر[٣٢] وبعثت فضلتها إلى أثوابي
أشكو إليك ومن هواك شكايتي ويهون عندك أن أبثك ما بي[٣٣]
يا ماطلي بالدين وهو محبب من لي بدائم وعدك الكذاب

فهل تظنون أن (رامة) وردت في هذا الشعر وهي حتمًا رامة؟ أم تحسبونها بقعة خيالية طافت بخيال الشريف؟

وكذلك يمكن القول بتزوير المواضع في هذا القصيد:

خليليّ هل لي لو ظفرت بنية إلى الجزع من وادي الأراك سبيل
وهل أنا في الركب اليمانين دالج وأيدي المطايا بالرجال تميل
وفي سرعان الريح لي علمتما شفاء ولو أن النسيم عليل
وفي ذلك السرب الذي تريانه أحم غضيض الناظرين كحيل[٣٤]
شهيّ اللمى عاط إلى الركب جيده ختول لأيدي القانصين مطول
وكم فيه من حوّ اللثات كأنما جرى ضرب ما بينها وشمول[٣٥]
علقناك يا ظبي الصريم طماعة[٣٦] أعندك من نيل لنا فتنيل
أنل نائلًا أو لا فثن بنظرة فإني بالأولى الغداة قتيل
وإني إذا اصطكت رقاب مطيكم وثور حار بالرفاق عجول[٣٧]
أخالف بين الراحتين على الحشا وأنظر أني ملتم فأميل
أحن وتجزيني على الشوق قسوة ألا غال ما بيني وبينك غول
وما ذادني ذكر الأحبة عن كرى ولكن ليلي بالعراق طويل

وقد يتفق له في قصيدة واحدة أن يشير إلى عدة معالم فيقول:

يا منشظ الشيح والحوذان من يمن[٣٨] حييت فيك غزالًا لا يحييني
ترى الغريم الذي طال اللزوم به في الحيّ موّل من بعدي فيقضيني
إن الخليّ غداة الجزع عيد به إلى ضمير معنى اللب مفتون
لولا ظباء معاطيل سنحن لنا[٣٩] ما كان يذهل عن عقل وعن دين
قد كان ينجو بنجد من عزيمته فعارضته عيون الربرب العين

ماء النقيب ولو مقدار مضمضة[٤٠] شفاء وجدي وغير الماء يشفيني
ونشقة من نسيم البان فاح بها جنح من الليل تجري في العرانين[٤١]
أسقي دموعي إذا ما بات في سدف صرير أثل بداريًّا يغنيني[٤٢]
هيهات بابل من نجد لقد بعدت عن المَطِيِّ مرامي ذلك البين[٤٣]

فالشريف في أمثال هذه الأشعار لا يعني بالضبط ما يقول، فهو يذكر مواضع ومنازل لا يعنيها بالذات، وإنما يجعلها حجازًا بينه وبين الواشين ممن يسوءهم أن يصرح بمواقع هواه في الكرخ وبغداد.

أيها السادة

لا تظنوا الشريف كان من المخادعين. لا، وإنما كان من المتجمِّلين، فقد كان على جانب من الشجاعة حتى صحَّ له أن يصرح بأن الحسن يسببه في الجنسين فيقول:

وأغيد محسود على نور وجهه هجرت سوى لحظ البعيد المجانب
وغيداء قيدت للعناق ملكتها فنزّهت عنها بعد وجد ترائبي

ويقول:

ويا أهيفًا رمقته العيون ورفت عليه قلوب الأمم
تضرّم خداه حتى عجبت لعارضه كيف لم يضطرم
لئن لم تجد طائعًا بالنوال لقد جاد عنك الخيال الملم
ومثلك ظالمة المقتلين تلاقى الجمال عليها وتم
لها في الحشا حافز كلما جرى الدمع دل عليه ونمّ
أقول لها والقنا شرع ويرغم من قومها من رغم
لنا دون خدرك نجوى الزفير ومجري الدموع وشكوى الألم
وإلا فقرع صدور القنا ووقع الظبا وصليل اللجم

ويقول:

وقد كنت آبى أن أزل لصبوة وأن تملك البيض الحسان عقالي
خميصًا من الأشجان لا يوضع الهوى بقلبي فلا اجتاز الغرام ببالي[٤٤]
إلى أن تراءى السرب بين غزالة ترنح في ثوب الصبا وغزال
فلما التقينا كنت أول واجد[٤٥] ولما افترقنا كنت آخر سالي
وليلة وصل بات منجز وعده حبيبي فيها بعد طول مطال
شفيت بها قلبًا أطيل غليله زمانًا فكانت ليلة بليالي
فيا زائرًا لو أستطيع فديته بأهلي على عزّ القبيل ومالي

ولكن هذه الشجاعة لها حدود يعرفها جيدًا من يرشح نفسه لإمارة الحج، ونقابة الأشراف، ومناصب القضاء، ثم إمارة المؤمنين.

ومن أجل هذا كان تصويره للجوانب الحسية من الجمال تصويرًا قليل التهاويل، لا رفث فيه ولا فسوق، فلم يستطع أن يكون خليفة الشاعر الذي قيل فيه: ما عصى الله بشعر أكثر مما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة، ولم يتحدث أحد بأنه قرأ غراميات الشريف، فدعته نفسه إلى مراجعة الضلال، وإنما يستطيع ألوف من الناس أن يقولوا: إن شعر الشريف حبب إليهم الغرام النبيل، وساقهم إلى تمجيد مواسم العيون في كرائم الأحاسيس.

لا تنظروا من الشريف أن يهيجكم بالأوصاف الحسية، فما كان يملك ذلك، وكرمكم يتسع للصفح عنه، وقد عرفتم كيف كان مركزه في المجتمع، بل أعذروه إن اكتفى بالأوصاف التي رددها الشعراء، فقال:

لقين قلوبنا بجنود حرب تطاعن بالدمالج والبرينا[٤٦]
جلون لنا لآلئ واضحات أضأن بها الذوائب والقرونا
عهدنا الدر مسكنه أجاج فكيف تبدل الثغب المعينا[٤٧]

أو قال:

عطون بأعناق الظباء وأشرقت وجوه عليها نضرة ونعيم[٤٨]
أمطن سجوفًا عن خدود نقية صفا بشر منها ورق أديم[٤٩]
شفوف على أجسادهن رقيقة ودرّ على لباتهن نظيم[٥٠]
يجلن خلاخيل النضار وملؤها بوادي غيل بينهن عميم[٥١]
تأطر أغصان الأراك أمالها وقد رق جلباب الظلام نسيم[٥٢]
غرامي جديد بالديار وأهلها وعهدي بهاتيك الطلول قديم
يقولون ما أبقيت للعين عبرة فقلت جوى لو تعلمون قديم
أيسمح جفني بالدموع وأغتدي ضنينًا بها إني إذن للئيم
ولو بخلت عيني إذن لعتبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

أو قال:

هل ناشد لي بعقيق الحمى غزيلًا مرّ على الركب
أفلت من قانصه غرة وعاد بالقلب إلى السرب
وأظمأ القلب إلى مالك لا يحسن العدل على القلب
يعجب من عجبي به في الهوى وأعجبني منه ومن عجبي[٥٣]
أقرب بالودّ وينأى به ويلي على بعدك من قربي
منعم يعطف منه الصبا لعب الصبا بالغصن الرطب
بلادة النعمة في طبعه وربما ناقش في الحب
أما اتقى الله على ضعفه معذب القلب بلا ذنب[٥٤]
يا ماطلًا لي بديون الهوى من دلّ عينيك على قلبي!

وفي الأبيات الأخيرة بيت عجيب، وهو:

بلادة النعمة في طبعه وربما ناقش في الحب

وقلما يتنبه الشريف إلى أمثال هذه المعاني، فهو قليل التحليل لأهواء الملاح، ولكنه في هذا البيت تنبه إلى البلادة التي نراها أحيانًا في الجمال المترف، ففي بعض منازل

النعيم ألوان من الجمال تشبه في مداركها جمال التماثيل، والذكاء في أهل الجمال قليل الوجود، ولكن هذه أثرة نفسانية، فالشعراء يحبون أن تضج الدنيا لهم حين يظهرون، وهم ينسون أن الجمال لو أعلن شعوره بهم في جميع الأحايين لانقلبت الدنيا إلى مسارح من العبث والمجون.

هوامش

(١) لم يتسع الوقت لمراجعة هذا النص، وقد قرأته منذ أكثر من عشرين سنة في دائرة المعارف للبستاني، ورأيته بعد ذلك في عدة مؤلفات.

(٢) الأبيض هنا: السيف.

(٣) الجفن: الغمد، وفي البيت جناس.

(٤) الفرطق: ثوب رقيق.

(٥) اللمى: سمرة في الشفة.

(٦) القيظ: صميم الصيف.

(٧) السرار بالكسر: هو التناجي في السر.

(٨) الحقب: جمع حقبة بالكسر، وهي المدة من الزمان، وأرجو القارئ أن يتأمل جمال هذا البيت.

(٩) الأفواق: جمع فوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم.

(١٠) الملاحظ بفتح الميم العيون، وهي كذلك في قول الشاعر:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء.

(١١) قرة بفتح القاف: باردة.

(١٢) الأسماع: الشتم والتشنيع.

(١٣) اللبون: الناقة ذات اللبن.

(١٤) الذين بكسر الذال، ولعله لغة في الذان وهو العيب.

(١٥) الأوار بالضم: اللهب.

(١٦) النزاع: الشوق، والنزوع: اليأس.

(١٧) القريع: السيد.

(١٨) مربخ بضم أوله وسكون ثانيه وكسر الباء: رمل من رمال زرود، وزرود: رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة.

(١٩) عالج رمال بين فيد والقريات.

(٢٠) يقال: سلا يسلو، من باب نصر، وسلى يسلي، من باب رضي.

(٢١) عميد: أصيب عموده، فهو عميد ومعمود.

(٢٢) جزعنا الرمل: اجتزناه.

(٢٣) الوعساء: موضع بين الثعلبية والخزيمية على جادة الحاج، وهي شقائق رمل متصلة، وخبت بفتح فسكون: علم لصحراء بين مكة والمدينة.

(٢٤) الذماء بالفتح: هو بقية النفس.

(٢٥) الطليح: هو البعير نال منه الإعياء، والظليع والظالع: هو البعير يغمز في مشيه.

(٢٦) الشعث: جمع أشعث وهو من غبره السفر.

(٢٧) الهباب بالكسر: النشاط، والنص أقصى ما عند الناقة من السير.

(٢٨) الحرار: جمع الحرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود، والأماعيز: جمع أمعوز بالضم، وهي الأرض الصلبة، واللاب: جمع اللابة واللوبة، وهي الأرض ذات الحجارة.

(٢٩) الطول بالفتح: الجود.

(٣٠) الطفل بالتحريك: هو الشمس قرب الغروب، ورامة منزل بينه وبين الرمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكة.

(٣١) الربطة: ملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، والزلازل: الأطراف.

(٣٢) فارة التاجر: هي فارة المسك.

(٣٣) في الديوان (أن أبيت كما بي).

(٣٤) احم: أسود العينين.

(٣٥) حو: جمع حواء وهي السمراء، والضرب بالتحريك العسل، والشمول الخمر تبردها ريح الشمال.

(٣٦) الصريم: الرمل المنقطع.

(٣٧) ثور: هتف.

(٣٨) المنشظ: المنبت، والشيح والحوذان: نباتات.

(٣٩) معاطيل غير حوال، أي وحشيات.

(٤٠) النقيب بالتصغير: اسم مكان.

(٤١) العرانين: جمع عرنين بالكسر وهو الأنف.

(٤٢) داريا: اسم موضع.

(٤٣) البين: بكسر الباء الناحية والفصل بين الأرضين.

(٤٤) يوضع الهوى: من الإيضاع وهو الإسراع.

(٤٥) الواجد: المشتاق.

(٤٦) الدمالج: جمع دملج على وزن جندب وهو المعضد، والبرين: الخلاخيل مفردها برة على وزن ثبة.

(٤٧) الثغب بالفتح: هو بقية الماء في بطن الوادي، والمعين: الجاري.

(٤٨) عطون: من العطو بالفتح وهو التناول ورفع الرأس واليدين، وعطا الظبي: تطاول إلى الشجر ليتناول منه.

(٤٩) السجوف: جمع سجف، بالفتح ويكسر، وهو الستر، والأديم: الجلد.

(٥٠) اللبات: جمع اللبة بالفتح وهي موضع القلادة من الصدر.

(٥١) البداوي: المنسوبات إلى البادية، والغيل بالفتح: الساق الريان. والعميم: الممتلئ.

(٥٢) التأطر: التثني.

(٥٣) العجب: بفتح العين التعجب، والعجب: بالضم التيه والازدهاء.

(٥٤) معذب بصيغة الفاعل.

وصف السود الملاح

أيها السادة

حدثتكم منذ أشهر أن ابن سكرة كان أولع بجارية سوداء، فقال: فيها ألوف الأبيات، وحدثتكم أن الشريف الرضي تأثر ذلك الشاعر في وصف السود الملاح، وفي هذا المساء يتضح لكم أن الشريف وقف عند حدِّه في الوصف، فلم يتعد الكلام عن اللون، إذ قال على لسان من سأله مدح جارية سوداء:

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عذروا   وذنب من لام مظلمًا غير مغتفر
لما تمالوا على عذلي أجبتهم   بعزّ معترف لا ذلّ معتذر
أهوى السواد برأسي ثم أمقته   فكيف يختلف اللونان في نظري
تأبى طلائع بيض ذرّ شارقها   في عارضي أن تكون البيض من وطري
إني علقت سواد اللون بعدكم   علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت   صبغ الليالي على الأجياد والعذر
جعلته لسواد الرأس تذكرة   أن تفقد العين يرض القلب بالأثر
والليل أستر للخالي بلذته   والصبح أفضح للساري على غرر
وللفتى في ظلام الليل معذرة   وما له في الضحى إن ضلّ من عذر
لا أجمع الحب للبيض الحسان إلى   ما بيض الدهر والأيام من شعري
وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري   من كان مثل سواد القلب والبصر

فما هذا الكلام؟ وما هذا المنطق؟ إن الشريف في هذه القصيدة يعبث عبث الأطفال! فهل من الحق أن الرجل يعشق السوداء؛ لأن سوادها يذكره بسواد الناصية؟

وهل من الحق أن الرجل يبغض البيضاء؛ لأن بياضها يذكره ببياض الشيب؟ نترك هذا، وننظر قوله من كلمة ثانية:

أحبك يا لون الشباب لأنني رأيتكما في القلب والعين توأما
سواد يودّ البدر لو كان رقعة بجلدته أو شق في وجهه فما
لبغض عندي الصبح ما كان مشرقًا وحبب عندي الليل ما كان مظلمًا
سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه فلم أدر من عزّ من القلب منكما
وما كان سهم الطرف لولا سواده ليبلغ حبات القلوب إذا رمى
إذا كنت تهوى الظبي ألمي فلا تعب جنوني على الظبي الذي كله لمى

فماذا ترون في هذه الأبيات؟ هل غرست في قلوبكم الميل إلى السواد في الملاح؟ ولنسايره مرة ثالثة، فننظر كيف يقول:

أذات الطوق لم أقرضك قلبي على ضني به ليضيع ديني
كفاك حلي جيدك أن تحلى بأطواق النضار أو اللجين
سكنت القلب حيث خلقت منه فأنت من الحشا والناظرين
أحبك أن لونك لون قلبي وإن ألبست لونًا غير لوني
عديني وامطلى وعدي فحسبي وصالًا أن أراك وأن تريني
نظرتك نظرة لما التقينا على وجلين من هجر وبين
كأني قد نظرت سواد قلبي بوجهك ظاهرًا لسواد عيني

الحق أن أشعار الشريف في النساء السود كلها لعب في لعب، وقد جاء في الديوان أنه سئل أن يقول في السواد كما قال ابن الرومي، فقال: والسكوت كان أولى وأوجب؛ لأن الشريف لم يكن يستطيع أن يجاري ابن الرومي في هذه الميدان، وكيف وابن الرومي شاعر فاجر لا يضيره أن يذكر الخصائص الأصلية في المليحة السوداء؟ وهل كان يكفي أن يقال: إن السواد أفضل من البياض كما فعل الشريف، وكان من الغافلين؟

إن قصيدة ابن الرومي في محبوبته السوداء قصيدة فريدة في الشعر العربي، وما كان يجوز للشريف أن يتورط في معارضته؛ لأن الفصل في هذه القضية ما كان يمكن لشاعر يتقنع بالحياء، ومركز الشريف في المجتمع لم يكن يسمح له بأن يخلع قناع الحياء.

الواقع أن الشريف لم يكن يستطيع أن يفضل لونًا على لون، أو جنسًا على جنس؛ لأن هذا التفضيل لا يتيسر إلا لجماعة من الشعراء سيصيرون فيما يقال من حطب الجحيم.

والشريف — فيما نرجح — كان رجلًا «طيبًا» يصف الجمال بالسماع!

عفاف الشريف

أيها السادة

رأيتم ما كان يحيط بشاعرنا من المحرجات، ورأيتم أنه حرم نفسه أعظم لذة يتغنى بها المشببون، فلم يصف مراتع الأنس، وملاعب الطيش، ولم يتحدث عن أسرار الهوى في الكرخ أو بغداد.

وقد آن أن تعرفوا بوضوح أن شاعرنا لم يكن له بدّ من الحديث عن العفاف: العفاف المطبوع، أو العفاف المصنوع، ومن المؤكد عندي أن الشريف كان من المتجملين، ولم يكن من المنافقين، فهو قد عشق بالفعل، وكيف لا يعشق والعراق بفطرته مفطور على تقلب القلوب؟ ألم تروا كيف بتلاعب جوه من صحو إلى غيم، ومن برد إلى قيظ؟ ألم تروا إلى أهله كيف يغضبون ويبتسمون في لحظة واحدة؟ ألم تلاحظوا أن العراق تفرد بمزية غريبة هي الإسراف، ففيه ظهر أعاظم النساك، وفيه نبغ أكابر الفساق؟

إن هذه الطبيعة المزدوجة هي الشاهد على تقلب القلوب، والقلوب لا تتقلب إلا بقوة الإحساس، والإحساس القوى هو منبع العشق، والعشق على جموحه هو أساس النظام في حياة الرجال.

وكان من حظ الشريف أن يكون صورة طريفة لذلك الازدواج، فلم يكن من النساك، ولا من الفساق، وإنما كان قلبه مسرحًا لتقلب الأجواء العراقية، فكان فاسق النظر، عفيف الخطرات، خطرات القلب والروح.

ولم يكن عفاف الشريف بابًا من عفاف الضعفاء أصحاب الحب العذري، فالعذريون في حقيقة الأمر كانوا مرضى لا يحسنون صيال الفحول، أما الشريف فكان رجلًا قويًّا، وكانت فحولتة تدعوه إلى التفكير في شريف المصاهرات، وهو قد تزوج بالفعل وأنجب،

فلم يبق إلا أن يكون عفافه بابًا من التصون ليسلم من ألسنة السفهاء، والتصون هو في ذاته قوة؛ لأن كبح النفس يحتاج إلى نضال، وقد ناضل صاحبنا في سبيل شرفه فلم يمت إلا وهو مرموق الجلال.

أيها السادة

لا تحسبوني أتفلسف، فأنا في هذه المحاضرات من خدام الحقائق، وحولي عيون وأرصاد تصدني عن شطط الخيال.

وقد تأملت ما قال الشريف في العفاف مرات ومرات قبل أن أدون الكلام الذي تسمعون، وصحّ عندي أن غراميات ذلك الرجل كانت عراكًا في عراك.

هو عفيف، ولكن حديثه عن عفافه يشعرنا بأنه كان يجاهد هواه جهاد المستميت، وانظروا كيف يقول:

تذكرت أيامًا بذي الأثل بعدما ... تقضى أواني في الصبا وأوانها
يطيب أنفاس الرياح ترابها ... ويخضلّ من دمع الغمائم بانها
ولما عطفت الناظرين بلفتة ... إلى الدار عبرة العين شانها
ليالي تثنيني عواطف صبوتي ... إلى بدويات تثنى لداتها
ولا لذة إلا الحديث كأنه ... لآل على جيداء واه جمانها[1]
عفاف كما شاء الإله يسرني ... وإن سيء منه بكرها وعوانها

فما رأيكم في هذه الأبيات؟ أعلنوا رأيكم بصراحة، فليس بيني وبينكم حجاب، ألا ترونها جميعًا قوية، ألا هذه الشطرة:

عفاف كما شاء الإله يسرني

وإنما أستضعف هذه الشطرة؛ لأني أعتقد أن مشيئة الله أقحمت إقحامًا في هذه الأبيات؛ مراعاة لأهواء الجهلاء!

وهذه الأبيات:

يشكو الحبيب إليّ شدة شوقه   وأنا المشوق وما يبين جناني
وإذا هممت بمن أحب أمالني   حصر يعوق وعفة تنهاني[٢]
لله ما أغضت عليه جوانحي   والشوق تحت حجاب قلبي عان[٣]

فهل ترون فيها إلا اعتلاجًا في اعتلاج؟ هل ترون إلا رجلًا يخشى ثورة المجتمع على من يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية؟

وهذه الأبيات:

ولما أبى الأظعان إلا فراقنا   وللبين وعدليس فيه كذاب[٤]
رجعت ودمعي جازع من تجلدي   يروم نزالًا للجوى فيهاب
وأثقل محمول على العين دمعها   إذا بان أحباب وعزّ إياب
فمن كان هذا الوجد يعمر قلبه   فقلبي من داء الغرام خراب
ومن لعبت بيض الثغور بعقله   فعندي أحر الباردين رضاب[٥]
يعفُّ عن الفحشاء ذيلي كأنما   عليه نطاق دونها وحجاب
إذا لم أنل من بلدة ما أريده   فما سرني أن البلاد رحاب

فهل ترون هذه الأبيات إلا صورة من صور النضال بين المجد والحب؟ إن الشاعر يصرح باللوعة، ثم يثور على هواه، فيعلن أن قلبه من داء الغرام خراب؛ ليصح له أن يقول: إن المجد غاية مناه، وليس من الكثير على مثله أن يدوس الهوى في سبيل المجد، فتلك ثورة نفسية عرفها أحرار الرجال، ولكن من الواجب أن نتذكر هذا لنعرف أن صاحبنا لم يؤثر العفاف وهو طائع، وإنما اختار العفاف؛ لأنه أصلح الصفات لبلوغه من المجد ما يشتهيه، وللمجد شهوة أقوى وأفحل من شهوة الجمال.

ثم اسمعوا الأبيات الآتية فهي أغرب:

وأبقت لي الأيام حزمًا وفطنة   ووقرن جأشي بالأمور الغرائب
توزع لحمي في عواجم جمة   وبان عل جنبيَّ وَسْمُ التجارب[٦]
وأرض بها بعت الصبابة والصبا   وناهض قلبي الهمُّ من كل جانب

وزور من الأضغان نحوي كأنما يلاقيهم شخصي لقاء المحارب[٧]
أناسيهم بغضاءهم غير غافل وأسألهم معروفهم غير راغب
وإني لأطويهم على عظم دائهم وأقعد منهم بين رام وجالب
ألا رب مجد قد ضرحت قذاته[٨] وكان على الأيام جم الشوائب
وسرّ كتمت الناس حتى كتمته ضلوعي ولم أطلع عليه مآربي
وأغيد محسود على نور وجهه هجرت سوى لحظ البعيد المجانب
وغيداء قيدت للعناق ملكتها فنزهت عنها بعد وجد ترائبي
وما عفة الإنسان إلا غباوة إذا لم يكافح داء وجد مغالب

ألا ترون قوة النفس في هذا الشعر الغريب؟ ألا تشهدون عثير المعركة بين العقل والقلب؟ إن الرجل يصرح بأن العفة ضرب من الغباوة والجهل، ولا يرى لها أية قيمة إلا إن كانت بابًا من الكفاح، الكفاح ضد أدواء الوجد المغالب. والشاعر بهذه الوثبة الشعرية يؤرخ قلبه أعظم تأريخ، فهو يدرك نور الوجوه — ولبعض الوجوه أنوار — ويدرك حلاوة العناق — وفي بعض العناق حلاوة تزلزل الجبال — ولكنه بجانب ذلك يتذكر مطالبه العالية في ساحات المجد، والمجد فيه نور، وفيه رضاب، وفيه عناق، وفيه كل ما تشتهي أنفس الفحول، وهل يشقى الناس أنفسهم في سبيل المجد إلا إذا رأوه أروع وأفتن وأملح وأعذب من جميع ما تغريهم به بوارق الحسن الفتان؟

ولكن هذا الجبار المتمرد على الحب قد يتفق له أن يرق فيقول:

يقرّ بعيني أن أرى لك منزلًا بنعمان يزكو تربه ويطيب[٩]
وأرضًا بنوّار الأقاحي صقيلة تردد فيها شمأل وجنوب
وأي حبيب غيب النأي شخصه وحال زمان دونه وخطوب
تطالت الأعلام بيني وبينه وأصبح نائي الدار وهو قريب
لك الله من مطلولة القلب بالهوى قتيلة شوق والحبيب قريب
أقل سلامي إن رأيتك خيفة وأعرض كيما لا يقال مريب
وأطرق والعينان يومض لحظها إليك وما بين الضلوع وجيب[١٠]
يقولون مشغوف الفؤاد مروّع ومشغوفة تدعي به فتجيب[١١]
وما علموا أنا على غير ريبة بقاء الليالي نغتدي ونؤوب

عفافي من دون التقية زاجر وصونك من دون الرقيب رقيب
عشقت ومالي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب
ومالي يا لمياء بالشعر طائل سوى أن أشعاري عليك نسيب[١٢]
أحبك حبًّا لو جزيت ببعضه أطاعك مني قائد وجنيب
وفي القلب داء في يديك دواؤه ألا رب داء لا يراه طبيب

وهذه قطعة تصافح القلوب، ولكن ماذا صنع صاحبنا الشريف؟ لقد ترفق بمحبوبته، فمنحها شطرًا من الفضل إذ جعل تصونها أعنف الرقباء، وهذا معنى إنساني نبيل، وهل ينكر منصف أن من النساء من يجاهدن الهوى كما يجاهده أعفاء الرجال؟ هل ينكر منصف أن هناك نساء نعاشرهن طوال السنين وفي قلوبنا وجد مشبوب، ثم نكتفي منهن بحلاوة الإنس وبشاشة الحديث؟

لا تقولوا: إن الشريف يتكلف العفاف، فإن حاله يختلف عن حال أبي نواس، وأمثال أبي نواس ممن لا يرون الوجوه الصباح إلا في المواخير، فإن التبذل في وصف ليالي الأنس يقبل من شاعر لا يرى وجه الدنيا إلا في سراديب الحانات، أما الشعراء الذين تسمح لهم مقاماتم في المجتمع بأن يكونوا على صلات مع كرائم «العلائلات» فلهم شان آخر؛ لأنهم يدخلون بيوتًا لها قدسية المحاريب، وليس من التزيد أن أقول: إني عرفت هذا النوع من الحياة فرأيته أغرب الألوان في عالم الشعر والخيال، وله لذّة أنضر وأعمق من لذة العبث والمجون، ولكن أين من يدرك كرائم المعاني؟

ثم اسمعوا أيضًا كيف يقول:

ولله قلبي ما أرق على الهوى وأصبى إلى لثم الخدود النواضر
يحنّ إلى ما تضمن الخمر والحلى[١٣] ويصدف[١٤] عما في ضمان المآزر
ولما غدونا للوداع ونقرت صروف النوى دون الخليط المجاور
عنيت من القلب العفيف بعاذل[١٥] ومن خدع الشوق السفيه بعاذر
عشية لا عرس الوفاء بمرمل لدينا ولا أم الصفاء بعاقر
ومن لم ينل أطماعه من حبيبه رضي غير راض بالخيال المزاور
وكنت أذود الدمع إلا أقله لسقيا حمى من بعد بينك داثر

وإنـي لا أرضـى إذا مـا تـحـمـلـت إلـيـه مـرابـيـع الـسـحـاب الـمـواطـر

فهل رأيتم أدق من هذا الوصف؟ وهل رأيتم أظرف من هذا العاشق المنافق؟ ما هو الفرق بين ما يضمر الخمار، وما يضمن الإزار، يا مولانا الشريف؟

الفرق بعيد جدًّا، فالحنين إلى ما يضمن الخمار هو من النوازع التي يتفرد بها أصحاب الأذواق الرقاق، أما التطلع إلى ما يضمن الإزار فهو من شهوات الإذواق الغلاظ!

ثم انظروا صورة النزاع بين العقل والقلب، انظروا كيف يبتلى الرجلين بقوتين: قوة العاذر من الشوق السفيه، وقوة العاذل من القلب العفيف.

لقد سمعتم بما سماه القدماء خيال البحتري، ولعلكم قرأتم تفصيل ذلك في كتاب (مدامع العشاق)، ولكن ألا ترون أن الشريف بلغ الغاية في وصف تفاهة الفرح بالطيف حين قال:

ومن لم ينل أطماعه من حبيبه رضي غير راض بالخيال المزاور

تأملوا عبارة (رضي غير راض).

وبعد هذه القطعة أبيات أرى إمتاع أسماعكم بها، فهي عندي من وثبات الخيال.

كليني إلى ليل كأن نجومه تغازل طرفي عن عيون الجآذر
أمرّ بدار منك مشجوجة الثرى بمجرى نسيم الآنسات الغرائر[١٦]
تمر عليها الريح وهي كأنها تلفت في أعطاف تلك المقاصر

ألا ترون يا أدباء بغداد كيف يزعم شاعركم أن للطبيعة أحاسيس؟

ألا ترون كيف يدعي أن الرياح تمرّ بتلك الدار فتتلفت إلى ما فيها من مقاصير؟

ليت الوقت يسمح بأسماعكم فقرات من كتاب (التصوف الإسلامي) لتروا بقوة المنطق أن الشريف لم يكن عابثًا، وإنما كان يحسّ ما سيقوله أنصار القول بوحدة الوجود بعد مئات السنين، وهل يعقل أن تمرّ الريح بالوادي الجديب، كما تمر بالوادي الخصيب؟ هل يعقل أن تمرّ النسمات بوجوه أهل البلادة كما تمر بوجوه أرباب القلوب؟

وهل اختلت الموازين في الدنيا حتى نصدق أن الأرض التي تدوسها البهائم كالأرض التي تتخطر عليها أقدام الظباء؟

نترك هذه الفلسفة الوجدانية، وننتقل إلى قول الشريف:

يا وقفة بوراء الليل أعهدها كانت نتيجة صبر عاقر الوطر
والوجد يغصبني قلبًا أضن به والدمع يمنع عيني لذة النظر
طرقتهم والمطايا يستراب بها والليل يرمقني بالأنجم الزهر
أصانع الكلب أن يبدي عقيرته[17] والحيّ مني إذا أغفوا على غرر[18]
وفي الخباء الذي هام الفؤاد به نجلاء من أعين الغزلان لا البقر[19]
أبرزتها فتخاصرنا مباعدة عن الخيام نعفي الخطو بالأزر
ثم انثنيت ولم أدنس سوى عبق على جنوبي لريا بردها العطر

وفي هذه القطعة ألفاظ طريفة كعبارة (عاقر الوطر)، ونعوذ بالله من الوطر العاقر، ونسأله السلامة من عقم الأماني! وفيها أيضًا سياسة يحسنها المحبون، وهي مصانعة الكلاب، ولا بدّ لكل عاشق من مصانعة الكلاب، بل لا بد لكل رجل من مصانعة الكلاب!

ولكني أحب أن أنوه بتلك المخاصرة، فما يليق أن يعيش صاحبنا عيش المحروم في جميع الأحوال، وهل يتفق العفاف مع المخاصرة؟ تلك إحدى المعضلات؟

إن العفاف هنا ليس صورة للعفاف الذي يمضغه أدعياء الدين، وإنما هو عفاف الشاعر الذي يرى ما دون الرذيلة مباحًا في مباح، ويكفي لغفر ذنوبه أن يمتعنا بهذا البيت:

ثم انثنيت ولم أدنس سوى عبق على جنوبي لريا بردها العطر[20]

الله أكبر! ما هذا السحر يا أظرف الفاسقين!
ثم ماذا؟ ثم يقول في مخاطبة الظباء:

أنا من علمتن الغداة نقية أزري وضامنة العفاف مآزري
فاعرفن كيف شمائلي وضرائبي وانظرن كيف مناقبي ومآثري
كمعاقد الجبل الأشم معاقدي ومجاور البيت الحرام مجاوري

وكان يمكن أن نعيب عليه النص على المآزر في هذا الكلام النفيس، ولكن ماذا يصنع والناس في سرهم وجهرهم يطوفون حول ذلك الجمر المدفون!

وحسبه من الشرف أن يقول:

ومجاور البيت الحرام مجاوري

فهذا كلام لا يقوله إلا الفتيان الشرفاء، وفيه صور لا تخفى على اللبيب، ثم يقول:

وكم ليلة بتنا على غير ريبة   علينا عيون للنهى ومسامع
نفض حديثًا عن ختام مودة   معاقلنا أحشاؤنا والأضالع
يكاد غراب الليل عند حديثنا   يطير ارتياحًا وهو في الوكر واقع
خلونا فكانت عفة لا تعفف   وقد رفعت في الحيّ عنا الموانع
سلوا مضجعي عني وعنها فإننا   رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

فإلى من توجه هذا الكلام أيها الفاجر العفيف؟

وما رأيك إذا خبرناك أننا سألنا تلك المضاجع، فأنبأتنا أن أكاذيبك الطريفة لن تمنع من دخولك الجنة مع الصادقين؟!

أيها السادة

تذكروا أن الشريف شاعر، وللشعراء أضاليل أفضل من الهداية، وأكاذيب أشرف من الصدق، وعبث ماجن هو في جوهره أنضر وأطيب من الجد الرزين.

هوامش

(١) جيداء: وصف من الجيد بالتحريك وهو دقة العنق مع طول، والجمان على وزن غراب اللؤلؤ، واحدته جمانة.

(٢) الحصر بالتحريك: هو العي في المنطق.

(٣) عان: أسير.

(٤) كذاب بكسر الكاف وفتح الذال بدون تشديد.

(٥) الرضاب بضم الراء: هو الريق.

(٦) العواجم: جمع عاجم وهو الذي يعجم العود، أي بعضه ليختبر صلاحيته لعمل الرماح، والوسم في الأصل الكي، ومنه الميسم وهو المكواة.

(٧) الزَّور بفتح الزاي: هم الزائرون.

(٨) ضرح القذاة: منعها ونحاها.

(٩) يرى القارئ في هذا الجزء أن الشريف دعى على (نعمان) بالعطش، وهو الآن يعطف عليه، وهذا يؤيد ما قلناه من أن النص على هذه المنازل قد لا يدل على أنه يعنيها بالذات، ونعمان اسم لعدة مواضع، أشهرها نعمان الأراك، وهو بين مكة والطائف.

(١٠) كلمة (ما) في هذا الشطر اسم موصول.

(١١) في الديوان (تدعو به فيجيب).

(١٢) لمياء: اسم امرأة، من اللمى وهو سمرة الشفتين، والعرب يحبون سمرة الشفاه، وما أحسبهم على ضلال!

(١٣) الخمر: جمع خمار بكسر الخاء، والحلى: جمع حلية.

(١٤) في الديوان (يصدق) وهو تحريف.

(١٥) عنى يعني — من باب ضرب — شقي يشقى.

(١٦) مشجوجة: مجروحة.

(١٧) العقيرة: يراد بها الصوت.

(١٨) الغرر بالتحريك: هو التعرض للهلاك.

(١٩) في الديوان (والبقر).

(٢٠) الريا: الرائحة العطرة.

حجازيات الشريف

أيها السادة

سمعتم فيما سلف أن الشريف الرضي تفتحت عبقريته بفضل طريق الحج، وموسم الحج، ورأيتم أقباسًا من جذوات وجده المشبوب.

ونريد اليوم أن نتكلم بالتفصيل عن قصائده الحجازيات.

ولي مع تلك الحجازيات تاريخ، فقد ألقيت عنها محاضرة في نادي الموظفين بالقاهرة منذ سنين، ثم كتبت عنها بعد ذلك فصولًا مطولة في جريدة البلاغ، وقد حاولت إحضار تلك الفصول من القاهرة، ولكني لم أستطع؛ فأنا أكتبها للمرة الثالثة، وذلك عناء أتقبله في سبيل الشاعر البكاء الذي خلد مواسم العيون والقلوب.

أيها السادة

إن أسلافنا لم يخطئوا حين جعلوا حجازيات الشريف من فرائد الشعر العربي، فهي قصائد تفردت بغرائب من الأحاسيس، والشريف في هذه القصائد من فحول الابتكار والإبداع، فهو لا يكرر ما سبق إليه الشعراء، وإنما تتفجر عبقريته عن معان طريفة تشوق الأذواق والعقول.

والشريف في الحجازيات كأبي نواس في الخمريات، فإن أبا نواس ألحّ إلحاحًا شديدًا في وصف الصهباء، وكانت لجاجته في وصفها خليقة بأن تقذف به في مهاوي الإسفاف، ولكنه مع ذلك تماسك، وظل دائمًا من المبدعين.

وكذلك الشريف، فهو لم يكتف في وصف موسم الحج بقصيدة، أو قصيدتين، أو ثلاث قصائد، أو سبع قصائد، وإنما قال وأعاد، ثم قال وأعاد حتى بلغت قصائده في الحنين إلى موسم الحج نحو الأربعين.

وأنتم تدركون — أيها السادة — خطر هذا الإسراف، فقد كان كفيلًا بأن يسوقه إلى مدارج الابتذال، ولكن الشاعر ظل قويًّا، وظلت معانيه جديدة على الزمان، فهو في حجازياته قادر على أن يبهر بيرون وجوت وميسيه، ومن إليهم من الشعراء الذين جعلوا الحب شريعة إنسانية لها من الشعر فرقان وإنجيل.

وإني لأخشى — أيها السادة — أن أكون بهذه الإشارة ظلمت الشريف، فالشعراء العشاق في فرنسا، وإنجلترا، وألمانيا، والنمسا، وإيطاليا عاشوا في بلاد لا تدعي أنها تحرس الدين، والتقاليد في الأندية الأدبية، أعني أنهم نظموا قصائد الحب في بيئات يغلب عليها المرح، ويصرفها الفتون، فالشاعر كانت تسوقه المغريات إلى التشبيب، والملاح اللائي يدرن الأندية الأدبية إدارة الكؤوس كنّ يطلبن بالقول، أو بوحي، الملاحظ أن تكون لهن سيرة كالجدائل المعطرة في قصائد الشعراء، فلم يكن من المستغرب، ولا المستبعد أن تتسع مذاهب القول في وصف الوسامة والجمال.

أما الشريف فكان ينظم الحجازيات في مواطن لا يجوز فيها رفث، ولا فسوق، وينشدها بين أقوام يصطحبون، ويغتبقون بالتسبيح والتكبير والتهليل.

فأنصفوا الحق أيها السادة، واعترفوا بأن الحجازيات ما كانت تصدر عن شاعر يعيش في بيئة مثقلة بالتحرج والتعفف والتنسك إلا إن كانت جذوات صدره أقوى وأعنف من أن تطفئها شآبيب التحنف بين زمزم والحطيم.

أنتم اليوم في عصر يسمونه (القرن العشرين)، ويزعمون أنه حرّر المشاعر والقلوب من رباق التقاليد، فهل فيكم شاعر يملك من الجرأة ما كان يملك الشريف منذ نحو ألف نسمة، يوم كانت قالة السوء تصرف رجلًا مثله عن ولاية المظالم، وإمارة الحج، ونقابة الأشراف؟ هل يستطيع طلعت حرب — وهو رجل حرّ الذهن والعقل — أن يضيف إلى الشريط السينمائي: شريط الحج، منظرًا يمثل موقعة غرامية في سفح عرفات؟ إنه لو فعل لقامت قيامة المتزمتين في مصر، والمغرب، والشام، واليمن، والحجاز، والعراق، وقال القائلون: إنها دسيسة يراد بها انتهاك المناسك، والغض من هيبة الإسلام.

تصوروا — أيها السادة — أن وصف الحسن الذي ينثر أيام الصيف على الشواطئ المصرية يضيف الشاعر أو الكاتب إلى عصبة الماجنين، وإن صحّ لأحد شعرائنا أن يقول في شاطئ الإسكندرية:

رعاه الحب من شط جميل خفيف الروح مصقول أنيق
بهيّ الرمل تحسبه سجوفًا مطرّزة بحبات العقيق
أطوف به فيغلبني خشوعي كأني طفت بالبيت العتيق
أيا حرم الظباء أنرت روحي بمشكاة من الحسن الرفيق
ولو كشفت غشاوتهم لقالوا صبايا الخلد تسبح في الرحيق

إنه لا مفرّ من الاعتراف بأن الشريف كان مثال الجرأة والشجاعة حين استطاع أن يؤرخ هواه في أيام الحج بقصائده الحجازيات، وهذه الجرأة كانت من فيض الشاعرية، فإن الشاعر الحق أشجع الناس، وأقدرهم على الاستهانة بالمكاره والحتوف.

قد تقولون: إن عمر بن أبي ربيعة سبقه إلى هذه الجرأة، ونجيب بأن الفرق بعيد بين الشاعرين: فعمر بن أبي ربيعة نشأ في صدر الإسلام، يوم كان دينًا سمحًا لا تثقله الأوهام التي أثقلته فيما بعد، حين حمل أوزار الواغلين الذين نقلوا إليه أوضار التزمت والجمود، فيما ورثوا عن أصولهم في الشرق أو في الغرب، من بلادات المتزهدين، وغباوات المتقشفين، ورقاعات المتنسكين، كان عمر بن أبي ربيعة يعيش بين أمراء وخلفاء كانوا في حقيقة الأمر من أشراف الفتيان، وكان الناسكون لعهده رجالًا ظرفاء، لا ينكرون حقوق الأفئدة والقلوب.

أما الشريف فعاش في الصدر الثاني من القرن الرابع بعد أن حمل الإسلام ما حمل من عسير التقاليد، وبعد أن كانت بغداد قد عرفت ألوانًا من التزهد والتقشف تجعل الغزل في مواسم الحج ضربًا من اللهو والفجور مع استثناء الظرفاء من الصوفيين العراقيين الذين أطفنا بأخبارهم في كتاب (التصوف الإسلامي).

ذلك فرق بين العصرين: عصر صديقنا عمر، وعصر أستاذنا الشريف.

وهناك فرق بين الرجلين: فعمر بن أبي ربيعة كان في يأس من المجد السياسي، فلم يكن ينتظر أبدًا أن يكون له مجال في سياسة الدولة الإسلامية التي استبد بها الأمويون، وكذلك أقبل على دنياه ينهب منها ما تسمح به مواسم الحج من التطلع إلى الخدود

النواضر، والعيون الفواتك، ويخلق لنفسه آفاقًا من السيطرة الوجدانية تعوض ما فاته من السيطرة السياسية والإنسان حيوان لئيم يهمه أن يسيطر في أي ميدان.

أما الشريف فكان له حال غير تلك الحال، كان الشريف علويًّا، والعلويون كانت لهم مطامع سياسية توارثوها من جيل إلى جيل، والذي يراجع ما فصلناه في كتاب (المدائح النبوية) يعرف أن أولئك القوم كانوا بلغوا غاية الغايات في رياضة أبنائهم، وأحفادهم، وأسباطهم على الإيمان بأنهم مظلومون، وأن الدنيا لا تصلح إلا إن رجع إليهم الأمر في قيادة المسلمين، وقد وصلوا في ذلك إلى غاية لا تحتمل ولا تطاق، فكانوا يتصورون أن الدنيا — إن لم يسوسوها — ستظل ظلمات من فوقها ظلمات.

وكان الشريف الرضي يرى نفسه أهلًا للخلافة الإسلامية، وساعده على ذلك مركز أبيه في المجتمع، وتشرفه بالانتساب إلى علي بن أبي طالب، وكان لعلي بن أبي طالب سلطة روحية هائلة في تلك العهود، ويكفي أن نحدثكم أن الخليفة القادر أذاع في الناس أنه رأى في منامه نهر الصليق قد اتسع حتى صار عرض دجلة دفعات، وأنه سار على حافته فرأى عليه قنطرة عظيمة، فأراد أن يعبر فانبثق النهر من حوله؛ فرأى شخصًا يناديه: أتريد أن تعبر؟ فقال: نعم، فمدّ يده حتى وصلت إليه، وأخذه فعبر به، وهاله الفعل، فسأل: من يكون هذا المتفضل بنجاته؟ فقال صاحب اليد الكريمة: علي بن أبي طالب، هذا الأمر صائر إليك، ويطول عمرك فيه، فأحسن إلى ولدي وشيعتي.

وهذه الرؤيا الصحيحة أو المخترعة تشهد بأن العلويين في ذلك العهد كان ينصب لهم ميزان، وكان الخلفاء العباسيون يرون من السياسة أن يداروهم بالثناء على جدهم أمير المؤمنين.

وكانت الظروف تسمح بعض السماح بأن يتطلع الشريف إلى الخلافة، فقد كان له في ذات نفسه خصائص ترشحه لذلك المنصب: كان من أسباط الرسول، وكان متفوقًا في العلوم النقلية والعقلية، وكان جميل الوجه جدّا، بحيث استطاع بعض أساتذته أن يقول: إنه لم يستبح النظر إلى وجهه إلا بعد أن اخضرَّ شاربه، ونبت عارضاه، والجمال كان من الصفات المأثورة عن الرجل الذي أعزَّ العرب في بقاع الأرض، وخلد لغتهم على وجه الزمان الرجل الذي اسمه أحمد ﷺ وحشرنا في زمرة أصفيائه يوم يقوم الحساب.

كان ذلك أيها السادة حال الشريف، فتصوروا كيف جاز لرجل له مثل تلك الأماني أن يفضح نفسه بين الناس، فيصرح بأنه من عبيد النحور، والخدود، والعيون؟

إن ذلك لا يقع إلا في حالين اثنين: حال الشعر، وحال الجنون.

وما اعتقد أن الشريف كان من المجانين، فلم يبق إلا أن يكون من الشعراء.

وما أدعوكم إلى الخروج على تقاليد المجتمع لتُعَرْبِدُوا في معاقرة الحسن عربدة الشريف. لا، وإنما أرجوكم أن ترحموه وتعطفوا عليه، فهو من سلالة قلَّ فيها الشعر جدًّا، حتى صار من كنايات العرب أن يقال: فلان من نسل الرسول، ويعنون أنه لا يصلح للانتساب إلى الشعراء. وما كان من الحق أن ينسلخ أسباط الرسول من الشاعرية، وإنما السبب في ذلك أن القبائل التي كانت ترشح نفسها للملك لم تكن ترى الشعر مما يليق بالملوك والخلفاء، وذلك باب من القول فصلته في كتاب (النثر الفني)، فلا أعود إليه في هذا المساء، ويكفي أن تذكروا أن الشاعرية لا تزكو إلا إن عاش الشاعر عيش البلبل يتنقل كيف يشاء بين أماليد الأفانين، والتأهب للملك يوجب أن يصير الرجل من عبيد المجتمع، فيعيش كرئيس الجمهورية الفرنسية لا يلقي أية كلمة في أي محفل إلا بعد استئذان.

وأريد — أيها السادة — أن أقول: إن الشريف الرضي لم يكن يصلح لغير الشعر، وأخشى أن أقول: إن إمارته للحج لم تكن إلا منحة يتفضل بها عليه الخلفاء العباسيون ليكون الفتى الذي اسمه الشريف الرضي خليفة للشيخ الذي اسمه أبو أحمد الموسوي.

ولكن شاعرنا جمع بين المزيتين، فكان أميرًا للحج، أميرًا فقيهًا، يقدم إلى الحجيج العراقي ما يبصره بالمشاعر والمناسك، وكان شاعرًا يتلهف على الحسن تلهف الظامئ إلى الورد الممنوع.

فإن اختال علينا أهل الأدب والذوق من اللاتينيين والسكسونيين والجرمانيين بأن عندهم قسيسين ورهبانًا يدركون أسرار الأدب الرفيع، فسنقول: إن عندنا «شيخًا» يؤدي الفرائض والنوافل، ويقرأ الأوراد، وهو مع ذلك شاعر حساس يفوق جوت، وبيرون، ولامرتين.

فإن سألوا: ومن هو ذلك الشيخ الشاعر؟

قلنا: هو الشيخ الذي ذهب لأداء فريضة الحج فبهرته الصباحة فقال:

نظرتك نظرة بالخيف كانت جلاء العين مني بل قذاها
ولم يك غير موقفنا فطارت بكل قبيلة منا نواها
فواهًا كيف تجمعنا الليالي وآهًا من تفرقنا وآهًا
وأقسم بالوقوف على آلال ومن شهد الجمار ومن رماها

وأركان العتيق وبانييها   وزمزم والمقام ومن سقاها
لأنت النفس خالصة فإن لم   تكونيها فأنت إذن مناها
نظرت ببطن مكة أم خشف   تبغم وهي ناشدة طلاها
وأعجبني ملامح منك فيها   فقلت أخًا القرينة أم تراها
فلولا أنني رجل حرام   ضممت قرونها ولثمت فاها

تلكم إحدى طلائع الحجازيات، فلنتناولها بشيء من التحليل، ولنبدأ بهذين البيتين:

ولم يك غير موقفنا فطارت   بكل قبيلة منا نواها
فواهًا كيف تجمعنا الليالي   وآهًا من تفرقنا وآهًا

فذلك شاعر يطوف بالبيت فتقع عينه على غرائب الحسن، ثم يكشف الواقع غشاوة هواه، إذ يعرف أنها لحظة لن تعود. ومن الذي يضمن للشاعر أن يسمح الزمان اللعوب بأن يردّ إليه هوى قلبه بعد عام أو عامين؟ وهل يمكن أن تسمح ظروف العيش لإنسانة هاجرت في سبيل الحج من الأندلس أم المغرب، أو مصر أو الشام أن تعود لتلك المواقف مرة ثانية؟ من الذي يضمن لك حين تقع عينك على وجه جميل في بلد غريب أن تجود الأيام برؤيته مرة ثانية ولو في عرض الطريق؟ وهل تعرف المقادير قلب الشاعر فتعطف على جواه؟

إن الشريف يؤلف المقاطع من قلبه الممزّق وهو يقول:

فواهًا كيف تجمعنا الليالي   وآهًا من تفرقنا وآها

وإن حاله لشبيه بحال صديق أعرفه بعض المعرفة، ولعله يلبس إهابي، وربما كانت معرفتي بذلك الصديق هي السرّ في اهتمامي بحجازيات الشريف، وكان ذلك الصديق رأى فتاة ألمانية بقطار المترو في باريس، فدعاها إلى معاقرة الحديث ساعة أو ساعتين، فاعتذرت بأنها على سفر، ثم قالت وهي تواسيه: On se verra, peut etre!.

وقد ركب صديقنا المترو ألف مرة، وحج باريس مرات، ولم يسمح الزمن بأن تقع عينه مرة ثانية على تلك العيون، فواحر قلباه!

واتفق لذلك الصديق أن يدعوه فريق من أصفيائه إلى زيارة نور منديا في كل عام مرة، ولكن الزيارة الأولى لبساتين التفاح كانت في الوقت الذي فرغ فيه من دراسته

بالسوربون، فكانت أيامه بتلك البساتين أول العهد وآخر العهد، وقد رجع إلى فرنسة بعد ذلك، ولكنه وا أسفاه كان يصل بعد (مايو) شهر الأزهار والرياحين، وقد علمت أن شواغله في دنياه لن تسمح له أبدًا برؤية نور منديا في شهر مايو، إلا أن يصبح من تقاليد الحكومات أن ترسل البعثات لتثقيف الذوق والوجدان!

يكفي هذا في الطواف حول هذين البيتين، ونترك لأذواقكم درس الحسن في بقية القطعة، وننتقل إلى الأبيات الآتية، وقد قالها في مدينة الرسول في المحرم سنة ٣٩٤:

وما كنت أدري الحب حتى تعرضت	عيون ظباء بالمدينة عين
فوالله ما أدري الغداة رميننا	عن النبع أم عن أعين وجفون
بكل حشًا منا رمية نابل	قويّ على الأحشاء غير أمين
جلون الحداق النجل وهي سقامنا	ووارين أجيادًا وسود قرون
ولولا العيون النجل ما قادنا الهوى	لكل لبان واضح وجبين
يلجلجن قضبان البشام عشية	على ثغب من ريقهن معين
ترى بردًا يعدى إلى القلب برده	فينقع من قبل المذاق بحين
تماسكت لما خالط اللب لحظها	وقد جن منه القلب أي جنون
وما كان إلا وقفة ثم لم تدع	دواعي النوى منهن غير ظنون
نصصت المطايا أبتغي رشد مذهبي	فأقلعن عني والغواية دوني

فما رأيكم في هذه الأبيات؟ قد تقولون: إن فيها معاني مألوفة، وهو كذلك، ولكن هل تغيب عنكم قوة إحساسه بالمألوف من تلك المعاني؟ أرجوكم أن ترجعوا إلى الفصل الذي أنشأناه عن المبتذل والطريف في الجزء الأول من كتاب النثر الفني لتعرفوا بوضوح كيف يكون المعنى مألوفًا، ثم يكون صاحبه أشعر الناس؛ لأنه أحسّه أقوى إحساس.

ومن الذي ينكر قوة الشاعرية في هذا البيت:

يلجلجن قضبان البشام عشية	على ثغب من ريقهن معين

من الذي ينكر أن كلمة (يلجلجن) على ثقلها وقعت أجمل موقع في هذا البيت؟

من الذي ينكر طرافة الخيال في هذا البيت:

ترى بردًا يعدي إلى القلب برده ‏‏ ‏‏ فينقع من قبل المذاق بحين

والمهم عندي هو النص على عبقرية السحر في هذا البيت:

وما كان إلا وقفة ثم لم تدع ‏‏ ‏‏ دواعي النوى منهن غير ظنون

المهم أن تتصوروا مبلغ إحساسه بالوحشة لفقد الجمال، وإن تذكروا كيف يتشوق ويلتاع.

وهذه الأبيات:

تذكرت بين المأزمين إلى مِنَى ‏‏ ‏‏ غزالًا رمى قلبي وراح سليمَا
لئن كنت أستحلي مواقع نَبله ‏‏ ‏‏ فإني ألاقي غبهن أليما
أصاب حرامًا ينشد الأجر حسبة ‏‏ ‏‏ فما عاد مأجورًا وعاد أثيمَا
فلو كان قلبي بارئًا من ألمته ‏‏ ‏‏ ولكنَّ أسقامًا أصبنَ سقيما
إذا بلَّ من داء أعادت له المها ‏‏ ‏‏ نكاسًا إذا ما عاد عاد مقيمَا
يظنونني استطرفت داء من الهوى ‏‏ ‏‏ وهيهات داء الحب كان قديمَا
قنصت بجمع شادنًا فرحمته ‏‏ ‏‏ وأخفق قناص يكون رحيمَا
أأغدو مُهينًا بالحبائل ساعة ‏‏ ‏‏ غزالًا على قلبي الغداة كريما
تراءت لنا بالخَيف نفح لطيمة ‏‏ ‏‏ سرت عنك إلا عبقة ونسيما
ولم أر مثل الماطلات عشية ‏‏ ‏‏ ذوات يسار ما قضين غريما

وهذه أبيات هادئة النفس، ولكن ما رأيكم في هذا البيت:

أصاب حرامًا ينشد الأجر حسبة ‏‏ ‏‏ فما عاد مأجورًا وعاد أثيمَا

إن الشريف كان يتوهم أنه كحمام الحرم لا يُطرد ولا يُصاد، وكان يجهل أن الحرم يباح فيه صيد القلوب! ... وهذا البيت:

قنصت بجمع شادنًا فرحمته   وأخفق قناص يكون رحيما

فهو يمثل الحسرة اللاذعة التي يحسها من يرحم الجمال، فيضيع منه الجمال. وهذا البيت:

ولم أَرَ مثل الماطلات عشية   ذوات يسار ما قضين غريما

وهو يمثل لؤم الملاح: فهن يملكن الوفاء، ثم لا يقدمن غير الصدود. وفي منطق الشريف أن المليحة يقبح منها المطل؛ لأنها موسرة، موسرة بالحسن والصباحة، والشاعر لا يطلب غير الأنس بالحسن والصباحة، والجود لا يتلف المحاسن كما يتلف الأموال!

وما رأيكم في هذه القصيدة التي سارت في المشرقين والمغربين، وعارضها جمهور من الشعراء:

يا ظبية البان ترعى في خمائله   ليهنك اليوم إن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه   وليس يرويك إلا مدمع الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة   بعد الرقاد عرفناها برياك[1]
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب   على الرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بذي سلم   من العراق لقد أبعدت مرماك
وعد لعينيك عندي ما وفيت به   يا قرب ما كذبت عينيّ عيناك
حكت لحاظك ما في الريم من ملح[2]   يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي
كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا   بما طوى عنك من أسماء قتلاك
أنت النعيم لقلبي والعذاب له   فما أمرك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها   لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
سقى مني وليالي الخيف ما شربت   من الغمام وحياها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله   منا ويجتمع المشكو والشاكي
لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا   ما كان فيه غريم القلب إلّاك[3]

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى | من علم العين أن القلب يهواك
حتى دنا السرب ما أحييت من كمد | قتلي هواك ولا فاديت أسراك
يا حبذا نفحة مرت بفيك لنا | ونطفة غمست فيها ثناياك
وحبذا وقفة والركب مغتفل | على ثرى وخدت فيه مطاياك[4]
لو كانت اللمة السوداء من عددي | يوم الغميم لما أفلت أشراكي[5]

فما ترون في هذه القصيدة العصماء؟ خبروني ماذا ترون؛ فإنها تسمو على كل تحليل؟

أيكون السحر في أن يصبح القلب مرعى تلك الغزالة؟ أيكون السحر في ألا يرويها الماء المبذول، وإنما يرويها الدمع المسفوح؟ أم يكون في أن يعرف العاشق مهب الريح بما تحمل عنها من نفحات؟ وما هو ذلك السهم الذي يبعد مرماه فيصيب وهو بذي سلم أحشاء من في العراق؟

إن هذه من الحقائق النواصع — لو تعلمون — فالعاشق تقوى عنده ذاكرة النظر، ويتصور ملامح معشوقه على بعد الديار وعلى بعد السنين فتغزوه الملامح الفتانة في كل وقت، كلما أدار أبصار فكره على ما رأت عيناه في عالم الفتون، والجاهل هو الذي لا يعرف ذلك، الجاهل هو المحروم من نعمة الخيال الوثاب الذي يمثل ما نأى وما بعد، وكأنه مشاهد ملموس، والشعراء بهذه المنحة الربانية يتمتعون بالمحاسن في صور مختلفات، ويشهدون المنظر الفاتن ألوف المرات، على حين لا يراه الجاهل غير مرة واحدة — إن كان الجاهل يدرك ما يراه — وأكثر أهل الأرض جهلاء، وإن ظفروا بأعظم الألقاب، وعلى الله رزق الدواب.

ويحدثنا الشاعر عن وعد العيون، وللعيون وعود.

فهل يسمح الشريف بأن نعترض على ما نسبه إلى محبوبته من خلف الوعد؟

هل يصدقنا الشريف إذا حكمنا بأن العيون عالم منفصل عن عالم القلوب؟

هل يصدقنا الشريف إذا جزمنا بأن العين تعد وتحلف، وتبرم وتنقض، في غيبة القلب؟

إن الناس يظنون منذ ألوف السنين أن العيون رسل القلوب، فليعرفوا منذ اليوم أن العين خلق عجيب لا يعرف أسراره غير علام الغيوب.

ولعل الشريف فطن إلى ذلك حين استدرك فقال:

يا قرب ما كذبت عينيّ عيناك

وحين قال:

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا بما طوى عنك من أسماء قتلاك

فهو يرى للعيون أعمالًا يجهلها أهل العيون، والأمر والله كذلك، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

ويقول:

حكت لحاظك ما في الريم من ملح يوم اللقاء فكان الفضل للحاكي

فيرينا أن الحلاوة في عيون النساء أمتع من الحلاوة في عيون الظباء.

والحق في هذه القضية أن عيون الغزلان في غاية من الروعة، ولكنها محرومة من صفة أساسية في عيون الملاح، وهي الإفصاح، أو ما يعبر عنه الفرنسيون بكلمة Regard expressit فعين الظبية تروعك، ولكنها لا تحدثك، أما عين المرأة فتروعك، وتفضي إليك في لحظة واحدة بألف حديث وحديث، ولعلّ الشريف قصد إلى ذلك حين قال: فكان الفضل للحاكي.

وانظروا كيف سجل مناسك الحج بهذين البيتين:

سقى مني وليالي الخيف ما شربت من الغمام وحياها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله منا ويجتمع المشكوّ والشاكي

فهل رأيتم أظرف من هذا الكلام؟ وهل تدركون ما فيه من دقيق الإشارات؟ اغفروا لي هذه الهفوة، فما اتهمكم بالجهل، والعياذ بالذوق، وإنما أريد أن أهجم على الشريف فأقول: إنه كان يتخذ أيام الحج مواعيد غرام، وأخشى أن أقول: إنه لم يكن يفارق مناسك الحج إلا على ميعاد. وهذا يفسر حرصه على إمارة الحج بالأصالة عن نفسه، أو بالنيابة عن أبيه، ولا تستكثروا أن يحج الرجل ليرى امرأة يهواها، أو أن تحج المرأة لترى رجلًا

تهواه، فقد كنا ننظم المواعيد في القطار بين ليون وباريس، مواعيد لعام أو عامين، ثم نفي فنلتقي بعد عام أو عامين، وللقلوب غرائب لا تدركها العقول.

وما الذي يمنع من مجاراة أبي عمرو بن العلاء في الحكم بين الأعشى ولبيد؟

أتذكرون ما قال أبو عمرو بن العلاء؟

إنه قال: لبيد رجل صالح، والأعشى رجل شاعر.

وكذلك أحكم بأن الشريف رجل شاعر، وليس برجل صالح.

وهل قلَّ الصالحون في الدنيا حتى نشرفهم بالشريف؟

إن الأغبياء يعدون بالألوف، وألوف الألوف، وإمارة الحج تولاها مئات ممن يحسنون التسبيح والتهليل، فليكن فيهم رجل واحد يفهم أن الحج معرض من معارض الجمال في أمة قامت تقاليدها على الاستهانة بالجمال.

لتكن حجازيات الشريف هي الشاهد على أن ماضينا لم يكن كتلة من الجمود، وإنما كان ماضي أمة حية تدرك دقائق الأحاسيس، تأملوا هذه الصورة:

لما غدا السرب يعطو بين أرحلنا ما كان فيه غريم القلب إلَّاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوًى من علَّم العين أن القلب يهواك

ثم انظروا كيف يضل المرء بين الحسان، وليس له فيهن إلا محبوبة واحدة، وذلك أظرف أنواع الضلال.

وتأملوا قوله:

وحبذا وقفة والركب مغتفل على ثرى وخدت فيه مطاياك

فهذا البيت يشهد بأن شاعرنا كان ينتهب الفرص التي يغفو فيها الركب؛ ليمتع القلب اليقظ بما يوحي الهوى من انتهاب القبلات.

وما رأيكم في هذه الأبيات:

أيها الرائح المغذ تحمل حاجة للمعذب المشتاق[٦]
أقر عني السلام أهلي المصلى[٧] فبلاغ السلام بعض التلاقي[٨]

وإذا ما مررت بالخيف فاشهد   أن قلبي إليه بالأشواق
وإذا ما سئلت عني فقل نضـ   ـو هوى ما أظنه اليوم باقي
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع   ومني عند بعض تلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبـ   ـل أعير الدموع للعشاق

ما رأيكم في إحساس من يحكم بان «بلاغ السلام بعض التلاقي»، ما رأيكم فيمن يشعر بالأنس حين يمر بخاطر من يهواه؟

والشاعر واثق بأن هناك قلوبًا تسأل عنه حين يغيب، وما أسعد من يشعر بأن في الدنيا قلوبًا تسأل عنه حين يغيب! وشاعرنا لا تفارقه السيطرة العلوية، فهو يحب أن يبكيه الأحباب، فيوصي الرسول بأن يحدثهم أنه أصبح في حكم الفانين عساه يظفر منهم بزفرة، أو شهقة، أو أنين.

وما هذا البيت:

ضاع قلبي فانشده لي بين جمع   ومني عند بعض تلك الحداق

أتعرفون كيف تضيع القلوب، وكيف ينشدها الناشدون؟؟ أتحسون المعنى الملفوف في هذه الكلمة «عند بعض تلك الحداق»؟ أتفهمون من هذا أن الرجل كان له في الحجاز هوى خاص؟

وهذا البيت:

وابك عني فطالما كنت من قبـ   ـل أعير الدموع للعشاق

أنت كنت تعير الدموع للعشاق؟

ليت العباس بن الأحنف كان رآك قبل أن يقول:

نزف البكاء دموع عينك فاستعر   عينًا لغيرك دمعها مدرار
من ذا يعيرك عينه تبكي بها   أرأيت عينًا للدموع تعار

لقد بكى العشاق عنك، وبكوا ثم بكوا، فإن لم تصدق فأنصت من عالم الغيب لترى كيف يسمع أهل العراق أبياتك هذه مرات في كل يوم من حنجرة أم كلثوم.

وهذه الأبيات:

حيّ بين النقا وبين المصلى وقفات الركائب الأنضاء[9]
ورواح الحجيج ليلة جمع وبجمع مجامع الأهواء
وتذكر عني مناخ مطيي بأعالي منى ومرسى خبائي[10]
وتعمد ذكري إذا كنت بالخيـ ـف لظبي من بعض تلك الظباء
قل له هل تراك تذكر ما كا ن بباب القبيبة الحمراء
قال لي صاحبي غداة التقينا نتشاكى حرّ القلوب الظماء
كنت خبرتني بأنك في الوجـ ـد عقيدي وأن داءك دائي
ما ترى النفر والتحمل للبيـ ـن فماذا انتظارك للبكاء؟[11]
لم يقلها حتى انثنيت لما بي أتلقى دمعي بفضل ردائي

إن الشاعر يحس معنى الحياة في وقفات الركائب الأنضاء؛ لأن السفر لا ينضي الركائب إلا بعد أن تصل بالعاشق إلى هواه، فهو يطرب لوقفاتها في قرار واطمئنان.

والشاعر يوصي رفيقه بأن يتذكر عنه مناخ مطاياه، وتلك لفتة شعرية لا يدركها إلا الأقلون.

وكما حدثنا عن «بعض تلك الحداق» يحدثنا عن «بعض تلك الظباء»، فيقول:

وتعمد ذكري إذا كنت بالخيـ ـف لظبي من بعض تلك الظباء
قل له: هل تراك تذكر ما كا ن بباب القبيبة الحمراء

وعبارة «ما كان» عبارة لطيفة يوشيها الذوق، وهي أبرع من عبارة ابن المعتز إذ يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيرًا ولا تسأل عن الخبر

لأن ابن المعتز أحاط عبارته بالشبهات.

أما الأبيات الأخيرة فهي تشعركم بأن الشريف لم يكن يودع مناسك الحج بالتلبية والتكبير، وإنما كان يودعها بزفرة الملتاع على ما يفارق من خدود وعيون.

أيها السادة

ما رأيكم في هذا القصيد المرقص:

من معيد لي أيا مي بجزع السمرات[12]
وليالـيّ بجمع ومنى والجمرات
وظباء حاليات كظباء عاطلات
رائحات في جلابيـ ـب الدجا مختمرات[13]
راميات بالعيون النجـ ـل قبل الحصيات
ألعقر القلب راحوا أم لعقر البدنات
كيف أودعت فؤادي أعينا غير ثقات
أيها القانص ما أحسنـ ـت صيد الظبيات
فاتك السرب ومازوّ دت غير الحسرات
يا وقوفًا ما وقفـ ـن في ظلال السلمات[14]
موقفًا يجمع فتيا ن الهوى والفتيات
نتشاكي ما عنانا بكلام العبرات
نظر يشغل منا كل عين بقذاة
كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهاة
آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفتات
وغرام غير ماض بلقاء غير آت
فسقى بطن منى والخـ ـيف صوب الغاديات
وزمانًا نائم العذا ل مأمون الوشاة
في ليال كاللآلي بالغواني مقمرات
غرست عندي غرس الشو ق ممرور الجناة
أين راق لغرامي وطبيب لشكاتي

ما رأيكم فيمن يرى أن يسمي هذه القصيدة «أنشودة الحجيج»؟

لا تعجبوا من هذا الاقتراح فمواسم الحج تحتاج إلى ضروب من الأناشيد، مواسم الحج في شوق إلى من يرجعها إلى عهدها الأول يوم كانت أقدم ما عرف الناس من المعارض الدولية، مواسم الحج تحتاج إلى شاعر كالشريف يفرق بين عقر البدنات وعقر القلوب، وتحتاج إلى شاعر يعلم الناس أدب الصيد فيقول:

أيها القانص ما أحسنـ ـت صيد الظبيات
فاتك السرب ومازو دت غير الحسرات

وتتشوف إلى من يتلهف على أيامها فيقول:

آه من جيد إلى الدا ر كثير اللفتات
وغرام غير ماض بلقاء غير آت

وأعظم الحسرات أن تتشوف إلى أنس لن يعود، ويرحم الله أرباب القلوب!

وهذه القصيدة التي تسجل لوعة القلب إلى ما شهد في طريق الحج من أسباب الفتون:

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى فلاقى بها ليلًا نسيم ربا تجد
فإن بذاك الحيّ إلفًا عهدته وبالرغم مني أن يطول به عهدي
ولولا تداوي القلب من ألم الجوى بذكر تلاقينا قضيت من الوجد
ويا صاحبيّ اليوم عوجا لتسألا ركيبًا من الغورين أنضاؤهم تخدي[١٥]
عن الحيّ بالجرعاء جرعاء مالك هل ارتبعوا واخضر واديهم بعدي
كأن بعيني بعدهم عائر القذى[١٦] إذا أنا لم أنظر إلى العلم الفرد
شممت بنجد شيحة حاجرية فأمطرتها دمعي وأفرشتها خدي
ذكرت بها ريا الحبيب على النوى وهيهات ذا يا بعد بينهما عندي
وإني لمجلوب لي الشوق كلما تنفس شاك أو تألم ذو وجد
تعرّض رسل الشوق والركب هاجد فتوقظني من بين نوامهم وحدي
فقلت لأصحابي ألا تتزافروا رويدكم إن الهوى داؤه يعدي

وما شرب العشاق إلا بقيتي   ولا وردوا في الحب إلا على وردي

والقصيدة واضحة لا تحتاج إلى من يدل على ما فيها من محاسن، ولكن لا بدّ من النص على هذه العبارة:

هل ارتبعوا واخضر واديهم بعدي.

فإنها تصور فهمه لمعاني السعادة في البوادي، وقد يكون في الارتباع والاخضرار إشارة إلى ما يتخوفه من أن يأنس الأحباب بغير هواه بعد الفراق.

ثم انظروا إحساسه بالفروسية في الحب إذ يقول:

تعرّض رسل الشوق والركب هاجد   فتوقظني من بين نوامهم وحدي
وما شرب العشاق إلا بقيتي   ولا وردوا في الحب إلا على وردي

وحدثوني عن شعوركم بهذا المعنى الطريف، فذلك شاعر يرى أن أطياف الشوق تعرفه بين الركب بسيماه، ويعتقد أن العشاق لا يردون في الحب إلا على ورده، ولا يشربون إلا بقاياه، والعشاق كالأنبياء لا تجود الدنيا بهم في كل يوم، وإنما تسمح بهم من جيل إلى أجيال.

وما رأيكم في هذه الأبيات:

تحمّل جيراننا عن منى   وقالوا النقا بيننا موعد
وهل نافع قول ذي غلة   وقد بعد الركب لا يبعدوا
تنادوا بأن التنائي غدًا   لك السوء من طالع يا غد
فالله ما جمع المأزما   ن وجمع لقلبي والمسجد
يضاع فينشد قعب الغبوق   وقلبي يضاع ولا ينشد[17]
وغيداء من ماطلات الديون   لها بالحمى زمن أغيد
تريع كما التفتت ظبية   بذي البان عن لها المورد[18]
نظرت وهيهات من ناظريك   ظباء تهامة يا منجد
ويا ربما والهوى ضلة   ترى العين ما لا تنال اليد

ألا ترون هذه الحسرة الدامية؟ ألا تحسون اللوعة في هذا البيت:

تنادوا بأن التنائي غدًا | لك السوء من طالع يا غد!

وأي لوعة آلم وأوجع من لوعة المفارق الذي لا يعرف متى يعود؟ أي لوعة آلم وأوجع من لوعة من يودع ناسًا لا يدري أيلقاهم مرة ثانية أم يكون أنسه بهم آخر العهد في دنياه؟

وهذا البيت:

ويا ربما والهوى ضلة | ترى العين ما لا تنال اليد

وهل في الدنيا أفظع وأشنع من أن ترى العين ما لا تنال اليد؟ إن هذا أصل الشقاق والنزاع بين طوائف الإنسان والحيوان، وكل شقاء في عالم الذوق والوجدان يرجع إلى أصل واحد: هو أن ترى ولا تملك. وهل يعرف أحد حقيقة اللوعة في قلب الشاعر الذي يرى امرأة جميلة وهو يعرف أن لن تنالها يده، وأنها مع ذلك قد تكون ملكًا لرجل سخيف لا يدرك أسرار الجمال؟

نترك هذا الشطط، وننتقل إلى هذه الأبيات:

ألا يا ليالي الخيف هل يرجع الهوى | إليكن لي لا جازكن ندى القطر
فيا دين قلبي من ثلاث على منى | مضين ولم يبقين غير جوى الذكر
ورامين وهنًا بالجمار وإنما | رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
رموا لا يبالون الحشا وتروحوا | خليين والرامي يصيب ولا يدري
وقالوا غدًا ميعادنا النفر عن منى | وما سرني أن اللقاء مع النفر
ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه | سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
فيا صاحبي إن تعط صبرًا فإنني | نزعت يديّ اليوم من طاعة الصبر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه | فميعاد دمع العين منقلب السفر

وهذا شعر واضح، ولكن لا بدّ من التذكير ببعض المحاسن، كأن ننص على الخيال في هذا البيت:

ورامين وهنًا بالجمار وإنما رموا بين أحشاء المحبين بالجمر

وما هو بخيال، وإنما هو حقيقة تراها العيون، ومن الذي ينكر أنه يتمنى أن يكون شيطانًا ترجمه بعض الأنامل الرقاق؟ فهل يستكثر على الشريف أن يقول: إن بعض الراميات لا ترمي بالجمار، وإنما ترمي الأحشاء بالجمر المشبوب؟

ما هذه البدعة الطريفة التي تفرد بها الحج الإسلامي؟ ما هذا التلطف الظريف الذي شرعه الإسلام، وهو يوجب على المرأة المليحة أن تمدّ معصمها لترمي الجمار؟

أما خطر ببال أحد الفقهاء أن يتصور أن المعصم الجميل قد يكون أفتن وأخطر من الشيطان الذي يرجمه الحجاج؟

ليت الدهر يسمح بأن نرى مرة كيف ينعم صديقنا الشيطان، وهو يتلقى الرميات من أيدي الملاح! إن حظه لو تعلمون عظيم!

وهذا البيت:

رموا لا يبالون الحشا وتروّحوا خليين والرامي يصيب ولا يدري

والمهم هو النص على أن الرامي قد يصيب وهو لا يدري، ذلك منطق الشريف! والأغرب منه أن ننص على أن الرامي قد يقصد هدفًا واحدًا فيصيب هدفين!

وهذا البيت:

ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر

فذلك هو المعنى الأصيل الذي يدور حوله الشريف في سائر الحجازيات.

وهذه الأبيات وقد قالها عند دخول الحجيج إلى مدينة السلام في شهر صفر سنة ٣٩٥.

عارضًا بي ركب الحجاز أسائلـ ـه متى عهده بسكان سلع[١٩]
واستملّا حديث من سكن الخيـ ـف ولا تكتباه إلا بدمعي
فاتني أن أرى الديا بطرفي فلعلي أرى الديار بسمعي

هل ترون؟ ألا تحسون لوعة المشتاق إلى أنفاس الظباء بالحجاز؟ ذلكم شاعر فاته أن يحج فلم يبق أمامه إلا أن يتنسم أرواح القادمين ليرى الديار بأذنيه، وقد فاته أن يراها بعينيه؟ والعاشق يستبيح كل شيء حتى الأنس بالخيال، وهو والله مظلوم فقد ينشد القدح الضائع، ولا ينشد الفؤاد المفقود ... وهذه الأبيات:

إني علقت علي منى	لمياء يقتلني لماها
راحت مع الغزلان قد	لعبت بقلبي ما كفاها
تبغي الثواب فمهجتي	هذي القريحة من رماها
وقف الهوى بي عندها	وسرت بقلبي مقلتاها
بردت عليّ كأنما	ظل الغمامة عارضاها
شمس أقبل جيدها	يوم النوى وأجل فاها
وأذود قلبًا ظامئًا	لو قيل وردك ما عداها
ولو استطاع لقد جرى	مجرى الوشاح على حشاها
يا يوم مفترق الرفا	ق ترى تعود لملتقاها
قالت سيطرقك الخيا	ل من العقيق على نواها
فعدى بطيفك مقلة	إن غبت تطمع في كراها
إني شربت من الهوى	حمراء صرف ساقياها
يا سرحة بالقاع لم	يبلل بغير دمي ثراها
ممنوعة لا ظلها	يدنو إليّ ولا جناها
أكذا تذوب عليكمو	نفسي وما بلغت مناها؟
أين الوجوه أحبها	وأودّ لو أني فداها
أمسي لها متفقدًا	في العائدين ولا أراها
واهًا ولولا أن يلو	م اللائمون لقلت آها

ما رأيكم في هذا الشعر المرقص؟ وما هي التعابير التي تفصح عما فيه من فتون؟ ما رأيكم في العذوبة التي تتموج بين ألفاظه ومعانيه كما يتموج البريق في الثنايا العذاب؟ حدثوني عند أي بيت نقف لنحدد غرائب البيان؟

انظروا هذا البيت:

إني علقت علي منى　　　لمياء يقتلني لماها

تجدوا المعنى قديمًا مبذولًا تناهبه مئات الشعراء. ولكن ألا توافقون على أن الشريف أداة تأدية رشيقة حتى كاد يصبح من المبتكرات؟

وهذا البيت:

راحت مع الغزلان قد　　　لعبت بقلبي ما كفاها

وهو أيضًا معنى قديم، ولكن هل تدركون الصورة الشعرية التي تتمثل في قوله:

لعبت بقلبي ما كفاها

وهو يريد أنها لم ترح مع الغزلان إلا بعد أن شبعت لعبًا بذلك القلب الخفاق، وهل تشبع الظباء من اللعب بالقلوب!

وهذا البيت:

وقف الهوى بي عندها　　　وسرت بقلبي مقلتاها

فقد يمكن رجع صدره إلى قول دعبل:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي　　　متأخر عنه ولا متقدم

ولكن من الذي يجهل قيمة اللطف في هذه الشطرة:

وسرت بقلبي مقلتاها

وهذا البيت:

بـردت عـلـيّ كـأنـمـا　　ظل الغمامة عارضاها

والبرد كلمة لها في التشبيب مدلول خاص، وهي تشبه الكلمة الفرنسية Fraicheur.
وهذا البيت:

شـمـس أقبّل جيدهـا　　يوم النوى وأجل فاها

هو أيضًا معنى قديم، ولكن لا يكذب من يقول: إنه من مبتكرات الشريف.
وهذا البيت:

وأذود قـلـبًـا ظـامـئًـا　　لو قيل وردك ما عداها

وما أحسبكم تطالبونني بالتنبيه على ما في هذا البيت البارع من جمال، فإني أخشى أن تفسده الشروح، وانظروا كيف عقب عليه بهذا البيت:

ولـو اسـتـطـاع لـقـد جـرى　　مجرى الوشاح على حشاها

وأحب أيها السادة أن تتأملوا الحسن في هذه الأبيات:

يـا سـرحـة بـالـقـاع لـم　　يبلل بغير دمي ثراها
مـمـنـوعـة لا ظـلـهـا　　يدنو إليّ ولا جناها
أكـذا تـذوب عـلـيـكـمو　　نفسي وما بلغت مناها
أيـن الـوجـوه أحـبـهـا　　وأود لـو أنـي فـداهـا
أمـسـي لـهـا مـتـفـقـدًا　　في العائدين ولا أراها
واهًـا ولـولا أن يـلـو　　م اللائمون لقلت آها

أتدركون قيمة العذوبة في هذا القصيد؟
أعتذر مرة ثانية وثالثة ورابعة عن الارتياب في أذواقكم، فمثلي لا يسيء الظن بأذواق أهل العراق، وإنما أعجب حين أرى من يتهمني بالتعصب للشريف، ويطالبني بكشف

ما عنده من عيوب، وأنا والله مستعد لكشف عيوب الشريف، ولكن متى؟ بعد أن يعرف الناس محاسن الشريف.

أليس من العجب العاجب ألا يعرف هذه القصيدة مغنٍّ في تونس، أو مراكش، أو الجزائر، أو صنعاء، أو مكة، أو المدينة، أو دمشق، أو بيروت، أو القاهرة، أو بغداد، وما إلى أولئك من الحواضر العربية؟

لو كانت هذه القصيدة العذبة مما نظم ميسيه، أو بيرون، أو جوت لكانت على جميع الألسنة في بلاد الفرنسيس، والإنجليز، والألمان، ولكنها واأسفاه من نظم شاعر يجهله أكثر العرب، وينكره بعض أهله في العراق.

أنا لا أقول بأن الشريف ابتكر جميع معانيه، فلأكثرها أصول عند أسلافه من الشعراء، ولكني مع ذلك أقول بأن جميع معانيه من المبتكرات؛ لأنه يحسها بأقوى وأعنف ما تتصورون من الإحساس، وقد دعوتكم من قبل إلى مراجعة كتاب النثر الفني لتروا كلمة الحق والصدق في المبتذل والطريف، ولتعرفوا أني في إنصاف هذا الشاعر لم أكن من العابثين.

وهل أستطيع مرة ثالثة أن أدلكم على الحسن في هذين البيتين:

أين الوجوه أحبّها … وأودّ لو أني فداها
أمسي لها متفقدًا … في العائدين ولا أراها

إن المعنى فيهما مأخوذ من قول بعض الشعراء:

ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم … إذا نظرت فلم أبصرك في الناس

ولكن الصورة مختلفة كل الاختلاف.

وأنا — أيها السادة — أقدر منكم على تجريح الشعراء؛ لأني قضيت عشرين سنة أو تزيد في تعقب الألفاظ النثرية، والأخيلة الشعرية، وأستطيع أن أهجم على شاعر مثل المتنبي فأثبت أن معانيه كلها من الحديث المعاد، ولكني لو فعلت لكنت من الظالمين؛ لأني أعرف أن المتنبي أحس معاني شعره أصدق إحساس، وأومن بأنه لم يكن يغير على معاني سواه، وإنما كان يفترع المعاني افتراعًا، وإن أنس بها من قبله كثير من الشعراء.

وهل تظنونني أجبن عن مصارحتكم بكلمة العدل في هذه القضية، وأنا الذي جبهت بها أساتذتي في السوربون في محضر جمهور يعد بالمئات؟

هل تظنونني أجبن عن التصريح بأن النقاد القدماء كانوا يلعبون حين أتعبوا أنفسهم، وأتعبوا قراءهم فيما سموه بالسرقات الشعرية؟

لقد آن لنا أن نقيم النقد الأدبي على قواعد علم النفس، وأظنني وصلت في ذلك إلى بعض ما أريد.

ثم ننتقل إلى هذه الأبيات:

يا رفيقيّ قفا نضويكما — بين أعلام النقا والمنحنى
وانشدا قلبي فقد ضيعته — باختياري بين جمع ومنى
عارضا السرب فإن كان فتى — بالعيون النجل يقضي فأنا
إن من شاط على ألحاظها — ضعف من شاط على طول القنا[٢٠]
تجرح الأعين فينا والطلى — قاتل الله الطلى والأعينا[٢١]
ثم كانت بقباء وقفة — ضمنت للشوق قلبًا ضمنا[٢٢]
وحديث كان من لذته — أحد يصغي إلينا أذنا[٢٣]
غادروني جسدًا تظهره — لهم الشكوى ويخفيه الضنى
حبذا منك خيال طارق — مرّ بالحي ولم يلمم بنا
باخل بخل الذي أرسله — سئل النيل وما جاد لنا
سرحة أعجلها البين وما — لبث[٢٤] الظل ولا ذيق الجنى
ما رأت عيني مذ فارقتكم — يا نزول الحي شيئًا حسنا

وهذه أبيات تدركون ما فيها من روعة الخيال، ويكفي أن نقف عند هذا البيت:

وحديث كان من لذته — أحد يصغي إلينا أذنا

وليس من العجيب أن تصغي الجبال لأحاديث المحبين، فقد صحّ لأحد شعرائنا أن يقول:

وقف النجم وألقى باله — ليعدّ اللمح من قلبي وقلبك
ويح هذا النجم مما هاله — في ضمير الليل من حبي وحبك

على أن صبابات الشريف في مواسم الحج، وفي طريق الحج، ولم تكن كلها من الوجد العابر الذي يمر مرور الطيف، ولا تبقى من نعيمه غير العقابيل، فقد حدثنا أنه طاف بمعاني الوصل، إذ قال:

يا ليلة السفح ألّا عدت ثانيه ... سقى زمانك هطال من الديم[٢٥]
ماض من العيش لو يفدى بذلت له ... كرائم المال من خيل ومن نعم[٢٦]
لم أقض منك لبانات ظفرت بها ... فهل لي اليوم إلا زفرة الندم
فليت عهدك إذ لم يبق لي أبدًا ... لم يبق عندي عقابيلًا من السقم[٢٧]
تعجبوا من تمني القلب مؤلمه ... وما دروا أنه خلو من الألم
ردّوا عليّ لياليّ التي سلفت ... لم أنسهن ولا بالعهد من قدم
أقول للّائم المهدي ملامته ... ذق الهوى وإن استطعت الملام لم[٢٨]
وظبية من ظباء الأنس عاطلة ... تستوقف العين بين الخمص والهضم[٢٩]
لو أنها بفناء البيت سانحة ... لصدتها وابتدعت الصيد في الحرم
قدرت منها بلا رقبى ولا حذر ... على الذي نام عن ليلى ولم أنم
بتنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى ... يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا ... على الكثيب فضول الريط واللمم[٣٠]
يشي بنا الطيب أحيانًا وآونة ... يضيئنا البرق مجتازًا على إضم[٣١]
وبات بارق ذاك الثغر يوضح لي ... مواقع اللثم في داج من الظلم
وبيننا عفة بايعتها بيدي ... على الوفاء بها والرعي للذمم
يولّع الطلّ بردينا وقد نسمت ... رويحة الفجر بين الضال والسلم[٣٢]
وأكتم الصبح عنها وهي غافلة ... حتى تكلم عصفور على علم[٣٣]
فقمت أنفض بردًا ما تعلقه ... غير العفاف وراء الغيب والكرم
وألمستني وقد جدّ الوداع بنا ... كفا تشير بقضبان من العنم[٣٤]
وألثمتني ثغرًا ما عدلت به ... أرى الجنى ببنات الوابل الرذم[٣٥]
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا ... وفي بواطننا بعد من التهم
يا حبذا لمّة بالرمل ثانية[٣٦] ... ووقفة ببيوت الحي من أمم[٣٧]
وحبذا نهلة من فيك باردة ... يعدي على حر قلبي بردها بفمي
دين عليك فإن تقضيه أحي به ... وأن أبيت تقاضينا إلى حكم

عجبت من باخل عني بريقته	وقد بذلت له دون الأنام دمي
ما ساعفتني الليالي بعد بينهم	إلا بكيت لياليـنا بذي سلم
ولا استجدّ فؤادي في الزمان هوى	إذا ذكرت هوى أيامنا القدم
لا تطلبنّ لي الأبدال بعدهم	فإن قلبي لا يرضى بغيرهم

والحسرات في هذه القصيدة حسرات شاعر، وهي أقوى من حسرات Andre Chenier على الجدائل المموجة، والإقدام العارية، وصورة الشاعر مع محبوبته فوق الرمل، وبين وشاية الطيب والبرق، وفي هداية الثغر البراق، وفي حراسة العفاف، صورة جذابة جدًّا، وصورة التوديع الذي عاناه بعد ذلك أرق وأظرف، وأسف الشاعر على تلك الليلة يذيبب القلوب.

والفتوة في صدر الشريف هي التي أنطقته بهذه المعاني، فمن المؤكد أن الدنيا لعهده لم تكن تخلو من أغبياء يصعب عليهم أن يدركوا كيف يصح العفاف لمن يبيتان ضجيعين، هو رجل خُلق للشعر والخيال، لا يصلح للنجاح في المعترك السياسي، ولكنه يؤدي لوطنه وقومه خدمات يعجز عنها الساسيون؛ لأنه يخلق ثقافة الذوق، ويروض النفوس على الأريحية، ويغرس فيها الشوق إلى حب الحياة.

ومن الواضح أن حجازيات الشريف لا تصلح دستورًا للحجاج، فقد يجب أن تكون لهم شواغل غير التطلع إلى النحور والمباسم والعيون، ولكن هل يدّعي الشاعر أنه يضع الشرائع للناس؟ وهل للشاعر شريعة واضحة الرسوم حتى يفكر في سن الشرائع؟

إن الشعراء كالأنهار يحلو لهم الاعوجاج، أما ترون نهر دجلة يمضي يمنة ثم يرجع يسرة؟ أما ترون نهر السين كيف يسير على غير هدى؟ وبفضل ذلك الاعوجاج حسنت مواقع المدائن التي تقوم علي شواطئ الأنهار والبحار، ولو كان شاطئ البحر الذي تقوم عليه مدينة الإسكندرية يعرف الاعتدال لكان من المستحيل أن تظفر الإسكندرية بذلك الموقع البديع الذي يمكن الناظر من أن يراها في الليل، وهي كالعقد على نحر المحيط، وشواطئ الإسكندرية لم تجمل إلا بفضل ذلك الاعوجاج.

كنت أستطيع أن أناقش الشريف فيما ادعاه من العفاف، فأعيد التي جاءت في الجزء الثاني من كتاب البدائع؟ كلمة أستاذنا الدكتور منصور فهمي الذي يرى أن الشهورة قد تخرج من العيون.

ولكن ما رأيكم في أن الله — عز شأنه — لم يضع عقوبة للشهوة التي تخرج من العيون؟

أنكون أغْيرَ من الله؟

إن الشريف رجل شاعر، ولا يعيبه ألا يكون من الصالحين، فإن الصلاح المطلق لا يتم إلا لأهل البلادة والجهل.

كم كنت أتمنى أن أحاسب الشريف على ما ادعاه لنفسه من العفاف، ثم صدني عن ذلك شعوري بأنه لم يكن منافقًا، وأنا رجل يرى الكفر أهون من النفاق.

أيها السادة

لقد طال القول في حجازيات الشريف، وما نريد الاستقصاء، فلنختم البحث بقصيدته اليائية، وقد قالها قبل أن يموت بأربع سنين، قالها عند توجه الناس إلى الحج في ذي القعدة من سنة ٤٠٠ وهو يتلهف على مواقع عينية في أرض الحجيج.

أقول لركب رائحين لعلكم ... تحلون من بعدي العقيق اليمانيا
خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى ... ونجدًا وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على أبيات حي برامة ... فقولوا لديغ يبتغي اليوم راقيا
عدمت دوائي بالعراق فربما ... وجدتم بنجد لي طبيبًا مداويا
وقولوا لجيران على الخيف من منى ... تراكم من استبدلتمو بجواريا
ومن حلّ ذاك الشعب[٣٨] بعدي وراشقت ... لواحظه تلك الظباء الجوازيا[٣٩]
ومن ورد الماء الذي كنت واردًا ... به ورعى الروض الذي كنت راعيا
فوا لهفتي كم لي على الحيّ شهقة ... تذوب عليها قطعة من فؤاديا[٤٠]
صفا العيش من بعدي لحيّ على النقا ... حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فيا جبل الريان إن تعر منهمو ... فإني سأكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا ... نسيتم وما استودعتم الودّ ناسيا
أأنكرتمو تسليمنا ليلة النقا ... وموقفنا نرمي الجمار لياليا
عشية جاراني بعينيه شادن ... حديث النوى حتى رمى بي المراميا
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطه[٤١] ... فيا راميًا لا مسّك السوء راميا
فيا ليتني لم أعل نشزًا إليكمو ... حرامًا ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمع وما جمرتا منى ... ولم ألق في اللاقين حيًّا يمانيا

ويا ويح قلبي كيف زايدت في مهًا[٤٢] بذي البان لا يشرين إلا غواليا
ترحلت عنكم لي أمامي نظرة وعشر وعشر نحوكم لي ورائيا
ومن حذر لا أسأل الركب عنكمو وأعلاق وجدي باقيات كما هيا
ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلا بد أن يلقى بشيرًا وناعيًا
وما مغزل أدماء تزجي بروضة طلا قاصرًا عن غاية السرب وانيا[٤٣]
لها بغمات خلفه تزعج الحشا كجس العذارى يختبرن الملاهيا
يحور إليها بالبغام فتنثني كما التفت المطلوب يخشى الأعاديا[٤٤]
بأروع من ظمياء قلبًا ومهجة غداة سمعنا للتفرق داعيا[٤٥]
تودعنا ما بين شكوى وعبرة وقد أصبح الركب العراقي غاديا
فلم أر يوم النفر أكثر ضاحكًا ولم أر يوم النفر أكثر باكيا

هذه — أيها السادة — أنشودة القلب الحزين، وبها نختم الحجازيات، وكنت أحب أن أتناولها بالنقد والتحليل، ولكني عرضت لها قبل ذلك في مؤلفاتي عدة مرات، وما أدري أين عرضت لها؛ فقد كثرت مؤلفاتي وطالت، وربما كنتم تعرفون عن مؤلفاتي أكثر مما أعرف، فارجعوا إلى ما كتبت في تحليل هذه القصيدة إن كنتم تذكرون!

هوامش

(١) الغور: اسم لعدة مواضع.
(٢) الملح: جمع ملحة بضم الميم وهو ما يستملح ويستطاب.
(٣) يعطو: من العطو وهو التناول ورفع الرأس واليدين.
(٤) مغتفل: من الغفلة والمراد بها الإغفاء. والوخد: السير.
(٥) الغميم: موضع.
(٦) المغذ: المسرع.
(٧) المصلى: اسم موضع.
(٨) في الديوان (وبلاغ السلام بعد التلاقي)، والصواب ما أثبتناه.
(٩) الأنضاء: المهازيل.
(١٠) مرسى من أرسى إذا أقام، ومنه (مجراها ومرساها).
(١١) النفر: هو تفرق الحاج عن منى.

(١٢) السمرات بضم الميم: جمع سمرة وهو اسم موضع، والسمر في الأصل ضرب من الشجر.

(١٣) المختمرات: لابسات الخمار.

(١٤) السلمات: جمع سلمة بالتحريك وهي ضرب من الشجر.

(١٥) الركيب: مصغر ركب، وتخدي: تسرع.

(١٦) العائر: كل ما أعل العين، وفي الديوان (غائر) بالغين المعجمة وهو تحريف.

(١٧) القعب: بفتح فسكون هو القدح الضخم.

(١٨) تريع: ترجع.

(١٩) معارضة الركب: هي السير حيال الركب، وسلع بفتح أوله وسكون ثانيه: جبل أو موضع بقرب المدينة تتصل به قصة وجدانية، فقد سمع يزيد بن عبد الملك جاريته تغني هذه الأبيات:

لعمرك إنني لأحب سلعًا لرؤيتها ومن بجوار سلع
تقر بقربه عيني وإني لأخشى أن تكون تريد فجعي
حلفت برب مكة والمصلى وأيدي السابحات غداة جمع
لأنت على التنائي فاعلميه أحب إلي من بصري وسمعي

ثم رآها تتنفس الصعداء فقال: لم تتنفسين؟ والله لو أردته لفعلته حجرًا حجرًا. فقالت: وما أصنع به؟ إنما أردت ساكنيه!

(٢٠) شاط: احترق وهلك.

(٢١) الطلى بالضم: الأعناق وأصولها، المفرد طلية أو طلاة.

(٢٢) ضمن: فعل ماض من الضمنة بالضم وهي المرض.

(٢٣) أحد بضمتين: اسم جبل كانت به موقعة مشهورة جدًّا.

(٢٤) في الديوان (لبس) وهو تحريف.

(٢٥) ألا: كلمة تحضيض مثل هلا.

(٢٦) النعم بالتحريك وقد تسكن عينه: الإبل والشاء، أو هو خاص الإبل، والجمع أنعام.

(٢٧) العقابيل: بقايا العلة والعداوة والعشق، وما يخرج على الشفة غب الحمى، والشدائد. واحد الكل عقبولة وعقبول بضم العين، وهو ذو عقابيل، أي شرير.

(٢٨) لم يثبت الفاء في جواب الشرط للضرورة.

(٢٩) الخمص: ضمور البطن، والهضم بالتحريك لطف الكشح، والكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلغ الخلف.

(٣٠) الريط: الثياب، واللمم جمع لمة بالكسر، وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن، والمعنى أن الريح كانت تداعب العاشقين بمجاذبة الشعر والثياب.

(٣١) إضم على وزن عنب: جبل، والوادي الذي فيه المدينة النبوية يسمى أسفله إضم.

(٣٢) ولع الطل البرد: رقمه، والضال والسلم: مما تنبت البادية.

(٣٣) المراد بالعلم — بالتحريك — المكان المرتفع.

(٣٤) العنم بالتحريك: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.

(٣٥) المراد من أري الجنى عصير الفواكه ممزوجًا بماء الغيث. والوابل: المطر. والراذم: المتدفق.

(٣٦) اللمة بالفتح هي المرة من اللمام، أي المرور.

(٣٧) من أمم — بالتحريك — أي من قرب.

(٣٨) الشعب بالكسر: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن أرض، أو ما انفرج بين الجبلين.

(٣٩) الظباء الجوازي التي يغنيها العشب عن الماء.

(٤٠) ارجع إلى تحليل هذه المعاني في كتاب (مدامع العشاق).

(٤١) الغبيط على وزن أمير: هو المركب.

(٤٢) في الديوان (منى).

(٤٣) المغزل: ذات الغزال، والأدماء: وصف من الأدمة بالضم، وهي لون مشرب سوادًا أو بياضًا، المذكر آدم على وزن أفعل، وبه سمي أبونا آدم، ولم يكن بالتأكيد من الظباء! والطلا بالفتح: ولد الظبي حين يولد، والصغير من كل شيء، والواني: المتمهل من الضعف.

(٤٤) يحور: يرجع.

(٤٥) ظمياء: معشوقة الشاعر، وهو اسم اصطفاه الشريف وتلميذه مهيار، وبه سميت ظمياء وصيفة «ليلى المريضة في العراق» شفاها الله.

بكاء الشباب

أيها السادة

رأيتم غراميات الشريف، وحجازيات الشريف، فلم يبق إلا أن تروا ما صنع في بكاء الشباب، وأنا أستعير هذا العنوان المفجع من كتاب (مدامع العشاق)؛ لأن الشريف بكى شبابه بكاء لم يتفق لشاعر قديم أو حديث، وما ظنكم بشاعر لم يعش أكثر من سبع وأربعين سنة، ثم اتفق له أن يبكي شبابه في أكثر من سبع وأربعين قصيدة!

ما ظنكم بشاعر مؤجج الإحساس، مرهف الذوق، مفطور القلب يبكي دنيا الحب بكاء الأطفال، ويخشع أمام ذكريا الشباب خشوع المؤمن أمام المحراب.

ما ظنكم بشاعر لا يمسي ولا يصبح إلا وهو على موعد من عيون الظباء، ثم يروعه الشيب فجأة، فيفهم أن الدهر يؤذنه بإلقاء السيف وطيّ اللواء!

ما ظنكم بشاعر عرف ملاعب الهوى على شواطئ دجلة، وشواطئ الفرات، وساقه القلب إلى معاقرة العيون في شتيت البقاع، وذاق أطايب الخلوات في مكة والمدينة وبغداد، ثم ينظر فإذا هو مهدد بالرحيل عن فردوس الصبابة العاتية، والوجد المشبوب!

ما ظنكم بشاب حاد الشباب عنيفه، كما عبر الدكتور طه حسين وهو يصف بعض الشبان، ما ظنكم بشاب هذا حاله يتلفت فيرى دنيا العافية تهجره، وتجفوه بلا ذنب ولا جريرة، فيوقن أن دنيا المحبين إلى زوال!

ما ظنكم بشاعر يؤمن بأن الله لم يخلق أجمل من الشباب، ولم يبدع أنضر من الحب، ثم ينظر مرتاعًا إلى مصيره في الشباب، ومصيره في الحب!

ما ظنكم بشاعر يعيش عزيزًا بين الملاح، ثم يعترف بالذل والضيم حين يرى في فوديه طلائع البياض! والبياض يعشق في كل موضع إلا في الرأس، البياض يعشق في الخدود والصدور، والمعاصم والمباسم، ولكنه في الشعر بغيض ممجوج.

البياض في الزهر بشير الأنس والابتهاج، ولكنه في الشعر نذير الحزن والاكتئاب.

ولن أنسى ما حييت تلك اللوعة التي سمعتها من المسيو ماسينيوس في باريس سنة ١٩٢٩، وكنا نقرأ بعض الأشعار الغرامية فتنهد، وقال: لقد فارقت شبابي! فقلت: لا تجزع، فإن الشاعر العربي يقول:

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب ... فقلت وهل قبل االثلاثين ملعب
لقد جلّ خطب الشيب إن كان كلما ... بدت شيبة يعرى من اللهو مركب

فتنهد مرة ثانية وقال: إن الشاعر قال الثلاثين، ولم يقل الخمسين! وسأعيش دهري كله أتحسر على مصاير من عرفت من الرجال في باريس، الرجال الذين رأيتهم يبالغون في التلطف مع النساء، وما أتعس الرجل الذي لا تبقي الأيام من مزية غير التلطف والترفق في معاملة الملاح!

أيها السادة

أتحسبونني أبكي شبابي؟ وهل عرفت نعيم الشباب، حتى أبكي الشباب؟

إنما أريد أن أهيئ قلوبكم إلى إحساس الفجيعة التي سيتوجع منها الشريف، الفجيعة القاسية التي تصور سقوط السماء على الأرض، وغيض البحار، وزوال الجبال!! أريد أن أصنع مثل الذي صنعت وأنا أتكلم عن عمر بن أبي ربيعة بالجامعة المصرية في أواخر سنة ١٩١٨، وكنت يومئذ طالبًا لا يدري عواقب ما يصنع، فقد دعوت المستمعين إلى استقدام صباباتهم ليدركوا ما تصنع الصبابة بالشاعر اللعوب، واليوم وأنا ألقي محاضرتي بكلية الحقوق في أوائل سنة ١٩٣٨ أدعوكم إلى استقدام صباباتكم ... أستغفر الحب، بل أدعوكم إلى استقدام أساكم وشجاكم لتدركوا ما يصنع الحزن على الشباب بشاعر كان وهّاج الشباب.

ومعاذ الأدب أن أدعوكم إلى انتهاب ما توحي الغواية والفتون، وإن كنت أتمنى أن يكون فيكم خلفاء لعمر بن أبي ربيعة، والشريف الرضي، فقد كان عمر على ضلاله

رجلًا شهمًا ينزه شعره عن التزلف، ويترفع عن مدح الخلفاء، في زمن كان شعراؤه عبيد الخلفاء، وكان الشريف الرضي على غرامه الأثيم — إن كان في الغرام إثم — رجلًا شهمًا يحسب له في مصاير الأمور ألف حساب، ولم يمت إلا وهو مهيب جليل.

فإن عجزتم عن اللحاق بهذين الشاعرين فلا أقل من أن تدركوا ما يهدد اللغة العربية من القحط: قحط العواطف والقلوب، فإن اللغات لا ترقى بالثرثرة اللفظية التي يغرم بها النحويون والفقهاء، وإنما ترقى اللغات بمن يبدعون في وصف المشاعر والأحاسيس، ولكم أن تذكروا كيف ارتقت الإنجليزية بأمثال شلي وبيرون، وكيف ارتقت الفرنسية بأمثال ميسيه ولامرتين.

وهل عاشت العبرانية وقد تقوض ملكها منذ أزمان وأزمان إلا بفضل اللوعة المبثوثة في سفر أيوب؟ ولو أن اللغة العبرانية وقفت عندما يحسن اليهود في الميادين الاقتصادية لأدركها الموت منذ مئات السنين، ولكنها مضت تشرح آلام اليهود، ومآتمهم، ومآسيهم، وأحزانهم، وأشجانهم، فعاشت على وجه الزمان.

إنما ألح في شرح هذا المعنى، وألح فرارًا من شر المتزمتين، فقد يقولون: لقد رأت بغداد أديبًا يزيّن اللهو والمجون.

وما أنا بلاه ولا عابث ولا ماجن، وإنما أنا رجل يبكي مصير لغته بين اللغات، ويؤذيه أن تصبح لغته جافة جامدة، غبية بليدة لا تتكلم عن غير أسعار القطن، وأسعار الحبوب، ولا تروج إلا بحرب الهجاء في الجرائد والمجلات.

أريد أيها السادة أن تتعبوا قليلًا في إنهاض لغتكم، وهي لن تنهض إلا يوم تصبح قيثارة تعبر عن المآسي الإنسانية، وأخطر المآسي هي مآسي القلوب، ولن تصلوا إلى هذه الغاية إلا يوم تدوسون النفاق بأقدامكم، كما داسه عمر الخيام الذي خلق للغة الفارسية ألوفًا وملايين من الأنصار والمعجبين.

لست بلاه — أيها السادة — ولست بماجن ولا عابث، كما قد يتوهم من لا يفهمون.

والذين قرأوا منكم كتاب (حب ابن أبي ربيعة) يذكرون أني دعوت منذ سنين إلى التنبه إلى أثرة المرأة في تلوين العواطف والأحاسيس، وهي دعوة أجد أثرها اليوم عند بعض الأدباء في مصر، ولكن أدباء مصر على علمهم وذكائهم لا يهتمون بأسرار القلوب، كما يهتمون بأهواء العقول.

فما الذي يمنع من إيجاد نهضة أدبية وذوقية في العراق؟

ما الذي يمنع من أن تتذكروا ماضيكم الجميل يوم كان علماؤكم أعلم الناس، وشعراؤكم أشعر الناس؟

ما الذي يمنع من أن تقوم المنافسة بين القاهرة وبغداد؟ المنافسة القوية التي يسمو بها الشعر، والفن، والخيال؟

أترونني أجدت الاعتذار عن نفسي؟

أنا أريد أن أنقلكم إلى الأجواء الروحية التي عاش فيها الشريف وهو يبكي صباه.

أنا أريد أن ندرك معًا سرائر هذا الروح الحزين لنعيش مع لحظات في فردوس الوجدان.

ويجب أن نتفق أولًا على أن الشاعر قد يزوّر عواطفه في بعض الأحيان، فتكون مدائحه مثلًا ضربًا من المجاملة أو الرياء، حتى الحب قد تزوّر فيه العواطف، فيكون الدمع في عين العاشق كالسم في ناب الثعبان، وبعض المحبين يبكون ليخدروا فرائسهم فتعجز عن المقاومة، كما يلدغ الثعبان ليخدر الفريسة، ثم يبتلعها بلا عناء.

إن تزوير العواطف مما يعرف الشعراء — ولا أستثني الشريف، ولكن هناك عاطفة لا تزوير فيها ولا رياء، وهي سورة الحزن على الشباب.

لكم أن ترتابوا في صدق الشاعر حين يحب أو يبغض، وحين يمدح أو يعاتب، ولكن الارتياب في صدقه حين يبكي صباه أمر غير مقبول.

وأعيذكم أن تروا في هذا البكاء لونًا من الضعف، لا، فهو من فيض القوة، وأظنني حدثتكم فيما سلف أن الحزن على ما نفقد هو الشاهد على قوة شعورنا بقيمة ما نفقد، والحزن عاطفة كاد يتفرد بها الإنسان من بين سائر الحيوان.

فبكاء الشريف على شبابه هو دليل القوة والحيوية، وهو يصور إدراكه لمعاني السعادة في الحياة، ويرينا كيف كانت الدنيا في عينيه، وفي قلبه، وفي خياله، وفي رؤياه، فالقصائد التي سندرسها معًا في هذا المساء هي عنوان الصدق، وعنوان الحيوية، وهي من شعر العافية لا من شعر المرض، كما يتوهم بعض من يعقلون.

أيها السادة

نزل الشيب ضيفًا ثقيلًا برأس الشريف وهو في الثالثة والعشرين، والشيب في مثل تلك السن لا يخيف، ولكن شاعرنا تفجع فقال:

يا ذابلًا صوّح فينانه ... قد آن للذابل أن يختلى[1]
حط برأسي يققا أبيضًا ... كأنما حط به منصلا
قل لعذولي اليوم ثم صامتًا ... فقد كفاني الشيب أن اعذلا
طبت به نفسًا ومن لم يجد ... إلا الردى أذعن واستقبلا

فهو يرى الشيب نذير الموت، وإن كان لا يزال في ميعة صباه، ويشير على العذول بالصمت وبالنوم، فالشيب أقوى زاجر، وأعنف عذول.

ثم يراجع نفسه، فيرى الشيب نبت الحلم والسيادة:

رأت شعرات في عذاري طلقة ... كما افترّ طفل الروض عن أول الوسمي
فقلت لها ما الشعر سال بعارضي ... ولكنه نبت السيادة والحلم
يزيد به وجهي ضياء وبهجة ... وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

ثم تنقله الأيام إلى سن السابعة والعشرين فيقول:

واهًا على عهد الشباب وطيبه ... والغصن من ورق الشباب الناضر
سبع وعشرون اهتصرن شبيبتي ... وألنّ عودي للزمان الكاسر
كان المشيب وراء ظل قالص ... لأخ الصبا وإمام عمر قاصر
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي ... وتضل في ليل الشباب الغابر
لو يفتدي ذاك السواد فديته ... بسواد عيني بل سواد ضمائري[2]
أبياض رأس واسوداد مطالب؟ ... صبرًا على حكم الزمان الجائر!

فماذا ترون؟ هذا شاعر يرحب بالمشيب لو أنه ظفر بحقوق المشيب، وهي: السيادة والملك، ولكنه يجمع بين النكبتين: بياض الرأس، وسواد البخت! وبعد أن جاوز الثلاثين بقليل وقع له حادث مزعج في الحجاز، فقد حلق شعره في منى، ثم تطلع إلى الشعر وهو مرميّ على الأرض، فرأى الخصل البيض تختلط بالخصل السود، فتوقع أن يكون ذلك آخر العهد بغلبة السواد على البياض.

لا يبعدن الله برد شبيبة ... ألقيته بمنى ورحت سليبا
شعر صحبت به الشباب غرانقًا[٣] ... والعيش مخضرّ الجناب رطيبا
بعد الثلاثين انقراض شبيبة ... عجبًا أميم لقد رأيت عجيبا
قد كان لي قططًا يزيّن لمتي ... شروى السنان يزين الأنبوبا[٤]
فاليوم أطّلب الهوى متكلفًا ... حصرًا وألقى الغانيات مريبا
لو كان يرجع ميت بتفجع ... وجوى شققت على الشباب جيوبا
ولئن حننت إلى منى من بعدها ... فلقد دفنت بها الغداة حبيبا

ثم ينقله الدهر إلى السابعة والثلاثين فيقول:

راحت تعجّب من شيب ألم به ... وعاذر شيبه التهمام والأسف
ولا تزال هموم النفس طارقة ... رسل البياض إلى الفودين تختلف
إن الثلاثين والسبع التوين به ... عن الصبا فهو مزورّ ومنعطف
فماله صبوة يبكي بها طلل ... ولا له طربة يعلي بها شرف
أين الذين رموا قلبي بسهمهم ... ولم يداووا لي القرف الذي قرفوا[٥]
يشكو فراقهم القلب الذي جرحوا ... منى وتبكيهم العين التي طرفوا

ويطيب لشاعرنا أن يوازن بين جنايات الليالي، وعنده أن جناية الشيب أفظع من جناية الفراق:

قل لليالي قد ملكت فأسجحي ... ولغيرك الخلق الكريم الأسجح[٦]
من أي خطب من خطوبك أشتكي ... وعن أي ذنب من ذنوبك أصفح
إن أشك فعلك من فراق أحبتي ... فلسوء فعلك في عذاري أقبح

ضوء تشعشع في سواد ذوائبي لا أستضيء به ولا أستصبح
بعت الشباب به على مقة له بيع العليم بأنه لا يربح[7]
لا تنكرن من الزمان غريبة إن الخطوب قليبها لا ينزح[8]

وهو قد أشار مرة إلى بلواه بالشيب والعذل:

قل للعواذل مهلًا فالمشيب غدًا يغدو عقالًا لذي القلب الذي طمحا
هيهات أحوج مع شيبي إلى عذل فالشيب أعذل ممن لامني ولحا

وتكرير هذا المعنى يشهد بأنه كان يعرف أن الجمهور لا ينظر إلى غرامياته بعين الارتياح، وهو يبادر بانتهاب اللذات، ويراها إمارة يتولاها الرجل بالشباب، ويعزل عنها بالمشيب:

سواد الرأس سلم للتصابي وبين البيض والبيض[9] الحروب
وولّاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعزلك المشيب

وهو لا يعجب من أن يعيش بعد فراق الأحباب؛ لأنه عاش بعد فراق الشباب:

غدا في الجيرة الغادين لبي جميعًا ثم راجعني وثابا
لئن فارقتها وبقيت حيًّا لقد فارقت بعدهم الشبابا

ويرجع إلى التفكير في النكبتين: بياض الرأس، وسواد البخت، فيقول:

صحبنا الدهر والأيام بيض ونحن نواضر سود الشعور
فلما اسودت الدنيا برزنا لها بيض الذوائب بالقتير[10]

وتقهره البلية — بلية الشيب — على عرفان الحق، فيذكر أن الشيب قد يفسد ما بينه وبين الحسان من وثيق الصلات.

يا قاتل الله الغواني لقد سقينني الطرق بعيد الجمام[11]

أعرضن عني حين ولى الصبا ... واختلج الهمّ بقايا العرام[١٢]
وشاعت البيضاء في مفرقي ... شعشعة الصبح وراء الظلام
سيان عندي أبدت شيبة ... في الفود أو طبق عضب حسام[١٣]
ألقى بذل الشيب من بعدها ... من كنت ألقاه بدل الغلام
ترى جميم الشيب لما ذوى ... يراجع العظلم بعد الثغام[١٤]
كم جدن بالأجياد لي والطلى ... فاليوم يبخلن برد السلام
وكنت إن أقبلت أسمعنني ... قعاقع الحلي وراء القرام[١٥]

ويرى تعبيره بالشيب لؤمًا وقلة أدب؛ لأنه لم يبتدع الشيب حتى يحاسب عليه:

تعيرني شيبي كأني ابتدعته ... ومن لي أن يبقى بياض المفارق
وإن وراء الشيب ما لا أجوزه ... بعائق تنسي جميع العوائق
وليس نهار الشيب عندي بمزمع ... رجوعًا إلى ليل الشباب الغرانق[١٦]

ويؤكد لمحبوبته أنه لم يفوّف برد الشيب، وإنما فوفته الأيام:

لا تأخذيني بالمشيب فإنه ... تفويف ذي الأيام لا تفويفي[١٧]
لو أستطيع نضوت عني برده ... ورميت شمس نهاره بكسوف
كان الشباب دجنة فتمزقت ... عن ضوء لا حسن ولا مألوف
ولئن تعجل بالنصول فخلفه ... روحات سوق للمنون عفيف
وإذا نظرت إلى الزمان رأيته ... تعب الشريف وراحة المشروف

وتوجعه سخرية الغواني فيقول:

تشاهقن لما أن رأين بمفرقي ... بياضًا كأن الشيب عندي من البدع
وقلن عهدنا فوق عاتق ذا الفتى ... رداء من الحوك الرقيق فما صنع؟
ولم أر عضبًا عيب منه صقالة ... وكان حبيبًا للقلوب على الطبع[١٨]
وقالوا غلام زين الشيب رأسه ... فبعدًا لرأس زانه الشيب والنزع[١٩]
تسلّى الغواني عنه من بعد صبوة ... وما أبعد النبت الهشيم من النجع[٢٠]

وكنّ يخرّقن السجوف إذا بدا   فصرن يرقّعن الخروق إذا طلع

ويرى دنياه كلها تذهب بذهاب الشباب: فلا حب ولا قتال، يرى نفسه كالقوس بلا وتر، والثعبان بلا ناب، والغصن بلا ورق، والغمد بلا سيف، والخميلة بلا أزهار:

من شافعي وذنوبي عندها الكِبَرُ؟   إن المشيب لَذَنْبُ ليس يغتفر
راحت تريح عليك الهمَّ صاحية   وعند قلبك من غيٍّ الهوى سكر
رأت بياضك مسودًّا مطالعه   ما فيه للحب لا عين ولا أثر
وأي ذنب للون راق منظره   إذا أراك خلاف الصبغة الأثر
وما عليك ونفسي فيك واحدة   إذا تلون في ألوانه الشعر
أنساك طول نهار الشيب آخره   وكل ليل شباب عيبه القصر
إن السواد على لذَّاته لَعَمًى   كما البياض على علاته بصر
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة   والسود مستوفزات للنوى غدر[٢١]
كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد   وأخلقتك حجول الشيب والغرر[٢٢]
وليس كل ظلام دام غيهبه   يسر خاطبه أن يطلع القمر
أما تريني كَصِلٍّ تحت هضبته   بالرمل أطرق لا ناب ولا ظفر
مسالمًا يأمن الأقران عدوته   ملقى الحنية عرّى متنها الوتر[٢٣]
كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق   والجفن أفرد عنه الصارم الذكر
إن أشهد القوم لا أعلم نجيهم   ماذا قضوا ويجمجم دوني الخبر[٢٤]
كان الشباب الذي أنضيت مندله[٢٥]   عقب الخميلة لما صوح الزهر
من بعد ما كنت أستسبي المها شغفا   أمست تراع بي الغزلان والبقر
لم أدر أن الصبا تبلى خميصته[٢٦]   وأن منصات ذاك العون ينأطر[٢٧]
إن أمس لا يتقي زجري ولا غضبي   ولائد الحي مملولًا لي العمر
فقد أردّ العفرني عن أكيلته[٢٨]   وأزجر الضيغم العادي فينزجر

فما رأيكم في هذه القصيدة؟

إن جامع الديوان لم يذكر متى قالها الشريف، ولكن يظهر من روح الشاعر أنه قالها بعد الأربعين، ونراه مع ذلك يمتلك عزيمته أقوى امتلاك، وهل يستطيع رجل فان أن يقول هذا البيت:

راحت تريح عليك الهم صاحية وعند قلبك من غيّ الهوى سكر

ففي هذا البيت صورة شعرية يدرك قيمتها من تستبيهم كرائم المعاني، والشاعر يؤكد لمحبوبته أن قلبه لم يتلون، وإن كان شعره تلون:

وما عليك ونفسي فيك واحدة إذا تلون في ألوانه الشعر

ويغالط نفسه فيزعم أن السواد عمى على ما فيه من لذات، وأن البياض بصر على ما فيه من علات، ويزعم أن الشعر الأبيض أوفى؛ لأنه لا يفارق الرأس، وأن الشعر الأسود غادر؛ لأنه يهجر وطنه في الرأس، ثم لا يرجع.

إن السواد على لذاته لعمى كما البياض على علاته بصر
البيض أوفى وأبقى لي مصاحبة والسود مستوفزات للنوى غدر

ويبالغ في تضليل نفسه، فيزعم أنه كان كالجواد البهيم يوم كان أسود الشعر، ثم عاد كالجواد الأغر المحجل منذ اختلط البياض بالسواد.

كنت البهيم وأعلاق الهوى جدد وأخلقتك حجول الشيب والغرر

ثم يفيق فيقول:

وليس كل ظلام دام غيهبه يسر خاطبه أن يطلع القمر

ثم يقع الحزن على صدره وقوع الصواعق، صواعق الغدر التي تتفزع من هولها صدور الأوفياء، فيقول:

أما تريني كصل تحت هضبته بالرمل أطرق لا ناب ولا ظفر

وهذا بيت قليل الأمثال، وهو يصور جزع الشريف على صباه، وهل هناك صورة تحزن وتوجع كصورة الصل وهو يطرق بالرمل إطراق المساكين؛ لأن الشيخوخة أسقطت ما كان يملك من أنياب حداد؟

مسالمًا يأمن الأقران عدوته ملقى الحنية عرّى متنها الوتر

وهل رأى الراءون أذل من القوس وهي معراة من الوتر.

ثم ماذا؟ ثم يرى الشريف أنه أمسى:

كالفرع ساقط ما يعلوه من ورق والجفن أفرد عنه الصارم الذكر

فهل تحسون جزع الغصن حين يسقط عنه الورق؟ لقد أحسست هذا المعنى منذ أعوام قبل أن يقول بعض العلماء بإحساس النبات. وهل تحسون جزع الغمد على فراق السيف؟ أرجو أن لا يطويكم الموت قبل أن تدركوا هذه المعاني، فما أحب لأحدكم أن يلقى الله إلا وهو من الأذكياء.

ثم ماذا؟ ثم يبكي شاعرنا فيقول:

إن أشهد القوم لا أعلم نجيّهمو ماذا قضوا ويجمجم دوني الخبر

وهذا البيت مزعج، وهو يردني إلى حادثة لن أنساها طول حياتي، يوم رأيت أبناء عمي يطوون بعض الأخبار عن أبي، فمضيت أتوجع في مقال نشرته بجريدة البلاغ، ثم وقعت مخاوفي مع الأسف القتال فمات أبي بعد أسابيع: رحمك الله يا أبي، وطيب مثواك!

ثم ماذا؟ ثم يقول الشريف:

كان الشباب الذي أنضيت مندله عقب الخميلة لما صوّح الزهر

وأنتم تعرفون مصاير الخمائل بعد ذبول الأزهار، وهلاك الرياحين، ثم ماذا؟ ثم يذكر الشاعر خلاصة حياته فيقول:

من بعد ما كنت أستسبى المها شغفًا … أمست تراع بي الغزلان والبقر
لم أدر أن الصبا تبلي خميصته … وأن منصات ذاك العود ينأطر
إن أمس لا يتقي زجري ولا غضبي … ولائذ الحيّ مملولًا لي العمر
فقد أرد العفرني عن أكيلته … وأزجر الضيغم العادي فينزجر

وليس في الدنيا آلم ولا أوجع من أن يصبح الرجل بلا حول ولا طول بعد أن كان ينتهب طعام الأسود.

وليس هذا كل ما عند الشريف في بكاء الشباب، فله وقفات يحلل فيها مصاير الرجال، كان يقول:

وطيف حبيب راع نومي خياله … وعرّفني طول الليالي ملمه
وما زارني إلا ليخجل طيبه … نسيم الصبا أو يفضح الليل ظلمه[٢٩]
تطلّع من أرجاء عيني دمعها … وما كان لولا الوجد ينقاد سجمه
ألا هل لحب فات أولاه رجعة … وإن زاد عندي أو تضاعف وسمه
ليالي أسري في أصيحاب لذة … ومخ الدجارار وقد دقّ عظمه
وأغدو على ريعان خيل تلفها … صدور القنا والنقع عال أحمّه
رأيت الفتى يهوي الثراء وعمره … يرى كل يوم زائدًا منه عدمه
عقيب شباب المرء شيب يخصه … إذا طال عمر أو فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى … برأسي لها نقع وبالقلب كلمه[٣٠]
أغالط عن نفسي حمامي وإنما … أداري عدوًا مارقًا فيّ سهمه
وليس يقوم المرء يومًا بحجة … إذا حضر المقدار والموت خصمه
فوا عجبًا للمرء والداء خلفه … ومن حوله المقدار والموت أمه[٣١]
يسر بماضي يومه وهو حتفه … ويلتذّ ما يغذي به وهو سمه
وورود من الآجال لا يستجمنا … وورد من الآمال لا نستجمه

فماذا ترون في هذه القطعة؟ ماذا ترون؟ حدثوني فإني أخشى أن تقولوا إنها من الحديث المعاد، ففيها معان عرفها الشعراء قبل الشريف، وهذا حق، ولكن تذكروا ما

حدثتكم به في المحاضرة الماضية، تذكروا أني قلت لكم: إن أساس الابتكار هو الإحساس، فالعاشق الذي يخاطب هواه فيقول: «أحبك» لا يتهم بالمحاكاة والتزييف بحجة أن هذه الجملة قالها قبله الناس منذ أجيال وأجيال، وكذلك كان شاعرنا، فهو يحسّ المعاني أصدق إحساس.

وقد فهمت من جملة حاله أنه كان يشكو مرضًا يكتمه عن الأطباء، ولذلك شواهد كثيرة في شعره نكتمها عنكم، وبسبب ذلك المرض المكتوم لم يعش نصف ما عاش أبوه، وقد حملته تلك العلة على بغض العيش، وهذه القطعة تمثل إحساسه بما كان يعانيه، وقد كان مع ذلك قليل البخت؛ فلم يجد من يتوجع على بلواه، ولو فكرتم لرأيتم أنه طاف حول المعاني التي فصّلها ناظم «سفر أيوب»، ولكن ناظم «سفر أيوب» وجد من ينصفه بعد مئات السنين، وجد الشاعر الفرنسي العظيم «لامرتين» الذي كتب عن «سفر أيوب» كتابًا وجدانيًّا حملني وأنا طالب في باريس على أن أبيع ساعتي، وطائفة من ثيابي لأشتري نسخة أنيقة من التوراة.

أراكم تستغربون هذا الحديث؟ لا بأس، فهو والله غريب، فمن أدب هذا الزمان أن ننسى ماضينا، وأن نصرح بأن الأدب الحق لا يكون إلا عند اللاتينيين والسكسونيين والجرمان.

ارجعوا إلى هذه القطعة مرة أو مرتين أو مرات، ثم انظروا كيف بكى شاعرنا مصير الإنسانية، وكيف توجع لمصير الرجال.

انظروا إلى هذين البيتين:

عقيب شباب المرء شيب يخصه ... إذا طال عمر أو فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى ... برأسي له نقع وبالقلب كلمه

انظروا إلى هذين البيتين، ثم اسألوا أنفسكم كيف جمع مصاير الرجال في بيتين، وكيف لوّن هذه الصورة تلوينًا أخاذًا تنفطر له القلوب القاسية، وتتنزعج منه راجحات العقول.

وهذا البيت:

فوا عجبًا للمرء والداء خلفه ... ومن حوله الأقدار والموت أمه

فهو يصور الإنسان في حومة حرب مع الداء، ومع الأقدار، ومع الموت.

ثم، ثم ماذا؟

ثم يتوجع الشاعر، ويلتاع حين يرى مصيره بين العذال، وعند الملاح فيقول:

يا عذوليّ قد غضضت جماحي فاذهبا حيث شئتما بزمامي
بعد لوثي عمامة الشيب أختا ل ببردي بطالة وعرام!!
خفضت نزوة الشباب وحال الهمّ بين الحشا وبين الغرام
غالطوني عن المشيب وقالوا لا ترع إنه جلاء الحسام
أيها الصبح زل ذميمًا فما أظ ـلم يومي من بعد ذاك الظلام
أرمضت شمسك المنيرة فوديّ فمن لي بظل ذاك الغمام
قلت ما أمن على الرأس منه صارم الجد في يد الأيام
إن ذنبي إلى الغواني بشيبي ذنب ذئب الغضا إلى الآرام
كن يبكين قبله من وداعي فبكاهن بعده من سلامي

أترون كيف قال الشاعر «يا عذوليّ»، والشعراء جميعًا يقولون: «يا خليليّ»، والبيت الأول مختلس برفق من قول مالك بن الريب:

خذاني فجرّاني ببردي إليكما فقد كنت قبل اليوم صعبًا قياديا

ولكن هذا الاختلاس هو الشاهد على براعة الشريف، فقد نقل موقف الموت إلى موقف الشيب، وصح له أن يقول:

يا عذوليّ قد غضضت جماحي فاذهبا حيث شئتما بزمامي

وإلى أين يذهب العاذلان بزمام الشاعر الأشيب؟ إلى أين؟ إلى المسجد؟ ولكن الشاعر كان يتقرب إلى ربه وهو شاب بالتأمل في ملكوت النحور، والثغور، والخدود، والعيون، واليوم يتقرب إلى ربه بالعظة والاعتبار، فيكبر ويسبح كلما رأى جنازة في الطريق!

ويرى الشاعر ألا مجال لبرد البطالة، وبرد الفتك بعد أن لبس عمامة الشيب، وكيف يفتك أو يصول بعد أن خمدت نزوة الشباب، وحال الهمّ بين حشاه وبين الغرام؟ ويذكر أنهم غالطوه فزعموا أن الشيب جلاء الحسام، فيصرخ كما صرخ من قبله مئات الشعراء:

أيها الصبح زل ذميمًا فما أظـ ـلم يومي من بعد ذاك الظلام
أرمدت شمسك المنيرة فوديّ فمن لي بظل ذاك الغمام

ثم يذكر ما أجاب به من غالطوه:

قلت ما أمن من على الرأس منه صارم الجدّ في يد الأيام

ولكم أن تتأملوا عبارة «صارم الجد»، فهي من غرائب التعابير، ثم يحدد مصيره فيقول:

إن ذنبي إلى الغواني بشيبي ذنب ذئب الغضا إلى الآرام
كنّ يبكين قبله من وداعي فبكاهن بعده من سلامي

وهو يصور الشيب أفظع تصوير فيرى موقفه وهو أشيب موقف الذئب من الآرام، وكان موقفه وهو شاب موقف الذئب من الآرام أيضًا، ولكن الفرق بين الموقفين بعيد، فقد كانت الآرام في عهد شبابه تشتهي يفترسها، ثم أصبحت وهو أشيب يؤذيها الافتراس.

ثم ماذا؟ ثم يرى أن لا مفر من تحية الشيب؛ لأنه رسول الموت، فيقول:

ألا حيّ ضيف الشيب إن طروقه رسول الردى قدامه ودليله
لقد كان يبكيني لشعري نزوله فقد صار يبكيني لعمري رحيله

ومعنى ذلك: أنه كان يبكي أولًا لما حل بالشعر، فصار يبكي لما حل بالعمر، فواحر قلباه!

ثم يعود إلى تحليل تلك التحية في موطن آخر فيقول:

وطارق للشيب حييته سلام لا الراضي ولا الجاذل
أجرى على عودي ثقاف الهوى جري الثقافين على الذابل
واعدني عقر مراحي له لا در در الشيب من نازل

فـالـيـوم لا زور ولا طـربـة   نـام رقـيـبـي وصـحـا عـاذلـي

أترون كيف يرى الشاعر ما صنع الشيب في تثقيف هواه، ولكن أي تثقيف؟ لقد هذبه تهذيبًا أليمًا، فاقتلع الأنابيب التي يتوقد بقوتها الصيال.

أترون هذا الميعاد «واعدني عقر مراحي له»، وهل هناك موعد أشأم من هذا الموعد؟ إنه موعد فاجع، الموعد الذي يعقر فيه مراح الشباب، فواحر قلباه! ثم؟ ثم ماذا؟

ثم يرى الشاعر لقاء الشيب أفظع من لقاء العدو فيقول:

ما لقائي من عدوي   كلقائي من مشيبي
موقد نـارًا أضـاءت   فـوق فـودي عـيـوبـي
وبياض هو عند البيـ   ـض من شر ذنوبي

وهذا حق، فنحن نحارب الأعداء بعزائم الشباب، فبأي سلاح نحارب يوم يودّع الشباب.

وفي موطن آخر يعالج الشاعر هذه المعضلة فيقول:

أشـوقًـا ومـا زالـت لـهـن قـبـاب   وذكـر تـصـاب والـمـشـيـب نـقـاب
وغـيـر الـتـصـابـي لـلـكـبـيـر تـعـلـة   وغـيـر الـغـوانـي لـلـبـيـاض صـحـاب
ومـا كـل أيـام الـشـبـاب مـريـرة   ولا كـل أيـام الـشـبـاب عـذاب
أؤمل ما لا يبلغ العمر بعضه   كان الذي بعد المشيب شباب
وطعم لبازي الشيب لا بدّ مهجتي   أسـف عـلـى رأسـي وطـار غـراب

أيها السادة

أخشى أن يطول القول إذا مضينا في استعراض حسرات الشاعر على صباه، وهو يبكي نصيبه من الغواني، فلننتقل إلى موضوع آخر، وهو جزعه من الشيب بسبب ما سيضيع من حظوظه في المعالي، وكان الشاعر يدخر صباه ليصيب به أعظم الأغراض من هموم الرجال، وانظروا كيف يقول:

ورب دار أولـيـهـا مـجـانـبـة   وبـي إلـى الـدار أطراب وأشـجـان
إذا تلفتّ في أطلالها ابتدرت   لـلـعـين والـقـلـب أمـواه ونـيـران
كـلـم بـقـلـبـي أداويـه ويـقـرفـه   طول ادكاري لمن لي منه نسيان
لا لـلـوائـم إقـصـار بـلائـمـة   عن العميد ولا للقلب سلوان
على مواعيدهم خلف إذا وعدوا   وفـي ديـونـهـم مـطـل ولـيـان
هم عرضوا بوفاء العهد آونة   حتى إذا عذبوني بالمنى خانوا
لا تخلدنّ إلى أرض تهون بها   بالدار دار وبالجيران جيران
أقول للركب قد خوت ركائبهم   من الكلال ومرّ الليل عجلان
مدوا علابيّها واستعجلوا طلبًا   إذا رضى بالهوينا معشر هانوا
نرجو الخلود وباقينا على ظعن   والدار قاذفة بالزور مطعان
إن قلص الدهر ما أضفاه من جدة   فصنعة الدهر إعطاء وحرمان
كم من غلام ترى أطماره مزقًا   والعرض أملس والأحساب غران
إذا الفتى كان في أفعاله شوه   لم يغن أن قيل إن الوجه حسان
لا تطلب الغاية القصوى فتحرمها   فإن بعض طلاب الربح خسران
والعزم في غير وقت العزم معجزة   والازدياد بغير العقل نقصان

وهذه الأبيات من قصيد طويل، وهي تريكم أنه كان يدخر الشباب عظائم الأعمال: انظروا أيضًا كيف يتوجع على ما ضاع من أمانيه في المعالي بسبب الشيب فيقول:

فؤادي بنجد والفتى حيث قلبه   أسـيـر ومـا نـجـد إلـيّ حـبـيـب
ومالي فيه صبوة غير أنني   خلعت شبابي فيه وهو رطيب
بلى، إن قلبي ربما التاح لوحة   فهل ماؤه للواردين قريب
ألا هل تردّ الريح يا جو ضارح   نسيمك يحلو لي لنا ويطيب
وهل تنظر العين الطليحة نظرة   إليك وما في الماقيين غروب
وما وجد أدماء الإهاب مروعة   لاحشائها تحت الظلام وجيب
ترود طلا أودت به غفلاتها   وفي كل حيّ للمنون نصيب
بغوم على آثاره وقد اكتسى   ظلام الدياجي غائط وسهوب
فلما أضاء الصبح لاح لعينها   دم بين أيدي الضاريات صبيب

كوجدي وقد عرى الشباب جواده ... وغير لون العارضين مشيب
ولكنها الأيام أما قليبها ... فمكد وأما برقها فخلوب
إذا ما بدأن الأمر أفسدن عقبه ... وعفّى على إحسانهن ذنوب
فلله دري يوم انفث[٣٢] قولة ... لها في رؤوس السامعين دبيب
ولله دري يوم أركب همة ... إلى كل أرض أغتدي وأؤوب
وكم مهمه جاذبت بالسير عرضه ... وغالبته بالعزم وهو غلوب
وليل رأيت الصبح في أخرياته ... كما انسلّ من سر النجاد قضيب
سريت به أو في علي كل ربوة ... وليس سوى نجم علي رقيب
وأزرق ماء قد سلبت جماحه ... يعوم الشوي في غمره ويغيب
وهاجرة فللت بالسير حدّها ... ولا ظل إلا ذابل ونجيب
ويوم بلا ضوء يترجم نقعه ... عن الروع والإصباح فيه مريب
حبست به قلبًا جريًا على الردى ... وقد رجفت تحت الصدور قلوب
وطعنة رمح قد خرطت نجيعها ... كما ماج فرغ في الإناء ذنوب[٣٣]
وضربة سيف قد تركت مبينة ... وحاملها عمر الزمان معيب
نظرت إلى الدنيا بعين مريضة ... ومالي من داء الرجال طبيب
ومن كان في شغل المنى ففراغه ... مثال الأماني أو ردى وشعوب
فمالي طول الدهر أمشي كأنني ... لفضلي في هذا الزمان غريب
إذا قلت قد علقت كفي بصاحب ... تعود عواد بيننا وخطوب

وهذه أبيات تفيض بالإحساس وقوة الروح، وهي تشعركم بأن الشاعر كانت له من شبابه غاياته أشرف من الأنس بالغواني.

إن شاعرنا — أيها السادة — لم يبك شبابه وهو عابث، وإنما بكاء؛ لأنه كان الوسيلة إلى إدراك ما في الدنيا من صبوات وأمجاد، والصبوة والمجد معنيان من أشرف المعاني، والشاعر الحق هو الذي يدرك قيمة الصبوة، وقيمة المجد.

كان شاعرنا إمامًا في الفتوة، وفي الفروسية، فارحموه إن رأيتموه يبكي على شبابه بكاء الأطفال، فليس في الدنيا ما يستحق أن تذال في سبيله دموع الرجال غير الشباب.

وقديمًا قيل: إن أبا العتاهية أشعر الناس؛ لأنه قال:

روائح الجنة في الشباب

أيها السادة: لقد طوفت بكم حول المناحة التي أقامها الشريف على صباه، والآن أنظر فأراكم فريقين: فريق الشباب، وفريق الكهول.

أما الكهول، فإني أرجو أن لا يصنعوا مثل صنيع الشريف، فيقتلوا عزائمهم بكثرة النوح على الشباب، فإن لله حكمة عالية حين قضى بألا يحمل نبيه الرسالة إلا بعد الأربعين؛ ليعرف من لم يكن يعرف أن شباب العزائم لا يبتدئ إلا بعد الأربعين.

وأما الشبان الذين واظبوا على هذه المحاضرات من طلبة دار المعلمين العالية، وطلبة كلية الحقوق، وأدباء بغداد، فإن لي في سبيلهم مع الله كلمة، ولي في سبيل المجد معهم كلمة.

أما كلمتي مع الله — تباركت أسماؤه — فهي دعوة أرجو أن تستجاب.

ادعوا الله أن تعيشوا يا تلاميذي، ويا حواري حتى تشيب نواصيكم، ادعوا الله أن يبقيكم جميعًا حتى تطول بلواكم بالشيب، ادعوا الله أن تعيشوا حتى يشيب أبناؤكم وأنتم أقوياء.

ادعوا الله أن يمنحكم البركة في العمر، والبركة في العافية، فلا يدرككم الشيب إلا ولكم في بلادكم منازل عالية تحقق بعض آمال العراق.

أما كلمتي معكم في سبيل المجد فهي كلمة عنيفة، هي دعوتكم إلى إنفاق الشباب في سبيل المجد، لا في سبيل الحب؛ لأن أكثر الحب في زماننا متاع رخيص، لا يذكي الأفئدة، ولا يوقظ القلوب.

تذكروا دائمًا يا تلاميذي ويا حواري أن في مقدور الشاب النبيل أن يخلق لنفسه عرائس من الخيال، تذكروا أن سهر الليل في تحقيق مشكلة فلسفية، أو معضلة علمية، ألذّ وأمتع من سهر الليل بين غانية وكأس.

تذكروا يا تلاميذي، ويا حواري أن شهوة المجد أقوى من شهوة الحب، تذكروا أن عشق المعاني هو الذي يخلق العظماء، والمرأة نفسها لا تذكي قريحة الرجل فتصيره عظيمًا إلا إن كانت عظيمة في الشمائل والخصال.

إني أخاف عليكم سفاهة هذا الزمان، يا تلاميذي ويا حواريّ، فإن لم يكن لكم بدّ من درس الوجود فادرسوه دراسة الرجال، وليكن موقفكم منه موقف الطبيب من

العليل، وأنا لا أدعوكم إلى إغماض أعينكم، وإنما أدعوكم إلى التخلق بالقوة والجبروت، فلا يدرككم الشيب إلا بعد أن تكونوا رفعتم قواعد الحياة العلمية، والأدبية، والاقتصادية في هذه البلاد.

وقد رأيتموني أعطف على الشريف وهو يبكي صباه.

وإنما كان ذلك لأني أومن بأن الشريف كان رجلًا سليمًا Normal.

وكانت مواهبه شبيهة بالمائدة الغريبة الألوان: فكان شاعرًا، وكان كاتبًا، وكان نحويًّا، وكان فقيهًا، وكان فارسًا، وكان سياسيًّا، كان يجمع بين الحلاوة والمرارة، والجد والهزل، والقلب والعقل.

ومثل هذه الشخصية القوية لا ينظر إليها رجل مثلي بغير العطف والإعجاب.

فمن شاء منكم أن يقضي حق الشباب فأنا حارسه وراعيه، ولكن علي شرط أن يقيم البراهين على أنه رجل عظيم يضر وينفع، ويبرم وينقض، ولا يبيت إلا وهو مثقل بهموم الرجال.

تلاميذي الأعزاء:

احترسوا، ثم احترسوا، فما توغلت في هذه الدراسات الوجدانية لا حولكم إلى قوم بكائين، وإنما قضى واجب الدرس أن نفهم شاعرنا حق الفهم، فننظر كيف كان يدرك ما في الوجود من ألوان.

وما جاز له لا يجوز لكم في كل حين. وليتكم تغنمون لأنفسكم ما غنم لنفسه من القوة والجبروت، فقد طاب له أن يلهو ويلعب، ومع ذلك لم يفارق دنياه إلا بعد أن هذب ألوفًا من التلاميذ، وبعد أن ترك ثروة شعرية وأدبية وفقهية تعزّ على من رامها وتطول.

تلاميذي الأعزاء:

ستحيون بإذن الله حتى تشيب نواصيكم، وستكون لكم في سبيل المجد وثبات صوادق، وسيذكر العراق أن أبناءه لم يخذلوه، وأنهم استطابوا في سبيله كل عذاب، حتى الحرمان من نعيم الشباب.

هوامش

(١) الاختلاء: هو القلع والنزع.

(٢) المراد من سواد الضمائر: سواد القلب، أو ما يسمونه حبة القلب، وهي في كلامهم سوداء.

(٣) الغرانق: الشاب الأبيض.

(٤) القطط بالتحريك: الشعر القصير الجعد، وشروى: مثل.

(٥) القرف: قشر الجرح.

(٦) السجاحة: هي السهولة واللين والاعتدال.

(٧) المقة: الحب.

(٨) القليب: البئر.

(٩) النساء البيض، والشعرات البيض.

(١٠) القتير: الشيب.

(١١) الطرق: الماء الذي خوضته الإبل، ومثله المطروق. والجمام: الماء الصافي.

(١٢) العرام: القوة والفتك.

(١٣) يريد أن وقع الشيب برأسه مثل وقع السيف.

(١٤) الجميم: الكثير من كل شيء، ومثله الجم، والعظلم على وزن زبرج: الليل المظلم، والثغام على وزن سحاب: نبت أبيض، ولون ثاغم: أبيض كالثغام.

(١٥) القرام على وزن كتاب: ستر رقيق.

(١٦) الغرانق بضم الغين الشاب الأبيض الجميل.

(١٧) التفويف: التلوين.

(١٨) الطبع بالتحريك هو الوسخ الشديد من الصدأ والشين العيب.

(١٩) النزع بالتحريك: هو انحسار الشعر من جانبي الجبهة.

(٢٠) النجع: جمع نجعة بالضم وهي طلب الكلأ في موضعه.

(٢١) مستوفزات للنوى: متطلعات للفراق.

(٢٢) البهيم: ما لا شية فيه من الخيل، وأخلقته: أبلته، والحجول جمع حجل وهو بياض في قوائم الفرس، والغرر: جمع غرة وهي بياض في الجبهة.

(٢٣) الحنية. القوس.

(٢٤) يجمجم: يكتم.

(٢٥) المندل على وزن مقعد هو الخف.
(٢٦) الخميصة كساء أسود مربع له علمان.
(٢٧) المنصات: المستوى، وينأطر: ينحني.
(٢٨) العفرني: الأسد، واللؤة عفرناة.
(٢٩) الظلم بالفتح: بريق الأسنان.
(٣٠) النقع: الغبار، والكلم: الجرح. الرار: هو الذائب من المخ.
(٣١) أمه: أمامه.
(٣٢) في الديوان (انعت).
(٣٣) الفرغ مخرج الماء من الدلو والذنوب بالفتح هو البئر.

الشاعر الوصاف

أيها السادة

نحدثكم الليلة عن الوصف في أشعار الشريف، ونبدأ فنحكم بأنه خليق بأن يسمى (الشاعر الوصّاف)، وإنما سارعنا إلى هذا الحكم؛ لأن الشريف مظلوم من هذه الناحية: فما قال أحد من القدماء أو المحدثين بأنه كان من الوصافين، وليس معنى هذا أنهم أنكروا عليه القدرة على الوصف، ولكن لم يتفق لإحدى قصائده أن تظفر بشهرة وصفية، فالمتنبي له قصيدة مشهورة في وصف الأسد، والبحتري له قصيدة مشهورة في وصف إيوان كسرى، وأبو تمام له قصيدة مشهورة في وصف الربيع، وشوقي له قصيدة مشهورة في وصف «أنس الوجود» أشهر القصور في التاريخ.

لم يقل أحد بأن الشريف كان من الوصافين، وتجاهل هذه الناحية يشهد بأن النقاد لم يعرفوا هذا الشاعر كما كان يجب أن يعرف.

فلنحاول نحن إنصافه، ولنكشف عن عبقريته في هذا الباب.

ونسارع فنقرر أن الشريف لم يصف الخمر، وكان وصف الخمر من أهم الفنون عند شعراء العراق.

فما السبب في ذلك؟

لا موجب للمداورة، فالشريف لم يكن يرى من الوقار أن يتبذل في وصف الخمر والسقاة كما فعل غيره من الشعراء؛ لأنه كان يرشح نفسه لأعظم المناصب الدينية.

وربما جاز أن نحكم بأنه لم ير الخمر رأي العين.

وهذا الحكم يبدو غريبًا، ولكن يسهل تصوره حين نذكركم بابن الفارض الذي شغل الناس بقصائده الخمريات، فمدينة القاهرة لعهد ابن الفارض لم تكن تعرف

الخمر، والبيئة التي نشأ بها ابن الفارض لم تكن تعرف إلا أن الخمر شراب حرام، ومع ذلك وصفها الشاعر وأجاد الوصف كما اتفق لأحد الشعراء العميان أن يجيد وصف الحروب، وقد رأيت في بغداد ناسًا يعرفون تخطيط القاهرة ولم يروها، وإنما تمثلوا خططها بالسماع عن طريق الجرائد والمجلات.[1]

وما أنكر أن العراق يكاد يكون أقدم شعب عرف الخمر في التاريخ، ولكن الخمر كانت مع ذلك متاعًا يجهله الجمهور في العراق، وإسراف أبي نواس في وصف الخمر هو الشاهد على أنها كانت قليلة الوجود، ولولا قلتها لما أمكن أن يتهالك عليها كل ذلك التهالك، وأن يفتن بها ذلك الفتون، وفرنسا التي تشرب الخمر في كل وقت، ولا يكاد أهلها يعرفون طعم الماء، فرنسا هذه لم ينبغ فيها شاعر يصف الخمر على نحو ما نبغ أبو نواس، وكان ذلك لأن الناس يقل غرامهم بما يملكون.

فإن كنتم في ريب من ذلك فانظروا قول السريّ الرفّاء شاعر الموصل، وهو الذي يقول في استهداء النبيذ:

يا من أنامله كالعارض الساري — وفعله أبدًا عار من العار
أما ترى الثلج قد خاطت أنامله — ثوبًا يزرّ على الدنيا بأزرار
نار ولكنها ليست بمبدية — نورًا وماء ولكن ليس بالجاري
والراح قد أعوزتنا في صبيحتنا — بيعًا ولو وزن دينار بدينار
فامنن بما شئت من راح تكون لنا — نارًا فإنا بلا راح ولا نار

فهذا الشعر يشهد بندرة الخمر في تلك العهود.

وانظروا أيضًا قول السلاميّ:

أرسلت أشكو إليكم غدوة ظمأي — وما شككت بأني سوف أغتبق
فقد كتبت إلى أن خانني قلمي — وقد ترددت حتى ملني الطرق
أنت امرؤ جوده غمر ونائله — همر ووبل نداه مسبل غدق
فابعث إليّ بصفو الراح يشبهه — مني قريضي ومنك العرف والخلق

وقد لاحظت مثل هذه الملاحظة في كتاب «النثر الفني» حين تكلمت عن أبي الفرج الببغاء.

قد تقولون: هؤلاء شعراء يستجدون!

وأجيب بأن الشعراء لا يستجدون إلا حين لا يجدون.

كانت الخمر في العراق قليلة جدًّا، بدليل اللهفة الظاهرة في كلام الشعراء، وما عرفها الشريف فيما أفترض، وإن كان صرح بأنه عرفها في هذا البيت الحزين:

ويمنعني المدام طروق همي فما يحظى بها إلا نديمي

وهو قد وصف الخمر بالفعل، ولكنه نص في الديوان على أنه سئل وصفها على لسان بعض الناس فقال:

اسقني فاليوم نشوان والربى صاد وريّان
كفلت باللهو وافية لك نايات وعيدان
جاز[2] وفد الريح فالتطمت منه أوراق وأغصان
كل فرع مال جانبه فكان الأصل سكران
وكأن الغصن مكتسيًا من رياض الطل عريان
كلما قبّلت زهرتها خلت أن القطر غيران
ومقيل بين أخبية قلته والحيّ قد كانوا
في أصيحاب مفارشهم ثم أنقاء وكثبان
عسكرت فيها السحاب كما حطّ بالبيداء ركبان
فارتشفنا ريق سارية حيث كل الأرض غدران
فاسقني فالوصل يألفني إن يوم البين قرحان
غير سمعي للملام إذا ضج ساجي الصوت مرنان
رب بدر بت ألثمه صاحيًا والبدر نشوان
قدت خيل اللثم أصرفها حيث ذاك الخد ميدان
لي غدير من مقبّله ومن الصدغين بستان
وندامى كالنجوم سطوا بالمنى والدهر جذلان
كم تخلت عن ضمائرهم ثم ألباب وأذهان
خطروا والخمر تنفضهم وذيول القوم أردان

كل عقل ضاع من يقظ فهو في الكاسات حيران
إنما ضلت عقولهم حيث يعييهن وجدان
فاختلس طعن الزمان بها إنـــمـــا الأيـــام أقـــران

وهي قصيدة تظهر فيها الرشاقة وخفة الروح، ولكن أين هي من خمريات الفاجر أبي نواس؟!

وسئل مرة ثانية وصف الخمر فقال:

راح يجول[٣] شعاعها بين الضمائر والعقول
فكأنها في كأسها والليل منسحب الذيول
ماء الهجير مرقرقًا في سرة الظل الظليل

وهي أبيات ظريفة جدًّا، وقد تجمّل فيها تجمل النبلاء.

ويصح أن نذكركم بما قضينا به يوم درسنا غراميات الشريف، فقد قلنا أنه وقف عند المعاني الوجدانية، ولم يشغل نفسه بوصف الجوانب الحسية إلا قليلًا.

وكذلك فعل حين وصف الصهباء.

كان الشريف شاعرًا وصّافًا، ولكن أين الشواهد؟

حدثوا أنه سئل وصف فرخ حمامة فقال:

لحبّ إليّ بالدهناء ملقى لأيدي العيس واضعة الرحال[٤]
مناخ مطلّحين تقاذفتهم غريب الحاج والهمم العوالي[٥]
أراحوا فوق أعضاد المطايا قد افترشوا زرابيَّ الرمال[٦]
فبين ممضمض بالنوم ذوقًا وبين مقيَّد بعرى الكلال
إلى أن روّعَ الظلماء فتق أغر كجلحة الرجل البجال[٧]
فقاموا يرتقون على ذراها سلاليم المعالق والجبال
وأرقني دعاء الوُرق فيها على جرح قريب الاندمال
تذكرني بسالفة الليالي وسالفة الغزالة والغزال
وأيام الشباب مساعفات جمعن لنا وأيام الوصال

كأنفاس الشمول كرعت فيها على ظمأ وأنفاس الشمال
أقول لها وقد رنَّت مراحًا لبالك يا حمامة غير بالي[8]
تباعد بيننا من قيل شاكٍ تعلَّق بالغرام وقيل سالي
تريع إلى درادق عاطلات وهن بعيد آونة حوالي[9]
لها صنع يطول على طلاها قلائد لا تفصَّل باللآلي[10]
عوار لا تزال الدهر حتى تجملها بريط غير بال
وكل أزيرق قصرت خطاه كشيخ الحيِّ طأطأ للعوالي
مراحك قبل طارقة المنايا وقبل مرد عادية الليالي[11]

وهذه القصيدة تمثل مذهب الشريف في الوصف أصدق تمثيل، فهي في الأصل نظمت في وصفت فرخ الحمام، ولكن فرخ الحمام مع ذلك جاء فرعًا، ولم يجئ أصلًا، فقد شغل الشاعر نفسه بوصف مناخ العيس وحولها الركب الطليح، وشاءت له الشاعرية أن يصف ذلك المنظر أجمل وصف، فلما وصل إلى فرخ الحمام لم يشغل نفسه بوصفه إلا قليلًا.

وهنا نجد الأدلة التي تساعد على الحكم بالقول الفصل، فالشريف شاعر وصاف، ولكن الوصف عنده لا يقع إلا عن طريق الاستطراد.

وقد حدثناكم منذ أشهر يوم تكلمنا عن العلا والمعالي في قصائد الشريف أن جامع الديوان عنون إحدى قصائده بوصف الأسد، ثم أريناكم أنه ما وصف الأسد، وإنما وصف نفسه، أعني أنه شبه نفسه بالأسد، فساقه ذلك إلى وصف الأسد عن طريق الاستطراد.

وأنتم تذكرون أنه قال:

سيرعب القوم مني سطو ذي لبد له بعثر أعراس وولدان
لا يطعم الطعم إلا من فريسته إن يعدم القرن يومًا فهو طيان
ماشي الرفاق يراعي أين مسقطهم والسمع منتصب والقلب يقظان

إلى آخر الوصف.

وكذلك يفعل الشريف في أكثر الأوصاف، فمن أراد أن يعرف قدرته الوصفية فليتابعه حيث استطرد، فهنالك قدرته على التصوير والتلوين.

ومن شواهد ذلك قصيدته البائية في وصف الركب، ركب الحجيج، وما كانت القصيدة نظمت لوصف الركب، ولكن الشاعر استطرد فقال:

ثمانون من ليل التمام نجوبها   رفيقين تكسونا الدياجي ثيابها
نؤم بكعب العامري نجومها   إذا ما نظرناها انتظرنا غيابها
تقوم أيدي اليعملات وراءه   ونعدل منها أين أومارقابها[١٢]
كأنا أنابيب القناة يؤمها   سنان مضى قدمًا فامضى كعابها
كذئب الغضا أبصرته عند مطمع   إذا هبط البيداء شم ترابها
بعين ابن ليل[١٣] لا تداوي من القذى   يريب أقاصي ركبه ما أرابها
تراه قبوعًا بين شرخي رحاله   كذروبة ضموا عليها نصابها[١٤]
فمن حلة نجتابها وقبيلة   نمر بها مستنبحين كلابها
ومن دار أحباب نبلّ طلولها   بماء الأماقي أو نحيي جنابها
ومن رفقة نجدية بدوية   تفاوضنا أشجانها واكتئابها
ونذكرها الأشواق حتى تحنّها   وتعدي بأطراف الحنين ركابها
إذا ما تحدّى الشوق يومًا قلوبنا   عرضنا له أنفاسنا والتهابها
وملنا على الأكوار طربي كأنما   رأينا العراق أو نزلنا قبابها
نشاق إلى أوطاننا وتعوقنا   زيادات سير ما حسبنا حسابها
وكم ليلة بتنا نكابد هولها   ونمزق حصباها إذا الغمر هابها
وقد نصلت أنضاؤنا من ظلامها   نصول بنان الخود تنضو خضابها
وهاجرة تلقي شرار وقودها   على الركب أنعلنا المطي ظرابها
إذا ما طلتنا بعد ظمأ بمائها   وعجّ الظوامي أوردتنا سرابها
تمنى الرفاق الورد والريق ناضب   فلا ريق إلا الشمس تلقي لعابها

ففي هذه القصيدة وصف الشاعر القافلة ووصف الدليل أجمل وصف، وكان السياق يوجب أن تكون القصيدة في التودد إلى فيقه في السفر، وهو ابن أبي الزمان.

أحب — أيها السادة — أن تذكروا هذه الحقيقة التي استكشفناها بطول الدرس، وهي أن الوصف عند الشريف يقع غالبًا على طريق الاستطراد، فإن ذكرتم هذه الحقيقة لم يصعب عليكم استقراء ما عنده من جيد الأوصاف.

وقد أشرنا إلى أنه وصف الأسد عن طريق الاستطراد، فهل تظنون أن ذلك وقع مرة واحدة؟ لا، فهناك شاهد ثان:

بني عامر ما العز إلا لقادر   على السيف لا تخطو إليه المظالم
ضجيج الهوينا يغلب الخصم رأيه   وأكبر سلطان الرجال الخصائم
أرى إبل العوام تحدي على الطوى   وتأكل حوذان الطريق المناسم
وتظما على الإغذاذ أشداق خيله   وتشرب من أفواههن الشكائم
يحاول أمرًا يرمق الموت دونه   لقد زل عنه ما تروم المراوم
أقام يرى شم النسيم غنيمة   ولا بدّ يومًا أن ترد الغنائم
وتعجبه غر البروق يشيمها   سراعًا إذا مرت عليها الغمائم
ولي بين أخفاف المراسيل حاجة   ستصحب والأيام بيض نواعم
تحاربني في كل شرق ومغرب   وأكبر ظني أنها لا تسالم
أقول إذا سالت مع الليل رفقة   تقاذفها حتى الصباح المخارم
دعي جنبات الوادبين فدونها   أشم طويل الساعدين بوارم
إذا هم لم تقعد به عزماته   وإن ثار لا تعيا عليه المطاعم
كأن على شدقيه ثغرًا وراءه   ذوابل من أنيابه وصوارم
فما جذب الأقران منه فريسة   ولا عاد يومًا أنفه وهو راغم
يرى راكب الظلماء في مستقره   وتستن منه في العرين الغمائم
نمرّ وراء الليل نكتمه السرى   وقد فضحتنا بالبغام الرواسم
له كل يوم غارة في عدوه   تشاركه فيها النسور القشاعم
كأن المنايا إن توسد باعه   تيقظ في أنيابه وهو نائم
وما الليث إلا من يدل بنفسه   ويمضي إذا ما بادهته العظائم
وما كل ليث يغنم القوم زاده   إذا خفقت تحت الظلام الضراغم

فهذه القصيدة نظمت في الأصل لعرض غير وصف الأسد، ثم جاء وصف الأسد عن طريق الاستطراد، ولكن أي وصف؟ يكفي أنه قال:

كأن المنايا إن توسد باعه   تيقظ في أنيابه وهو نائم

وكذلك فعل في قصيدة:

وذي ضغن معسولة كلماته ومسمومة تترى إلى القلب نبله

فهي قصيدة قالها في محاربة بعض الأعداء، ولكنه استطرد إلى وصف الأسد فأجاد، ويكفي أنه قال:

قليل ادخار الزاد يعلم أنه متى ما يعاين مطعمًا فهو أكله

وفي مثل ما صنع في وصف الأسد صنع في وصف الحية:

نبهت مني يا أبا الغيداق أصم لا يسمع صوت الراقي

وهي قصيدة رآها جامع الديوان في وصف الحية فعنونها بذلك، وهي حقيقة في وصف الحية، وإن كانت وقعت على طريق التشبيه، ولكن جامع الديوان نسي أن الشريف استطرد فوصف قصائد الهجاء أخطر وصف إذ قال:

أهدفت للإرعاد والإبراق نصب مسيل العارض البعّاق
ترقع عرضًا منك ذا انخراق كما رفدت النعل بالطراق
حذار من مذروبة ذلاق ترفع عنك جانب الرواق
هواجمًا مقطوعة الرباق حتى على الآذان والإحداق
تنتزع الأصول بالأعراق يلجأ بها الحر إلى الإباق
أعقدها مواضع الأطواق لها على الأعناق وسم باق

إلى آخر القصيدة، وقد وصفت فيها الأهاجي بأخطر مما وصفت به الحية.

أيها السادة

ذلكم قولنا في الوصف عند الشريف، ومنه ترون أن الوصف له عنده خصائص قد تباين ما عند غيره من سائر الشعراء.

وقد يمزج بين الوصف والرثاء، كقوله في وصف الحيرة، وبكاء ملوكها السالفين من آل المنذر بن ماء السماء:

أين بانوك أيها الحيرة البيـ ـضاء والموطئون منك الديارا
والألى شققوا ثراك من العشـ ـب وأجروا خلالك الأنهارا
المهيبون بالضيوف إذا هبـّ ـت شمالًا والموقدون النارا
كلما باخ ضوءها أقضموها بالقبيبات منदليا وغارا
ربطوا حولك الجياد وخطوا لك من مركز العوالي عذارا
وحموا أرضك الحوافر حتى لقبوا أرضها خدود العذارى
لم يدع منك حادث الدهر إلا عبرًا للعيون واستعبارا
وبقايا من دارسات طلول خبرتنا عن أهلها الأخبارا
عبقات الثرى كأن عليها لطميين ينفضون العطارا
وقباب كأنما رفعوا منـ ـها لمسترشد الظلام منارا
عقدوا بينها وبين نجوم الأفق من سالف الليالي جوارا
أين عقبانك الخواطف حلقن وأبقين عندك الأوكارا
ورجال مثل الأسود مشوا فيـ ـك تداعوا قوائمًا وشفارا
حبذا أهلك المحلون أهلا يوم بانوا وحبذا الدار دارا
لم يكونوا إلا كركب تأنى برهة في مناخه ثم دارا

وما أظنكم تحتاجون إلى من يرشدكم إلى جوانب الدقة والروعة في هذا القصيد.

وقد مر بالحيرة مرة ثانية؛ فراعه بلاؤها بالزمان، وجاش صدره بهذا القصيد:

ما زلت أطّرق المنازل بالنوى حتى نزلت منازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت شمّ العماد عريضة الأعطان
شهدت بفضل الرافعين قبابها ويبين بالبنيان فضل الباني

ما ينفع الماضين أن بقيت لهم ... خطط معمّرة بعمر فاني
باق بها حظ العيون وإنما ... لا حدّ فيها اليوم للآذان[15]
وعرفت بين بيوت آل محرق ... مأوى القرى ومواقد النيران
ومناط ما اعتقلوا من البيض الظبا ... ومجر ما سحبوا من المرّان
ورأيت مرتبط السوابق للمها ... ومعاقل الآساد للذؤبان[16]
الهاجمين على الملوك قبابهم ... والضاربين معاقد التيجان
وكأن يوم الأذن يبرز منهم ... أسد الشرى وأساود الغيطان
ولقد رأيت بدير هند منزلًا ... ألمًا من الضراء والحدثان
أغضى كمستمع الهوان تغيبت ... أنصاره وخلا من الأعوان[17]
بالي المعالم أطرقت شرفاته ... إطراق منجذب القرينة عان[18]
أو كالوفود رأوا سماط خليفة ... فرموا على الأعناق بالأذقان
وذكرت مسحبها الرياط بجوّه ... من قبل بيع زمانها بزمان
أمقاصر الغزلان غيّرك البلى ... حتى غدوت مرابض الغزلان[19]
وملاعب الأنس الجميع طوى الردى ... منهم فصرت ملاعب الجنّان
من كل دار تستظل رواقها ... أدماء غانية عن الجيران
ولقد تكون محلة وقرارة ... لأغر من ولد الملوك هجان
يطأ الفرات فناءها بعبابه ... ولها السلافة منه والروقان
ووقفت أسأل بعضها عن بعضها ... وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي ... لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ترقا الدموع ويرعوي جزع الفتى ... وينام بعد تفرق الأقران[20]
مسكية النفحات تحسب تربها ... برد الخليج معطر الأردان
وكأنما نشر التجار لطيمة ... جرت الرياح بها على العقيان
ماء كجيب الدرع تصقله الصّبا ... ونقأ يدرّجه النسيم الواني
حلل الملوك رمى جذيمة بينها ... والمنذرين تغاير الأزمان
طردًا كدأب الدهر في طرد الألى ... وإلى الحفائظ في بني الديان
نعق الزمان بجمعهم عن لعلع ... وأقضَّ منزلهم على نجران
وكآل جفنة أزعجتهم نبوة ... نقلت قبابهم عن الجولان

وعلى المدائن جلجلت برعادها عرگًا لكلكلها على الإيوان
وإلى ابن ذي يزن غدت مرحولة نفضت حويَّتها على غمدان[21]
زفر الزمان عليهم فتفرقوا وجلوا عن الأوطار والأوطان

ويضيق الوقت عن تحليل هذه القصيدة النفيسة، وقد ظلت على نفاستها منسية، فلم أَرَ إليها أية إشارة في أي كتاب.

وبكاء الديار قديم في الشعر العربي، ولكنه كان في الأغلب مقصورًا على ديار الأحباب، وأظهر من شرع مذهب بكاء الآثار بين القدماء هو البحتري في القرن الثالث، وأظهر من شرع هذا المذهب بين المحدثين هو إسماعيل صبري في أوائل القرن الرابع عشر، وقد أشرنا في الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) إلى أن شوقي نقل عن صبري هذا المذهب، فوصف الآثار المصرية والأندلسية بقصائد سارت مسير الأمثال.

أما بعد، فهل ترونني أقنعتكم بأن الشريف كان من الشعراء الوصافين؟

هوامش

(١) استغرب أحد العلماء هذا الحكم وقال: (أنا أؤكد أن ابن الفارض كان يعصر الخمر بيديه!)، وربما كان هذا العالم أعرفمني بأساليب القوم الصالحين، ولعل الأستاذ محمد بهجة الأثري يحكم بيني وبين ذلك العالم المفضال.

(٢) في الديوان (حاز).

(٣) في الديوان (يحول).

(٤) الدهناء: اسم مكان.

(٥) الحاج: هي الحاجات. والمطلحون: هم المهزولون.

(٦) الزرابي: هي الأبسطة، وهي كلمة قرآنية ولا تزال مستعملة في بلاد المغرب.

(٧) الجلحة: انحسار الشعر عن الرأس، والبجال على وزن سحاب هو الشيخ الكبير مع جمال ونبل.

(٨) رنت: صاحت وسجعت.

(٩) تريع: ترجع، والدرادق: الأطفال، مفردها دردق.

(١٠) الصنع بالكسر من معانيه الثوب والمراد به الريش، والطلي بالضم هي الأعناق.

(١١) هذا البيت دعوة إلى انتهاب الصفو في أيام الشباب.

(١٢) اليعملات: النوق.

(١٣) في الديوان (لبلى).

(١٤) المذروبة والمذرب: السيف.

(١٥) هذا بيت جيد.

(١٦) وهذا أيضًا بيت جيد.

(١٧) في هذا البيت خيال طريف.

(١٨) للقارئ أن يتأمل في إطراق الشرفات وتشبيهها بالبعير المقرون.

(١٩) وهذا بيت نفيس جدًّا، والمعنى قديم، ولكن الشاعر أورده موردًا قويًا.

(٢٠) هذا معنى يكرره الشريف، وسنراه في المراثي.

(٢١) الحوية: كساء محشو يوضع حول سنام البعير.

مراثي الشريف

أيها السادة

نحن مقبلون على فن أجاد فيه الشريف وهو الرثاء.

ومراثي الشريف تنقسم إلى قسمين: رثاء أهل البيت، ورثاء الأصدقاء، والرؤساء، والملوك.

أما رثاء الشريف لأهل البيت فلن أحدثكم عنه في هذه المحاضرة؛ لأنني كتبت عنه فصلًا مطولًا في كتاب (المدائح النبوية)، وقد نشرته مكتبة مصطفى الحلبي منذ ثلاث سنين، وأنا أكره الحديث المعاد، فمن شاء منكم أن يعرف كيف رثى الشريف أهل البيت فليرجع إلى ذلك الكتاب.

وأما مراثي الشريف للأصدقاء، والرؤساء، والملوك، والخلفاء فلها ألوان، وقد مرت لبعضها في هذه المحاضرات إشارات، وما أشرت إليه من قبل لا أعود إليه في هذا المساء.

وأسارع فأقرر أن مراثي الشريف تفصح عن رأيه في دنياه، وتشهد بأنه كان يشعر بأن نهايته قريبة، وأن متاعه في الحياة قليل.

ويظهر أن شوقي تأثره من هذه الناحية، مع الفرق بين الشاعرين، فالشريف كان يتألم ويتضجر من سخف الحياة، وشوقي كان يحب أن يعرف ما بعد الموت، وقصائد شوقي في هذا المعنى من الأعاجيب في الأدب العربي، ولها مذاق مرير.

والشواهد الآتية تبين لكم ضجر الشريف من دنياه:

قال في تعزية محمد بن الحسن بن صالح عن والدته وقد توفيت سنة ٣٧٨:

هي ما علمت فهل ترد همومها نوب أراقم لا يبلّ سليمها[١]
أرواحنا دين وما أنفاسنا إلا قضاء والزمان غريما
فلأي حال تستلذ نفوسنا نفحات عيش لا يدوم نعيمها
يمضي الزمان ولا نحس كأنه ريح تمرّ ولا يشمُّ نسيمها
لم يشفع الدهر الخؤون لمهجة في العمر إلا عاد وهو خصيمها
وكأنما الدنيا العرورة بردة بيدي بلى ويروقنا تسهيمها[٢]
يا دهر كم أسهرت لي من ليلة قد كنت فيك أنامها وأنيمها
والأرض دار لا يلذ نزيلها عمر الزمان ولا يذيم مقيمها[٣]
كم باع أبّاء تفل بطونها وأديم جبّار يقدُّ أديمها
قبر على قبر لنا وأواخر يلقى رميم الأولين رميمها

وقال في رثاء بنت أحد الأصدقاء:

عجزنا عن مراغمة الحمام وداء الموت مغري بالأنام
وما جزع الجزوع وإن تناهى بمنتصف من الداء العقام
وأين نحور عن طرق المنايا وفي أيدي الردى طرف الزمام[٤]
نواثب ما أصخن إلى عتاب يطول ولا خدرن على ملام
هي الأيام تأكل كل حيّ وتعصف بالكرام وباللئام
وكل مفارق للعيش يلقى كما لقي الرضيع من الفطام
وكم ليد النوائب من صريع بداء السيف أو داء السقام
فمن ورد المنية عن وفاة كآخر عاثر العينين دامي[٥]
وما يغتر بالدنيا لبيب يفرُّ من الحياة إلى الحمام
خطوب لا أجمُّ لها جوادي وعزم لا أحط له لثامي
رأيت الموت يبلغ كل نفس على بعد المسافة والمرام
سواء إن شددت له حزيمي زماعًا أو حللت له حزامي[٦]

وقال أيضًا في رثاء بنت أحد الأصدقاء، وقد حدثناكم من قبل عن غرامه برثاء البنات والنساء:

نخطو وما خطونا إلا إلى الأجل ... ونتقضى وكأن العمر لم يطل
والعيش يؤذننا بالموت أوله ... ونحن نرغب في الأيام والدول
يأتي الحمام فينسي المرء منيته ... وأعضل الداء ما يلهي عن الأجل
ترخي النوائب من أعمارنا طرفًا ... فنستعز وقد أمسكن بالطول[٧]
لا تحسب العيش ذا طول فتركبه ... يا قرب ما بين عنق اليوم والكفل
نروغ عن طلب الدنيا وتطلبنا ... مدى الزمان بأرماح من الأجل
يقودني الموت من داري فأتبعه ... وقد هزمت بأطراف القنا الذبل
والمرء يطلبه حتف فيدركه ... وقد نجا من قراع البيض والأسل
ليس الفناء بمأمون على أحد ... ولا البقاء بمقصور على رجل
تعزّ ما اسطعت فالدنيا مفارقة ... والعمر يعتق والمغرور في شغل[٨]
ولا تشك زمانًا أنت في يده ... رهن فما لك بالأقدار من قبل[٩]

وقال في رثاء تقية بنت سيف الدولة:

نغالب ثم تغلبنا الليالي ... وكم يبقى الرمي على النبال
ونطمع أن يملّ من التقاضي ... غريم ليس يضجر بالمطال
أتنظر كيف تسفح بالنواصي ... لياليِنا وتعثر بالجبال[١٠]
يحط السيل ذروة كل طود ... رهونًا بالجنادل والرمال
هي الأيام جائرة القضايا ... وملحقة الأواخر بالأوالي
يمنِّين الورود فإن دنونا ... ضربن على الموارد بالحبال[١١]
نطنّب للمنون قباب حيّ ... ويحفزنا المنون إلى الرحال
ونسرح آمنين وللمنايا ... شبًا بين الأخامص والنعال
وبينا المرء يلبسها نعيمًا ... تهجّر ضاحيًا بعد الظلال

وقال في رثاء عمر بن إسحق بن المقتدر:

أيـرجـع مـيـتًـا رنّـة وعـويـل ويشفى بأسراب الدموع غليل
شباب الفتى ليل مضل لطرقه وشيب الفتى عضب عليه صقيل
فما لوننا قبل المشيب بدائم ولا عصرنا بعد الشباب طويل[١٢]
وحائل لون الشعر في كل لمة دليـل عـلـى أن الـبـقـاء يـحـول
نؤمل أن نروى من العيش والردى شـروب لأعـمـار الـرجـال أكـول
نقول مقيل في الكرى لجنوبنا وهل غير أحشاء القبور مقيل؟!
دع الفكر في حب البقاء وطوله فهمّك لا العمر القصير يطول
ولا ترج أن تُعطى من العيش كثرة فكل مقام في الزمان قليل
ومن نظر الدنيا بعين حقيقة درى أن ظلًا لم يزل سيزول

وفي رثاء بعض الأصدقاء يقول:

وما العيش إلا غمة وارتياحة ومفترق بعد الدنو وملتقى
هو الدهر يبلى جدّة بعد جدّة فيا لابسًا أبلي طويلًا وأخلقا
فكم من عليّ فيك حلّق وانهوى وكم من غنيّ نال منك وأملقا

وقال في رثاء الصاحب عميد الجيوش:

وهل نحن إلا مرامي السهام يـحـفّـزهـا نـابـل دائـب
نسر إذا جازنا طائش ونجزع إن مسنا صائب
ففي يومنا قدر لا بد[١٣] وعـنـد غـد قـدر واثـب
طرائد تطلبها النائبات ولا بدّ أن يدرك الطالب

وفي رثاء علي بن الحسين نقيب العباسيين يقول:

تناهى بنا الآجال عن كل مدة وما تنتهي بالطالبين المطالب
نغر بإيعاد الردى وهو صادق ونطمع في وعد المنى وهو كاذب

وفي رثاء خاله أحمد بن الحسين الناصر يقول:

لنا كل يوم رنة خلف ذاهب ... ومستهلك بين النوى والنوادب
وقلعة إخوان كأنا وراءهم ... نرامق إعجاز النجوم الغوارب[١٤]
نوادع أحداث الليالي على شفا ... من الحرب لو سالمن من لم يحارب
ونأمل من وعد المنى غير صادق ... ونأمن من وعد الردى غير كاذب
وما الناس إلا دارع مثل حاسر ... يصاب وإلا داجن مثل سارب
إلى كم نُمنّى بالغرور ونثني ... بأعناقنا للمطعمات الكواذب
نراع إذا ما شيك أخمص بعضنا ... وأقدامنا ما بين شوك العقارب
ونمسي بآمال طوال كأنما ... أمنابيات الخطب دون المطالب

وفي تعزية أبي سعيد بن خلف عن ابنه يقول:

وأرى الناس وافرًا وملقّى ... بالرزايا والأرض دارًا وقبرا
منزلي قلعة ولبث فهذا ... ك مجازًا لنا وهذا مقرّا
كل يوم نذمّ للدهر عهدًا ... خان فيه ونشتكي منه غدرا
قد أنيخت لنا الركائب فالحا ... زم عبًّا زادًا ووطّأ ظهرا
أسمع الحاديان واستعجل الر ... كب زماعًا إلى المنون ونفرا
كم فقيد لنا طوته الليالي ... ذُقن منه حلوًا وذُوّقن مرّا
وكأن الأيام يدركن ثارًا ... عندنا فيه أو يقضين نذرا
إنما المرء كالقضيب تراه ... يكتسي الأخضر الرطيب ليعرى

أيها السادة

أتعرفون لماذا أطلت في سرد هذه الشواهد؟

إنما أطلت لأني رأيت جماعة منكم ينكرون فيما سلف أن أكتم الأشعار التي تشهد بأن الشريف كان يعاني علة خفية، وكانت حجتهم أن الدرس لا يعرف الكتمان، فليفهموا في هذا المساء كيف كان يدعو إلى انتهاب الصفو من أيام الشباب، وستعرفون فيما بعد

أنه مات في السابعة والأربعين، وهي ميتة مبكرة جدًّا، بالنسبة لرجل مثله نشأ من أسرة كان أكثرها من العماليق.

وهناك جانب محزن في مراثي الشريف هو يأسه من وفاء الباكين، كأن يقول:

كم ذاهب أبكَى النواظر مدة ومضى وطاب لمقلة تهويما
أو ثغر محزون تبسّم سلوة والعين لما يرق بعد سجومها

وكان يقول:

من مات لم يلق من يحيا يلائمه فكن بكل مصاب غير محتفل

وكان يقول وهو يرثي الحيرة:

ووقفت أسأل بعضها عن بعضها وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ترقا الدموع ويرعوي جزع الفتى وينام بعد تفرق الأقران

وهو مذهب قديم أعلنه أبو العتاهية إذ قال:

إذا ما انقضت يومًا من الدهر مدتي فإن غناء الباكيات قليل
سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي ويحدث من بعد الخليل خليل

ويأس الشريف من الدنيا والناس راضه على التأسي والتجلد:

صبرت عنك فلم ألفظك من شبع لكن أرى الصبر أولى بي من الجزع
وإن لي عادة في كل نازلة أن لا تذل لها عنقي من الضرع
لذاك شجعت قلبي وهو ذو كمد وملت بالدمع عني وهو ذو دفع
ماض على وقعات الدهر إن طرقت غدا بحمل أذاها جد مضطلع
وحاسر يتلقى كل نائبة تدمي فيصبر فيها صبر مدّرع

ما غاض دمعي إلا بعد ما انحدرت غروبه بين منهلّ ومنهمع
لولا اندفاع دموع العين غالبة لم يعقب الصبر دمعًا غير مندفع
في اليأس منك سلوّ عنك يضمره وقبل يومك يقوي الحزن بالطمع
وهوّن الوجد أن الموت مشترك فينا وأنا لذا الماضي من التبع
هي الثنايا إلى الآجال نطلعها فمن حثيث ومن راق على ظلع
هيهات لا قارح يبقى ولا جذع على نوائب كرّ الأزلم الجذع[١٥]

ولكن هذا المتجلد تهتاجه اللوعة من حين إلى حين فيقول:

لقد ذهب العيش الرقيق بذاهب هو الغارب المجزول من ذروة المجد[١٦]
وإني إذا قالوا مضى لسبيله وهيل عليه الترب من جانب اللحد
كساقطة إحدى يديه إزاءه وقد جبها صرف الزمان من الزند
وقد رمت الأيام من حيث لا أرى صميمي بالداء العنيف على عمد
فلا تعجبا أني نحلت من الجوى فأيسر ما لاقيت ما حزّ في الجلد
ولو أن رزءًا غاض ماء لكانه لجفّت له خضر الغصون من الرند

ويقول:

جوائب[١٧] أنباء وددت بأنني صممت لها ما أورق العود مسمعا
تصاممت حتى أبلغ النفس عذرة وما نطق الناعون إلا لأسمعا
بأن أبا حسان كبت جفانه وأخمد نيران القرى يوم ودعا
أعز على عيني من العين موضعًا وألطف في قلبي من القلب موقعا
أكن غليلي بالضلوع ولم أجد لقلبي وراء الهم مذ غاب مطلعا
وفارقني مثل النعيم مفارقًا وودعني مثل الشباب مودعا
غلا الوجد بي حتى كأن لم أر الردى يخط لجنب قبل جنبك مصرعا
فإن لم تزل نفسي عليك فإنها ستنفد أنفاسًا حرارًا وأدمعا
فيا لائميّ اليوم لا صبر بعده فطيرًا بأعباء الملامة أوقعا

ويقول:

لله نفرة وجد لست أملكها إذا تذكرت إخوان الصفاء معي
يواصل الحزن قلبي كلما فجعت يدي بحبل من الأقران منقطع
ما لليالي يرنقن المجاجة من شربي ويوبين مصطافي ومرتبعي
عدت عوادي الردى بيني وبينكم وأنزلتك النوى عني بمنقطع
وشتتت شملك الأيام ظالمة فشمل دمعي ولبي غير مجتمع
أخيّ لا رغبت عيني ولا أذني من بعد يومك في مرأى ومستمع

وما هذه أشعارًا، إن هي إلا أنفاس حرار.

أيها السادة

كان الشريف من كرام الأوفياء، ومراثيه أصدق شاهد، وقد حدثتكم من قبل أنه كان يفي لأصدقائه فيرثيهم يوم الموت، وبعد أن يطول عهدهم بالموت، ونحدثكم الآن أنه صنع مثل هذا الصنيع مع بهاء الدولة، فقد رثاه بالكافية التي سمعتموها من قبل، وبعد أن مرّ على موته ثمانية عشر شهرًا حنّ إليه فقال:

أظن الليالي بعدكم ستريع فلم يبق لي من رائع فتروع
خذي عدة الصبر الجميل فإنه لكل نزاع يا أميم نزوع
وقد كنت أبكي للأحبة قد أنى لقلبي سلوّ واطمأن ولوع
ولكنما أبكي المكارم أخليت منازل منها للندى وربوع
وهل أنا جاز ذلك العهد بالبكا ولو أن كحل الماقيين نجيع

إلى آخر القصيدة.

أيها السادة

لم يبق إلا أن نشير إلى أروع مراثي الشريف، وأروع مراثيه اثنتان: العينية:

منابت العشب لا حسام ولا راع　　مضى الردى بطويل الرمح والباع

والرائية:

ألقي السلاح ربيعة بن نزار　　أودى الردى بقريعك المغوار

والعينية من غرائب المراثي، والشاعر يجلجل فيها جلجة قوية، تشهد بقدرته الفائقة على افتراع المعاني، وانظروا كيف يقول:

منابت العشب لا حام ولا راع　　مضى الردى بطويل الرمح والباع
القائد الخبل يرعيها شكائمها　　والمطعم البذل للديمومة القاع[18]
من يستفز سيوفًا من مغامدها　　ومن يجلل نوقًا بين أنساع[19]
يسقي أسنته حتى تقيء دمًا　　ويهدم العيس من شد وإيضاع
ما بات إلا على همّ ولا اغتمضت　　عيناه إلا على عزم وإزماع
خطيب مجمعة تغلي شقاشقه　　إذا رموه بأبصار وأسماع
لما أتاني نعي من بلادكم　　عضضت كفي من غيظ على الناعي
أبدي التصامم عنه حين أسمعه　　عمدًا وقد أبلغ الناعون أسماعي

وأما الرائية فهي من غرائب الشعر الجزل، وقد شرحها ابن جني في حياة الشريف، واهتمام الأستاذ بشرح قصائد تلميذه من أطايب البر والرعاية، وقد عرف التلميذ لأستاذه هذا الفضل فمدحه ورثاه، وكان يعبر عنه في مؤلفاته بعبارة: (قال شيخنا أبو الفتح).

وانظروا كيف ابتدأ الشاعر هذا القصيد:

ألقي السلاح ربيعة بن نزار　　أودى الردى بقريعك المغوار
وترجّلي عن كل أجرد سابج　　ميل الرقاب نواكس الأبصار
ودعي الأعنة من أكفك إنها　　فقدت مصرفها ليوم مغار

وتجنبي جرّ القنا فلقد مضى   عنهن كبش الفيلق الجرار
وليغد كل مغرّض من بعده   مغرى بحل معاقد الأكوار
قطع الزمان لسانك العضب الشبا   وهدا تخمّط فحلك الهدار
واجتاح ذاك البحر يطفح موجه   وطوى غوارب ذلك التيار
اليوم صرحت النوائب كيدها   فينا وبان تحامل الأقدار
مستنزل الأسد الهزبر برمحه   ولّى وفالق هامة الجبار
وتعطلت وقفات كل كريهة   أبدًا وحطّ رواق كل غبار

أيها السادة

قد رأيتم ألوانًا من عواطف الشريف في مراثيه، ورأيتم كيف صورت تلك المراثي فهمه لقيمة الحياة، ورأيتم كيف كان يتجلد وكيف كان يرتاع. وما أحسبني في حاجة إلى النص على قوة الشاعرية في مراثي الشريف.

ويهمني أن أذكركم بأن تلك المراثي جمعت خصائص الشمائل العربية أو ما كان يتصور الشريف من الشمائل العربية، والرجوع إليها في الديوان يفتح أمامكم بابًا من فهم النفوس والقلوب والعقول، ويغريكم بالتطبع والتخلق بما كان عند أسلافنا الأقوياء من طباع وأخلاق.

ما كان الرثاء عند أسلافنا بكاء ونواحًا، وإنما كان تسجيلًا لخلائق الأبطال، وتذكيرًا بما يجب أن يتخلق به الرجال.

هوامش

(١) السليم: هو الملدوغ أو الملسوع، ويبل: يبرأ، والأراقم: الحيات.
(٢) التسهيم: التخطيط.
(٣) يذيم: من الذام وهو العيب، ويقال: ذام يذيم ذيمًا وذامًا فهو مذيم ومذيوم.
(٤) بيت جيد.
(٥) العرنين بالكسر: هو الأنف.
(٦) الحزيم على وزن أمير: هو الصدر.
(٧) الطول على وزن عنب: هي طاقات الحبل.

(٨) يعنق: يسرع، والعنق بالتحريك: قرب من السير.

(٩) القبل على وزن عنب: هو القدرة.

(١٠) تأمل هذا الخيال.

(١١) وتأمل هذا أيضًا.

(١٢) في الديوان (فما لون ذا، وما عصر ذا).

(١٣) اللابد: المتخفي، وهي كلمة لا تزال مستعملة في مصر.

(١٤) القلعة بالضم: الانقلاع، وهو على قلعة أي على رحلة.

(١٥) الأزلم: هو الدهر.

(١٦) الغارب المجزول هو السنام المقطوع.

(١٧) في الديوان (جوانب).

(١٨) الديمومة: الفلاة الواسعة.

(١٩) الأنساع جمع نسع بالكسر وهو سير تشد به الرحال.

قصيدة الوداع

وقف الشريف على منازله قبل أن يموت بنحو عام واحد فقال:

أمل من مثانيها فهذا مقيلها   وهذي مغاني دورهم وطلولها
حرام على عيني تجاوز أرضها   ولم يرو أظماء الديار همولها
وقد خالطت ذاك الثرى نفحاتها   وجرت على ذاك الصعيد ذيولها
حقوف رمال ما يخاف انهيالها   وأغصان بان ما يخاف ذبولها
إذا ما تراءاها اللوائم ساعة   فأعذرها فيمن يحب عذولها
رضينا ولم تسمح من النيل بالرضا   ولكن كثير لو علمنا قليلها
شموس قباب قد رأينا شروقها   فيا ليت شعري أين منا أفولها
تعالين عن بطن العقيق تيامنًا   يقومها قصد السرى ويميلها
فهل من معيري نظرة فأريكها   شرقيّ نجد يوم زالت حمولها
كطامية التيار يجري سفينها   أو الفلج العلياء يهفو نخيلها[١]
ولم تر إلا ممسكًا بيمينه   رواجف صدر ما يبل غليلها
ومختنقًا من عبرة ما تزوله   ومختبطًا في لوعة ما يزولها
محا بعدكم تلك العيون بكاؤها   وغال بكم تلك الأضالع غولها
فمن ناظر لم تبق إلا دموعه   ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلبًا بالغرام أذيبه   عليكم وعينًا في الطلول أجيلها
سقاها الرباب الجون كل غمامه   يهش لها حزن الملا وسهولها[٢]
نجائب لا يودي بأخفافها السرى   وإن طال بالبيد القواء ذميلها

فكم نفحة من أرضها بردت حشا ... وبلّ غليلًا من فؤاد بليلها
منازل لا يعطي القياد مقيمها ... مغالبة ولا يهان نزيلها
خليليّ قد خف الهوى وتراجعت ... إلى الحكم نفس لا يعز مذيلها
فلست ابن أم الخيل إن لم أمل بها ... عوابس في دار العدوّ أبيلها
إذا انجفلت من غمرة ثاب كرها ... وعاد إلى مرّ المنايا جفولها
يزعفر من عض الشكيم لعلبها ... ويرعد من قرع العوالي خصيلها[٣]
ونحن القروم الصيد إن جاش بأسها ... تغودر مرعى ذودها ومقيلها
بأيماننا بيض الغروب خفائف ... نغول بها هام العداء وتغولها
تفللن حتى كاد من طول وقعها ... بيوم الوغى يقضي عليها فلولها
قوائم قد جربن كل مجرّب ... بضرب الطلى حتى تفانت نصولها
وأودية بين العراق وحاجر ... ببيض المواضي والعوالي نسيلها
يمدّ بدفّاع الدماء غثاؤها ... ويجري بأعناق الرجال حميلها[٤]
إذا هاشم العلياء عب عبابها ... وسالت بأطناب البيوت سيولها
مدفّعة تحت الرحال ركابها ... محفزة تحت اللبود خيولها
رأيت المساعي كلها وتلاحقت ... فروع العلا مجموعة وأصولها
إذا استبقت يومًا تراخي تبيعها ... وخلّى لها الشأو البعيد رسيلها[٥]
وإما أحالت للطعان رماحها ... وشنّ عليها للقاء شليلها[٦]
فثم عوال ما ترد صدورها ... وثم جياد ما يفل رعيلها
وثم الحماة الذائدون عن الحمى ... عشية لا يحمي النساء بعولها
أبي ما أبي لا تدّعون نظيره ... رديف العلا من قبلكم وزميلها
هو الحامل الأعباء كل مطيقها ... وعجّ عجيج الموقرات حمولها
طويل نجاد يجتبي في عصابة ... فيفرعها مستعليًا ويطولها
إذا صال قلنا أجمع الليث وثبة ... وإن جاد قلنا مدّ من مصر نيلها
حليم إذا التفتت عليه عشيرة ... تطاطا له شبانها وكهولها
وإن نعرة يومًا أمالت رؤوسها ... أقام على نهج الهدى يستميلها
وأنظرها حتى تعود حلومها ... وأمهلها حتى تثوب عقولها
ولم يطوها بالحلم فضل زمامها ... فتعثر فيه عثرة لا يقيلها

فعن بأسه المرهوب يرمي عدوها   ومن ماله المبذول يودي قتيلها
أكابرنا والسابقون إلى العلا   ألا تلك آساد ونحن شبولها
وإن أسودًا كنت شبلًا لبعضها   لمحقوقة ألا يذل قتيلها

وهذه القصيدة على قوتها ليست إلا زفرة شاعر مودع، ولا سيما هذه الأبيات:

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها   وغال بكم تلك الأضالع غولها
فمن ناظر لم تبق إلا دموعه   ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلبًا بالغرام أذيبه   عليكم وعينًا في الطلول أجيلها

ونقل صاحب التبيان أن أبا الحسن النحوي قال: دخلت على السيد المرتضى — طاب ثراه — يومًا، وكان قد نظم أبياتًا فوقف به بحر الشعر فقال: خذ هذه الأبيات إلى أخي الرضي، وقل له: تممها، وهي هذه:

سرى طيف سلمى طارقًا فاستفزني   سحيرًا وصبحي في الفلاة رقود
فلما انتبهنا للخيال الذي سرى   إذ الأرض قفر والمزار بعيد
فقلت لعيني عاودي النوم واهجعي   لعل خيالًا طارقًا سيعود

قال: فأخذتها ومضيت إلى السيد الرضي، وأعطيته القرطاسة، فلما رآها قال: عليّ بالمحبرة، وكتب:

فردت جوابًا والدموع بوادر   وقد آن للشمل المشت ورود
فهيهات من ذكرى حبيب تعرضت   لنا دون لقياه مهامه بيد

فأتيت بها إلى المرتضي، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى، وقال: يعز عليّ أخي، يقتله الفهم بعد أسبوع، فما جاء الأسبوع إلا وجاء نعي الرضي، ومضى إلى سبيله.

وهذه نادرة يستبعدها الناس، ولكنها طريفة؛ إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيهًا بحال من يخنقه أرج الأزهار فيموت.

وكانت وفاته — رحمه الله — في أوائل المحرم سنة ٤٠٦، ورثاه أخوه المرتضى فقال:

يا للرجال لفجعة جزمت يدي　　ووددتها ذهبت عليّ براسي
ما زلت آبى وردها حتى أتت　　فحسوتها في بعض ما أنا حاسي
ومطلتها زمنًا فلما صممت　　لم يثنها مطلي وطول مكاسي
لا تنكروا من فيض دمعي عبرة　　فالدمع خير مساعد ومواس
واهًا لعمرك من قصير طاهر　　ولرب عمر طال بالأرجاس

ورثاه تلميذه مهيار بقصيدة يحفظها أكثر الأدباء:

أقريش لا لفم أراك ولا يد　　فتواكلي غاض الندى وخلا الندي

ورثيته أنا بقصيدة طويلة جدًّا، هي هذا الكتاب.

هوامش

(١) الفلج: جمع فلجة بالضم من الفلج، وهو شق الأرض للزراعة.
(٢) الرباب الجون: السحاب الأسود.
(٣) الخصيل على وزن أمير: هو الذنب — بالتحريك.
(٤) الحميل: هو من السيل الغثاء.
(٥) الرسيل: المراسل.
(٦) الشليل: الدرع الصغيرة.

المراجع

- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
- المجازات النبوية للشريف الرضي.
- مختار رسائل الصابي (طبعة الأمير شكيب أرسلان).
- ترجمة الشريف للأستاذ عبد الحسين الحلي (المنشورة تصديرًا لكتاب حقائق التأويل).
- يتيمة الدهر للثعالبي.
- الأعلام للزركلي.
- تجارب الأمم لابن مسكويه (طبع القاهرة بعناية مرجليوث).
- تاريخ ابن الأثير (الجزء التاسع).
- النثر الفني.
- مختصر تاريخ بغداد للأعظمي.
- الموازنة بين الشعراء.
- القاموس المحيط للفيروز أبادي.
- معجم البلدان لياقوت.

تلك المؤلفات هي أهم ما رجعنا إليه للاستئناس أو الاستشهاد أو التحقيق، وهناك مراجع ثانوية قد نكون أشرنا إليها في الهوامش.